تاريخ ملوك العرب الشعراء

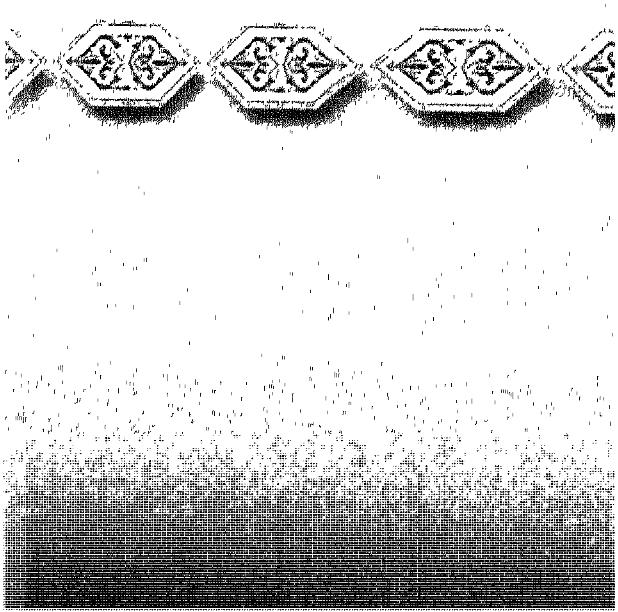
إعداد

علي المصري

٣



دمشق - القاهرة



تاريخ
ملوك العرب الشعراء

إعداد
علي المصري

الجزء الثالث

دار الكتاب العربي

الطبعة الأولى

١٤٢١ ـ ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م

دار الكتاب العربي

دمشق: الحلبوني ـ هاتف ٢٢٣٥٤٠١

القاهرة: ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١

تلفاكس ٣٩١٦١٢٢

لبنان ص.ب ٣٠٠٤٣ هاتف ٠٣/٦٥٢٢٤١

محتوى الجزء الثالث

الباب الرابع
العصر العباسي

ويتضمن :

الفصل الأول

الدور العباسي الأول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ - ٨٤٧ م

١ - أبو العباس السفاح ١٠٤ - ١٣٦ هـ/٧٢٢ - ٧٥٤ م .

٢ - أبو جعفر المنصور ٩٥ - ١٥٨ هـ/٧١٤ - ٧٧٥ م .

٣ - عبدالله بن علي عَمُّ السفاح والمنصور ١٠٢ - ١٤٩ هـ/٧٢١ - ٧٦٨ م .

٤ - محمد المهدي بن المنصور ١٢٦ - ١٦٩ هـ/٧٤٤ - ٧٨٥ م .

٥ - موسى الهادي بن المهدي ١٤٧ - ١٧٠ هـ/٧٥٥ - ٧٨٦ م .

٦ - هارون الرشيد بن المهدي ١٤٨ - ١٩٣ هـ/٧٦٤ - ٨٠٩ م .

٧ - محمد الأمين بن هارون الرشيد ١٧١ - ١٩٩ هـ/٧٨٧ - ٨١٣ م .

٨ - إبراهيم بن محمد المهدي ١٦٢ - ٢٢٤ هـ/٧٧٧ - ٨٣٩ م .

٩ - عبدالله المأمون بن الرشيد ١٧٠ - ٢١٨ هـ/٧٨٦ - ٨٣٣ م .

١٠ - محمد المعتصم بن الرشيد ١٧٨ - ٢٢٧ هـ/٧٩٣ - ٨٤٢ م .

١١ - هارون الواثق بالله بن المعتصم ١٩٦ - ٢٣٢ هـ/٨١٠ - ٨٤٧ م .

١٢ - ويلحق بهم : هبةالله بن إبراهيم المهدي ٢١١ - ٢٧٥ هـ/٨٣٤ - ٨٨٨ م .

الفصل الثاني

الدور العباسي الثاني

٢٣٢ - ٣٣٤ هـ/٨٤٧ - ٩٤٦ م

المقدمة :

١ - المتوكل على الله جعفر ، بن المعتصم ٢٠٥ - ٢٤٧ هـ/٨١٩ - ٨٦١ م .

٢ - المنتصر بالله محمد ، بن المتوكل ٢٢٢ - ٢٤٨ هـ/٨٣٦ - ٨٦٢ م .

٣ ـ المستعين بالله أحمد ، بن المعتصم ٢٢١ ـ ٢٥٢ هـ/٨٣٥ ـ ٨٦٦ م .
٤ ـ المعتز بالله محمد ، بن المتوكل ٢٣٢ ـ ٢٥٥ هـ/٨٤٦ ـ ٨٦٩ م .
٥ ـ المهتدي بالله محمد ، بن الواثق ٢١٨ ـ ٢٥٦ هـ/٨٣٢ ـ ٨٧٠ م .
٦ ـ المعتمد على الله أحمد ، بن المتوكل ٢٢٩ ـ ٢٧٩ هـ/٨٤٢ ـ ٨٩٢ م .
٧ ـ المعتضد بالله أحمد، بن الموفق أخي المعتمد ٢٤٢ ـ ٢٨٩ هـ/٨٥٥ ـ ٩٠٢ م .
٨ ـ المكتفي بالله على ، بن المعتضد ٢٦٤ ـ ٢٩٥ هـ/٨٧٧ ـ ٩٠٨ م .
٩ ـ المقتدر بالله جعفر ، بن المعتضد ٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ/٨٩٤ ـ ٩٣٢ م .
١٠ ـ الغالب بالله عبدالله ، بن المعتز ٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ/٨٦١ ـ ٩٠٨ م .

آ ـ حياته .

ب ـ ثقافته .

حـ ـ شعره .

١ ـ الشعر السياسي .
٢ ـ شعر الغزل .
٣ ـ شعر الخمرة .
٤ ـ شعر المديح .
٥ ـ شعر الرثاء .
٦ ـ شعر الهجاء .
٧ ـ شعر شكوى الزمن .
٨ ـ شعر الحكمة .
٩ ـ شعر الاخوانيات .
١٠ ـ شعر الطرديات .
١١ ـ شعر الوصف .
١٢ ـ شاعرية ابن المعتز .

١١ ـ القاهر بالله محمد ، بن المعتضد ٢٨٧ ـ ٣٣٩ هـ/٩٠٠ ـ ٩٥١ م .
١٢ ـ الراضي بالله محمد ، بن المقتدر ٢٩٧ ـ ٣٢٩ هـ/٩٠٩ ـ ٩٤٠ م .
١٣ ـ المتقي بالله إبراهيم ، بن المقتدر ٢٩٧ ـ ٣٥٧ هـ/٩٠٩ ـ ٩٦٩ م .
١٤ ـ المستكفي بالله عبدالله ، بن المكتفي ٢٩٢ ـ ٣٣٩ هـ/٩٠٤ ـ ٩٥١ م .

الفصل الثالث

الدور العباسي الثالث

٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/٩٤٦ ـ ١٠٥٩ م

المقدمة :

١ ـ المطيع لله الفضل ، بن المقتدر ٣٠١ ـ ٣٦٤ هـ/٩١١ ـ ٩٧٤ م .
٢ ـ الطائع لله عبد الكريم ، بن المطيع ٣٢٠ ـ ٣٩٣ هـ/٩٣٢ ـ ١٠٠٣ م .
٣ ـ القادر بالله أحمد ، بن إسحاق بن المقتدر ٣٣٦ ـ ٤٢٢ هـ/٩٤٥ ـ ١٠٣١ م .
٤ ـ القائم بأمر الله عبدالله ، بن القادر ٣٩١ ـ ٤٦٧ هـ/١٠٠١ ـ ١٠٧٥ م .

الفصل الرابع

الدور العباسي الرابع

٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ/١٠٥٩ ـ ١٢٦٨ م

المقدمة :

١ ـ شغَلَ القائم بأمر الله عبدالله ، بن القادر من هذا الدور عشرين عاماً ٤٤٧ ـ ٤٦٧ هـ/١٠٥٥ ـ ١٠٧٥ م .
٢ ـ المقتدي بأمر الله عبدالله، بن محمد بن القائم ٤٤٨ ـ ٤٨٧ هـ/١٠٥٦ ـ ١٠٩٤ م .
٣ ـ المستظهر بالله أحمد ، بن أحمد المقتدي ٤٧٠ ـ ٥١٢ هـ/١٠٧٦ ـ ١١١٨ م .

٤ ـ المسترشد بالله الفضل، بن أحمد المستظهر ٤٨٥ ـ ٥٢٩ هـ/١٠٩١ ـ ١١٣٥ م .

٥ ـ الراشد بالله منصور، بن الفضل المسترشد ٥٠٢ ـ ٥٣٢ هـ/١١٠٨ ـ ١١٣٨ م .

٦ ـ المقتفي لأمر الله محمد، بن أحمد المستظهر ٤٨٩ ـ ٥٥٥ هـ/١٠٩٤ ـ ١١٦٠ م .

٧ ـ المستنجد بالله يوسف، بن محمد المقتفي ٥١٨ ـ ٥٦٦ هـ/١١٢٢ ـ ١١٧٠ م .

٨ ـ المستضيء بأمر الله الحسن، بن يوسف المستنجد ٥٣٦ ـ ٥٧٥ هـ/١١٤١ ـ ١١٨٠ م .

٩ ـ الناصر لدين الله أحمد، بن الحسن المستضيء ٥٥٣ ـ ٦٢٢ هـ/١١٥٦ ـ ١٢٢٥ م .

١٠ ـ الظاهر بأمر الله محمد، بن أحمد الناصر ٥٧١ ـ ٦٢٣ هـ/١١٧٤ ـ ١٢٢٦ م .

١١ ـ المستنصر بالله منصور، بن محمد الظاهر ٥٨٨ ـ ٦٤٠ هـ/١١٩٠ ـ ١٢٤٢ م .

١٢ ـ المستعصم بالله عبدالله، بن منصور المستنصر ٦٠٩ ـ ٦٥٦ هـ/١٢١١ ـ ١٢٥٨ م .

الباب الرابع

العصر العباسي

الدعوة العباسية

١ ـ بدء الدعوة .

٢ ـ إعلان الدعوة .

٣ ـ التغيرات الجديدة في الدولة العباسية .

٤ ـ إدارة الدولة في العهد العباسي .

آ ـ الخلافة .

ب ـ ولاية العهد .

جـ ـ الوزارة .

د ـ الكتّاب .

هـ ـ الدواوين .

و ـ الجيش .

٥ ـ الحياة الاجتماعية .

٦ ـ الحياة الاقتصادية .

٧ ـ البيئة السياسية .

الفصل الأول

الدور العباسي الأول

١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧ م

١ ـ أبو العباس السفاح ١٠٤ ـ ١٣٦ هـ/٧٢٢ ـ ٧٥٤ م .

٢ ـ أبو جعفر المنصور ٩٥ ـ ١٥٨ هـ/٧١٤ ـ ٧٧٥ م .

٣ ـ عبدالله بن علي عَمُّ السفاح والمنصور ١٠٢ ـ ١٤٩ هـ/ ٧٢١ ـ ٧٦٨ م .

٤ ـ محمد المهدي بن المنصور ١٢٦ ـ ١٦٩ هـ/٧٤٤ ـ ٧٨٥ م .

٥ ـ موسى الهادي بن المهدي ١٤٧ ـ ١٧٠ هـ/٧٥٥ ـ ٧٨٦ م .

٦ ـ هارون الرشيد بن المهدي ١٤٨ ـ ١٩٣ هـ/٧٦٤ ـ ٨٠٩ م .

٧ ـ محمد الأمين بن هارون الرشيد ١٧١ ـ ١٩٩ هـ/٧٨٧ ـ ٨١٣ م .

٨ ـ إبراهيم بن محمد المهدي ١٦٢ ـ ٢٢٤ هـ/٧٧٧ ـ ٨٣٩ م .

٩ ـ عبدالله المأمون بن الرشيد ١٧٠ ـ ٢١٨ هـ/٧٨٦ ـ ٨٣٣ م .

١٠ ـ محمد المعتصم بن الرشيد ١٧٨ ـ ٢٢٨ هـ/٧٩٣ ـ ٨٤٢ م .

١١ ـ هارون الواثق بالله بن المعتصم ١٩٦ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨١٠ ـ ٨٤٧ م .

١٢ ـ ويلحق بهم : هبةالله بن إبراهيم المهدي ٢١١ ـ ٢٧٥ هـ/٨٣٤ ـ ٨٩٨ م .

* * *

الدور العباسي الثاني
٢٣٢ - ٣٣٤ هـ/٨٤٧ - ٩٤٦ م

مقدمة :

١ - جعفر المتوكل على الله بن المعتصم ٢٠٥ - ٢٤٧ هـ/٨١٩ - ٨٦١ م .

٢ - محمد المنتصر بالله بن المتوكل ٢٢٢ - ٢٤٨ هـ/٨٣٦ - ٨٦٢ م .

٣ - أحمد المستعين بالله بن المعتصم ٢٢١ - ٢٥٢ هـ/٨٣٥ - ٨٦٦ م .

٤ - محمد المعتز بالله بن المتوكل ٢٣٢ - ٢٥٥ هـ/٨٤٦ - ٨٦٩ م .

٥ - محمد المهتدي بالله بن الواثق ٢١٨ - ٢٥٦ هـ/٨٣٢ - ٨٧٠ م .

٦ - أحمد المعتمد على الله بن المتوكل ٢٢٩ - ٢٧٩ هـ/٨٤٢ - ٨٩٢ م .

٧ - أحمد المعتضد بالله بن الموفق (أخي المعتمد) ٢٤٢ - ٢٨٩ هـ/٨٥٥ - ٩٠٢ م .

٨ - علي المكتفي بالله بن المعتضد ٢٦٤ - ٢٩٥ هـ/٨٧٧ - ٩٠٨ م .

٩ - جعفر المقتدر بالله بن المعتضد ٢٨٢ - ٣٢٠ هـ/٨٩٤ - ٩٣٢ م .

١٠ - الغالب با لله عبدالله بن محمد المعتز بالله ٢٤٧ - ٢٩٦ هـ/٨٦١ - ٩٠٨ م .

١١ ـ عادَ المقتدر بالله مرة ثانية ٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ/ ٨٩٤ ـ ٩٣٢ م .
١٢ ـ محمد القاهر بالله بن المعتضد ٢٨٧ ـ ٣٣٩ هـ/ ٩٠٠ ـ ٩٥١ م .
١٣ ـ محمد الراضي بالله بن المقتدر ٢٩٧ ـ ٣٢٩ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٤٠ م .
١٤ ـ إبراهيم المتقي بالله بن المقتدر ٢٩٧ ـ ٣٥٧ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٦٩ م .
١٥ ـ عبدالله المستكفي بالله بن المكتفي ٢٩٢ ـ ٣٣٩ هـ/ ٩٠٤ ـ ٩٥١ م .

* * *

الفصل الثالث
الدور العباسي الثالث
٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٩ م

مقدمة :

١ ـ المطيع لله الفضل بن المقتدر ٣٠١ ـ ٣٦٤ هـ/ ٩١١ ـ ٩٧٤ م .
٢ ـ الطائع لله عبد الكريم بن المطيع ٣٢٠ ـ ٣٩٣ هـ/ ٩٣٢ ـ ١٠٠٣ م .
٣ ـ القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر ٣٣٦ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٣١ م .
٤ ـ القائم بأمر الله عبدالله بن القادر ٣٩١ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٠١ ـ ١٠٧٥ م .

* * *

الفصل الرابع
الدور العباسي الرابع
٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ/١٠٥٩ ـ ١٢٦٨ م

مقدمة :

١ ـ القائم بأمر الله عبدالله بن القادر ٤٢٢ ـ ٤٤٧ ـ ٤٦٧ هـ/١٠٣١ ـ ١٠٥٥ ـ ١٠٧٥ م .

٢ ـ المقتدي بأمر الله عبدالله بن محمد بن القائم ٤٤٨ ـ ٤٨٧ هـ/١٠٥٦ ـ ١٠٩٤ م .

٣ ـ المستظهر بالله أحمد بن المقتدي ٤٧٠ ـ ٥١٢ هـ/١٠٧٦ ـ ١١١٨ م .

٤ ـ المسترشد بالله الفضل بن المستظهر بالله ٤٨٥ ـ ٥٢٩ هـ/١٠٩١ ـ ١١٣٥ م .

٥ ـ الراشد بالله منصور بن المسترشد ٥٠٢ ـ ٥٣٢ هـ/١١٠٨ ـ ١١٣٨ م .

٦ ـ المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر ٤٨٩ ـ ٥٥٥ هـ/١٠٩٤ ـ ١١٦٠ م .

٧ ـ المستنجد بالله يوسف بن المقتفي ٥١٨ ـ ٥٦٦ هـ/١١٢٢ ـ ١١٧٠ م .

٨ ـ المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد ٥٣٦ ـ ٥٧٥ هـ/١١٤١ ـ ١١٨٠ م .

٩ ـ الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء ٥٥٣ ـ ٦٢٢ هـ/١١٥٦ ـ ١٢٢٥ م .

١٠ ـ الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر ٥٧١ ـ ٦٢٣ هـ/ ١١٧٤ ـ ١٢٢٦ م .

١١ ـ المستنصر بالله منصور بن الظاهر ٥٨٨ ـ ٦٤٠ هـ/ ١١٩٠ ـ ١٢٤٢ م .

١٢ ـ المستعصم بالله عبدالله بن المستنصر ٦٠٩ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢١١ ـ ١٢٥٨ م .

* * *

الدعوة العباسية

١ ـ بدء الدعوة .
٢ ـ إعلان الدعوة .
٣ ـ التغيرات الجديدة في الدولة العباسية .
٤ ـ إدارات الدولة في العهد العباسي .
آ ـ الخلافة .
ب ـ ولاية العهد .
حـ ـ الوزارة .
د ـ الكتّاب .
هـ ـ الدواوين .
و ـ الجيش .

٥ ـ الحياة الاجتماعية .
٦ ـ الحياة الاقتصادية .
٧ ـ البيئة السياسية .
٨ ـ الشعراء من بني العباس .

الدعوة العباسية

كانت الدعوة العباسية دعوةً سياسيّة سريَّة ، في العهد الأموي ، تدعو إلى حقِّ آل البيت بالخلافة ، دون حصرها في آل عليّ ، وبشكل آخر تعمل على إحلال البيت العباسي محلَّ البيت الأمويّ ، وفيما عدا ذلك ظلّوا من أهل السنة كالأمويِّين .

ومن المعروف أن آلَ عليّ وشيعتهم تمسَّكوا بحقِّهم في الخلافة إلى حدِّ الغلوِّ والتطرُّف ، وخاصّة الكيسانيَّة منهم ، فقد اجتمع لفيف من الشيعة إلى محمَّد بن الحنفيَّة ـ بن عليٍّ بن أبي طالب ، من غير فاطمة الزهراء ـ وبايعوه على طلب الخلافة ، وعاهدوه على دفع زكاة أموالهم لينفقها يوم الوثوب إلى السلطة . وبدأوا الدعوة السرية في الأقطار كلِّها . ولما توفيَّ محمّد بن الحنفيَّة وَلَّى ابنه عبدالله أبا هاشم من بعده ، وأمره بطلب الخلافة فبايعته الشيعة . . .

شعر الأمويون بالدعوة ، فاستدعاه سليمان بن عبدالملك ٩٦ ـ ٩٩ هـ للشام وأجلسه بجانبه وعاتبه ، فحمده عبدالله وقال له : بلغك الباطل . ولكنَّ سليمان ـ وعلى ذمة الرواة الشيعة ـ أرسل من دسَّ له السمَّ بعد مغادرته ، فلما شعر

عبدالله بن محمَّدبن الحنفية بدنوِّ أجله ، استدل على طريق الحميمة ، جنوب البحر الميت ، حيث يقيم آل العبَّاس ، ونزل على ؛ محمّد بن عليٍّ بن عبدالله بن العبّاس ـ والحميمة كان أقطعها عبدالملك بن مروان لوالده علي ـ وأخبره بِسِرِّهِ وقال له : إليك الأمر والطلب بالخلافة من بعدي ، وولّاه وأشهد له من الشيعة رجالاً .

١ ـ بدء الدعوة العباسية ..

كان موقف أبناء العبّاس في الصراع بين العلويِّين والأمويِّين ، تأييد أبناء عمومتهم ، دون أن يقفوا موقف عداءٍ صريح من الأمويّين .

ومن المعروف أيضاً أن آل العبّاس لم يظهروا في أيَّة فترة سابقة على امتداد القرن الأول للهجرة إدَّعاءً أو طموحاً في موضوع الخلافة ، لسبب بسيط هو أن جدَّهم العبّاس أسلم متأخِّراً ، وإنْ أظهر العباس عطفاً على ابن أخيه إلَّا أنه لم يُغْضِب قومه .

لكنْ تغيَّر موقف العباسيين في بداية القرن الثاني الهجري بعد أن تسلَّم محمد بن علي بن عبدالله بن العباس البيعة من أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، والإشراف على أمر الهاشمية، حيث استفادوا مِنْ عهد خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ ـ ١٠١ هـ في نشر دعوتهم . وكان لدى الكيسانيَّة أمورٌ استفاد منها العباسيُّون في أمر دعوتهم ؛ كالتنظيم السرِّي ، وعدم الاستعجال ، وإخفاء الأئمَّة أمرَهم بالتقيَّة .

بدأ محمد بن عليٍّ بن عبدالله بن العبَّاس تنظيم أمور الدعوة ١٠٠ ـ ١٠١ هـ حيث توافدت عليه الشيعة عام ١٠١ هـ وعلى رأسهم مَيْسَرةُ العبدي ، وأبو عكرمة السرَّاج ، ومحمّد بن خنيس ، وحيّان العطّار ، فبايعوه وأمرهم أن ينطلقوا ليدعوا الناس في رفق وسترٍ ، آملاً لهم التوفيق بالنجاح ، وبهذا بدأت الدعوة العباسيَّة سريّة .

ويُلفت النظر في أمر الدعوة العباسية ، اختيارها لأماكنَ محدّدةً ، فاستهدفت مراكز الشيعة المعروفة ؛ العراق وخراسان ، والتركيز على خراسان بصورة خاصة ، لما عرف عن الفرس كرههم للعرب ، وتأييدهم الشرعيّة ، فلا يهمُّهم استلام العباسيين للسلطة أو الشيعة ، طالما هم من آل البيت ، ولأنَّهم كانوا على استعداد لتأييد أيّة حركة للقضاء على الحكم الأمويّ العربيِّ ، الذي كانوا ينقمون عليه لأسباب كثيرة على رأسها الشعوبيَّة ، والصراع الحضاريِّ ، والعرقيّ ، والدينيِّ .

أما بالنسبة للشيعة أنفسهم ، فإن مسألة تحديد هويَّة الخليفة أمر حسَّاسٌ جداً ، لذا نجد الدعاة في خراسان يدْعون إلى آل العبّاس صراحة ، في حين كانوا في أماكن الشيعة في العراق وغيرها يدعون للرضى من آل البيت دون تحديد .

وكان أغلب الدعاة جهات خراسان من الفرس ، حيث خلطوا الدعوة العباسيَّة بنزعات فارسيَّة غير إسلاميّة ، وآثارِ آمال قوميّة عنصريّة ، ستترك ـ كما سنرى ـ ذيولاً خطيرة تؤثِّر في مسيرة الخلافة العباسيَّة وتحرفها منذ اللحظة الأولى ، فضلاً عن أنَّها سبَّبت متاعب جمَّة لصاحب الدعوة محمّد بن علي بن عبدالله بن العبّاس ، منها قصة بكير بن ماهان الذي انضمَّ للدعوة سنة ١٠٣ هـ وغدا من أكبر الدعاة بالكوفة ، ثم كيف وجَّه عمّار بن يزيد لشيعته في خراسان ، وكيف انقلب بعد ذلك .

وكان الدعاة العباسيُّون يتنكرون في ثياب التجار إمعاناً في التقيَّة ، وكان مَن يُكتشف أمره يلاقي حتفه ، وأظهر كثيرون منهم صبراً وتمسُّكاً شديداً بالدعوة ، واستغلُّوا كلَّ المناسبات والأحداث لصالح دعوتهم ، كالانفراج الذي أحدثته خلافة عمر بن عبدالعزيز بن عبدالملك بن مروان ، كما استغلُّوا العصبيّة القبليّة بين القيسيّة واليمانيّة ليسهِّلُوا دعوتهم أو لينجوا بجلودهم أحياناً .

ومما كان يدعو للأسف هو استهانة خلفاء بني أميَّة بأمر الدعوة العباسيَّة ، منذ حكاية والي خراسان مع سليمان بن كثير وكتابته لوالي العراق خالد القسري ، ثم إلى الخليفة هشام بن عبدالملك ، وجواب هشام المثبط لهم بعدم سفك الدماء ، إلى آخر ما كتبه نصر بن سيّار للخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميَّة .

وخطتِ الدعوة العباسية ونشطت في عهد ابراهيم بن محمد بن علي الذي خلف أباه سنة ١٢٥ هـ ، حيث سُلِّطت الأضواء على أبي مسلم الخراساني الذي لعب دوراً حاسماً في الأحداث التي أدَّت في النهاية إلى القضاء على الدولة الأمويّة العربيّة ، حيث قفز فجأة إلى واجهة الأحداث متخطّياً كبارَ الدعاة ، وهو الذي ما زال شاباً حديثَ العهد بالدعوة . فقد رأى إبراهيم بن محمّد صاحب الدعوة أن يختار أبا مسلم لولاية الدعوة في خراسان ، وأَمَرَ شيعته بطاعته ، فقام هذا بعمله خير قيام ، حتى صار أعظم الناس منزلةً عند الشيعة ، إلى الحدِّ الذي راحوا يتحالفون باسمه ويقسمون به فلا يحنثون . وهناك خلاف كبير على وصيَّة الإمام لأبي مسلم ! لا مجال لبحثها ، حتى أن بعضهم رفعه إلى مستوى النبوَّة والولاية . . وصَفْوَةُ القول أن أبا مسلم نَكَّلَ بالعرب جميعاً بعد انتصاره على نصر بن سيار والي خراسان الأمويّ العربيّ . وهناك روايات كثيرة حول هذا الموضوع تشير إلى خلافات أبي مسلم مع سليمان بن كثير حول وضع العرب في خراسان ، وكيف أدار اللعبة حيث الخلاف بين القيسيّة وعلى رأسهم نصر بن سيار ، وبين الأزد وعلى رأسهم الكرماني ، وانحياز ربيعة في هذا الصراع إلى جانب الأزد . كل ذلك بفعل الأيادي الخفية المجوسية التي كان يحركها أبو مسلم الخراساني .

٢ ـ إعلان الدعوة العباسية ..

بدأ إظهار الدعوة سنة ١٢٩ هـ ، حين كتب الإمام إبراهيم بن محمد يستدعي أبا مسلم بالحضور ، ثم يتبعه كتابا آخر يطلب إليه فيه الرجوع ، حيثما

لاقاه كتابه ، فيرجع أبو مسلم ويدفع الكتاب إلى سليمان بن كثير ، وفيه ، أن أَظهِرْ دعوتك فقد آن ذلك .

وبالفعل أعلن أبو مسلم الدعوة فسارع إليه الناس وذلك سنة ١٢٩ هـ ، ولم يمنعهم نصر بن سيار والي خراسان ،وكذلك كان موقف خصوم نصر ؛ الكرماني وشيبان الحروري اللذين لم يكونا على كره لأبي مسلم ، لأنَّه دعا إلى خلع مروان بن محمد . ويلعب هنا أبو مسلم دوراً مخادعاً هاماً ويتمكن من الإيقاع بالعرب وبنصر بن سيَّار ، ثم بالكرماني وشيبان ويُفرق شملهم ويجتث شأفة العرب ويُنكلِّ بهم .

ويتفاقم الأمر ، ويعظم خطر أبي مسلم ، وييئس نصر بن سيار من العرب بعد أن استطاع أبو مسلم أن يوقع بينهم ، فيكتب نصر إلى مروان بن محمَّد ، ولكنَّ الأخير كان مشغولاً في مشاكل الشام . ثم يكتب نصر إلى يزيد بن هبيرة وإلى العراق فيخذله هذا أيضاً . فاستغل أبو مسلم حراجة موقف نصر بن سيَّار ، فاحتلَّ مرو ، فسارع العرب لانقاذ الموقف ولكن بعد فوات الأوان ، وتشكَّك أبو مسلم بمن انضم إليه منهم من اليمنيَّة بقيادة أولاد الكرماني عليٍّ وعثمان فدبَّر مقتلهما .

وحينما استفحل أمر أبي مسلم الخراساني ، أسرع مروان بن محمد واعتقل الإمام إبراهيم بن محمَّد في الحميمة ودبَّر مقتله بصورة غامضة . وكان إبراهيم قد أوصى لأخيه عبدالله بن محمَّد أبو العبّاس من بعده ، وأمره بالسير مع شيعته إلى الكوفة ، وأمرهم بالسمع والطاعة له .

واتَّسع القتال بعد احتلال مرو وبلخ ، لا سيَّما حين وصل قحطبة بن داود الطائي الذي عينه الإمام إبراهيم قائداً عاماً للجيوش العباسيَّة إلى خراسان .

وينجح قحطبة وأبو مسلم في هزم جيوش نصر بن سيّار ، ويزيد بن هبيرة التي أرسلها له بقيادة نباتة بن حنضلة الكلبيّ عام ١٣١ هـ . ثم يتقدم قحطبة بسرعة إلى العراق ويهزم جيش ابن هبيرة قرب الأنبار، ولكنّه يلقى مصرعه في ظروف غامضة ، فيتولّى ابنه الحسن بن قحطبة القيادة العامّة ، وينجح في دخول الكوفة سنة ١٣٢ هـ .

ونلاحظ في هذه الفترة ابتعاد أبي مسلم عن مسرح الأحداث ليظهر عليها قحطبة الطائيّ العربيّ ، الذي لعب دوراً حاسماً في هزيمة الأمويّين ، ثم يخلفه ابنه في قيادة الجيوش . ثم ليظهر فجأة بعد احتلال الكوفة رجل آخر هو أبو سَلَمَة الخلّال بصفته كبير الدعاة العباسيّين . . وتمرُّ فترة قصيرة يبدو فيها مصير العباسيّين معلّقاً بإرادة أبي سلمة واتجاهاته . . فقد حاول أبو سلمة هذا بعد أن أخفى أبا العباس عبدالله بن محمّد بالكوفة أن يبايع جعفر بن محمّد الصادق وغيره من آل البيت كعبدالله بن حسن ، وعمر وزين العابدين ، ولكنّه فشل لسببين :

١" ـ إن جعفراً رفض أن يتعاون معه ، وأحرق كِتابه ، لعلمه أنه شيعةٌ لغيره . ونصح كذلك عمرُ الأشرافَ وزينَ العابدين بعدم القبول لأنَّ الشيعة أدركت أن الدعوة للعباسيّين .

٢" ـ ولأن أحد كبار الدعاة والقادة العباسيّين وهو أبو الجهم ، كان قد كشف وجود أبي العبّاس السفاح عبدالله بن محمد بالكوفة ، فسارع لمبايعته ، فأُسقط في يد أبي سلمة الخلّال ، ورضخ للأم الواقع ، واعتلّ لذلك حتى تصل جيوش العباسيّين إلى الكوفة ، ولأنَّ واسط لم تفتح بعد ، مما أوغرَ صدرَ أبي العبّاس عليه ، فأسرع بقتله بعد أن استوزره في بادىء الأمر إمعاناً في الخديعة .

عندئذ أوكل أبو العبّاس إلى عمّه عبدالله بن علي قتالَ مروان بن محمد الذي تقدم عبر دجلة لمحاربة العباسيّين ، ودامت المعركة تسعة أيام على نهر الزاب الأكبر ،

وانتهت بهزيمة الأمويِّين هزيمة ساحقة وذلك عام ١٣٢ هـ .

وتعود هزيمة الأمويِّين لأسباب كثيرة مباشرة وغير مباشرة ، لا يتسع المكان لتعدادها ، ولكنَّنا نذكر أن من أهمِّ هذه الأسباب تفسُّخ جيش مروان . . ونجا بعدهامروان وولَّى هارباً إلى حَرَّانَ ، ثم سار إلى حمص فدمشق ، ثم اتجه إلى مصر ، حيث لاحقه جند أبي العباس وتمكَّنوا من قتله في قرية بوصير في مصر العليا ، تساقطت بعدها المدن الشامية تباعاً باستثناء دمشق التي كان على رأسها صهر مروان بن محمد ، الوليد بن معاوية بن مروان ، ولكن أهل الشام بدَّلوا رأيهم ، وقتلوه ، وفتحوا الأبواب أمام العباسيِّين . وكذلك بقيت واسط التي لجأ إليها ابن هبيرة ، ولكنَّه لما سمع بمقتل مروان ، بدأ المفاوضة وقبل الاستسلام سنة ١٣٣ هـ بشروط .

٣ ـ التغيّيرات الجديدة في الدولة العباسيَّة :

اضطهد العباسيّون أعوان الأمويِّين في دمشق ، وفي كلِّ مكان ، ونكَّل بهم عبدالله بن علي ، مما أدَّى إلى ثورة القيسيَّة في قنِّسرين بزعامة أبي محمّد السفياني ، وانتهت ثورته وهُزم ثم اعتقل وقتل في الحجاز ، واستتبَّ الأمر للعباسيِّين ، وقد أمكننا أن نلاحظ مايلي :

١" ـ إنَّ مجيء الدولة العباسيَّة بانقلاب سياسيٍّ عسكريٍّ ، حوَّل كيان الامبراطورية العربية الإسلامية ، وأنهى عصر السيادة العربيّة ، وقد حكم المتعصبون عرقياً وحُوِّل نظامُ الحكم الشوري الانتخابي في العهد الراشدي ، والنظام الملكي العربيّ الشوري في العصر الأمويّ ، إلى نظام كسرويّ مطلق ، أو كما سمّوه «حكم إلهي مقدَّس» وادَّعوا أنّهم ورثة الرسول .

٢" ـ تبدّلت العلاقات الاجتماعية السائدة في العصر الأمويّ وما قبله ، فحلَّ العنصر الفارسيّ في الدولة ومراكز السلطة والقوّة محلّ العنصر العربيّ . لأنَّ مجيء الدولة العباسيّة تهيّأ في العهد الأمويّ نتيجة ميل العرب إلى الاستقرار ، وتحوّلهم تدريجياً نحو الحضريّة ، واعتمادهم على العنصر العربيّ وتعريب كلّ ما يصل إليهم ، فإنَّ الثورة الثقافية الكبرى التي أرّث أُصولَها الأمويون استمرّت في العصر العباسيّ ، وإن بدأت تصطبغ بالكسرويّة ، فهذا عمرو بن بحر الجاحظ العربي الأرومة يكشف عن ذلك بوقت مبكّر فيقول : كانت الدولة العباسيّة دولةً خراسانيَّة ، ودولة بني مروان عربيّة أعرابيَّة .

٣" ـ كان الخلفاء العباسيُّون الأوائل يعدّون الدولة العباسيّة دولة إسلاميّة ، ونادوا بالمساواة بين جميع المسلمين ، وأما الفرس الذين دخلوا مناصب الدولة فلأنّهم مسلمون فقط . وظل الطابع العربي سائداً في العصر العبّاسيّ في الخليفة واللسان آخر الأمر .

٤" ـ انتقالُ مركز الحكم إلى العراق قضى على كلّ العناصر التي كانت معادية للدولة الأمويّة كالشيعة والخوارج ، فنزح هؤلاء ، وقاموا بحركات انفصاليّة في شمال أفريقيا ، كما تمكّن الأمويون في الأندلس من إقامة ملك لا يقلُّ زهواً عن ملكهم في الشرق ، واستقلُّوا بالأندلس أربعة قرون ، واستمرّ الانفصال عن جسد الامبراطورية العربيّة المسلمة طوال العهد العبّاسي حتّى لم يبق ، للخليفة العبّاسيّ إلّا بغداد ، ومازال هذا الانسلاخ والانقسام حتّى اليوم .

٥" ـ ولقد امتّدت الدولة العباسيّة قرابة خمسة قرون ونيِّف ، وقسَّمها المؤرِّخون تبعاً للعناصر الشعوبيّة التي سيطرت على الحكم إلى أربعة فترات :

آ ـ العصر العبّاسيّ الأوّل : أو العصر الفارسيّ وامتدّ من ١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ .

ب ـ العصر العبّاسي الثاني : أو العصر التركي وامتدّ من ٢٣٣ ـ ٣٣٤ هـ .

حـ ـ العصر العبّاسيّ الثالث : أو العصر البويهيّ وامتدّ من ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ .

د ـ العصر العبّاسيّ الرابع : أو العصر السلجوقيّ وامتدّ من ٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ .

فقد تولّى العباسيّون الخلافة سنة ١٣٢ هـ واستمرّت خلافتهم إلى سنة ٦٥٦ هـ حين سقط الخليفة عبدالله المستعصم بالله أبو أحمد بن المستنصر قتيلاً بين يدي هولاكو المغوليّ . وقد استمرّت الخلافة العباسيّة ٥٢٤ سنة ، استخلف فيها ٣٨ خليفة ، أطول مدّة كانت لأحدهم ٤٧ سنة الناصر لدين الله أبو العبّاس أحمد بن المستضيء من ٥٧٥ ـ ٦٢٣ هـ ، وأقلُّها سنة فما دون .

آ ـ استتبت في المئة الأولى لخلفائها الكلمةُ العليا والسيادةُ التامّة على جميع أرجاء الامبراطورية الإسلاميّة ماعدا الأندلس ، وقام في هذا العهد تسعة خلفاء هم : السفّاح ، المنصور ، المهدي ، الهادي ، الرشيد ، الأمين ، المأمون ، المعتصم ، الواثق الذي توفي سنة ٢٣٢ هـ .

ب ـ ثم جاء القرن التالي من ٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ حيث ضعفت فيه مكانة الخلفاء ، واجترأ الأمراء في الأطراف ، واضمحلَّ أمر الخلفاء ، فلم يبق بيدهم إلّا العراق وفارس والأهواز ، وقام في هذا العصر أربعة عشر خليفة هم : المتوكّل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم . المنتصر بالله أبو جعفر محمّد بن المتوكّل . المستعين بالله أبو العبّاس أحمد بن المعتصم . المعتزّ بالله أبو عبدالله محمد بن المتوكل . المهتدي بالله أبو إسحاق محمد بن الواثق . المعتمد على الله أبو العبّاس أحمد بن المتوكّل . المعتضد بالله أبو العبّاس أحمد بن الموفّق أخو المعتمد . المكتفي بالله أبو محمّد علي بن المعتضد . المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد . الغالب بالله المشهور بابن المعتز أبو العبّاس عبدالله . القاهر بالله أبو المنصور

محمّد بن المعتضد . الراضي بالله أبو العبّاس محمّد بن المقتدر . المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر . المستكفي بالله أبو القاسم عبدالله بن المكتفي .

جـ - ثم جاء دور ثالث من سنة ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ وليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة ، والسلطان الفعلي كان للديلم الذين يمثّلهم بنو بويه الذين يقيمون ببغداد ، وأصبح الخليفة وكأنّه موظّف لديهم ، يتقاضى منهم ما يقوم بأوده ، ولا يملك أن يتصرف ، وليس له نفوذ ، وليس له على المالكين شيء من السلطان الديني لكونهم شيعة ، وقام في هذا الدور أربعة خلفاء ، هم : المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر . الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن المطيع . القادر بالله أبو العبّاس أحمد بن إسحاق بن المقتدر . القائم بأمر الله أبو جعفر عبدالله بن القادر .

د - ثم جاء دور رابع استمرَّ من عام ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ انتقل فيه السلطان إلى السلاجقة الأتراك الذين أقاموا ببلاد الجبل لا ببغداد ، وكان الخلفاء معهم أحسنَ حالاً ، فإنّهم كانوا يحترمون الخلفاء تدينا ، ويبدون لهم مظاهر التعظيم والإجلال ، وقد ولي في هذا الدور ثمانية خلفاء هم : المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبدالله بن محمّد بن القائم . المستظهر بالله أبو العبّاس أحمد بن المقتدي . المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر. الراشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد . المقتفي لأمر الله أبو عبدالله محمّد بن المستظهر . المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي . المستضيء بأمر الله أبو محمّد الحسن بن المستنجد . ثم أعقبهم الناصر لدين الله أبو العبّاس أحمد بن المستضيء ، وقال الذهبي : ولم يل الخلاقة أحد أطول مدّة منه ، فإنّه أقام فيها سبعة وأربعين سنة ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ وتميز بأنّه من أقوى الخلفاء في عصره وأكثرهم هيبة ثم وَلِيَهُ ثلاثةُ خلفاءٍ هم : الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر . والمستنصر بالله أبو جعفر منصور بن

الظاهر . والمستعصم بالله أبو أحمد عبدالله بن المستنصر آخر الخلفاء العراقيين العباسيِّين فقتل على يد التتار ، وانتهى الحكم العباسيّ الشعوبيّ إلى بوار ودمار للأمة العربية سنة ٦٥٦ هـ يوم سقوط بغداد[١] .

وقال المؤرخون في دولة بني العبّاس : افترقت كلمة الإسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأُدخل الأتراك في الديوان ، واستولت الديلم ، ثم الأتراك ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الأرض عدّة أقسام ، وصار بكلِّ قطر قائمٌ يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر .

٤ ـ إدارات الدولة في العهد العباسي :

لقد استغلَّ العباسيُّون دعوة الكيسانيَّة وحوَّلوها إلى أسرتهم وأصبحوا أوصياءهم إلى أن وصلوا سدَّة الحكم ، ومنذ البدء كانت روح العاصمة الجديدة بغداد ، تختلف اختلافاً كلياً عن روح دمشق ، وإذا كان العصر الأمويٌّ مرحلة انتقال بين حياة البداوة والبساطة وبين حياة الاستقرار والتحضُّر ، فإنَّ العصر العباسيَّ هو عصر التحضُّر الحقيقيُّ .

فقد بدأت تظهر على الدولة والمجتمع مظاهر النشاط المختلفة ، لتتَّخذَ أشكالها النهائية التي تميزت بها الحضارة العباسيّة المركبة من تمازج عناصر مختلفة انتهت إلى نتاج جديد يحمل طابعاً أصيلاً ، أعطى الحضارة العربية شخصيَّة متميزة ذات طعوم جديدة . وانتقال مركز الدولة إلى العراق جعلها على اتصال أوثق بمراكز الحضارات السابقة ، على الرغم من اعتبار هذا العصر امتداداً للعصر الأمويِّ ، حيث استكملت أسس البناء الحضاري الذي بدأه الأمويُّون ، ووضعوا التصميم الكامل لشكل البناء الجديد .

---

(١) انظر عبقرية الإسلام للعجلاني صفحة ١٨٩ وما بعدها . وتاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣١١ ـ ٥٤٢ .

أ ـ الخلافة :

تأثَّر الحكم في الدولة العباسيَّة بقيامها على أكتاف الفرس الذين ظلُّوا يلعبون دوراً بارزاً في السياسة والحياة العامَّة ، فقد أثروا تأثيراً بالغاً في التغيرات التي طرأت على جهاز الدولة ، فقد جلبوا معهم ميولاً وأذواقاً تبدَّت في كل النواحي العامّة العلمية والعملية ، فاتّجه الخليفة إلى الشرق هذه المرّة ، وأدار ظهره إلى الغرب ، واهتمَّ بالخليج العربي والبحار الهنديَّة ، وأصبحت الخلافة تدار على طريقة الامبراطوريَّة الساسانيّة ، حيث يوجد وزير فارسي على رأس كلِّ حكومة ، وأخذ العباسيّون عن الفرس نظريَّة «الحكم الإلهيّ المقدَّس» ونسبوا إلى أبي جعفرٍ قوله : «إنما أنا سلطان الله في أرضه» .

وهناك تحامل على الدور الذي قام به الفرس ، فصحيح أنَّ الفرس قد لعبوا دوراً كبيراً في مساعدة العباسيِّين ، ولكنْ ليس صحيحاً أنهم هم الذين أقاموا هذه الدولة ، فقد لعب العنصر العربيّ دوراً بارزاً في هذا المضمار ، إذ كان لابد للعباسيِّين بعد نجاحهم من أنَّ يحقِّقوا ما نادوا به من المساواة بين المسلمين ، وأن يراعوا التحوَّلات التي طرأت على أوضاع المجتمع الإسلاميِّ . ولهذا أخذت الدولة طابعاً إسلامياً عاماً أكثر منه عربياً ، وإن كان اللسان والقرآن عربيين .

واهتمَّ الخلفاء العباسيُّون بالألقاب الدينية ، كالمنصور ، والمهديّ ، والهادي و . . . وأفسحوا مجالاً واسعاً لرجال الدين في شؤون الدولة . وتغيَّرت علاقات الخليفة مع الناس تبعاً للتحوَّلات الحضاريَّة في المجتمع وإلى التوسُّع الكبير الذي طرأ على جهاز الدولة ، فأصبح الخليفة محجوباً عن الناس ، وحلَّت جماعة العلماء والأدباء محَّل رؤساء القبائل ، وأصبح للخليفة معاونون ينوبون عنه في تصريف الأمور ، وأصبح بلاط الخلافة يزدان بأبَّهة وعظمة لم يشهده من قبل ، وإن بقيت معاني الخلافة في تحري الدين ومذاهبه ، والسنة المتَّبعة ، ولكنَّ أُبَّهة المُلك غلبت

على كلِّ شيء ، وقد تغير الوازع الذي كان دينياً ، فأصبح عصبياً منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ، ولم يعد له وجود في العصر العباسي اللَّهم إلاّ الخوف من العقوبة .

ب ـ ولاية العهد :

لم ينجح الخلفاء العباسيّون في وضع نظام ثابت لوراثة الخلافة ، واتّبعوا طريقة تولية العهد لأكثر من واحد ، مما كان سَبَبَ شقاقٍ ومشاكل بين أفراد الأسرة الواحدة ، كما حدث بين الأمين والمأمون وغيرهم .

جـ ـ الوزارة :

جاء ذكر هذه الكلمة في القرآن الكريم «واجعل لي وزيراً من أهلي»[1] «وجعلنا معه آخاه هارون وزيراً»[2] ، وجاءت على لسان أبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة للأنصار قوله : «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»[3] ، وقد كان هو نفسه بمثابة وزير للرسول ﷺ ، وإنَّ زياداً كان يسمَّى وزير معاوية . ولكنّ الوزارة كمنصب لم تظهر إلاّ في العصر العباسي ، حيث سمي الوزير وزيراً ، وكان يسمّى قبل كاتباً أو مشيراً . وأوّل من تلقَّب بهذا اللقب أبو سلمة الخلال ، وكان يسمّى وزير آل محمّد .

وكانت مهمَّة الوزير أن يشرف على دواوين الدولة كلِّها ، وقد أدَّى مقتل الوزير الأوَّل أبي سلمة الخلاّل إلى تَطَيُّرِ مَن خلفه مِن هذا الاسم ، فقد قام بعده

---

(١) سورة طه ٢٠/٢٩ .
(٢) الفرقان ٣٥/٢٥ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي .

خالد بن برمك دون أن يُسمّى وزيراً تطيُّراً لما حدث لسلفه . ولم تتحدد سلطات الوزير ولا مركزه في العصر العبّاسي الأوّل ، فقد بدأت ضعيفة في عهد أبي جعفر لاعتماده على نفسه واستغنائه برأيه وكفاءته ، ثم أخذت دورها بعد ذلك في عهد المهدي بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، الذي كان أجلَّ الناس وأقدرهم ، فنظَّم المُلك . وجمع السلطات . ولكن ما لبث المهدي أن نكبه ، ونكب بعده أبا عبدالله يعقوب بن داود .

وعلا شأن الوزارة أيّام الرشيد حين وليها البرامكة ، وكان يحيى البرمكي أوّلَ من أُمِّر من الوزراء ، وتسلَّم أمر الخلافة ، وأصبح الأوّل والأخير في كلّ شيء ، وما لبث الرشيد أن نكبهم فيما يسمَّى بنكبة البرامكة . وقوي مركز الوزارة في عهد المأمون على يد الفضل بن سهل حتى تقرَّب من صلاحيّات الخليفة وسلطانه ، وقد تضعف وتتراجع حتى تصل إلى سلطات كاتبٍ مما دفع المؤرِّخين إلى تصنيف للوزارة :

آ ـ وزارة تفويض : ينوب الوزير فيها عن الخليفة في كلِّ شيء .

ب ـ وزارة تنفيذ : يقتصر فيها دور الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة .

ويعود هذا الاختلاف في صلاحيات الوزير إلى شخصية الخليفة من جهة ، وشخصية الوزير وكفاءته من جهة أخرى . وقد جمع العباسيّون للوزير خطتي السيف والقلم . وكان الفضل بن سهل ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف والقلم . ولوحظ أنَّ أغلب الوزراء كانوا من الفرس لاجادتهم الكتابة ، لأن العرب كانوا أهل فصاحة لسانية .

د ـ الكُتَّاب :

وهم الذين يقومون بأعمال الكتابة ، والكاتب منصب يلي منصب الوزير

ويساعده ، ويشرف الكتّابُ على الدواوين ، وكان أهمَّهم كاتب الرسائل ، ويشترط فيه أن يكون واسع الثقافة ، غزير العلم ، جَمَّ الأدب . وقد توصَّل عدد من الكتاب إلى منصب الوزارة ، وقد كان لكلٍّ وزير كاتب أو كُتَّاب ، ومثلهم للولاة في الأقاليم ، ورجال الدولة الكبار ، ومعظمهم من الفرس ، فكان لهم أثرهم الكبير في التطوّر الثقافي .

الولاة . .

احتفظ العباسيّون بنظام الولايات الذي كان متَّبعاً في الدولة الأموية مع تعديل بسيط في حدود الولايات . واعتمد العباسيّون على أفراد الأسرة العباسيّة ثم على أنصارهم الموثوقين فيما بعد . وقد جمع الخلفاء الأوائل في أغلب الأحيان عدداً من الولايات لوال واحد ، كما فعل الرشيد مع البرامكة وأولادهم ، وكما فعل الأمين مع الحسن بن سهل .

والولايات على ثلاثة أنواع :

آ ـ ولاية عامّة . . ويكون الوالي فيها بمثابة نائب للخليفة ، مفوَّض بالإشراف على جميع الأمور السياسية والإداريّة والحربيّة والقضائيّة والماليّة ؛ كولاية أبي مسلم الخراساني الذي كان يلقَّب ؛ بأمين آل البيت ، ومنها أيضاً ولاية الحسن بن سهل .

ب ـ ولاية خاصة . . ويكون الوالي فيها محدود السلطة ، لا يتعرَّض للأحكام ولا لجباية الأموال والصدقات ، ويعود في أمور ولايته كلِّها إلى الخليفة نفسه أو من ينيبه عنه .

جـ ـ وقد أدّت بعض الظروف السياسية إلى إقامة ولايات وراثيّة ؛ كإمارة الأغالبة الوراثيّة في المغرب منذ عهد هارون ، والإمارة الظاهريّة في خراسان منذ

عهد المأمون ، والإمارة الزياديّة في اليمن منذ عهد المأمون أيضاً ؛ وكانت أمثال هذه الإمارات أشبه بدول مستقلّة لا تربطها بالخلافة إلا السيادة الإسميّة .

هـ ـ الدواوين ..

تطورت الدواوين تبعاً لتطور الدولة التي لا تقل عن نظم اليوم تنظيماً ، وبصورة خاصة ديوان الخراج ، وكتب ابن المقفَّع رسالة الصحابة للمنصور لإصلاح هذا الديوان ، وأن يحول بين الجند وإدارة الشؤون الماليَّة ـ إذْ كان الخليفة يعين لقوَّاده بعض خراج الأقطار أو يقطعها لهم ـ لأنَّها مفسدة للمقاتِلة . وقد قام المنصور ببعض الإصلاحات وترك لمن بعده متابعة الجهد ، ولعلّ ذلك ما دعا الرشيد لتكليف أبي يوسف بوضع كتاب جامع لجباية الخراج والأعشار والصدقات والجزية ، وقد بلغ دخل الدولة في حينها ٣٣١,٩ مليوناً من الدراهم في عهد المأمون ، وفي عهد المعتصم ارتفعه إلى ٣٣٨,٣ مليوناً من الدراهم . وخلَّف أبو جعفر ١٤ مليونا من الدنانير و ٦٠٠ مليون درهم ، وخلف الرشيد ٩٠٠ مليوناً ونيِّف .

وأنشأ المهديُّ ديوان الزمام لمراقبة إدارة الدولة العامَّة والماليَّة ، ويشبِهُ ديوان المحاسبة في عصرنا ـ أيام كان هناك ديوان محاسبة قبل أن يفلت زمام الأمور ـ وأوجد المهدي كذلك ديوان المظالم ، وهو أشبه بمحكمة الإستئناف العليا ، وقد نبّه ابن المقفع برسالته الآنفة الذكر إلى فوضى القضاء وضرورة ضبطه ، وأشار إلى أن تُرَدَّ القضايا إلى الخليفة الذي كان يرأس ديوان المظالم بنفسه أو ينيب أحد كبار معاونيه ، ويحضر الديوان قاضي القضاة والحاجب وكبار كتّاب الدولة .

وقد استحدث منصب قاضي القضاة في بغداد لأوَّل مرَّة ، وكان أبو يوسف أوَّلَ من شغل هذا المنصب .

ومن أهمّ الدواوين ديوان البريد ، وأوّل من نظمه معاوية بن أبي سفيان ، ثم حسّنه عبد الملك بن مروان ، ولكنّه لم تظهر أهمّيته إلاّ في العصر العباسيّ الأوّل ، حيث اكتمل تنظيمه كدائرة من أهم دوائر الدولة ، وكان ينقل البريد والموظّفين . واستعمل العرب في البُرُدِ الحمام الزاجل ، وأوّل ما نقل من أخبار خبر القبض على بابك الخرميّ .

وقد وُضع في بغداد لوحة تبيّن الخطوط التي تخترق أقطار الدولة ومحطّات البريد فيها ، وكان لصاحب البريد مهمّة ثانية خطيرة ، فقد كلّف باستخبار أحوال الولاة وكبار الموظّفين ، ومراقبة الغرباء ، والتجسّس على الأعداء ، فهو أشبه بدائرة استخبارات اليوم ، التي تهلك الحرث والنسل ، واعتمد أبو جعفر في مخابراته على التّجار والمسافرين ، ومثله فعل الرشيد ، واعتمد المأمون على النساء . وكان رئيس ديوان البريد يراقب صاحب البريد والأخبار .

و ـ الجيش ..

اكتمل تنظيم الجيس منذ بداية العصر العباسي الأول لأنه كان الوسيلة التي تم بها الإستيلاء على السلطة ، فتحسّنت وسائل القتال لديه ، وتألّف من عدة أقسام :

آ ـ حرس الخلافة . . وهم من الخرسانيّة ، أو من العرب أيّام المهدي فقط ، أو من الأتراك في عهد المعتصم ، وكما نلاحظ أن الحرس كانوا من جنس أم الخليفة للأسف ! ويتميزون بأزياء خاصّة ورواتب أعلى من غيرهم .

ب ـ الجند المرتزقة . . وهم يشكلّون عماد الجيش النظاميّ ، الذي كان يتألّف من أربع فرق في عهد المنصور ؛ المضريّة ، والربعيّة ، واليمنية ، والخرسانية . وزاد عليها المعتصم فرقتين هما ؛ التركيّة ، والغاربّة ، وكلُّهم أصحاب رواتب محدّدة .

جـ ـ المتطوعة . . وهم الذين يتطوَّعون في الجيش وقت الحرب ، ويأخذون عطاءهم في وقت تطوعهم فقط .

ويتألَّف الجيش عادة من الفرسان ، والمشاة ، والرماة ، وجماعة النفّاطين ، والمهندسين ، والمنجنيقيينِّ . كما ألحقت بالجيش مستشفيات ميدانيّة خاصّة في عهد الرشيد ، وكانت القيادات في الجيش العباسيّ عربيّة وفارسيّة ، ثم دخلتها العناصر التركيّة ، وكثيراً ما تآمر هؤلاء الأغرابُ على الخليفة ، كما حدث أيّام المعتصم وما تلاه من عصور .

٥ ـ الحياة الإجتماعيّة ..

إنَّ ما حدث من تطوّر كبير في البنية الإجتماعيّة في العصر العباسيّ لم يكن فجائياً ـ وهم الذين اعتمدوا على الأسس الكسروّية ـ إذا استقرَّت العرب في الأمصار في العصر الأمويَّ ، وازداد الدخل زيادة فاقت حدود التصوّر، وارتفع مستوى الحياة ، مما أدّى إلى إضعاف أساس الحياة القبليّة ، ومهَّد للحياة الحضريّة ، التي أدَّت بدورها إلى تطورير العلاقات الإجتماعيّة وخاصّة في المدن والدساكر العامرة ، وأسهم في ذلك إشتراك الفرس في جهاز الحكم العباسيّ ، بالإضافة إلى العناصر الأخرى غير العربيّة ، وكذلك انتقال العاصمة إلى بغداد وقربها من مهد الحضارات القديمة ممَّا عجل في هذا التطوّر ، الذي انعكس سلباً على الارستقراطيّة العربيّة فأدّى إلى انخفاضها ، فتحولوا نحو التجارة والصناعة والزراعة ، بعد أن كانوا مستأثرين بالسلطة الإداريّة والعسكريّة أيّام الدولة الأمويّة ـ ومن يومها وحتى اليوم لم تقم العرب قائمة ، ومازالت طبقة الحكام في كل أنحاء الوطن العربي من الشعوبيين وغير العرب ـ وقد أدى اختلاطهم مع الفرس والعناصر الأجنبيّة الأخرى إلى تعدّد الزوجات ، والتسرّي ، وتجارة

الرقيق ، وكثرة الإماء ، وزاد عدد المولَّدين الذين يحملون خصائص جنسيّة متنوِّعة ، وقوي نفوذهم في الدولة .

وأصبح المجتمع العباسيُّ مجتمعاً إسلامياً مختلطاً ، والتمييز فيه أساس للمركز في الحكم ، والثروة ، والمهنة ، عدا أهل الذمَّة فقد ظلُّوا يكوِّنون طائفة خاصَّة بهم ، ورغم ذلك فقد ظلَّ هنالك عصبيات عربيّة أو فارسيّة ، حيث استمّر التنافس بين هاتين العصبيّتين ، وسيظلُّ إلى يوم الدين لحقد الفرس على العرب الذين أدالوا حضاراتهم ونسخوا لغتهم ، ومسحوا دينهم . . . وانقسم المجتمع العباسيُّ إلى عدَّة طبقات :

آ ـ طبقة الخاصّة . . وتتألف من أفراد الأسرة المالكة والبيت الهاشمي ، وكبار موظفي الدولة ، وتتمع بالجاه والثروة والنفوذ .

ب ـ طبقة العامة . . وتتألف من نسقين ؛ أحدهما قريب من طبقة الخاصة ، مثل الأدباء ، والعلماء ، والتجار ، وأهل الفن ، وأصحاب الحرف . وآخروهم النسق الغالب ومنهم صغار التجار والزراع والصناع والفلاحين . وعلى هامش هذه الطبقة تعيش طبقة العيارين والشطار .

جـ ـ طبقة أهل الذمَّة . . قلّ عددهم نتيجة الإقبال على الدين ، وكان غير اليهود والنصارى أتباع زرادشت ، والمانويّة ، وصابئة حرّان .

د ـ طبقة الرقيق . . وجاء معظمهم عن طريق الشراء وهم من الزنج ، والترك ، والروم ، والسلاف ، والبربر ، والأرمن ، وغيرهم من بقيَّة الأجناس ، وانتشرت تجارة الجواري ، وبولغ في أثمانهن ، لِما أصبح لهمن من أثرٍ بالغ في الحياة الإجتماعية ، وجاء قسم آخر من السبي أثناء الفتوحات .

٦ - الحياة الاقتصادية ..

اهتمَّ الخلفاء بالمسائل الإقتصاديّة ، ممَّا هيّأ الفرصة لدفع عجلة التطوّر ، وساعدَ على ذلك اتّساع رقعة الإمبراطوريّة ، واشتمالها على جميع الطرق البريّة والبحريّة المؤدّية إلى الشرق الأقصى وأفريقيا ، ولكونها الجسر الذي يربط الغرب بهذه المناطق والأصقاع ، ولسيطرتها على أخصب أراضي الدنيا ، وعلى خلاصة خيرات العالم القديم ، وتوفّر المواد الأوليَّة ، المعدنية والنباتيَّة ، والحيوانيّة اللازمة ، ولتوّفر الاستقرار السياسي ، والتمازج بين عناصر المجتمع ، وإقبال العرب على الصناعة والتجارة ، وكلٌّ ذلك هيَّأ لمناخ اقتصادي ملائم .

إنَّ هذا الامتداد الهائل من جدار الصين شرقا إلى شواطىء الأطلسيّ غربا نشَّط التجارة وأنعشها ، وكذلك السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوّسط مكَّن لذلك وأصبحت بغداد مركزاً لهذا النشاط ، وغدت موانىء الخليج العربي وسواحل شبه الجزيرة العربيّة تعجّ بالسفن والأساطيل العربيَّة التجاريّة . وكذلك كانت الطرق البريّة المارة من سمرقند وبخارى إلى الهند والصين تزدحم بالقوافل . ونشط العرب بالإضافة إلى ذلك في بحر قزوين ، مما أدّى ذلك إلى غني خياليّ فاحش لدى طبقة التجّار .

وقد اعتمدت التجارة على صناعة وزراعة محليّة ، فتميَّزت فارس والعراق بالمنسوجات القطنّية والديباج والأطلس والسجّاد . وتميَّزت الشام بالمصنوعات الزجاجيّة ، ودمشق بصناعة الفسيفساء ، ومصر بالنسيج الدمياطيَّ .

وأدخل المعتصم إلى بغداد صناعة الزجاج والصابون ، وصناعة الورق التي كان لها أثر بعيد في الحياة العلميّة ، وذلك عن طريق الصين . وصناعة المجوهرات والحلي التي تطوَّرت كثيراً ، وكذلك صناعة الملابس ، وتزيين أغطية الأَسرَّة وأدوات الموائد ، وكذلك صناعة الأحذية والجلديَّات .

واهتمَّ الخلفاء العباسيون خاصة بالزراعة وأوجدّوا ديوان الري لإصلاح الأقنية ، وشقَّ الجديدة منها ، وتجفيف المستنقعات . وازدهرت الزراعة كذلك في خراسان وماوراء النهر ، وأدخلت زراعات جديدة كالحمضيات وقصب السكر والزهور ، حيث انتقلت منها إلى الأندلس ، وصُنعت منها الروائح العطريّة ، حيث راحت تلاقي من المسلمين إقبالاً خاصاً ، لما كان يحضُّ عليه الرسول العربي ﷺ من التطيب يوم الجمعة .

٧ ـ البيئة السياسيّة ..

ذكرنا فيما سبق كيف توصَّل الأمويون إلى إقصاء أهل بيت الرسول ﷺ ، عن الحكم ، وكيف أمسكوا بالزمام بيد قاسية ضربت بالحديد والنار ، وبيد أخرى منعّمة اشترت الولاء بالهبات والعطايا . غير أن هذه السياسة لم تنفع مع أهل البيت في ترك ما كانوا يرونه حقّاً اكتسبوه بالوصاية ، فكثر خروج الأئمَّة من الأوصياء ، على الأمويينّ الذين قمعوا هذه الثورات بمنتهى القسوة والشدَّة . وكان الإمام الوصيّ حين يحسّ أنَّه في خطر ، يوصي لمن يخلفه بعد موته من نسل عليٍّ بن أبي طالب ، خوفاً من ضياع البيعة .

وكان بنو العبّاس عمّ النبي ﷺ من حملة أهل البيت المطالبين بالخلافة ، ولكنَّهم كانوا أقلَّ شأناً ، وأخفى أثراً من الطالبيِّين ، فلم يلتفت الأمويّون إلى ماكانوا يمثلَّون من خطر على دولتهم ، ظنّاً منهم أنَّ الخطر إنّما هو محصور بالطالبيّين الذين كانوا على تستُّرهم أبرزَ ظهورا ، وأوسَعَ شعبية ، وأكثرهم استدراراً لعطف المسلمين .

ففي عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ كان صاحب الدعوة العباسيّة محمّد بن عليّ بن عبدالله بن عبّاس ، وكان مقيماً في الحميمة جنوبيٍّ البحر

الميِّت . لأنَّ الكيسانيَّة الطالبين كانوا يدعون سرّاً لمبايعة أبي هاشم عبدالله بن محمّد بن الحنفيّة بن علي بن أبي طالب ، ولما فطن الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك إلى خطر أبي هاشم دَسَّ لهٔ من سَمَّهُ وهو في طريقه إلى المدينة عائداً من لَدُنه في الشام . وحين أحسَّ أبو هاشم بالسمّ يسري في بدنه ، خاف ضياع البيعة من أهل البيت ، فعرَّج على الحميمة في جملة من أنصاره وأوصى لمحمّد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس الآنف الذكر ، صاحب الدعوة العباسية ، بالخلافة من بعده[1] ، وأوصاه وصايا كثيرة فيها من الرجم بالغيب إن صحّت ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وهكذا توحَّدت الدعوتان ، وقوي شأن العباسيِّين بانضمام الطالبِّيين إليهم .

وأوصى محمّد بن عليٍّ هذا بالخلافة لابنه إبراهيم المعروف بالإمام ، فقام إبراهيم الإمام سياسةً منة ودهاءً يدعو الناس إلى تأييد «آل محمّد» من دون تمييز بين العباسيّين والطالبيّين . وبدأ دعوته بخراسان لبعدها عن مركز الخلافة الأمويّة ، وليتأييد أهلها لآل البيت ، كرهاً للأمويين والعرب . فبثّ الدعاة الذين أخذوا يبذرون بذور الثورة ، ويهيِّئون النفوس ، ويحشدون الرجال ، وكان أبو مسلم الخراساني السَّراج من أشدِّ هؤلاء الدعاة تأييداً ، وأقواهم حجَّة ، وأقدرهم على اكتساب الأنصار والمؤيِّدين . لكنّه حِفاظاً على سلامة صاحب الدعوة كان يدعو الناس إلى تأييد رجل من بني هاشم ، ولمّا بدأ أمر أبي مسلم بالظهور في خراسان بأمر الدعوة الهاشمية ، كتب واليها نصر بن سيّار الليثيّ إلى خليفة الأمويّين آنذاك مروان بن محمد يُنذره . فأخذ مروان يستقصي حقيقة الأمر ليعرف اسم صاحب الدعوة ، وحين عرف أنه إبراهيم بن محمّد ، قبض عليه فحبسه بحرّان ثم قتله .

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٨٧/٤ وما بعده .

وكان إبراهيم ، حين علم ، بإنكشاف أمره ، قد أوصى بالأمر من بعده لأخيه عبدالله أبي العبّاس السفّاح ، فصار أبو مسلم الخراساني يدعو له في خراسان مستغلاً انشغال الخليفة الأمويّ في إخماد الثورات التي شبَّت في الجزيرة الفراتية[1] . ولمّا اشتدّت شوكة العباسيّين في خراسان وظهر السفاح في الكوفة وبويع بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، لم يبق بإمكان مروان بن محمّد تجاهل هذا الخطر، فسار إلى الزاب للقاء الجيش الخراساني ، ولكن جيوشه انكسرت ، ومني بهزيمة حاسمة اضطّر على أثرها إلى الفرار إلى مصر ، حيث ألقي القبض عليه في قرية أبوصير[2] وقُتل واحتُزّ رأسه وأرسل إلى الخليفة العباسي الأوّل أبي العبّاس السفّاح ، الذي كان قد اتّخذ العراق مركزاً للدولة الجديدة .

وكان على العباسيّين أن يفعلوا الكثير لتثبيت دعائم هذه الدولة ، واقفال الباب في وجه المطالبين بالعرش ، فانتهجوا لذلك سبل الاستمالة الدينية والإغراء الماديّ ، إضافةً إلى استعمال القوة والبطش الشديدين ، وهي أساليب استنَّها الأمويون قبلهم ، واستغلّها العبّاسيون قبل وصولهم إلى الحكم وبعده .

فعلى الصعيد الدينيّ استغلّ العباسيّون مشاعر الناس الدينيّة بقرابتهم من رسول الله ﷺ لدعوة المؤمنين إلى تأييدهم والالتفاف حولهم . كما إنهم حالفوا الطالبيّين ليستغلوا ماهم في القلوب من تقدير وسمعة طيّبة . ويذكَر أنّ أبا العبّاس السفّاح وأبا جعفر المنصور وغيرهما من آل العبّاس اجتمعوا في مكّة قبل وصولهم إلى الحكم ، بأعيان الطالبيّين[3] ، وبايعوا محمّد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكيّة ، وهو أحد حفدة الحسن بن علي بن أبي طالب ، فأسكتوهم بذلك ولو إلى

(١) انظر تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٣٩٦/٤ وما بعدها .
(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٤٧/٣ وما بعدها .
(٣) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٣٩٧/٤ .

حين عن المطالبة بالخلافة . ولم يكتف العباسيّون بهذا الكسب الشعبيّ الواسع ، فقد ساروا شوطاً بعيداً في أسلوب الاستمالة الدينيّة ، حتى صار الناس يسمعون بأحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ تبشر بخلافة العباسيّين وتتحدّث عن فضائلهم ، ومن ذلك ما روي زوراً أو بهتاناً أنّه عليه الصلاة والسلام قال : يكون من ولد العبّاس ملوك تكون أمراء أُمتي ، يعزّ الله بهم الدين[1] ، ومنها ما ذكر أن المنصور قال : حدَّثني أبي عن جدي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، أن النبيّ ﷺ قال للعبّاس : إذا سكن بنوك السواد ، ولبسوا السواد ، وكان شيعتهم أهل خراسان ؛ لم يزل الأمر فيهم حتى يرفعوه إلى عيسى بن مريم[2] .

وأما على صعيد الإغراء المادي فقد بذلوا الأموال الطائلة لاسترضاء الأنصار وإسكات المطالبيين بالخلافة ، ولا سيّما آل محمّد بن عبدالله ـ النفس الزكية ـ الذي كان السفّاح وأخوه المنصور قد بايعا له[3] ، لذلك ما أنْ أقبل هؤلاء يطالبون السفّاح بعد توليه ببيعتهم ، حتى بذل لهم الأموال ، وقطع لهم القطائع ، ويذكر أنه قال لعبد الله بن الحسن والد النفس الزكيّة : احتكم عليَّ . فقال عبدالله : بألف ألف درهم ، فإني لم أرها قط . فاستقرض المنصور المال من رجل صيرفيّ اسمه ابن أبي مُقَرِّن ، ودفعه إليه ، ووهبه أيضاً ما يعادل ذلك من الجواهر التي غنمها جنده من مروان بن محمّد ، ثم زاده بعد ذلك حين أنِس منه طمعاً ، حتى عاد عبدالله إلى المدينة مثْقلاً بالأموال ، ففرَّقها في أهله الذين كانوا أهل فاقة وعوز[5] .

وإضافة إلى ما تقدم عمد العباسيّون ، لتثبيت ملكهم ، إلى البطش

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٤ .
(٢) المرجع السابق ١٦ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) انظر تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٣٩٨/٤ .

بخصومهم عند أوّل بادرة عصيان كانوا يستشعرونها ، بل إنَّ الأمر بلغ بهم أنَّهم كانوا يقتلون من يتهمونه دونما تحقُّق من التهمة التي كثيراً ما كانت في أساسها شكاً واهياً لا يستند إلى الحقيقةببرهان ، وهم حين كانوا يفعلون ذلك ؛ إمّا تنفيذاً لوصية إبراهيم الإمام الذي كان قال لأبي مسلم الخراساني عندما جعله قائداً على نقبائه ودعاته : «إنَّك رجل مِنّا أهل البيت ، احفظ وصيتي : انظر إلى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإنَّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم ، واتَّهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فإنَّهم العدو القريب الدار ، واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت ألاّ تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل ، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار واتَّهمته فاقتله . .»[1] .

وقد قام أبو مسلم بالوصيّة خير قيام تنفيساً عن شعوبيّته وحقده على العرب والعروبة ويذكر أنَّ عدد الذين قتلهم بدعوى الدعوة العباسيّة بلغ ستّمئة ألف نفس قتلوا دون حرب ، بل غيلة في بضع سنين ، وكان منهم جماعة كبار الدعاة العباسيّين ، كأبي سلمة الخلّال ، وسليمان بن كثير ، والكرماني وأولاده ، وكبار رجاله وغيرهم من المؤيّدين والأنصار الذي لم يشفع لهم ما قدّموه من مال وتضحيات في خدمة الدعوة العباسيّة . ثم جاء دوره هو ، دور أبي مسلم الخراسانيّ حين تولّى المنصور الخلافة ، فاستدرجه حتى قدم عليه وقتله غيلة .

غير أن الأمر لم يقتصر على الدعاة والأنصار ، مما يفضح حجة الشعوبيّة والمجوس ، بل تعدّاه إلى الأقرباء من بني هاشم ، الطالبيّين والعباسيّين ، تحت ستار إثقالهم على الدولة بنفوذهم وأطماعهم الواسعة ، فقد ألقى المنصور القبض على من كان بالمدينة من بني الحسن بن علي ، وفيهم محمّد بن عبدالله النفس

---

(١) المرجع السابق نفسه ٤٠١/٤ نقلاً عن ابن الأثير .

الزكيّة ، وقتلهم ناكثاً بذلك البيعة التي كانت في عنقه لمحمّد المذكور ، وحارب أيضاً عمّه عبدالله بن علي وهزمه ، ثم احتال بعد ذلك في قتله . وقتل كذلك ابن عمّه عيسى بن موسى وكان بلغه أنه ينوي الخروج عن طاعته ، وبقتله استتبَّ أمر الخلافة للمنصور وأولاده من بعده ، ولم يعد يحول بينهم وبين الاستبداد المطلق حائل .

وغدت روح العاصمة الجديدة بغداد تختلف كلّيّاً عن روح دمشق ، وعلى الرغم من أنّ العرب ظلّوا يتوافدون على بلاط المنصور ، إلا أنه لم يعد في ميسورهم أن يقرّبوا الخليفة كما كانوا[1] يفعلون زمن عبد الملك ، وكأنما هو الأوّل بين عدد من الأقران . فخليفة بغداد لم يكن ، بأي حال ، شيخاً من شيوخ القبائل ، بل خلف لملوك الفرس الكبار .

وفي السنوات التوالي نشأ عند خلفاء بغداد شوق إلى استطلاع الكتب الفارسيّة عن أسلوب التشريفات الذي كان يتّبعه الساسانيّون ، رغبة في محاكاته وتقليده ، ولم يعد التقدُّم في البلاط ، والمكانة في الحكومة امتيازاً وراثياً مقصوراً على الأشراف ، بل أصبح الخليفة يقدِّم من يشاء ويؤخِّر من يشاء ، وانتهت الخلعة - ولم تكن معروفة زمن الأمويّين - إلى أن تكون آية على الحظوة عند الخلائف من بني العبّاس . فبينما كان الأمويّون يكتفون في أغلب الأحيان بحاجب ينيطون به أمر ادخال الناس عليهم ، نجد أنَّ عدد الحجَّاب والخدم في البلاط العباسيّ يزداد في اطراد ، ولا عمل لهم إلّا الحؤول بين الخليفة وأفراد الشعب ، وإقامة العقبات بينه وبينهم[2] .

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية صفحة ١٧١ .
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ١٧٨ لبروكلمان .

والواقع أن الخلفاء العباسيّين نفضوا أيديهم ، أو كادوا ، من تصريف شؤون الدولة ، ملقين عبء ذلك على غارب الوزراء ، ولكنّهم تصرّفوا في ما يتصل بالموت والحياة مباشرة . فقد كان الجلّاد ، وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية قبل ذلك العهد ، يلازم الخليفة دائماً ، وكان النطع حاضراً أبداً ، قرب العرش لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها .

كذلك تدين الامبراطورية العباسيّة للمنصور بالقواعد التي قامت عليها حكومتها. والواقع أنّه احتفظ في الأعمّ الغالب، بنظام العمل الذي جرى عليه البيزنطيّون والساسانيّون ، والذي جرّبه الأمويون من قبل ، وكان يسعى أبداً إلى أن يُعيّن على رأس كلّ ولاية عاملاً كفؤاً بارعاً . صحيح أنّه لم يستطع أن ينسى آله وذوي قُرباه في معرض هذا التعيين ، ولكنّه مع ذلك لم يحجم مطلقاً عن رفع مواليه وعتقائه إلى أسمى المناصب ، وكان في ميسوره أن يراقب أحسن المراقبة الإدارة في الولايات عن طريق نظام البريد ، هذا النظام الذي نستطيع أن نقول إنّه لم ينشأ حقّاً إلاّ في عهد المنصور(1) ، بالرغم من وجوده أيّام الأمويّين . وكان أصحاب البريد مسؤولين عن جهاز الاستعلامات كلّه في الحكومة ، ولكنّ واجبهم الرئيسي كان إبقاء الخليفة على اطّلاع دائم بمسالك عماله في الحكم ، وكانت تقاريرهم المطّردة الدقيقة ذات فائدة كبيرة للمصلحة العامة . فالأنباء التي اعتاد إرسالها عن أحوال الزرع مثلاً ، كانت تساق على اتّخاذ الاحتياطات المناسبة ضد أيّ نقص في الغلال ، ليس هذا فحسب ، بل إن سجلّات المحطّات البريدية التي وضعوها لَتُؤلّف أحدَ المصادر التي نشأ عنها في الجيل الثاني ، علم الجغرافيا عند العرب .

---

(1) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان صفحة ١٨٠ .

وقرَّب المنصور إلى بلاطه علما الفقه والحديث الذين كانوا حتى ذلك الحين منعزلين في المدينة ، يتآمرون في السرِّ على الدولة الأمويّة ، لقد تمَّ لهم في النهاية تحقيق المثل الأعلى (الثيوقراطي) الذي حلموا به ، بعد أن تولّى آلُ بيت النبي زمام السلطات كرَّة أخرى . والأمر الذي لا شكَّ فيه أن اثنين من مؤسسي أقدم المذاهب الفقهية الباقية إلى اليوم ، كانا يعطفان على العلويّة ، فأمّا ،، أبو حنيفة مؤسِّس المذهب الحنفيِّ ، فكان جده عبداً أُسِرَ أثناءَ فتح كابُل ثم أعتقه سيّده ، وقد عاش أبو حنيفة بوصفه مولى من موالي تيم الله ، مستغنياً عن الناس من طريق تجارة الحرير في الكوفة ، ولقد كان من مؤيّدي زيد بن إبراهيم في ثورته بالبصرة ، وفي سنة ٧٦٧ م ـ ١٤٦ هـ توفي في سجن بغداد ، وكان يعقد حلقة للتدريس في الكوفة ، ويفتي في المسائل الشرعيّة ، وهو في فتاواه يلزم السنّة لزوماً شديداً ولا يُفسح المجال أمام الاجتهاد بأكثر ممّا فعل أيٌّ من أصحاب المذاهب الأخرى ، والحقُّ أنَّ حسد رجال المذاهب المتأخِّرين ، هو الذي أثار أمثال هذه المآخذ عليه . والتحق الحنفيةُ وشيكا بخدمة الدولة المركزية ، ولقد وفِّق أبو يوسف بوصفه قاضي القضاة في الإسلام ، إلى أن يظفر بإقرارٍ رسميّ لمذهب أبي حنيفة . كذلك وضع كتاباً أساسيّاً لهارون الرشيد في الخراج ، وكان قد سبقه أحد كتّاب المهديّ الذين عملوا أوّل أمرهم في الادارة الأمويّة إلى وصف الأوضاع الواقعيّة في كتاب ألَّفه عن الخراج .

الشعراء من بني العباس

اشتهر العباسيّون برعايتهم للشعر ، حتّى كانت جوائزهم تصل إلى ألوف الدنانير ، يكافئون بها الشاعر أحياناً على بيت واحد يستحسنون نظمه في جلسة من جلسات لهوهم الكثيرة .

ويروى أنّ المهدي رسم لِمَرْوَانَ بن أبي حفصة مئة ألف درهم على مِدْحته . وتجاوز ابنه الهادي رسمَهُ هذا ، فأعطى مروان على مدحته فيه مئة وثلاثين ألفَ درهمٍ . ويقال : إنَّ سَلَماً الخاسر أنشد الهاديَّ مدحة ، فأعطاه ثلاثمئة ألف درهم . وكان الرشيد يجزل للشعراء والمغنّين ، ويذكر أنّه وصل سَلَماً الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألفَ دينارٍ . ومثله كان الأمين الذي أجاز عبدالله بن أيّوب التميميّ الشاعر يوما بمئتي ألف درهم [1] ، والأمثلة التي تدلّ على كرم الخلفاء مع الشعراء أكثر من أن تحصى ، وكتب التاريخ والأدب حافلة بها ، وهي تدلُّ على قيمة الشعر عند الخلفاء العباسيّين ، وعظيم تقديرهم لقائليه .

وليس عجيباً بعد هذا أن نقرأ في تراجم الخلفاء أشعاراً كثيرة تنسب إليهم في المناسبات المختلفة ، والأغراض الشعريّة المتنوّعة ، وإنّنا إن لمسنا تفاوتاً في أشعار الخلفاء هؤلاء ، من حيث الكميّة والجودة ، فلن نجد خليفة منهم لم يقرض الشعر في ساعة من ساعات اللهو أو الإحساس بالعزِّ أو الندم على ما فات .

ويكاد الأمراء العباسيُّون يشاركون الخلفاء في هذا الميل الأدبي الذي يَسِمُهُمْ جميعاً . فالمؤرّخون يتحدّثون كثيراً عن جوائزهم السنيّة التي كانوا يمنحونها للشعراء ، ويروون للكثيرين منهم أشعاراً متنوّعة في أبواب الشعر المعروفة كلّها ، وإنَّ منهم من غلب عليه الشِّعْرُ حتى عُرِف به وشهر شهرةَ الفطاحل من شعراء العصر العباسيّ .

ونحن الآن بصدد استعراض ما استجدْناه من شعر هؤلاء الخلفاء والأمراء ، وذكر بعض ما كانت تحفل به مجالسهم الأدبيّة من طرائف ، ثم ننثني بعد ذلك لندرس بالتفصيل شعر الخليفة ابن المعتز الذي يعتبر علماً من أعلام الشعر في هذا العصر ، ليس فحسب بل ومن أساطين الكتابة والبيان في عصره .

(١) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ٤٦ .

الفصل الأول
الدور العباسي الأول
١٣٢ - ٢٣٢ هـ/٧٥٠ - ٨٤٧ م

١ - أبو العبّاس السفاح ١٠٤ - ١٣٦ هـ/٧٢٢ - ٧٥٤ م
مدة حكمه ١٣٢ - ١٣٦ هـ «أربع سنوات وثمانية أشهر» .

٢ - أبو جعفر المنصور ٩٥ - ١٥٨هـ/٧١٤ - ٧٧٥ م مدة حكمه ١٣٦ - ١٥٨ هـ «اثنتان وعشرون سنة» .

٣ - عبدالله بن علي . عمّ السفّاح والمنصور ١٠٢ - ١٤٩ هـ/٧٢١ - ٧٦٨ م وعد بولاية العهد لكنه قتل «عشر سنوات وأشهر» .

٤ - محمّد المهديّ بن المنصور ١٢٦ - ١٦٩ هـ/٧٤٤ - ٣٧٨٥ مدة حكمه ١٥٨ - ١٦٩ هـ .

٥ - موسى الهادي بن المهديّ ١٤٧ - ١٧٠ هـ/٧١٤ - ٧٨٦ م مدة حكمه ١٦٩ - ١٧٠ هـ «سنة وشهران» .

٦ - هارون الرشيد بن المهديّ ١٤٨ - ١٩٣ هـ/٧٦٤ - ٨٠٩ م مدة حكمه ١٧٠ - ١٩٣ هـ «أربع وعشر من سنة» .

٧ - محمّد الأمين بن هارون الرشيد ١٧١ - ١٩٨ هـ/٧٨٧ - ٨١٣ م مدة حكمه ١٩٣ - ١٩٨ هـ «أربع سنوات ونصف» .

٨ - إبراهيم بن المهديّ ١٦٢ - ٢٢٤ هـ/٧٧٧ - ٨٣٩ م مدة حكمه ٢٠٢ - ٢٠٤ هـ «سنتان» .

٩ - عبدالله المأمون بن الرشيد ١٧٠ - ٢١٨ هـ/٧٨٦ - ٨٣٣ م مدة حكمه ١٩٨ - ٢١٨ هـ «عشرون سنة ونصف» .

١٠ - محمد المعتصم بن الرشيد ١٨٧ - ٢٢٧ هـ/٧٩٣ - ٨٤٢ م مدة حكمه ٢١٨ - ٢٢٧هـ «تسع سنوات ناقصة» .

١١ - هارون الواثق بالله بن المعتصم ١٩٦ - ٢٣٢ هـ/ ٨١٠ - ٨٤٧ م مدة حكمه ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ «ست سنوات ناقصة» .

١٢ - ويلحق بهم : هبة الله بن إبراهيم المهدي ٢١١ - ٢٧٥ هـ/ ٨٣٤ - ٨٨٨م .

أبو العبّاس السفّاح
١٠٤ ـ ١٣٦ هـ/٧٢٢ ـ ٧٥٤ م

هو عبد الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلّب بن هاشم ، وكنيته أبو العبّاس . والسفّاح لقب لحقه لكثرة ما سفك من دماء الأمويّين والطالبيّين والعرب . ولد في مستهلّ رجب سنة ١٠٤ هـ بالحميمة ناحية البلقاء ونشأ فيها .[١]

أمّه رَيْطَةُ بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان ، ورزق من الولد اثنين : محمد ، من أم ولد ، ومات صغيراً ، وابنة سماها ريطة ، من أم ولد ، تزوّجها المهدي وأولدها علياً وعبيد الله .

وكان أبيض طويلاً أقنى الأنف ، حَسَنَ الوجه ، حَسَنَ اللحية جعدَها ، نقشُ خاتمه «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن» ، وكان هو والمهدي والأمين الوحيدين من الخلفاء العباسيين من أمهات عربيات .

وهو الذي قاد الانقلاب الشعوبي ضد الدول الأمويّة العربيّة العرباء ، وأوّل

---

(١) انظر العقد الفريد ١١٣/٥ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣١١ ـ ٣١٤ .

خلفاء بني العبّاس ، إذ بويع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومئة ١٣٢ هـ[١] ، واتخذ الأنبارَ عاصمة له ، فجدّدها وابتنى فيها القصور ، وتوفي بالأنبار لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ستّ وثلاثين ومئة ١٣٦ هـ بمرض الجدري ، فكانت مدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر . وصلّى عليه عمّه عيسى بن عليّ .

وَزَرَ له أبو مسلم الخراساني ثم أبو سلمة حَفْص بن سليمان الخلّال ، وهو أوّل من لُقِّب بالوزارة د ثم قتله أبو العبّاس واستوزر بعده خالد بن برمك آخر أيّامه ، وكان حاجبَهُ أبو غسّان صالحُ بن الهيثم ، وقاضيه يحيى بن سعيد الأنصاريّ[٢] .

وقال الذهبي في دولة أبي العباس : بدولته تفرّقت الجماعة ، وخرج عن الطاعة ما بين تَاهَرْتَ وطبنة إلى بلاد السودان ، وجميع مملكة الأندلس ، وخرج بهذه البلاد مَن تغلَّبَ عليها ، واستمرّ ذلك[٣] .

وقال المؤرّخون في دولة بني العبّاس افترقت كلمة الإسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأدخل الأتراك في الديوان ، واستولت الدَّيْلَم ، ثم الأتراك ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وأنقسمت ممالك الأرض عدة أقسام ، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ، ويملكهم بالقهر[٤] .

وكان السفاح أديباً ، وفي خطبه بلاغةٌ واضحة ، فيوم البيعة له صلّى بالناس الجمعة ، وقال في الخطبة : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام[٦] لنفسه فكرّمه

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣١٣ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣١٤ .

وشرفه وعظّمه ، واختاره لنا وأيّده بنا ، وجعلنا أهلَه وكهفه وحصنه والقوَّام به والذَّابِّين عنه . . . . يا أهل الكوفة أنتم محلُّ محبتنا ومنزل مودتنا ، لم تَفْتُروا عن ذلك ، ولم يثْنِكُم عنه تحامل أهل الجور ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدت في أعطياتكم مئة مئة ، فاستعدوا فأنا السفّاح المبيح ، والثائر المبير .

وقال السيوطي : ذكر عنه أنه قلَّ ما يروى له من الشعر . ومع هذا فقد ذكروا أنه بعد أن أَوْلَمَ تلك الوليمة النكراء التي لم يذكر التاريخ أبشعَ منها ـ للأمراء الأمويّين وفتكَ بهم الفتكة البشعة ، إذ ضُربوا بالعَمَدِ حتى قتلوا ، وبسطت النطوع عليهم ـ فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنينهم حتى ماتوا جميعاً ، فقال في ذلك شعراً :

بَني أُمَيَّـةَ قَـدْ أَفْنَيْتُ جَمْعَكُمُ ... فَكَيْفَ لي مِنْكُمُ بِالأَوَّلِ الْمَاضي ؟
يُطَيِّبُ النَّفْسَ أَنَّ النَّارَ تَجْمَعُكُمْ ... عُوِّضْتُمُ مِنْ لَظَاهَا شَرَّ مُعْتَاضِ
مُنيتُمُ ـ لَا أَطَالَ الله عِشْرَتَكُمْ ـ ... بِلَيْثٍ غَابٍ إِلى الأَعْدَاءِ نَهَّاضِ
إِنْ كَانَ غَيْظي لِفَوْتٍ مِنْكُمُ فَلَقَدْ ... مُنيتُ مِنْكُمْ بِمَا رَبِّي بِهِ رَاضي[1]

ويروىٰ عنه أنه كان يحفظ بعض الأشعار لمن سبق للشعراء أن وفدوا عليه ما دحين ، وكانوا قد مدحوا بني أميّة ، فقد ذكروا أن أبا بُجيلة دخل عليه واستأذنه في الإنشاد ، فقال له : لعنكَ الله ! ألست القائل لمسلمة بن عبد الملك :

أَمَسْلَمَةُ يَـا خَـيْرَ نَجْـلِ خليفَـةٍ ... وَيَا فَارِسَ الهَيْجَا وَيَاجَبَلَ الأَرْضِ
شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الُتقى ... وَمَـاكُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَـهُ نِعْمَةً يُقْضي
وَأَلْفَيْتُ لَمَّـا أَنْ أَتَيْتُـكَ زَائـراً ... عَلَيَّ لِحَافاً سَابِغَ الُطولِ وَ العَرْضِ

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : إن الدين عند الله الإسلام .

وَنَبَّهْتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلاً   وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ

ثم أمره بعد ذلك أن ينشده ، فأنشده أرجوزة طويلة يمدحه فيها ، منها قوله :

كُنَّا أُنَاساً نَرْهَبُ الهُلاَّكَا   وَنَرْكَبُ الأَعْجَازَ وَالأَوْرَاكَا
وَكُلُّ مَا قَدْ مَرَّ في سِوَاكَا   زُورٌ وَقَدْ كَفَّرَ هَذَا ذَاكَا[1]

---

(١) انظر زهر الآداب ٦٧/٤ .

أبو جعفر المنصور
٩٥ ـ ١٥٨ هـ/ ٧١٣ ـ ٧٧٥ م

هو عبدُ الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم . والمنصور لقب أُطلق عليه وكنيته أبو جعفر ، لأنه يعتبر المؤسِّس الحقيقي للدولة العباسيّة ، إذ خلَّص الحكم من الطامعين بالخلافة ، وبني أعمدة الحكم وأرساها على أسٍ ثابتة . ولد بالشراة[1] لسبعٍ خَلَوْنَ من ذي الحجة سنة خمسٍ وتسعين ٩٥ هـ . وهو أكبر من أخيه أبي العبَّاس ، ولم يبايع له أبوه قبله لأن أمّة كانت بربريّة اسمها سَلاَمَةُ .

بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه أبي العبّاس لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ستّ وثلاثين ومئة ١٣٦ هـ . وتوفي بمكة قبل التروية[2] بيوم ، لسبع خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومئة ١٥٨ هـ وهو مُحْرِمٌ ، ودفن بالحَجُون[3] ، وصلّى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن

---

(١) الشراة : صقع بالشام بين دمشق والمدينة ، ومن بعض نواحيه الحميمة المعروفة التي كان يسكنها ولد علي بن عبدالله بن عباس أيام حكم مروان بن عبد الملك .

(٢) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة وهو الثامن من ذي الحجة .

(٣) الحجون : جبل بأعلى مكة عند مدافن أهلها .

العبّاس ، فكانت مدّة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلّا ثمانية أيّام وهو ابن ثلاث وستين سنة(١) .

وكان أسمر طُوالاً نحيف الجسم ، خفيف العارضين يخضب بالسواد ، ونقشُ خاتمة «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن» . وتزوَّج بنْتَ منصورٍ الحميريّة ، فولدت له محمّداً وهو المهديّ ، وجعفراً . وكانت شرَطَتْ عليه ألّا يتزوَّجَ ولا يتسرّى إلّا عن أمرها . وكان قد ابتاع جاريتَهُ أُمَّ عليّ وجعلها قَيِّمة على أُمِّ موسى(٢) وأولاده ، فخطيتْ عند أمّ موسى ، وسألته التسرّى بها لما رأت من فضلها ، فواقعها ، فأولدها علياً ، فتوفي قبل استكمال سَنَةٍ ، ثم تزوَّج فاطمةَ بنتَ محمّدٍ ، من ولد طلحة بن عبيد الله ، فولدت له سليمان ، وعيسى ، ويعقوب . ورزق من أمّهات الأولاد : صالحاً ، والعالية أو الغالية وأمّها من ولد خالد بن أسيد ، وجعفراً ، والقاسم ، والعبّاس ، وعبد العزيز .

ووزَرَ له ابنُ عطية الباهليّ ، ثم أبو أيوبَ الموريانيّ ، ثم الربيع مولاه . وكان حاجبه عيسى بن روضة مولاه ، ثم أبو الخصيب مولاه . وكان قاضيَةُ عبد الله بن محمدّ بن صفوان ، ثم شريك بن عبد الله ، والحسن بن عمار ، والحجّاج بن أرطاة(٣) .

وكان أوّل عمل قام به أنْ قتلَ أبا مسلم الخراساني صاحبَ دعوتهم ومُمَهِّدَ مملكتهم . وقال أبو المظفر الأبيوردي : كانوا يقولون : ملَكَ الدنيا ابنا بربريتين : المنصور وعبد الرحمن بن معاوية ، ثم شرع ببناء عاصمة ملكة بغداد سنة ١٤٠ هـ ، وفي سنة ١٤٣ هـ شرع علماء الإسلام بتدوين الحديث والفقه والتفسير

---

(١) العقد الفريد ١١٤/٥ .
(٢) أم موسى هي بنت منصور الحميرية .
(٣) العقد الفريد ١١٤/٥ ـ ١١٥ .

ولم يمض على حكمه عشر سنوات حتى توطَّدت الممالك كلُّها للمنصور ، عدا جزيرة الأندلس فقد غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي المروانيّ ، وفي سنة ١٥١ هـ بنى الرُّصَافَةَ وشيَّدَها . وفي سنة ١٥٣ هـ أُلزم المنصور رعيَّتَّهُ بلبس القلانس الطوال . وفي سنة ١٥٨ هـ أمر المنصور نائب مكّة بحبس سفيان الثوريّ وعبّاد بن كثير ، فَحُبِسَا ، وتوقع الناس أن يقتلَهُمَا المنصور إذا ورد الحج ، فلم يوصِلْه الله مكَّةً سالماً ، بل قدم مريضاً وماتَ ، وكفاهما الله شرَّهُ ، وقال سَلَمُ الخاسِر في ذلك[1] .

قَفَلَ الحَجيجُ ، وَخَلَّفُوا ابْنَ مُحَمَّدٍ   رَهْناً بِمَكَّةَ في الضَّـرِيح المُلْحَـدِ
شَهِدُوا المَنَاسِكَ كُلَّهَا ، وَإِمَامُهُمْ   تَحْتَ الصَّفَائحِ مُحْرِماً لَمْ يَشْهَـدِ

كانت وصيّة أبي العبّاس أن يكون عيسى بن موسى وليَّ عهد أبي جعفر ، ولكنَّ أبا جعفر خلع عمَّهُ من ولاية العهد ، وعَهِدَ بها إلى ابنه المهديّ . وكان المنصور فيما يزعمون بخيلاً جداً بعكس أخيه السفّاح الذي ما طولب بشيءٍ إلاّ أعطاه .

ثقافته وشعره . .

كان أبو جعفرٍ المنصور ذكياً بليغاً وخطيباً ، فقد أُخرج عن إسماعيل الفهري قال : سمعت المنصور في يوم عرفة على مِنْبر عرفة يقول في خطبته : أيُّها الناسُ إنّما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنه على فيئه ، أُقَسِّمَه بإرادته وأعطيه بإذنه ، وقد جعلني الله عليه قُفْلاً ، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم ، وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني ، فارغبوا إلى الله أيُّها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم في كتابه إذ

(١) انظر تاريخ الخلفا للسيوطي ٣١٨ .

يقول : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً»[1] أن يوفقني للصواب ، ويسدّدني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ، ويفتحني لإعطائكم وقَسْمِ أرزاقكم بالعدل ، فإنّه سميع مجيب[2] .

وأُخرج عن الأصمعيّ وغيره أن المنصور صعِدَ المنبر فقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكّلُ عليه ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَهُ لا شريك له .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ! اذكرْ مَنْ أنت في ذكره[3] .

فقال : مرحباً مرحباً ، لقد ذكَرْتَ جليلاً ، وخَوَّفْتَ عظيماً ، وأعوذ بالله أن أكونَ مِمَّنْ إذا قيل له اتّقِ الله أخذته العزَّة بالإثم ، والموعظةُ منّا بدتْ ، ومن عندنا خرجتْ وأنت ياقائلها فَأَحْلِفُ بالله ما اللهَ أردت بها ، وإنّما أردْتَ أن يُقالَ : قام فقال فعوقب فصبَرَ ، فَأَهْوِنْ بِهَا مِنْ قَائِلِها ، واهْتَبِلْها من الله ، ويْلَكَ[4] ! . إني قد غرفتها ، وإيّاكم معشرَ الناس وأمثالَهَا ، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبده ورسوله . فعاد إلى خطبته فكأنما يقرؤها من قرطاس[5] .

وكان المنصور كما قالوا : إنهفحلُ بني العباس ، كامُل العقل ، جيِّدُ المشاركة في العلم والأدب ، فكان يُثيبُ الأدباء ، فقد أُخرج عن محمد بن حفص العجلي قال : وُلِدَ لأبي دلامة الشاعر ابنةٌ ، فغدا على المنصور فأخبره ، وأنشد :

---

(١) سورة المائدة ٣/٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣١٩ - ٣٢٠ .
(٣) يقصد شهادة أن محمداً رسول الله .
(٤) اهتبلها : اغتنمها .
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٠ .

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ ، لَقِيلَ اقْعُدُوا يَا آلَ عَبَّاسِ
ثُمَّ ارْتَقُوا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلُّكُمُ إِلَى السَّمَاءِ فَأَنْتُمْ أَكْرَمُ النَّاسِ

ثم أخرج أبو دلامة خريطة[1] ، فقال المنصور : ما هذه ؟

قال : أجعلُ فيها ما تأمرُ لي به .

فقال : املؤوها له دراهم ، فوسعت ألفي درهم[2] .

وكان يُحْسِن الاستشهادَ بالشعر ، فقد روي أن رأتْ جاريةُ المنصورِ قميصَهُ مرقوعاً ، فقالت : خليفة وقميصه مرقوع ؟!

فقال : ويحَكِ ! وأما سمعت قول ابن هَرْمَةَ :

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفَ الفَتَى وَرِدَاؤُهُ خَلَقٌ ، وَجَيْبُ قَمِيصِهِ مَرْقُوعُ

وكان فوق ذلك يحبُّ الشِّعر ويوصي بحفظه وروايته ، فقد ذكروا أنّه هو الذي دعا المفضّل الضبِّي إلى جمع المفضليّات ، والّتي تعدّ اليومَ من أهمِّ المجموعات الشعريَّة وأوثقها ، في قصة ذكرتها كتب الأدب وأطنبت بذكرها ، ومُفادُها : مرَّ المنصورُ بالمهدي ابنه وهو يُنْشد المفضّلَ قصيدةً للمُسَيَّبِ ، مطلعها :

* أَرَحَلْتَ مِنْ سَلْمَى بِغَيْرِ مَتَاعِ *

فلم يزلْ واقفاً من حيث لا يشعر به حتى استوفى سماعَها ، ثم صار إلى مجلس له وأمر بإحضارهما . فحدَّث المفضلَ بوقوفه واستماعه لقصيدة المُسيَّب واستحسانه إيَّاهما ، ثم قال له : لو عمدْت إلى أشعار الشعراء المقلِّين واخترت لِفتاكَ لكل شاعرٍ أجودَ ما قال لكان ذلك صواباً . ففعل المفضّل[3] .

---

(١) الخريطة : كالحقيبة .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٢ .
(٣) ذيل الأمالي والنوادر ١٣١ - ١٣٣ .

ومات للمنصور ولدٌ ، فلما عادَ من دفنه ، قال لحاجبه : أنظر مَنْ في أهلي ينشدني قصيدة أبي ذُؤيبٍ الهذلي : «أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِها تَتَوَجَّعُ» أتعزَّى بها .

فسار الحاجب وعادَ ولم يجدْ أحداً يعرفُها . فقال المنصور : إنَّ مصيبتي في أهلي ألاّ يكونَ فيهم من يعرفُ «أَمِنَ المَنُونِ» لأعْظَمُ من مصيبتي في ابني ! .

وقد رُوِي للمنصور شعرٌ قليل ، وله بعض أبيات ذات سيروره على مرِّ السنين وكَرِّ الأعصر ، فهو صاحب البيتين المشهورين :

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ ... فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا
وَلاَتُمْهِلِ الأَعْدَاءَ يَوْماً بِقُدْرَةٍ ... وَبَادِرْهُمُ أَنْ يَمْلِكُوا مِثْلَهَا غداً[1]

وللمنصور شعرٌ في الرثاء ، قاله يرثي به عمرَو بن عبيد ، وكان يودُّه ويحترمُه ، فلمَّا مات عمرو هذا رثاه المنصور بهذه الأبيات :

صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْكَ مِنْ مُتَوَسِّدٍ ... قَبْراً مَرَرْتُ بِهِ عَلَى حَرَّانِ
قَبْراً تَضَمَّنَ مُؤْمِناً مُتَحَنِّفاً ... صَدَقَ الإِلَهُ وَدَانَ بِالقُرْآنِ
وَإِذَا الرِّجَالُ تَنَازَعُوا في سُنَّةٍ ... فَصَلَ الحَدِيثَ بحكمةٍ وَبَيَانِ
فَلَوْ أَنَّ هَذَا الدَّهْرَ أَبْقَى صَالِحاً ... أَبْقَى لَنَا حَيّاً أَبَا عُثْمَانِ[2]

وقد روى أنه وفَدَ عليه مرَّةً ، فقال له : يا أبا عثمان سلْ حاجتك ! قال حاجتي ألا تبعث إليَّ حتى آتيك ، ولا تعطيني حتى أسألك ، ثم نهض ، فقال المنصور :

كُلُّكُمْ مَاشِي رُوَيْدْ ... كُلُكُمْ خَاتِلُ صَيْدْ
غَيْرَ عَمْرِو بنِ عُبَيْدْ

---

(١) انظر زهر الآداب ١٩٢/١ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٤ .
(٢) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠٩/١ .

ومما يُروى عن ذكاء المنصور وألمعيته في حفظ شوارد الشعر[1] وجيِّدة ، وحسن استحضاره ، أنَّه دخل المدينة مرَّةً ، فقال للربيع[2] : اطلب لي رجلاً يُعرِّفُني دورَ الناس فجاء رجل ، فجعل يُعرِّفُه الدورَ ، إلاّ أنّه لا يبتدىء به حتى يسألَهُ المنصور . فلمّا فارقه ، أمر له بألفِ درهم . فطالب الرجلُ الربيعَ بها ، فقال : ما قال لي شيئاً ، وسيركب فذكِّرْهُ . فركب مرة أخرى ، فجعل يُعرِّفُه ، ولا يرى موضعاً للكلام ، فلما أراد أن يفارقَه قال الرجل مبتدئاً : وهذه يا أمير المؤمنين دارُ عاتكةَ الَّتي يقول فيها الأحوصُ :

يـا بَيْتَ عَـاتِكَـةَ الَّـذي أَتَغَـزَّلُ   حَذَرَ العِدَى ، وَبِكِ الفُؤَادُ مُوَكَّلُ

فأنكرَ المنصورُ ابتداءه ، فَأَمَرَّ القصيدة عَلى قلبه[3] فإذا فيها :

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَاتَقُـول ، وَبَعْضُهُمْ   مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ ما لا يُفْعَـلُ

فضحكَ وقال : ويْلَكَ يا ربيعُ ! أَعْطه ألفَ درهم[4] .

وروى الدميريّ في حياة الحيوان الكبرى عن ابن خلِّكان في خبرِ قتل أبي مسلم الخراساني : أنَّ أبا العبّاس السفّاح كانَ شديدَ التعظيم له ، فلما ماتَ السفاحُ وولي المنصور ، صدرت من أبي مسلم أشياءُ أوْغَرَتْ صدر المنصور عليه ، وهمَّ في قتله ، واستشار مسلمَ بنَ قُتَيْبَةَ فشجَّعهُ على قتله . ولم يزلِ المنصور يخدعُهُ حتى أحضَرَهُ إليه بالمدائِن ، ورتَّبَ جماعةً لقتله ، فقتلوه في حضرته ، ثم أنشدَ المنصورُ وأبو مسلم طريحٌ بين يديه :

زَعَـمْتَ أَنَّ الـدِّيـنَ لاَ يُـقْـتَضَى   فَـاسْتَـوْفِ بِـالكَيْـلِ أَبَـا مُجْـرِمِ

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ٢٦٨ .
(٢) الربيع : وزيره وحاجبه .
(٣) يعني استعرضها بذاكرته .
(٤) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٥ .

اشْرَبْ بِكَأْسٍ كُنْتَ تَسْقي بِهَا   أَمَـرَّ في الحَلْقِ مِنَ العَلْقَمِ[1]

وكان قال فيه قبل أن يقتله :

قَـدِ اكْتَنَفَتْكَ خَـلاَّتٌ ثَـلاَثٌ   جَلَبْنَ عَلَيْـكَ مَحْذُورَ الحِمَـامِ
عُـلاَفُـكَ وَامْتِنَـاؤُكَ تَـرْتَمِـيني   وَقَـوْدُكَ لِلْجماهيرِ العِـظَامِ

ومن النوادر الأدبية الجميلة التي كان المنصور ينفح الأدب بها ما يروى عن زعمهم أن المنصور حجّ ، فاستقبله قوم في الطريق ، فلما وصل من ذلك الموضع في وقت الهاجرة ركب نجيباً ولم يكن عليه هودج يقيه حَرَّ الهاجرة ، فجعلت الشمس تتلألأ بين عينيه ، فقال : إني قائل بيتا فمن أجازه وهبت له جبتي هذه ، وقال :

وَهَـاجِـرَةٍ نَصَبْتُ لَهَـا جَبِيني   يُقَـطِّعُ ظَهْـرُها ظَهْرَ القِـطَايَـهْ

وَكَان بَشَّارُ بنُ بُرْدٍ على ما يبدو بين المستقبلين ، فبدَرَ فقال :

وَقَفْتُ بِهَا القُلوصَ فَفَاضَ دَمْعي   عَـلَى خَدِّي وَأَقْصَرَ وَاعِـظَايَـهْ

فنزع المنصور الجبّة وهو راكب فدفعها إليه . وزعموا أن بشّاراً باعها فيما بعد بأربعمئة دينار[2] .

وتناقلت كتب الأدب قصّته مع الشعراء ، والتي تبيّن أنّه كان نقّادةً للشعر ذوّاقة ، ينزع إلى الجدّةِ فيه ، فذكرت أنّ الربيع حاجبه قال له يوما : إن الشعراء ببابكَ ، وهم كثيرون ، طالت أيامهم ونفذت نفقاتهم .

فقال : أخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام و قل لهم : من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد ، فإنما هو كلب من الكلاب ، ولا بالحيَّة فإنما هي دويبة منتنةٌ تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصمٌّ ، ولا بالبحر فإنما هو غطا مِطٌ لجبٌ ،

---

(١) انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ١/٩ ـ ١٠ .
(٢) انظر الأغاني ١٧٨/٣ ـ ١٧٩ .

ومن ليس في شعره هذا فليدخل ، ومن كان في شعره فلينصرف .

فانصرفوا كلهم إلا إبراهيمُ بنُ هَرْمَةَ ، فإنه قال للربيع : أنا له يا ربيع ، فأدخلني . فأدخله ، فلما مثل بين يديه قال المنصور : يا ربيع ! قد علمتُ أنه لا يجيبكَ أحدٌ غيرُهُ ، هات يا بن هرمة ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

إِلَيْـكَ أَمِـيرَ المُؤْمِنِـينَ تَجَـاوَزَتْ بِنَا بِيدَ أَجْـوَازِ الفَلَاةِ الـرَّوَاحِلُ
يَزُرْنَ امْرَأً لَا يُصْلِحُ القَوْمُ أَمْرَهُ وَلَا يَنْتَحِي الأَدْنَوْنَ فِيمَا يُحَـاوِلُ
إِذَا مَا أَتَى شَيْئاً مَضَى كَالَّذِي أَتَى وَإِنْ قَالَ إِنِّي فَاعِلٌ فَهْوَ فَـاعِلُ

فقال المنصور : حسبك ، ها هنا بلغت ، هذا عين الشعر ، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم[1] وتابع .

كَريمٌ لَهُ وَجْهَانِ ؛ وَجْهٌ لَدَى الرِّضَى أَسِيلٌ ، وَوَجْهٌ في الكَرِيهَةِ بَاسِلُ[2]
لَـهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَـافَيْ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا ، فِيهَـا عِقَابٌ وَنَـائِلُ
فَـأُمُّ الَّذي آمَنْتَ آمِنَـةُ الـرَّدَى وَأُمُّ الَّذي حَاوَلْتَ بِالثُّكْلِ ثَاكِلُ
رَأَيْتُكَ لَمْ تَعْدِلْ عَنِ الحَقِّ مَعْدِلاً سِوَاهُ وَلَمْ تَشْغَلْكَ عَنْهُ الشَّوَاغِلُ

فقال المنصور : يا غلام ! ارفع الحجاب ، وأمر له بعشرة آلاف دينار ، والدينار يومئذ بسبعة ، وأعطى الباقين ألفين ألفين[3] .

---

(١) انظر العقد الفريد ١/٣٧٠ - ٣٧١ .
(٢) انظر ذيل الأمالي والنوادر للقالي ٤٠ .
(٣) الرضى : بالألف الممدوة كما ذيل الأمالي ، وبالمقصورة في الملوك الشعراء ١٠٤ والأولى أصح .

عبدالله بن علي
١٠٢ - ١٤٩ هـ/ ٧٢١ - ٧٦٨ م

هو عبدُ الله بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس ، عمُّ أبي العبّاس السفّاح والمنصور . عيَّنه ابنُ أخيه قائداً عَسكرياً لمحاربة الأمويِّين ، وكان أبو العبّاس السفّاح وَعَدَ من يقتلُ مروانَ بنَ محمّدٍ آخرَ خلفاء بني أميّة ، أنْ يكون وليَّ عهده . فقتله عَبْدُالله عَمّهُ فوعده ، وكان هذا الأمير الهاشميّ شاعراً ، وقد حفظت لنا كتبُ الأدب بعضاً من شعره فلمّا قتَلَ عبدُالله بن عليٍّ بني أمية واجتثَّ شأفتهم قال :

الظُّلْمُ يَصْرَعُ أَهْلَهُ وَالبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخيمُ
وَلَقَدْ يَكُونُ لَكَ البَعيدُ أَخاً وَيَقْطَعُكَ الحَميمُ

وقال وهو ينظر إلى القتلى من بني أميّة ومن جندهم يوم الزاب :

لَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَذْهَبَ حُزْنَهَا أَخْذي بِثَأْري مِنْ بَني مَرْوَانِ
نْ آلِ حَرْبٍ لَيْتَ شَيْخي شَاهِدٌ سَفْكي دِمَاءَ بَني أَبِي سُفْيَانِ

وروى ابن عائشة قال : قالت امرأة من نساء بني أميّة لعبدالله بن عليٍّ : نلْتَ من أهلي وذويهم اثني عشر ألفاً ، فيهم ألفا لحية خضيبة ، فقال عبدالله :

تُكَبِّرُ عِنْدِي القَتْلَ ، وَهْوَ صَغِيرُ عَلَى مَأْرَبٍ ، وَالدَّائِرَاتُ تَدُورُ
وَقَالَتْ : قَتَلْتَ الأَهْلَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ وَأَنْتَ بِعَفْوٍ لَوْ تَشَاءُ جَدِيرُ
فَقُلْتُ : وَهَلْ فِيكُمْ لِعَفْوِيَ مَوْضِعٌ وَلِي مِنْكُمُ بَعْدَ القَنَاةِ ثُؤُورُ
لَئِنْ وَنَتِ الأَنْسَابُ مِنَّا وَمِنْكُمُ لَقَدْ بَاعَدَتْهَا بِالعِرَاقِ تَبُورُ
فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يُؤْخَذَ الحَقُّ مِنْكُمُ فَمَا فِي قِصَاصِ المُسْلِمِينَ نَكِيرُ
وَإِنْ تَكُ يُمْنَانَا أَصَابَتْ يَسَارَنَا بِجُرْحٍ فَمَا جُرْحُ اليَمِينِ يَضِيرُ
وَقَدْ كُنْتُمُ فِي الشِّرْكِ تَحْذُونَ حَذْوَنَا وَكُلٌّ إِلَى أَقْصَى المَسَاءِ يَسِيرُ
فَلَمَّا أَتَى الإِسْلَامُ أَظْلَمَ فَخْرُكُمْ وَلَاحَ لَنَا بَدْرُ الفَخَارِ يُنِيرُ
وَلَوْ شِئْتُمُ مَا غَابَ عَنْكُمْ ضِيَاؤُهُ وَلَكِنْ أَبَاهُ غَادِرٌ وَكَفُورُ[1]

وروي عن العتبيّ قوله : ولما أتى عبدَالله بن عليّ موتُ السفّاح ، ادَّعى الخلافة ، فمدحته الشعراء بها ، ومنهم رؤبة .

وتروى لعبدالله أشعار كثيرة في التشفِّي من بني أميّة ، نتجاوز عن ذكرها ، لأنها كمن يأكل لحم أخيه ميتاً . وهو أمر نهىٰ عنه الدين الحنيف ، وتأباه العروبة الحقَّة ، وتشتفي به قلوب الشعوبيِّين ، وما أكثرهم في صفوف هذه الأمة المنكودة بهم .

ولما كتب سليمان بن عليّ وسائر إخوته الأمان لأخيهم عبدالله بن عليّ هذا على المنصور ، قال المنصور : هذا الأمان لازم إذا وقعت عيني عليه ، فلما أدخل داره عُدِلَ به ، ولم يره المنصور ، فحُبِسَ ، فكتب من الحبس إلى أخوته : هذه حيلة جرت عليَّ بكم ومنكم ، فاحتالوا لي فيها . وكتب من سجنه :

نَقَضَ العَهْدَ خَائِسٌ بِالأَمَانِ مُسْتَحِلٌّ مَحَارِمَ الرَّحْمَنِ

(١) انظر أشعار أولاد الخلفاء للصولي من الصفحة ٢٩٧ وما بعدها .

سَلَبَتْنَا الـوَفَـاءَ والحِلْمَ طَـوْعـاً فَـاعْتَلَيْنَـا بِـهِ، بَنُـو مَـرْوَانِ
لَيْتَنِي كُنْتُ فيهِمْ حَـسَـبَ الـعَيْـ ـشِ طَليقَـاً أَجُرُّ حَبْـلَ الأَمَانِ
كُـلُّ عَتْبٍ تُعـيرُ فيـه اللَّيـالي فَـبِـسَـيْـفي جَـنَـيْـتُـهُ وَلِـسَـاني

محمّد المهدي
١٢٦ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٨٥ م

هو محمّد المهديّ بن أبي جعفر المنصور ، وكنيته أبو عبدالله ، واختُلِفَ في سنة ولادته ومَكانها ، فقد ذكر ابن عبدربِّه في العقد الفريد : وكان مولده بالحُمَيِّمةَ يوم الخميس لثلاث عشرة ليلةً خلت من جمادى الآخرة سنة ستٍّ وعشرين ومئه . بينما يذكر جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء : ولد بأَيْذَجَ سنة سبع وعشرين ومئه ، وقيل سنة ست وعشرين[1] .

وأمُّه هي أمُّ موسى بنتُ منصور الحميريّة ، فهو من أبٍ عربيّ وأمّ عربيّة . وكان أسمرَ طويلاً معتدلَ الخلق ، جعْدَ الشعر ، بعينه اليمن نكته بياض ، وكان نقشُ خاتمه : الله ثقة محمّد وبه يؤمن .

تزوَّج ريطةَ بنتَ السفَّاح ، أو ولدها علياً وعبيدَالله . وأوَّل جارية ابتاعها «محياة» فرزق منها ولداً مات قبل استكمال سنة ، وكان يبتاع الجواري باسمها، وتقرّبهن إليه ؛ وأوَّل من حظي منهن عنده «رحيم» ولدت له العبّاسة . ثم حظيت لديه الحظو ة كلُّها «الخيزرانُ» فولدت له موسى وهارونَ والبانوقةَ . ثم «حلّلة

(١) ارجع إلى العقد الفريد ١١٥/٥ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٨ .

وحسنة» وكانتا مغنيتين محسنتين . وتزوَّجَ سنة تسع وخمسين ومئة أُمَّ عبدالله بنتَ صالح بن علي أخت الفضل وعبدالله . وأعتَقَ الخيزران في السنة وتزوَّجها ، وهي أمُّ الخلفاء موسى الهادي وهارون الرشيد[1] . وبخترية وولدت له منصور .

وَزَرَ له أبو عبدالله معاوية بن عبدالله الأشعري ، ثمّ يعقوب بن داود السُّلمي ، ثمّ الفيض بن أبي صالح . واستحجب سلامان الأبرش . واستخلفَ على القضاء محمَّد بن عبدالله بن علاثة ، وعافيةَ بنَ يزيد ، فكانا يقضيان معاً في مسجد الرُّصافة .

بُويع له بالخلافة صبيحة اليوم الذي توفيِّ فيه أبوه لستٍ خَلَوْن من ذي الحجة ، سنة ثمانٍ وخمسين ومئة[2] . وفي سنة تسع وستين ومئة مات المهدي إثر لحاقه صيداً ، فاقتحم الصيدُ خِرْبَةً ، وتبعه الفرس فدقَّ ظهره في بابها ، فمات لوقْتِهِ ، وذلك لثمانٍ بقين من المحّرم ، وقيل مات مسموماً[3] والله أعلم[4] ، وصلّى عليه الرشيد ابنه .

وقال سلم الخاسر يرثيه :

وَبَـاكِيَـةٍ عَـلَى المَهْـدِيِّ عَـبْرَى ... كَأَنَّ بِهَا ، وَمَـا جُنَّتْ ، جُنُونَـا
وَقَـدْ خَمَشَتْ مَحَاسِنَهَا ، وَأَبْـدَتْ ... غَـدَائِـرَهَـا ، وَأَظْهَـرَتِ القُـرُونَـا
لَئِنْ بَـلِيَ الخَلِيفَـةُ بَعْـدَ عِـزٍّ ... لَقَـدْ أَبْقَى مَسَاعِيَ مَـا بَلِينَـا
سَـلاَمُ اللهِ عَـدَّةُ كُـلِّ يَـوْمٍ ... عَـلَى المَهْدِيِّ حَيْثُ ثَـوَى رَهِينَا
تَـرَكْنَـا الـدِّينَ والـدُّنْيَـا جَميعاً ... بِحَيْثُ ثَـوَى أَمِـيرُ المُـؤْمِنِينَـا

---

(١) انظر العقد الفريد ١١٥/٥ .
(٢) ذكرنا أن والده مات لسبع خلون من ذي الحجة انظر العقد الفريد ١١٥/٥ ـ ١١٤ .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣٠ .
(٤) توفي بما سبذان انظر العقد الفريد١١٥/٥ .

وكان المهديّ جوادا مُمَدَّحاً ، مليح الشكل ، مُحَبباً إلى الرعيّة ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقاً كثيراً[1] . . . ولما شب أَمَّرَهُ أبوه على طبرستان وما ولاها وتأدّب وجالس العلماء ، ولما جاءه نعيُ أبيه ببغدادَ ، قام فخطبَ الناس ، فقال : إنَّ أمير المؤمنين عبدٌ دُعيَ فأجاب ، وأُمِرَ فأَطاع ـ واغرورقت عيناه ـ ، فقال : قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبّة ؛ ولقد فارقت عظيماً ، وقُلِّدْتُ جسيماً فعند الله أحتسب أمير المؤمنين ، وبه أستعين على خلافة المسلمين . أيُّها الناس أَسِرُّوا مثل ما تُعلنون من طاعتنا نَهَبْكم العافية ، وتحمَدوا العاقبة ، واخفِضُوا جناح الطاعة لمن نشر مَعْدَلَتَهُ فيكم ، وطوَى الإِصْرَ عنكم ، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مُقدِّماً ذلك ، والله لأفنينَّ عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم[2] .

شعره . .

وراح يعقد في بلاطه مجالس للشعراء وللرواة ينشدونه الأشعار[3] ، ويظهر أنه كان ذا بُصرٍ بالشعر وفنونه ، فقد روَى له الصوليّ شعراً كثيراً ، وقد نقل السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء لمعاً من أشعاره ، كقوله في صِفَة ما بينهم وبين الناس من تابع ومتبوع :

مَـا يَـكُـفُّ الـنـاسُ عَـنَّـا ... مَـا يَمَـلُّ الـنَّـاسُ مِـنَّـا
إنَّمَـا هَمُّـتُـهُـمْ ... أنْ يَـنْـبُـشُـوا مَـا قَـدْ دَفَـنَّـا
لَـوْ سَـلَكْـنَـا بَـطْـنَ أرْضٍ ... فَـلَـكَـانُـوا حَـيْـثُ كُـنَّـا
وَهُـمُ إنْ كَـاشَـفُـونَـا ... فِـي الهَـوَى يَـوْمـاً مَجَنَّـا[4]

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٨ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .
(٣) العقد الفريد ١/٢٨٧ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣٢ .

وفي خبر للصولي عن إسحاق الموصليّ ، قال : كان المهديّ في أوّل أمره يحتجب عن الندماء تشبيهاً بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم ، فأشير عليه أن يحتجب ، فقال : إنّما اللذة مع مشاهدتهم . وكان نديمُهُ المحبّب إلى قلبه عمر بن بزيع أبو حفص ، فقال مشيراً إلى هذا المعنى داعياً ربَّه أن يتمّم نعمته بصحبة هذا النديم ، وإسباغ نعمه التي يلذّها في دنياه ؛ من غناء ، وخمر ، وجوار عطرات ، وقصف ورقص :

رَبِّ تَمِّمْ لي نَعيمي ... بِأَبي حَفْصٍ نَديمي
إنَّما لَذَّةُ عَيْشي ... في غِنَاءٍ وَكُرُومِ
وَجَوَارٍ عَطِرَاتٍ ... وَسَمَاعٍ وَنَعيمِ(1)

وللمهديّ شعر رقيق في الغزل والافتتان بالجواري الحسان ، فقد وصف السيوطي ذلك فقال : شعر المهديّ أرقُّ وألطف من شعر أبيه وأولاده بكثير .

وأسند الصولي عن محمّد بن عمارة ، قال : كان للمهديّ جارية شُغِف بها ، وهي كذلك ، إلا أنها تتحاماه كثيراً ، فدسّ إليها من عرف ما في نفسها ، فقالت : أخاف أن يملّني ويدعني فأموت . فقال المهديُّ في ذلك :

ظَفَرَتْ بِالقَلْبِ مِنِّي ... غَادَةٌ مِثْلُ الهِلَالِ
كُلَّمَا صَحَّ لَهَا وُدِّ ... يَ جَاءَتْ بِاعْتِلَالِ
لَا لِحُبِّ الهَجْرِ مِنِّي ... والتَّنَائِي عَنْ وِصَالِيَ
بَلْ لِإِبْقَاءٍ عَلَى حُبِّ ... يَ لَهَا خَوْفَ المَلَالِ(2)

ومن شعره بجارية كما جاء في فوات الوفيات ٣/٤٠١ وقد تدلَّه في حبِّها ، فملكت عليه دنياه وأصبح لا يطيق العيش بدونها ، واسمها حَسَنَةُ ، قال :

---

(١) المرجع السابق ٣٣٣ .

(٢) المرجع السابق .

أَرَى مَاءً وَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ وَلَكِنْ لاَ سَبِيلَ إِلى الوُرُودِ
أَمَا يَكْفِيكِ أَنَّكِ تَمْلِكِينِي وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ عَبِيدِي
وَأَنَّكِ لَوْ قَطَعْتِ يَدِي وَرِجْلِي لَقُلْتُ مِنَ الرِّضَى : أَحْسَنْتِ زِيدِي[1]

وكتب إلى جاريته الخيزران وهي بربرية وأمّ موسى الهادي وهارون الرشيد ، بعد أن أعتقها وتزوّجها ، وكانت من أحبِّ جواريه إليه ، وهو في منتزه له :

نَحْنُ فِي أَفْضَلِ السُّرُورِ وَلَكِنْ لَيْسَ إِلاَّ بِكُمْ يَتِمُّ السُّرُورُ
عَيْبُ مَا نَحْنُ فِيهِ يَا أَهْلَ وِدِّي أَنَّكُمْ غِبْتُمْ وَنَحْنُ حُضُورُ
فَأَغِذُّوا المَسِيرَ بَلْ إِنْ قَدِرْتُمْ أَنْ تَطِيرُوا مَعَ النَّسِيمِ فَطِيرُوا[2]

وأسند الصوليّ عن ابن أبي كريمة قال : دخل المهديّ إلى حجرة جارية على غفلة فوجدها وقد نزعت ثيابها وأرادت لُبْس غيرها ، فلما رأته غطّت بيدها ، فقصرت كفُّها عنه ، فضحك المهديّ وقال :

نَظَرَتْ فِي القَصْرِ عَيْنِي نَظْرَةً وَافَقَ حَيْنِي

ثم خرج ، فرأى بشار بن برد ، فأخبره وقال : أجِزْ ! فقال بشار :

سَتَرَتْهُ إِذْ رَأَتْنِي دُونَهُ بِالرَّاحَتَيْنِ
فَبَدَا لِي مِنْهُ فَضْلٌ تَحْتَ طَيِّ العُكْنَتَيْنِ[3]

ودخل المهديّ يوماً بعض دوره ، فإذا جارية له نصرانيّة ، واسعة الجيب ، وقد انكشف عمّا بين ثدييها ، وإذا صليب من ذهب معلّق في ذلك الموضع ، فاستحسنه ، فمدّ يده إليه ، فَجَذَبَهُ ، فأخذه ، فولولت الجارية على الصليب ، فقال المهدّي في ذلك :

يَوْمَ نَازَعْتُهَا الصَّلِيبَ فَقَالَتْ: وَيْحَ نَفْسِي أَمَا تَحِلُّ الصَّلِيبَا

(١) انظر تاريخ الرسل والملوك جزء ٣/٥٤٢ ـ ٥٤٣ تفصيل الخبر .
(٢) انظر فوات الوفيات ٣/٤٠١ .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣٣ .

قال : وأرسل إلى بعض الشعراء فأجازه ، وأمر به ، فغنّي فيه . وكان معجباً بهذا الصوت[1] .

وذكروا أيضاً أنَّ المهديَّ نظر إلى جارية له ، عليها تاج فيه نرجس من ذهب وفضّه ، فاستحسنه ، فقال :

يَاحَبَّذَا النَرْجِسُ في التَّاجِ

فأرتج عليه . فقال : من بالحضرة ؟

قالوا : عبدالله بن مالك .

فدعاه وقصّ عليه الأمر وقال : أفتستطيع أن تزيد فيه ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ! ولكنْ دعني أخرج فأفكر !

قال : شأنك . فخرج وأرسل إلى مؤدِّب ولده ، وسأله إجازته ، فقال .

عَلَى جَبينٍ لَاحَ كَالعَاجِ

وأتمَّها أبياتاً أربعة ، فأرسل بها إلى المهديّ ، فأرسل له بأربعين ألفاً ، فأعطى المؤدّب منها أربعة آلاف وأخذ الباقي لنفسه[2] .

وكان للمهديّ ابن نابغ مشهور اسمه إبراهيم ، ولكنّه لم يصل إلى الملك ، وقد زعموا أنه كان أنبغَ أولاد الخلفاء ، له ترسُّلٌ وشعر ، وصنف كتباً ، وله صنعة في الغناء والموسيقى ، حيث كان الموصليان إبراهيم وإسحاق يأخذان عنه ، وكان يحتكم إليه المغنّون في صناعتهم . وهو مشهور وأخباره مبثوثة في كتاب الأغاني ، وكتابنا : قلائد الجمان وفرائد الزمان في طرائف الأدب ونوادره الجزأين الأوّل والثاني . ويبدو أنّه لم يكن ابناً للخيزران أمّ الرشيد والهادي ، فهو أخوهما لأبيهما ،

---

(١) انظر الملوك الشعراء ١٠٨ .

(٢) انظر الملوك الشعراء ١٠٨ .

وكان أسودَ البشرة ، حتى أنَّ الخليفة المأمون قال له : أنت الخليفة الأسود .

وذكر الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين قوله : وأنشد الرشيد عن المهديّ بيتين ، وقال أظنهما له :

يا نفْسُ خُوضي بحارَ العِلْمِ أوْ غُوصي ... فالنّاسُ ما بينَ مَعْمومٍ ومخْصوصِ
لا شَيْءَ في هَذهِ الدُّنْيَا نُحيطُ بهِ ... إلَّا إحاطَةَ مَنْقُوصٍ بِمَنْقُوصِ[1]

---

(١) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي ٣٨ .

موسى الهادي

١٤٧ ـ ١٧٠ هـ/٧٦٤ ـ ٧٨٦ م

هو أبو محمّد موسى الهادي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور رابع الخلفاء العباسيّين ، وأمُّهُ أُمُّ ولدٍ بربرية اسمها الخيزران وهي أمّ الرشيد أيضاً ، ولد بالريِّ سنة سبع وأربعين ومئة ١٤٧ هـ ، وبويع بالخلافة بعد أبيه في مستهلٍّ صفر سنة تسع وستين ومئة بعهد منه ، وأقام في الخلافة سنة وشهرين إلا أيّاماً ، وتوفي ليلة الجمعة لأربَع عَشْرَةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومئة ١٧٠ هـ بعيساباد[1] وصلّى عليه أخوه الرشيد .

ولم يلِ الخلافةَ قبلَه أحدٌ في سِنّه ، وكان يسمّى موسى أُطْبِقْ ، لأنّ شفته العليا كانت تقلص ، وكان يتناول المسكّر ، ويلعب ، ويركب حماراً فارهاً ، ولا يقيم أبّهة الخلافة[2] ، وكان أبيض طويلاً جسيماً ، نقشُ خاتمة «الله ربّي» تعلوه هيبة ، وله سطوة وشهامة .

---

(١) عيساباد : محلة كانت بشرقي بغداد تنسب إلى عيسى بن المهدي . انظر العقد الفريد ٥/١١٦ حيث يقول إنه توفي وعمره ست وعشرون سنة فهذا يعني أنه ولد سنة ١٤٤ هـ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

تزوّج أَمَةَ العزيز ، فأولدها عيسى ، ثم تزوّج رحيم ، فأولدها جعفراً . ثم سعوف ، فأولدها العبّاس[1] . واشترى جارية حسنة بألف درهم ، وكانت شاعرة ، فرزق منها عدّة بنات ، منهنّ أم عيسى التي تزوّجها المأمون . وكان له من أمّهات الأولاد ؛ عبدالله ، وإسحاق ، وموسى وكان أعمى[2] .

واختلف في سبب موته ، فقيل : إنّه دفع نديماً له من جرف على أصول قصب قد قطع ، فتعلّق النديم به ، فوقع ، فدخلت قصبة في منخره ، فماتا جميعاً .

وقيل : أصابته قُرْحَةٌ في جوفه .

وقيل : سمَّتْهُ أمّه الخيزران ، لما عزم على قتل أخيه الرشيد ليعهد إلى ولده .

وقيل : كانت أمّه حاكمة مستبدة بالأمور الكبار ، وكانت المواكب تغدو إلى بابها . فزجرهم عن ذلك ، وكلّمها بكلام وقح ، وقال : لئن وقف ببابك أمير لأضربنَّ عنقه ! أمالكِ مِغزل يشغَلكِ ، أو مُصحف يذكرك ، أو سُبحة ؟

فقامت ما تعقل من الغضب ، فقيل : إنّه بعث إليها بطعام مسموم ، فأطعمت منه كلباً فانتثر ، فعملت على قتله لمّا وعك بأن غمّوا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه[3] .

وكانت أمّه ترغب في أن تكون الخلافة بعده لابنها الآخر هارون الرشيد كما عهد والدهما لهما ، وكان هو يحاول أن يقنع أخاه أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، لينصب ابنه بدلاً عنه . وله في ذلك شعر لمّا امتنع هارون أن يخلع نفسه ، قال :

---

(١) سعوف : أو شغوف انظر الحاشية ٤ في العقد الفريد ١١٦/٥ .
(٢) انظر العقد الفريد ١١٦/٥ .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء ٣٣٦ - ٣٣٧ .

نَصَحْتُ لِهَارُونَ فَرَدَّ نَصيحتي وَكُلُّ امْرِىءٍ لاَ يَقْبَلُ النُّصْحَ نَادِمُ
وَأَدْعُوهُ لِلأَمْرِ المُؤَلِّفِ بَيْنَنَا فَيُبعِدُ عَنْهُ ؛ وَهُوَ في ذَاكَ ظَالِمُ
وَلَوْلاَ انْتِظَارِي مِنْهُ يَوْماً إلى غدٍ لَعَادَ إلى مَا قُلْتُهُ وَهُوَ رَاغِمُ[1]

ويروى عنه أنّه كان جبّاراً ، وهو أوّل من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة ، والقسي الموتره . وكان يجزي العطاء للشعراء . فقد مدحه مرة مروان بن أبي حفصة حتى إذا بلغ قوله :

تَشَابَهَ يَوْماً بَأْسُهُ وَنَوَالُهُ فَمَا أَحَدٌ يَدْرِي لأَيِّهِمَا الفَضْلُ

فقال له الهادي : أيّما أحبّ إليك ثلاثون ألف معجّلة ، أو مئة ألف تدور في الديوان ؟

قال : تعجلُ الثلاثون وتدور المئة ألف .

قال : بل تعجلان لك جميعاً . فحمل له ذلك[2] .

وقد أخرج الخطيب عن الفضل قال : غضب الهادي على رجل ، فكُلِّمَ فيه ، فرضي . فذهب يعتذر ، فقال له الهادي : إن الرضا قد كفاك مؤنة الاعتذار[3] .

وقال الصولي : لا نعرف امرأة ولدت خليفتين إلاّ الخيزران أم الهادي والرشيد . وولاّدة بنت العبّاس العبسيّة زوج عبد الملك بن مروان ، ولدت له الوليد وسليمان . وشاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، زوّج الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ولدت له يزيد الناقص وإبراهيم ، وقد وليا الخلافة .

وقال السيوطي : قلت يزاد على ذلك ؛ باي خاتون سرِّيّة المتوكّل الأخير ،

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣٧ .
(٢) تاريخ الخلفاء لسيوطي ٣٣٨ .
(٣) تاريخ الخلفاء ٣٣٧ .

ولدت العبّاس وحمزة ووليا الخلافة . وكزل سريته أيضاً ، ولدت داود وسليمان ووليا‌ها[1] .

وروى الصولي عن سعيد بن سلم قال : إني لأرجو أن يغفر الله للهادي بشيء رأيته منه ؛ حضرته يوماً وأبو الخطّاب السعدي ينشده قصيدة في مدحه ، إلى أن قال :

يَا خَيْرَ مَنْ عَقَدَتْ كَفَّاهُ حُجْزَتَهُ   وَخَيْرَ مَنْ قَلَّدَتْهُ أَمْرَهَا مُضَرُ

فقال له الهادي : إلَّا مَنْ ؟ وَيْلَكَ !

قال سعيد : ولم يكن استثنى في شعره ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنما يعني من أهل هذا الزمان ، ففكر الشاعر ، فقال :

إلَّا النَّبِيَّ رَسُولَ الله ، إنَّ لَهُ   فَضْلاً ، وَأَنْتَ بِذَاكَ الفَضْلِ تَفْتَخِرُ

فقال : الآن أصبتَ وأحسنت ، وأمر له ، بخمسينَ ألفَ درهم[2] .

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ٣٣٨ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣٩ .

هارون الرشيد
١٤٨ - ١٩٣ هـ/ ٧٦٤ - ٨٠٩ م

هو هارون بن محمد المهدي بن المنصور عبدالله بن محمّد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس. وكنية أبو محمّد وأبو جعفر، والرشيد لقبٌ اقترن باسمه وغلب عليه. وُلد في المحرّم سنة ثمان وأربعين ومئة ١٤٨ هـ، استُخلف بعهدٍ من أبيه، عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربع عشْرَةَ خلت من ربيع الأول سنة سبعين ومئة ١٧٠ هـ، وفي هذه الليلة وُلد له فيها عبدُالله المأمون، وقال الصولي: ولم يكنْ في سائر الزمان ليلةٌ مات فيها خليفة، وقام خليفة، وولد خليفة إلاّ هذه الليلة، وكان الثلاثةُ من أعظم خلفاء بني العباس[1]. ولي الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة.

وأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ، تسمّى الخيزران، بربريّة الأصل، وهي أُمُّ موسى الهادي. تزوّج زُبيدةَ وهو لقب غلب عليها، واسمُها أَمَةُ العزيز، وتُكَنّى أُمَّ الواحد، وهي ابنة جعفر بن المنصور، أولدها محمّداً الأمين. ثم تزوّج مراجِلَ، فأولدها عبدَالله المأمون. ثم ماردة، فأولدها محمّداً المعتصم. ثم نادرَ، فولدت له

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٤٠ وما بعد.

صالحاً . وشجا ، فولدت له خديجة ولُبابة[1] . وسريرة ، ولدت له محمّداً . وبربريّة[2] ولدت له أبا عبسى ثم القاسم ، وهو المؤتمن ، وسكينة . وحث[3] فولدت له إسحاق وأبا العبّاس .

وَزَرَ له جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، وقتلَه في ما يُسمَّى نكبة البرامكة ، ثم وزر له الفضل بن الربيع ، واستحجب بِشْرَ بن ميمون ، مولاه ، ثم محمَّدَ بن خالد بن برمك . واستخلف على قضاء الجانب الغربي نوحَ بن دَرَّاج ، وحفص بن غياث[4] . وكان الرشيد أبيض جسيماً طويلاً وسيماً . قد وخطه الشيب . نقشُ خاتمه لا إله إلاَّ الله ، وخاتم آخر كن مع الله على حذر .

ولعلَّ الرشيد من أشهر خلفاء بني العباس إنْ لَمْ يكن أشهرَهم على الاطلاق ، وقد دام ملكه ثلاثاً وعشرين سنةً ، وأشربت أخباره نوادر الأدب وألفَ ليلة وليلة . وتوفي في جُمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومئة ١٩٣ هـ ودُفن بطوس[5] في قرية يقال لها سناباذ ، وصلّى عليه ابنه صالحاً .

سيرتُه :

كان الرشيدُ أشهرَ شخصيّات التاريخ الإسلامي ، وأكثرَهم شيوعاً في كتب الأدب ، ومن أعظم حكَّامِ العالم ، تجاوزتْ شهرتُه الآفاق ، ووصلت بعهده الدولة العباسيّة قِمَّةَ ازْدِهارها الاقتصادي والثقافي ، واتَّصلت به أشهرُ شخصيات

---

(١) في الطبري بدلاً من لبابة ، العباسة .
(٢) الذي في الطبري أن أم عيسى هي عرابة .
(٣) وحث في الطبري حبث .
(٤) انظر العقد الفريد ٥/١١٧ - ١١٨ .
(٥) انظر تاريخ العرب والاسلام لجرجي زيدان ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لحتى .

العالم وملوكها ونشدوا وِدَّهُ كشارلمان وغيره ، وحِيكتْ حوله القَصَصُ والأساطير ، وارتبط اسمه بقصص ألف ليلة وليلة[٦] .

اجتمعت في عصره المتناقضات ، التُّقَى والتحلُّلُ ، الشجاعة والجبن ، المكر والصراحة والدسُّ ، القوَّةُ والضَعْفُ ، التماجُنُ والوقارُ ، ولَعِبَ الخيالُ والانتحال دوراً كبيراً في التأريخ لتلك الحقبة . ولمْ يجتمع على باب خليفة من العلماء والفقهاء والقراء والشعراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصلُ كلَّ واحدٍ منهم ويجزِلُ له العطاء رافعاً إيَّاهُ إلى أعلى الدرجات[١] .

وكان الرشيد من أفاضل الخلفاء على مرِّ العصور، شاعراً، راوياً للأخبار والآثار ، رفيع الذوق ، مهيباً كريماً . وكان يحجُّ سنةً ويغزو سنةً ، تقيّاً ورعاً يُصلِّي مئة ركعة كل يوم ، ويتصدّق بألفِ درهم من حُرِّ ماله . وكان يحبُّ الشعر والشعراء ويقدِّرُ شعر المديح ، ويميل إلى الفقه ويكره المراء بالدين[٢] ، ولم يُرَ خليفة قبله أكثر عطاء منه ، فقد روي أنه أعطى مرّة سفيان ابن عيينة مئة ألف ، وأجاز إسحاق الموصلي بمئتي ألف ، وأجاز مرّة شاعرة مروان بن أبي حفصة على قصيدة خمسة آلف دينار ، وخلعة ، وفرسا من مراكبه ، وعشرة من رقيق الروم .

شعره :

لقد روي للرشيد شعر كثير في أغراض متعدِّدة ، ولكنّه لم يكن يتعمّد. ذلك إنّما كانت المناسبات تمليه ، والأحداث تستدعيه ، وزعموا أنَّ أوّل شعر قاله كان سنة ولي الخلافة ، فذكروا أنَّ الرشيد حجَّ ودخل داراً فإذا في صدر بيت منها بيت

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي .

(٢) المرجع السابق ٣٤٢ وما بعد .

شعر قد كتب على حائط ، وهو :

أَلَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَمَا تَرَى فَدَيْتُكَ هِجْرَانَ الحبيب كَبيرا ؟

فدعا بدواةٍ وكتب تحته بِخَطِّه :

بَلَى وَالهَدَايَا المُشْعِرَاتِ وَمَا مَشَى بِمَكَّةَ مَرْفُوعَ الأَظَلِّ حَسيرًا[1]

وكان الرشيد ذا بصر بالشعر وفنون القول ، ذوّاقة للأدب ، فقد روي عن سعيد بن مسلم قال : كان فهمُ الرشيد فهمَ العلماء ، أنشده العماني في صفة فرس :

كَأَنَّ أُذْنَيْهِ إِذَا تَشَوَّفَا قَادِمَةً أَوْ قَلَماً مُحَرَّفَا

فقال الرشيد : دع كأن ، وقل : تخال أذنيه ، حتى يستوي الشعر[2] !

وأخرج عن عبدالله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع قال : حلف الرشيد أن لا يدخل إلى جارية له أياماً ، وكان يحبّها ، فمضت الأيَّام ولم تسترضه ، فقال :

صَدَّ عَنِّي إِذْ رَآنِي مُفْتَتَنْ وَأَطَالَ الصَّبْرَ لَمَّا أَنْ فَطِنْ

كَانَ مَمْلُوكِي ، فَأَضْحَى مَالِكِي إِنَّ هَذَا مِنْ أَعَاجِيبِ الزَّمَنْ

ثم أَحضَرَ أبا العتاهية ، فقال له : أَجِزْهما ! فقال :

عِزَّةُ الحُبِّ أَرَتْهُ ذِلَّتِي فِي هَوَاهُ ، وَلَهُ وَجْهٌ حَسَنْ

فَلِهَذَا صِرْتُ مَمْلُوكاً لَهُ وَلِهَذَا شَاعَ مَا بِي وَعَلَنْ

وكان الرشيد من الخلفاء القادرين على استيعاب الشعر ونقده وتقدير أصحابه. فقد روي إسحاق الموصلي ، قال : دخلت على الرشيد ، فأنشدته :

وَآمِرَةٍ بِالبُخْلِ قُلْتَ لَهَا : اقْصِدِي فَذَلِكَ شَيْءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ٣٥٠ .

(٢) المرجع السابق ويلاحظ أن الشاعر اخطأ فنصب خبر كأنّ ولهذا أصلحها الرشيد بتخال بدل كأنّ ، لحرصه ألاّ يلحن الشعراء .

أَرَى النَّاسَ خِلَّانَ الجَوَادِ ، وَلَا أَرَى بَخِيلاً لَهُ في العَالَمينَ خَليلُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ البُخْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ فَأَكْرَمْتُ نَفْسي أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الفَتَى لَوْ عَلِمْتِهِ إِذَا نَالَ شَيْئاً أَنْ يَكُونَ يُنِيلُ
عَطَائِي عَطَاءُ المُكْثِرِينَ تَكَرُّماً وَمَالِي كَمَا قَدْ تَعْلَمِينَ قَليلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الفقرَ ، أَوْ أُحْرَمُ الغِنَى وَرَأْيُ أَمِيرِ المُؤْمنينَ جَمِيلُ ؟

فقال الرشيد : لا ! كيف إن شاء الله ! يا فضلُ ! أعطه مئة ألف درهم .
لله درّ أبيات يأتينا بها ؟ ما أجود أصولها ، وأحسن فصولها !

فقلت : يا أمير المؤمنين ! كلامك أحسنُ من شعري .

فقال : يا فضل ! أعطه مئة ألف أخرى[1] .

وكان الرشيد لَسِناً فصيحاً ويكره أن يلحنَ أحدٌ من الشعراء ، أو المغنّين ، بل قد يؤنّب على اللحن إلّا إذا كانت ممّن يُحسِنَّ الغناء . فقد زعموا أنّ المأمون دخل على والده وعنده مغنية تغنيه ، فلحنت ، فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن . فتغيّر لون الجارية ، وفطن الرشيد لذلك ، فقال : أَأَعلمْتَها بما صنعت ؟

قال : لا والله يا مولاي .

قال : ولا أومأت إليها ؟

قال : قد كان ذلك .

فقال : كن مني بمرأىً ومسمعٍ ، فإذا خرج إليك أمري فانته إليه . ثم أخَذَ دواة وقرطاسا ، وكتب :

يَا آخِذَ اللَّحْنِ عَلَى القَيْنَةِ عِنْدَ الطَّرَبِ
تُرِيدُ أَنْ تُفْهِمَهَا حَدَّ لُغَاتِ العَرَبِ

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

أُقْسِمُ بِاللهِ وَمَا سَطَّرَ أَهْلُ الكُتُبِ
لَلْكَلْبُ خَيْرٌ أَدَباً مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الكُتُبِ

إذا قرأت ما كتبت به إليك فأمر من يضربُكَ عشرينَ مقرعةً جياداً . فدعا المأمُونُ البوابين ثم أمرهُمْ ببطحِهِ وضَرَبِهِ ، فامتنعوا ، فأقسم عليهم ، فامتثلوا أمرَهُ[1] .

وكثيراً ما كان الحبّ يُنطق الرشيد شِعراً ، لا يقلُّ عن شعرِ الفحولِ من الغزليّين رونقاً وجودةً ، كقوله في جواريه الثلاث الذي قلَّده به الملوك والأمراء :

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِسَاتُ عِنَاني وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِي أَعَزَّ مكانِ
مَالِي تُطَاوِعُني البَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأُطيعُهُنَّ وَهُنَّ في عِصْيَاني
مَاذَاكَ إلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الهَوَى وَبِهِ قَوِينَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطاني

ويقال : إنّ إحداهنّ كانت تدعى ذات الخال واسمها حنث ، والثانية تدعى سحرا ، والثالثة ضياءً ، وقد قال فيهن أيضاً :

إنَّ سَحْراً وَضِيَاءً وَحَنَثْ هن سَحْرٌ وَضيَاءٌ وَحَنَثْ
أَخَذَتْ سَحْرٌ وَلاَ ذَنْبَ لَهَا ثُلُثَيْ قَلْبِي وَتِرْبَاهَا الثُّلُثْ

ويقال : إنّه وجّه إلى جاريته سحر هذه لتصير إليه ، فاعتلّت عليه ذلك اليوم بعلة ، ثم جاءته من الغد ، فقال :

أَيَا مَنْ رَدَّ وُدِّي أَمْـ ـسِ لاَ أُعْطيكَهُ اليَوْمَا
وَلاَ وَاللهِ لاَ أُعْطيـ ـكَ إلَّا الصَّدَّ وَاللَّوْمَا
وَإِنْ كَانَ بِقَلْبِي مِنْـ ـكَ حُبٌّ يَمْنَعُ النَّوْمَا
أَيَا مَنْ سِمْتُهُ الوَصْلَ فَأَغْلَى المَهْرَ وَالسَّوْمَا[2]

(١) انظر كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ٥/٢٨٤ وما بعد .
(٢) انظر الأغاني ١٥/١٨ وما بعد .

وقالوا : وبلغ شعره هذا الأندلس فيما بعد فعارضه ملك آخر هو الخليفة المستعين بالله سليمان بن الحكم المرواني ، فقال قصيدته المشهورة التي مطلعها :

عَجَباً يَهابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَاني وَأَهَابُ لَحْظَ فَوَاتِرِ الأَجْفَانِ

وفيها يقول :

لاَ تَعْذِلُوا مَلِكاً تَذَلَّلَ لِلْهَوَى ذُلُّ الهَوَى عِزٌّ وَمُلْكٌ ثَاني

مَا ضَرَّ أَنِّي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً وَبَنُو الزَّمَانِ وَهُنَّ مِنْ عُبْدَاني

إِنْ لَمْ أُطِعْ فيهِنَّ سُلْطَانَ الهَوَى كَلَفاً بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ

وقد جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣٥٣ قوله : ومن شعر الرشيد يرثي جاريته هيلانة ، كما أورده الصولي ، قال :

قَاسَيْتُ أَوْجَاعاً وَأَحْزَانَا لَمَّا اسْتَخَصَّ المَوْتُ هَيْلاَنَا

فَارَقْتُ عَيْشِي حِينَ فَارَقْتُهَا فَمَا أُبَالي كَيْفَ مَاكَانَا

كَانَتْ هِيَ الدُّنْيَا فَلَمَّا ثَوَتْ في قَبْرِهَا فَارَقْتُ دُنْيَانَا

قَدْ كَثُرَ النَّاسُ وَلَكِنَّني لَسْتُ أَرَى بَعْدَكِ إِنْسَانَا

وَالله لاَ أَنْسَاكِ مَا حَرَّكَتْ رِيحٌ بِأَعْلَى نَجْدَ أَغْصَانَا

وليس غريباً أن يكون الرشيد قد أحبَّ وقال شعراً فيمن أحبَّ ، بل الغريب ألاّ يكون قد أُثر عنه إلاّ هذا الشعر القليل ، وهناك من يزعم أن أبياته الثلاثة المشهورة هي من شعر العبّاس بن الأحنف قالها بلسان الرشيد ، وقد اشتهر أمر الرشيد مع هؤلاء الجواري الثلاث ، بحيث روى بعضهم أنه حجّ مع الرشيد آخر حجّة ، فكان الناس يتناشدون له في جواريه :

ثَلاَثٌ قَدْ حَلَلْنَ حِمَى فُؤَادِي وَيُعْطِينَ الرَّغَائِبَ في وَدَادِي

نَظَمْتُ قُلُوبَهُنَّ بِخَيْطِ قَلْبِي فَهُنَّ قَرَابَتِي حَتَّى التَّنَادِي

فَمَنْ يَكُ حَلَّ مِنْ قَلْبٍ مَحَلاًّ فَهُنَّ مِنَ النَّوَاظِرِ وَالسَّوَادِ

وله أيضاً في إحدى هذه الجواري مما أنشده الصولي كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣٥٣ قوله :

يَـا رَبَّـةَ المَـنْـزِلِ بِـالـفَـرْكِ وَرَبَّـةَ الـسُّـلْطَانِ وَالمُـلْكِ
تَـرَفَّـقِـي بِـالله في قَـتْـلِنَـا لَـسْنَـا مِـنَ الـدَّيْلَمِ وَالـتُّـرْكِ

وروى الأصمعيّ في الجزء الثالث من مسالك الأبصار للمسعوديّ وفي الصفحة ٣٦٢ قال : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة ، إذ رأيته قد قلق قلقا شديدا ، فكان يقعُد مرّة ، ويضجع مرة ، ويبكي أخرى ، ثم أنشأ يقول :

قَلِّدُوا أُمُـورَ عِبَـادِ الله ذَا ثِقَـةٍ مُـوَحَّدِ الـرَّأْيِ لاَ نِكْسٌ وَلاَ بَرِمُ
وَاتْرُكْ مقَالَةَ أَقْوَامٍ ذَوِي خَطَلٍ لاَ يَفْهَمُـونَ إِذَا مَـا مَعْشَرٌ فَهِمُـوا

قال : فلما سمعتُ منه ذلك علمت أنه يريد أمر عظيما ، وتتمة الخبر أنه عقد لعبدالله المأمون بعد أخيه محمّد الأمين .

ويقال أنّه لمّا عقد البيعة لابنه الأمين ، قبل أخيه المأمون ، وهو أصغر من المأمون ، وكان ذلك لأجل أمّه زبيدة ابنة جعفر ، وكلام أخيها عيسى بن جعفر بن المنصور ؛ جعل يرى فضل عقل المأمون فيندم على ذلك ، وزعموا أنه قال في ذلك :

لَقَدْ بَانَ وَجْهُ الرَّأْيِ لِي غَيْرَ أَنَّنِي غُلِبْتُ عَلَى الأَمْرِ الَّذي كَانَ أَحْزَمَا
فَكَيْفَ يُرَدُّ الدَّرُّ في الضَّرْعِ بَعْدَمَا تَـوَزَّعَ حَتَّى صَـارَ نَهْبـاً مُقَسَّـمَا
أَخَافُ الْتِوَاءَ الأَمْرِ بَعْدَ اسْتِوَائِهِ وَأَنْ يُنْقَضَ الحَبْلُ الَّذي كَانَ أُبْرِمَا

وعلى الرغم من أثر زبيدة وأخيها في دفع الرشيد إلى مبايعة الأمين بولاية العهد ، عاد فبايع لأخيه المأمون بعده وذلك بعد سبع سنوات من عقدة بالولاية للأمين ، وولي المأمون عند ذلك ولاية خراسان .

ثم عاد بعد أربع سنوات أخرى فبايع للقاسم من بعدهما ، ولقبه المؤتمن ،

وولاه الجزيرة والثغور وهو صبيّ . وحرم المعتصم ، فلما قسم الدنيا بين هؤلاء الثلاثة قال بعضهم : لقد ألقي بأسهم بينهم ، وعائلة ذلك تضرّ بالرعية ، قالوا : ثم علق نسخة البيعة في البيت العتيق . وقال عبد الملك بن الصالح في ذلك :

حُبُّ الخَليفَـةِ حُبٌّ لاَيَدينُ لَـهُ عَاصي الإلَهَ وَشَارٍ يَلْقَحُ الفِتَنَا
الله قَلَّدَهـا هَـارُونـاً سِيَـاسَتَـهُ لَمَّا اصْطَفَاهُ ، فَأَحْيَا الدِّينَ وَالسُّنَنَا
وَقَلَّدَ الأَرَضْ هَـارُونٌ لِـرَأْفَتِـهِ بِنَـا ، أَميناً ، وَمَـأْمُونـاً ، وَمُؤْتَمَناً

وظل شعر الرشيد حتى الآن متناثراً في كتب الأدب ، ولم يجمع ، وكما قصّر المحدثون ، قصّر الأقدمون في هذا المجال ، وحاولنا جاهدين جمع ما أمكننا من هذا الشعر وهو جهد المقلّ فقد عثرنا في الفوات ٤ / ٢٢٦ قوله : وله شعر جيد منه قوله في جارية له صالحها :

دَعي عَـدَّ الذُّنُـوبِ إذَا الْتَقَيْنَـا تَعَـالَيْ لاَ نَعُـدُّ ، وَلاَ تَـعُـدِّي[٢]

ويبدو أن حبّه لهيلانة جاريته أخذ عليه مساحة لا يستهان بها من عمره ، وقد مرَّ معنا رثاؤه لها ، وها هو كما في (الفوات) يرثيها فيقول :

أُفٍّ لِهـذه الـدُّنْـيَـا وَلِـلزِّ يـنـةِ فـيـهـا وَالإنَـاثِ
إذَا حَثَـا التُّـرْبَ عَـلَى هَيْـلاَ نَ في الحُـفْـرَةِ حَـاثـي
فَـلَهَـا تَـبْـكـي الـبَـوَاكِـي وَلَهَـا تَـشْـجِـي المَـراثـي
خَـلَّفَـتْ سُـقْـماً طَـويـلاً جَـعَـلَتْ ذَاكَ تُـرَاثـي[٣]

وذكر الرواة أن الرشيد صنع شطراً من الشعر هو : المُلْكُ لِلّهِ وَحْدَهْ . ثم أُرتجَ عليه . فقال : استدعوا من بالباب من الشعراء . فدخل عليه جماعة منهم

(١) انظر زهر الآداب ٢ / ٢٢٥ .
(٢) انظر فوات الوفيات ٤/ ٢٢٦ .
(٣) المرجع السابق .

الجماز[1] ، فقال الرشيد : أجيزوا ، وأنشدهم الشطر . فبدر الجماز فقال :
وَلِلْخَليفَةِ بَعْدَهْ .

فقال الرشيد : زد . مقال الجماز :

وَلِلْمُحِبِّ إِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ

فقال الرشيد : أحسنت لم تَعْدُ ما في نفسي ، وأجازه بعشرة آلاف درهم .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : كنت عند الرشيد يوماً ، وأحضر البرامكة الشراب ، وأحضر يحيى بن خالد جارية فغنت :

أَرِقْتُ حَتَّى كَأَنِّي أَعْشَقُ الأَرَقَا وَذُبْتُ حَتَّى كَأَنَّ السُّقْمَ لِي خُلِقَا
وَفَاضَ دَمْعي عَلَى قَلْبِي فَأَغْرَقَهُ يَا مَنْ رَأَى غَرِقاً فِي المَاءِ مُحْتَرِقَا

فقال الرشيد : لمن هذا ؟

فقيل : لخالد بن يزيد الكاتب .

قال : عليَّ به .

قال خالد : فأُحْضِرْتُ ، فقال للجارية : أعيدي ، فأعادت .

فقال لي : لمن هذا ؟

فقلت : لي يا أمير المؤمنين .

فبينا نحن كذلك إذ أقبلت وصيفة معها تفاحة ، مكتوب عليها بغالية :

سُرُورُكَ أَلْهَاكَ عَنْ مَوْعِدِي فَصَيَّرْتُ تُفَّاحَتِي تَذْكِرَهْ

فَأَخَذَ الرَّشِيدُ تُفَّاحَةً أُخْرَى ، وَكَتَبَ عَلَيْهَا :

تَقَاضَيْتُ وَعْدِي وَلَمْ أَنْسَهُ فَتُفَّاحَتِي هَذِهِ مَعْذِرَه

ثم قال له : يا خالد ، قل في هذا شيئاً آخر ، فقال :

تُفَّاحَةٌ خَرَجَتْ بِالدُّرِّ مِنْ فِيهَا أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فيهَا

---

(١) من شعراء البصرة من موالي قريش .

بَيْضَاءُ في حُمْرَةٍ غَلَّتَ بِغَالِيَةٍ كَأَنَّمَا قُطِفَتْ مِنْ خَدِّ مُهْدِيهَا[1]

وقال الأصمعي : وجّه الرشيد إليَّ في تلك الليلة ـ التي حدثت فيها نكبة البرامكة والتي قتل فيها جعفر البرمكي ـ فلمّا دخلت إليه قال : يا أصمعي ! قد قلت شعراً فاسمعه .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ! فأنشد :

لَوْ أَنَّ جَعْفَرَ هَابَ أَسْبَابَ الرَّدَى لَنَجَا بِمُهْجَتِهِ طِمِرٌّ مُلْجَمُ[3]
وَلَكَانَ مِنْ حَذَرِ المَنُونِ بِحَيْثُ لَا يَسْمُوا إِلَيْهِ بِهِ العُقَابُ القَشْعَمُ
لَكِنَّهُ لَمَّا تَقَارَبَ وَقْتُهُ لَمْ يَدْفِعِ الحَدَثَانِ عَنْهُ مُنَجِّمُ[2]

وكان الرشيد كثيراً ما ينشد بعد نكبة البرامكة :

إِنَّ اسْتَهَانَتَهَا إِذَا وَقَعَتْ لَبِقَدْرِ مَا تَعْلُو بِهَا رُتَبُهْ
وَإِذَا بَدَتْ لِلنَّمْلِ أَجْنِحَةٌ حَتَّى يَطِيرَ، فَقَدْ دَنَا عَطَبُهْ

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣/٣٧٨ .
(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣/٣٨٩ .
(٣) طمر : الفرس الكريم .
(٤) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣/٣٩٢ .

محمَّدُ الأمين
١٧١ - ١٩٨ هـ/٧٨٦ - ٨١٣ م

هو محمد بن هارون الرشيد ، ولقبُه الأمين ، وكنيته أبو عبدالله وكان يكنّى بأبي موسى أيضاً ، ولد بالرُّصافة سنة إحدى وسبعين ومئة ١٧١ هـ ، ولي الخلافة بعد أبيه الرشيد في اليوم الذي مات هارون الرشيد فيه السبت لأربع ليال خلون من جمادى الأولى بطوس سنة ثلاث وتسعين ومئة ١٩٣ هـ ، وتقدَّم ببيعته رجاءُ الخادِمُ[١] .

كانت ولايته بفضل أثرِ أُمِّه زبيدة ، وهي من أَعْرَق نساء بني العبّاس في الشرف والأصل ، كما كانت عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية التي ذكرنا نسبها فيما مرَّ[٢] فالخليفةُ المنصور كان جَدُّ زُبيدة ، والسفاحُ أخو جَدِّها ، وأبوها جعفر بن المنصور ، والمهدي عمُّها ، والرشيدُ زوجُها ، وها هي تُمَكِّنُ ابنها الأمين فيصبحُ

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣/٣٩٦ .

(٢) هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، يزيد أبوها ، ومعاوية جدها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، ومروان بن الحكم حموها ، وعبدالملك زوجها ، ويزيد ابنها ، والوليد بن يزيد بن ابنها ، والوليد وهشام وسليمان بنو زوجها ، وإبراهيم ويزيد ابنا الوليد بن عبد الملك ابنا ابن زوجها .

خليفة ، وذكر المسعودي أنه ما ولي الخلافةَ هاشميٌّ ابن هاشمية سوى علي بن أبي طالب ، وابنه الحسن ، والأمين[1] .

وكان الأمين من أحسن الناس صورة ، أبيض ، طويلاً ، جميلاً ، ذا قوّة مفرطة ، وبطش وشجاعة معروفة ، ويقال : إنه قتل مرّة أسداً بيده . وله فصاحة وبلاغة ، وأدب وفضيلة ، لكنّه كان سيِّيء التدبير كثير التبذير ، ضعيف الرأي ، أرعنَ ، لا يصلح للإمارة[2] .

وقال إسحاق الموصلي : اجتمعت في الأمين خصائل لم تكن في غيره ، كان أحسن الناس وجهاً ، وأسخاهم ، وأشرف الخلفاء أباً وأمّاً ، حسن الأدب ، عالماً بالشعر ، لكن غلب عليه الهوى واللعب ، وكان مع سخائه بالمال بخيلاً بالطعام جدّاً[3] .

ومما يدلّ على معرفة الأمين بالأدب وبصره بالشعر ما قاله أبو الحسن الأحمر : كنت ربما أُنْسيت البيت الذي يستشهد به في النحو ، فينشدنيه الأمين ، وما رأيت في أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون[4] .

أفضت إليه الخلافة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر تقريباً ، وكان أصغر من المأمون بستة أشهر ، وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً[5] ، ودفنت جثته ببغداد ، وحمل رأسه إلى خراسان إلى المأمون ، ثم

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦١ .
(٢) انظر تاريخ الخلفا للسيوطي ٣٥٥ .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء ٣٦١ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) وجاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣٦١ قوله : وكان قتله في المحرم سنة ثمان وتسعين ومئة ، وله سبع وعشرون سنة .

أعادها لتدفن معه ببغداد . فكانت مدّة خلافته أربع سنين وستّة أشهر[1] .

فرثته أمه زبيدة أم جعفر فقال :

أَوْدَى بِإِلْفِكَ مَنْ لَمْ يَتْرُكِ النَّاسَا فَامْنَحْ فُؤَادَكَ عَنْ مَقْتُولِكَ اليَاسَا
لَمَّا رَأَيْتُ المَنَايَا قَدْ قَصَدْنَ لَهُ أَصَبْنَ مِنْهُ سَوَادَ القَلْبِ وَالرَّاسَا
فَبِتُّ مُتَّكِئاً أَرْعَى النُّجُومَ لَهُ إِخَالُ سُنَّتَهُ فِي اللَّيْلِ قِرْطَاسَا
وَالمَوْتُ دَانٍ لَهُ ، وَالهَمُّ قَارَنَهُ حَتَّى سَقَاهُ الَّتِي أَوْدَى بِهَا الكَاسَا
رُزِئْتُهُ حِينَ بَاهَيْتُ الرِّجَالَ بِهِ وَقَدْ بَنَيْتُ بِهِ لِلدَّهْرِ آسَاسَا
فَلَيْسَ مَنْ مَاتَ مَرْدُوداً لَنَا أَبَداً حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْنَا قَبْلَه نَاسَا[2]

وَرَثَتْه زَوْجَته لُبَابَةُ بِنْتُ عَلِيِّ بن المَهْدِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا ، فَقَالَتْ :

أَبْكِيكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالأُنْسِ بَلْ لِلْمَعَالِي وَالسَّيْفِ وَالتُّرْسِ
أَبْكِي عَلَى سَيِّدٍ فُجِعْتُ بِهِ أَرْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ العُرْسِ
يَا مَالِكاً بِالعَرَاءِ مُطَّرَحاً خَانَتْهُ أَشْرَاطُهُ مَعَ الحَرْسِ[3]

ولما قتل محمّد الأمين ، دخل إلى زبيدة بعض خدمها ، فقال لها : ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمّد ؟

فقالت : ويلك !! وما أصنع ؟

فقال : تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان .

فقالت : إخسأ لا أمَّ لك ! ماللنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال ؟ ثم أمرت بثيابها فسوِّدت ، ولبست مسحا من شَعر ، ودعت بدواة وقرطاس ، وكتبت إلى المأمون :

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣٩٦ .
(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤٢٣/٣ .
(٣) المرجع السابق .

لِخَيْرِ إِمَامٍ قَامَ مِنْ خَيْرِ عُنْصُرٍ ... وَأَفْضَلِ رَاقٍ فَوْقَ أَعْوَادِ مِنْبَرِ
وَوَارِثِ عِلْمِ الأَوَّلِينَ وَفَخْرِهِمْ ... وَلِلْمَلِكِ المَأْمُونِ مِنْ أُمِّ جَعْفَرِ
كَتَبْتُ وَعَيْنِي تَسْتَهِلُّ دُمُوعُهَا ... إِلَيْكَ ابْنَ عَمِّي مِنْ جُفُونِي وَمِحْجَرِي
أُصِبْتُ بِأَدْنَى النَّاسِ مِنْكَ قَرَابَةً ... وَمَنْ زَالَ عَنْ كَبِدِي فَقَلَّ تَصَبُّرِي
أَتَى طَاهِرٌ ، لاَ طَهَّرَ اللهُ طَاهِراً ... وَمَا طَاهِرٌ فِي فِعْلِهِ بِمُطَهَّرِ
فَأَبْرَزَنِي مَكْشُوفَةَ الوَجْهِ حَاسِراً ... وَأَنْهَبَ أَمْوَالِي وَأَخْرَبَ أَدْؤُرِي[1]
يَعِزُّ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقِيتُهُ ... وَمَا نَالَنِي مِنْ نَاقِصِ الخَلْقِ أَعْوَرِ[2]
فَإِنْ كَانَ مَا أَسْدَى لِأَمْرٍ أَمَرْتَهُ ... صَبَرْتُ لِأَمرٍ مِنْ قَديرٍ مُقَدَّرِ[3]

ووقعت الوحشة في الأصل بينه وبين أخيه المأمون بسبب وزيره الفضل بن الربيع الذي علم أن الخلافة إذا أفضت إلى المأمون لم يبق عليه ، فأغرى الأمين به ، وحثّه على خلعه ، وان يولي العهد لابنه موسى ، ففعل ، ووقعت الواقعة .

وكان حاجبه العبّاس بن الفضل بن الربيع ، ثم عليّ بن صالح صاحب المصلى ، ثم السندي بن شاهك . وتزوّج نظم وهي أمّ ولد ، فولدت له موسى ، ولقّبَهُ ؛ الناطق بالحقّ ، وماتت نظم فاشتد جزعه عليها . وله ابن آخر هو عبدالله وأمُّه أمُّ ولد . وكان لجعفر بن موسى الهادي جارية اسمها بذل ، زاره يوماً فسرَّ بها فأثمله وأخذها منه .

وقال ابن جرير : لما ملك الأمين ابتاع الخصيان ، وغالى بهم ، وصيَّرهم لخلوته ، ورفض الإماء والجواري . . وأجاز مرة من غنى له :

---

(١) وأحرق أدؤري : حرق دياري .
(٢) أعور : هو طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون .
(٣) مروج الذهب ٤٢٤/٣ وهي في الأصل من نظم خزيمة بن الحسن على لسان زبيدة ٣٥٩/٣ .

هَجَرْتُكِ حَتَّى قُلْتِ : لَا يَعْرِفُ القِلَى　　وَزُرْتُكِ حَتَّى قُلْتِ : لَيْسَ لَهُ صَبْرُ

فملأ له زورقه ذهباً ، كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣٥٩ .

وقال الصولي : حدّثنا أبو العيناء ، قال : حدّثنا محمد بن عمرو الرومي ، قال : خرج كوثر خادم الأمين ليرى الحرب ، فأصابته رجمة في وجهه ، فجعل الأمين يمسح الدم عن وجهه ، ثم قال :

ضَرَبُوا قُرَّةَ عَيْنِي　　وَمِنْ أَجْلِي ضَرَبُوهُ
أَخَذَ اللهُ لِقَلْبِي　　مِنْ أُنَاسٍ أَحْرَقُوهُ

وأضاف صاحب الذخيرة في القسم الأول من المجلد الثاني ص ٤٤ البيتين التاليين :

يَا هِلَالَ الدَّجْنِ قُلْ لِي　　مَا لِقَوْمِي جَهِلُوهُ
طَلَعَ البَدْرُ نَهَاراً　　فَلِذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ

ولم يقدر على زيادة ، فأحضر عبدالله التيمي الشاعر ، فقال له : قل عليهما . فقال :

مَا لِمَنْ أَهْوَى شَبِيهٌ　　فَبِهِ الدُّنْيَا تَتِيهُ
وَصْلُهُ حُلْوٌ وَلَكِنْ　　هَجْرُهُ مُرٌّ كَرِيهُ
مَنْ رَأَى النَّاسَ لَهُ الفَضْـ　　ـلَ عَلَيْهِمْ حَسَدُوهُ
مِثْلَ مَا قَدْ حَسَدَ القَا　　ئِمُ بِالمُلْكِ أَخُوهُ

فأوقر له ثلاث بغال دراهم .

فلما قُتِلَ الأمينُ جاء التيميّ إلى المأمون وامتدحه، فلم يأذنْ له، فالتجأ إلى الفضل بن سهل ، فأوصلَهُ إلى المأمون ، فلما سلَّمَ عليه قال : هيه يا تيميّ :

مِثْلَ مَا قَدْ حَسَدَ القَا　　ئِمَ بِالمُلْكِ أَخُوهُ

فقال التيمي :

نَصَرَ المأمونُ عبدَ الله لَمَّا ظَلَمُوهُ
نَقَضَ العَهْدَ الَّذي قَدْ كَانَ قِدْماً أَكَّدُوهُ
لَمْ يُعَامِلْهُ أَخُوهُ بِالَّذي أَوْصَى أَبُوهُ

فعفا عنه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم[1] .

ومن شعر الأمين يخاطب أخاه المأمون ، ويعيِّره بأمِّه ، لما بلغه عنه أنه يعدّد مثالبه ، ويفضل نفسه عليه ، أنشده الصولي :

لَا تَفْخَرَنَّ عَلَيْكَ بَعْدُ بقيةٌ والفَخْرُ يَكْمُلُ لِلْفَتَى المُتَكَامِلِ
وَإِذَا تَطَاوَلَتِ الرِّجَالُ بِفَضْلِهَا فَارْبَعْ ؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِالمُتَطَاوِلِ
أَعْطَاكَ رَبُّكَ مَا هَوِيْتَ ، وَإِنَّمَا تَلْقَى خِلَافَ هَوَاكَ عِنْدَ مُرَاجِلِ[2]
تَعْلُو المَنَابِرَ كُلَّ يَوْمٍ آمِلاً مَا لَسْتَ مِنْ بَعْدِي إِلَيْهِ بِوَاصِلِ
فَتَعِيبُ مَنْ يَعْلُو عَلَيْكَ بِفَضْلِهِ وَتُعِيدُ في حَقيِّ مَقَالَ البَاطِلِ

قلت : هذا نظم عالٍ ، فإنْ كان له فهو أحسن من نظم أخيه وأبيه[3] .

وقال الصولي : ومما رواه جماعة له في خادمه كوثر ، وقد سقاه ، وهو على بساط نرجس والبدر قد طلع ، وكان نديمه لا يفارقه[4] .

وَصَفَ البَدْرَ حُسْنُ وَجْهِكَ حَتَّى خِلْتُ أَنِّي أَرَاهُ لَسْتُ أَرَاكَا
وَإِذَا مَا تَنَفَّسَ النَرْجِسُ الغَـ ـضُّ تَوَهَّمْتُهُ نَسيمَ ثَنَاكَا
خُدَعٌ لِلْمُنَى تُعَلِّلُني فِيـ ـكَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَنَكْهَةِ ذَاكَا

(١) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٠.
(٢) مراجل : أم المأمون .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي .
(٤) وقد رواه بعضهم للحسن بن الضحاك .

لأقيمَنَّ مَـا حَيِيتُ عَلَى الشُّكْـ ـرِ لِهَـذَا وَذَاكَ إِذْ حَيَّـاكَـا

وله في خادمه أيضاً قوله :

مَـا يُـرِيـدُ النَّـاسُ مِنْ صَـ ـبٍّ بِمَـنْ يَهْـوَى كَئِيـبِ ؟
كَـوْثَـرٌ دِيـنِي وَدُنْـيَـا يَ وَسُـقْـمِـي وَطَـبِـيـبِـي
أَعْـجَـزُ النَّـاسِ الَّـذِي يَلْـ ـحَـى مُحِـبّـاً فِي حَـبِـيـبِ[1]

ولما يئس الأمين من الملك وعلا عليه طاهر بن الحسين ، قائد جيوش المأمون ، قال :

يَـا نَـفْسُ قَـدْ حُـقَّ الحَـذَرْ أَيْـنَ المَـفَـرُّ مِـنَ الـقَـدَرْ ؟
كُـلُّ امْـرِىءٍ مِمَّـا يَخَـا فُ وَيَـرْتَجِـيـهِ عَـلَى خَـطَـرْ
مَـنْ يَـرْتَشِـفْ صَفْـوَ الـزَّمَـا نِ يَـغَصَّ يَـوْمـاً بِـالكَـدَرْ[2]

ومن نثر الأمين الكثير ما أسنده الصولي إلى الأمين الذي قال لكاتبه : اكتب : من عبدالله محمد أمير المؤمنين ، إلى طاهر بن الحسين .

سلام عليك ، أما بعد ؛

فإن الأمر قد خرج بيني وبين أخي إلى هتك الستور ، وكشف الحرم ، ولست آمن أن يطمعَ في هذا الأمر السحيق البعيد ، لشتات أُلفتنا ، واختلاف كلمتنا ، وقد رضيت أن تكتب لي أماناً لأخرج إلى أخي ؛ فإن تفضَّل عليَّ فأهل لذلك ، وإن قتلني فمروة كسرت مروة[3] وصمصامة قطعت صمصامة ، ولأن يفترسني السبع أحبُّ إلى من أن ينبحني الكلب . فأبى طاهر عليه[4] .

---

(١) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٢ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٢ - ٣٦٣ .
(٣) المروة الصخرة القاسية .
(٤) المرجع السابق .

واشتد الأمر بمحمّد المخلوع ، فباع ما في خزائنه سرّاً ، وفرّق ذلك أرزاقاً فيمن معه ، ولم يبق معه ما يعطيهم ، وكثرت مطالباتهم إيّاه ، وضيّق عليه طاهر ، وكان نازلاً بباب الأنبار في بستان هنالك . فقال محمّد الأمين : وددت أن الله قتل الفريقين جميعاً ؛ فما منهم إلا عدو ، من معي ، ومن علي ؛ أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأما أولئك فيريدون نفسي ، وقال :

تَفَرَّقُوا وَدَعُوني يَا مَعْشَرَ الأَعْوَانِ
فَكُلُّكُمْ ذُو وُجُوهٍ كَثِيرَةِ الأَلْوَانِ
وَمَا أَرَى غَيْرَ إفْكٍ وَتُرَّهَاتِ الأَمَانِي
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئاً فَسَائِلُوا إِخْوَانِي
فَالوَيْلُ فيمَا دَهَانِي مِنْ نَازِل البُسْتَانِ[1]

يعني طاهر بن الحسين ، الذي أبت شعوبيته إلاّ أن تنتقم من العرب والعروبة والإسلام ، فقتله بعد أن حبسه ، واحتزّ رأسَه ، وأرسله إلى المأمون في خراسان .

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤١٨/٣ .

إبـــراهيــم بـــن المهـــدي
١٦٢ ـ ٢٢٤ هـ/ ٧٧٧ ـ ٨٣٩ م

هو إبراهيم بن المهدي بن عبدالله المنصور بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العبّاس الهاشمي ، أخو هارون الرشيد ، كنيته أبو إسحاق ، ولد في بغداد سنة اثنتين وستين ومئة للهجرة ١٦٢ هـ ، وفيها نشأ وتربّى في كنف أبيه المهدي ثم أخيه هارون الرشيد الذي ولّاه إمرة الشام ، ثم عزله ، ثم أعاده إليها .

بعد أن آلت الخلافة إلى المأمون أثر نزاعه لأخيه الأمين ، اتّخذ إبراهيم ذلك ذريعة ، فدعا بالخلافة إلى نفسه ، وبايعه كثيرون في بغداد سنة ٢٠٢ هـ ، فطلبه المأمون فاستتر ، بعد أن دامت خلافته مدّة سنتين إلّا خمسة وعشرين يوماً ، وكان قد سيطر على السواد والكوفة . وأقام في استتاره ستّ سنين وأربعة أشهر وعشرة أيّام ، ثم ظفر به المأمون سنة ٢١٠ هـ فسجنه ستة أشهر ثم دعا به فمثل أمامه ، عاتبه على عمله ، فاعتذر ، فعفا عنه المأمون وكرّمه ، فهو عمه أخو أبيه[١] .

أمّه بِشكْلَةُ[٢] أو شِكْلَةُ ، بعثَتْ بها «مُحيَاةُ الطائفيّة» أمّ ولد المنصور إلى

---

(١) انظر الاعلام لخير الدين الزركلي ١/٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) اسمها بشكلة بالباء كما في أشعار أولاد الخلفاء للسيوطي صفحة ١٧ وما بعدها ، وشكلة بدون باء كما في أعلام الزركلي ١/٥٩ .

الطائف ، فنشأت هناك ، ففصحت وألسنت وقالت الشعر ، وهي في الأصل من سبي دنباوند ، قتل أبوها وسبيت هي وبخترِيَّة أمّ منصور بن المهدي ، فوهبها المنصور لمحياة ، وهي أمّ ولد له ، فوهبتها هي للمهدي(١) .

وكان إبراهيم بن المهدي أسودَ حالكَ اللون ، عظيمَ الجثّة ، وليس في أولاد الخلفاء قبله أفصحَ منه لساناً ، ولا أجودَ شعراً ، وكان وافرَ الفضل ، حازماً ، واسعَ الصدر . أخَذَ لونَهُ من أمه شِكْلَةَ وإليها نسبَه خصومُه . مات سنة ٢٢٤ هـ في سُرَّ مَنْ رأى وصلّى عليه ابن أخيه الخليفة المعتصم(٢) .

وإبراهيم هذا شاعر ، عالم بالغناء ، مقدَّم في الحِذْق ، تتلمذ على يديه كبار المغنِّين ، وأخذ عنه جهابذةُ الموسيقى والنغم . ويوم جلس المأمون لإبراهيم بن المهدي ـ عمّه ـ وأمر بإحضار الناس على مراتبهم ، فحضروا ، جِيءَ بإبراهيم في قيد فسلم ، فقال له المأمون : لا سلَّم الله عليكَ ولا حفظك .

فقال : على رِسلكَ يا أمير المؤمنين ! فلقد أصبحت ولي ثأري ، والقدرة تُذهب الحفيظة ، ومن مُدَّله في الأهل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبي فوق كلِّ ذنب ، وعفوُكَ وفق كلِّ عفو ، فإن تُعاقبْ فبحقِّك ، وإن تغفر فبفضلك ولم يزل بالمأمون حتى عفا عنه ، فامتدحه عقب هذا بقصيدته التي أوّلها :(٣)

يَا خَيْرَ مَنْ ذَمَلَتْ يَمَانِيَّةٌ بِهِ   بَعْدَ الرَّسُولِ لِآيِسٍ أَوْ طَامِعِ(٦)

وفيها يقول :

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء للسيوطي .
(٢) انظر الاعلام للزركلي ٦٠ .
(٣) أشعار أولاد الخلفاء للسيوطي .
(٤) ذملت : من الذميل وهو نوع من السير .

وَعَفَوْتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ عَفْوٌ ، وَلَمْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعِ
إِلَّا العُلُوَّ عَنِ العُقُوبَةِ بَعْدَمَا ظَفِرَتْ يَدَاكَ بِمُسْتَكِينٍ خَاضِعِ
فَرَحِمْتَ أَطْفَالاً كَأَفْرَاخِ القَطَا وَعَوِيلَ عَانِسَةٍ كَقَوْسِ النَّازِعِ

وهي قصيدة طويلة ، بين البيتن الأول ، والأبيات الثلاثة الأخيرة ، قوله :

وَأَبَرَّ مِنْ عَبْدِ الإِلَهِ عَلَى الهُدَى نَفْساً وَأَحْكَمَهُ بِحَقٍّ صَادِعِ
عَسَلُ الفَوَارِعِ مَا أُطِعْتَ فَإِنْ تَهِجْ فَالمَوْتُ فِي جُرَعِ السِّمَامِ النَّاقِعِ (٢)
مُتَيَقِّظاً حَذِراً وَمَا يَخْشَى العِدَا نَبْهَانَ مِنْ وَسَنَاتِ لَيْلِ الهَاجِعِ
وَاللهِ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا جَهْدُ الأَلِيَّةِ مِنْ حَنِيفٍ رَاكِعِ
قَسَماً وَمَا أُدْلِي إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ إِلَّا التَّضَرُّعَ مِنْ مُحِبٍّ خَاشِعِ
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالغُوَاةُ تَمُدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ
حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ حَبَائِلُ شِقْوَتِي بِرَدىً عَلَى حُفَرِ المَهَالِكِ هَائِعِ (٣)
لَمْ أَدْرِ أَنَّ لِمِثْلِ ذَنْبِي غَافِراً فَأَقَمْتُ أَرْقُبُ أَيَّ حَتْفٍ صَارِعِي
رَدَّ الحَيَاةَ إِلَيَّ بَعْدَ ذَهَابِهَا وَرَعُ الإِمَامِ القَاهِرِ المُتَوَاضِعِ
أَحْيَاكَ مَنْ وَلَّاكَ أَطْوَلَ مُدَّةٍ وَرَمَى عَدُوَّكَ فِي الوَتِينِ بِقَاطِعِ
إِنَّ الذِي قَسَمَ الفَضَائِلَ حَازَهَا فِي صُلْبِ آدَمَ لِلإِمَامِ السَّابِعِ
كَمْ مِنْ يَدٍ لك لَا تُحَدِّثُنِي بِهَا نَفْسِي إِذَا آلَتْ إِلَيَّ مَطَامِعِي
أَسْدَيْتَهَا عَفْواً إِلَيَّ هَنِيئَةً فَشَكَرْتُ مُصْطَنَعاً لِأَكْرَمِ صَانِعِ (١)

قال : فبكى المأمون ، ثم قال : عليَّ به .

فأُتي به ، فخلع عليه وحمله وأمر له بخمسة آلاف دينار ، ودعا بالفرّاش

---

(١) الأغاني ١١٧/١٠ دار الكتب .
(٢) رواية الطبري (فالصباب يمزج بالسمام الناقع) .
(٣) هائع : هنا المنتشر .

فقال له : إذا رأيت عمّي مقبلا فأطرح له تكأة ، فكان ينادمه ولا ينكر عليه شيئا [1] .

وكان لعفو المأمون عنه أثر بالغ خلّده في أكثر من قصيدة خلدت المأمون وصنيعه ، منها قصيدته التي مطلعها :

أَعْنيكَ يَا خَيْرَ مَنْ تُعْنَى بِمُؤتَلِفٍ مِنَ الثَّنَاءِ ائْتِلَافَ الدُّرِّ في النَّظْمِ
أُثْني عَلَيْكَ بِمَا جَدَّدْتَ مِنْ نِعَم وَمَا شَكَرْتُكَ إِنْ لَمْ أُثْنِ بِالنِّعَمَ

وكان إبراهيم قبل القبض عليه ، قد استخفى عند عمّته ، فوكّلت بخدمته جارية جميلة، وأوصتها بتنفيذ رغباته. فكانت توفيه حقّه في الخدمة والإعظام من دون أن تعلمه بوصية عمّته . فجلّ مقدارها في نفسه ، إلى أن قبلّ يدها يوما ، فقبّلت الأرض بين يديه ، فقال في ذلك :

يَا غَزَالاً لي إِلَيْهِ شَافِعٌ مِنْ مُقْلَتَيْهِ
وَالَّذي أَجْلَلْتُ خَدَّيْهِ ، فَقَبَّلْتُ يَدَيْهِ
بِأَبِي وَجْهَك مَا أكثَرَ حُسَّادِي عَلَيْهِ
أَنَا ضَيْفٌ وَجَزَاءُ الضَّيْفِ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ

ثم عمل فيه بعد ذلك لحنا ، وبقية الخبر أنَّ عمّته علمت بذلك فوهبته إيّاها .

ومن جميل غزله قوله وقد أرّقه الحبُّ وأضواه السهر واكتسحت عيون الحبّ آخر معاقل الصبر :

وَنَهَيْتَ نَوْمي عَنْ جُفُوني فَانْتَهَى وَأَمَرْتَ لَيْلي أَنْ يَطُولَ فَطَالاَ
نَظَرُ العُيونِ عَلَى العُيُونِ هُوَ الَّذي جَعَلَ العُيُونَ عَلَى العُيُونِ وَبَالاَ [2]

---

(١) الأغاني ١١٨/١٠ دار الكتب .
(٢) انظر أشعار أولاد الخلفاء للسيوطي ٢٥ .

لقد طرق إبراهيم بن المهدي مختلف الأغراض الشعرية ، وأكثر فيها . كالمديح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل ، والحكمةِ ، والشيب والشبابِ ، واللهو ، والمجونِ ، والشكوى من الدهر ، والفخر ، والحماسةِ ، والوصف ، وله نثرٌ إخواني فيه حكمة وبلاغةٌ وَوَرع ، وكلام على الفضائل الإنسانية كالصبر والمعاملة الحسنة ، يُوشِّيه بأشعار له ولغيره ، حتى صحَّ فيه قولُ بعضهم بأنّه كان من أنجب أولاد الخلفاء ممن سبقوه ومن أفصحهم وأعلمهم[1] .

وُينسب إلى إبراهيم بن الحسين بن سهل قوله : لم يكن إبراهيم بن المهدي يُصدِّقُ أن عفوَ المأمون عنه يدوم ، ويرى أنّه سيلحق به حملة ، فكان يعبُّ من الحياة وينهل بنهم ، ويتعهَّرُ ويتهتَّكُ ، ويغنّي لكلِّ أحد ، ولا تخلو قصيدة من قصائدة من مدحِ المأمون والإشادة بإحسانه ، ويتقلَّبُ بين فنون القول هرباً من نفسه ، فتارة ينحو منحى الحكمة والزهد والشكوى من انتقاض الدهر لأحكامه ، كقوله :

فَــلِلَّهِ نَـفْسي إنَّ فِيَّ لَـعِــبْــرَةً   وَلِلدَّهْرِ نَقْضٌ لِلْقُوَى بَعْدَ إِبْرَامِ
غَدَوْتُ عَلَى الدُّنْيَا مَليكاً مُسَلَّطاً   وَرُحْتُ وَمَا أَحْوي بِهَا قَبْسَ إِبْهَامِ

وتارة أخرى ترقّ حاشيته ، وتصفو نفسه ، ويلتفت إلى من حوله ينثر الحكمة مغمسةً بتجربته الذاتية الإنسانية ، مما يوشّيها بسمة السيرورة ، والخلود على مرّ الزمن ، فقد نسب إليه عبدالله بن المعتزّ ، قوله :

مَنْ قَالَ فِي النَّاسَ ، قَالُوا فيه ما فيه   وَحَسْبُهُ ذَاكَ مِنْ خِزْيٍ وَيَكْفيهِ
مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ   عَنِ الصَّـديقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَـاعيهِ
كَالسَّيْلِ يَجْرِي وَلَا يَدْري بِهِ أَحَدٌ   مِنْ أين جَاءَ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ

(١) المرجع السابق ٢٣ وما بعد .

لَوْ فَرَّ مِنْ رِزْقِهِ عَبْدٌ إلى جَبَلٍ دُونَ السَّماءِ لأَلْفَى رِزْقَهُ فيـهِ[1]

ويبدو أن الشكوى من الزمان تستبطن عقل الشاعر الباطني ، فما أن يصدر عنها حتى يعود إليها ، تضيق حدود هذه الشكوى حيناً لتطبِقَ عليه وتتَّسع حتى تشمل الإنسانيّة جمعاء ، فلنستمع إليه في قصيدته التي مطلعها :

أَطَعْتَ الهَوَى وَعَصَيْتَ الرَّشَدْ وَلَمْ تَمْلِكِ الصَّبْرَ عَمَّنْ تَوَدْ

حيث يتحدَّث فيها عن همومه التي أناختْ عليه بكَلكَلِها ، فأظلمَ الكون حوله ، وراح يرعَى النجومَ حتَّى الصباحِ ، يودِّع غارباتٍ ويستقبل مشرقات ، ودموعُه تسحُّ من عينيه ، فلا أحدَ يشفقُ عليه ، ولا مخلوقَ يُواسيه ، فالناس أعداءُ الشقيِّ وأصدقاءُ السعيد ، وهكذا يطوي الزمانُ الخلائقَ طيَّ الثياب ، ويُسلِّطُ عليهم قِداحَ الردى تتخطَّفُ من تُصادفه منهم ، والقويّ هو الذي يستطيع أن يفلتَ من شراكه ، لأنَّه ليس في وسعكَ أن تقتصَّ منه أو أنْ تساجلَه ، فهذه هي صروف الزمان ؛ يومٌ لكَ ويومٌ عليكَ ، فتحصّنْ بالصبرِ لعلّ قادمَ الأيام تقيكَ شرورها :

إذَا اللَّيْلُ أَسْبَلَ سِرْبَالَهُ عَلَى الأَرْضِ وَاسْوَدَّ وَجْهُ البَلَدْ
رَعَيْتُ الكَواكِبَ حَتَّى الصَّبَا حِ ، وَدَمْعي كَاللُّؤْلُؤِ المُنْسَرِدْ
فَمِنْ طَالِعَاتٍ وَمِنْ غَائِرَاتٍ وَآخَرَ في حَيْرَةٍ قَدْ رَقَدْ
ومِنْ ضَاجِعَاتٍ بِأُفْقِ المَغيبِ يُرَاقِبُها كَارْتِقابِ الرَّصَدْ
وَمَا النَّاسُ إلَّا عَدُوُّ الشَّقِيِّ وَإلا صَديقُ امْرِئٍ قَدْ سَعِدْ
إذَا مَا الزَّمَانُ بِأَخْلافِهِ طَوَاكَ كَطَيِّ الثِّيَابِ الجُدُدْ
يَفيضُ عَلَيْكَ قِدَاحُ الرَّدَى لِتَأْخُذَ مِنْهَا بِقِدْحٍ نَكِدْ

---

(١) انظر أشعار أولاد الخلفاء ٢٤ .
(٢) أنظر المرجع السابق ٢٣ .

فَـمَا أَنْـتَ إِلَّا أَسِـيرٌ لَـهُ وَإِنْ أَمْكَنَ الحَيْـدُ عَنْهُ فَحِـدْ
هَبِ الـدَّهْـرَ لَمْ يَتَحَـامَـلْ عَـلَى سِـوَاكَ فَهَلْ لَـكَ مِنْـهُ القَـوَدْ ؟
وَإِنْ يَسْقِـكَ اليَـوْمَ مِنْ آجِنٍ صَـرًى لَا يُـذَاقُ وَلَا يُـزْدَرَدْ
فَقَـدْ كَـانَ يَسْقِيكَ مِنْ صَفْـوِهِ نِـطَافَ الغَوَادِي بِـذَوْبِ الشَّهَـدْ
كَـذَاكَ تَجِـيءُ صُرُوفُ الـزَّمَـا نِ ، عَلَى مَا أَرَدْتَ وَمَا لَمْ تُرِدْ
وَقَدْ يَسْبِقُ الفَوْتُ وَشْلَ العَجُـ ـولِ وَيُـدْرِكُ حَـاجَتَـهُ المُتَّئِـدْ
وإِنْ خَلَّطَ الـدَّهْرُ فَـاصْبِرْ عَـلَى تَلَوُّنِـهِ فَمَعَ اليَـوْمِ غَـدْ !!!

وأحيانا أخرى يطلق تعجُّبَه من غفلةِ هذا الإنسان الذي يقضي أيّامَ حياته في غفلةٍ راكضاً وراء مباهج الحياة ، وما هي إلّا مَتاعُ الغرور ، فليست هي إلّا مرحلةٌ عابرة ، ومحطةٌ قد لا يتوقَّف فيها الإنسان كثيراً ، ومن لا يكفيه منها القليلُ ، فلا يرويه الكثيرُ ، وها هو يلخّص لنا فلسفتَه في ذلك وقد شوهدَ ويدُه في يد أبي العتاهية وهو ينشدُ ويقول :

عَجَبـاً عَجِبْتُ لِغَفْلَةِ الإِنْسَـانِ قَـطَعَ الحَيَـاةَ بِغِـرَّةٍ وَتَـوانِي
فَكَّرْتُ في الدُّنْيَا فَكَانَتْ مَنْـزِلاً عِنْدِي كَبَعْضِ مَنَازِلِ الـرُّكْبَانِ
مَجْـرَى جَمِيعِ الخَلْقِ فِيهَـا وَاحِدٌ وَكَـثِـيـرُهَـا وَقَـلِيلُهَـا سِـيَّـانِ
أَبْغِي الكَثِيرَ إلى الكثيرِ مَضَاعَفا وَلَوْ اقْتَصَرْتُ عَلَى القَلِيلِ كَفَانِي (١)

وحين لبس أبو العتاهية الشاعر الصوف كتب إليه إبراهيم بن المهدي قصيدة ، منها قوله :

العَيْشُ حُـلْوٌ وَالمَنُـونُ مَـرِيـرَةٌ وَالـدَّارُ دَارُ تَـفَـاخُـرٍ وَتَبَـاهِ
فَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ دُونَهَا شُغْلاً وَلَا تَتَجـاهَلَنَّ لَهَـا فَـإِنَّـكَ دَاهِي

---

(١) انظر أشعار أولاد الخلفاء للسيوطي ٢١ .

لَا يُعْجِبَنَّـكَ أَنْ يُقَـالَ مُفَـوَّهٌ حَسَنُ البَلَاغَةِ أَوْ عَـرِيضُ الجَاهِ
أَصْلِحْ فَسَاداً مِنْ سَرِيرَتِكَ الَّتِي تَلْهُـو بِهَـا وَارْهَبْ مَقَـامَ اللهِ [١]

إنْ كان الدهر يصفو مرّة ، فعكره مرّات ومرّات ، وإنَّ ما يعطيه باليمنى يأخذهُ باليسرى . والرثاء فن لاصق بقلوب الخلائق كلِّها ، فما من أحدٍ إلَّا وسيفقدُ عزيزاً ، والشاعر إبراهيم بن المهدي بفقد أكبر أبنائه أحمدَ فيكتوي بثُكلِه ويرثيه رثاءً حاراً متفجعاً تتصدّع له النفس أسى وحسرة ، فيقول :

نَـأَى آخِرَ الأَيَّـامِ عَنْكَ حَبِيبُ فَـلِلْعَـيْنِ سَـحٌّ دَائِمٌ وَغُـرُوبُ
يؤوبُ إلى أَوْطَـانِهِ كُـلُّ غَـائِبٍ وَأَحْمَـدُ في الغُيَّـابِ لَيْسَ يَؤُوبُ
تَبَـدَّلَ دَاراً غَـيْرَ دَارِي وَجِيـرَةً سِـوَايَ وَأَحْدَاثُ الـزَّمَانِ تَنُـوبُ
أَقَـامَ بِهَـا مُسْتَـوْطِنَاً غَـيْرَ أَنَّـهُ عَلَى طُولِ أَيَّـامِ الْمُقَامِ غَـرِيبُ
وَكَانَ نَصِيبَ العَيْنِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ فَـأَمْسَى وَمَا لِلْعَـيْنِ فِيـهِ نَصِيبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالغُصْنِ في مَيْعَةِ الضُّحَى زَهَاهُ النَّدَى فَـاهْتَزَّ وَهُـوَ رَطِيبُ
كأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالصَّقْرِ أَوْفَى بِشَامِـ ـخِ الذُّرَى وَهُوَ يَقْظَانُ الفُؤادِ طَلُوبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالرُّمحِ يَعْدِلُ صَدْرَهُ غَـدَاةَ الـطِّعَـانِ لَهْـزَمٍ وَكُعُـوبِ
وَرَيْحَانَ قَلْبي كَانَ حينَ أَشُمُّهُ وَمُؤْنِسُ قَصْدِي كَانَ حينَ أَغيبُ [٢]
كَأَنِّيَ مِنْهُ كُنْتُ في نَـوْمِ حَالِمٍ نَفَى لَـذَّةَ الأَحْلَامِ عَنْـهُ هُبُوبُ
.. وَلَمْ يَمْلِكِ الآسُونَ نَفْعَاً لِمُهْجَةٍ عَلَيْهـا لأشْرَاكِ المَنُـونِ رَقِيـبُ
وَإِنِّي وَإِنْ قُـدِّمْتَ قَبْلِي لَعَـالِمٌ بِـأَنِّي وَإِنْ أُخِّرْتُ مِنْـكَ قَـرِيبُ
وَإِنَّ صَبَـاحَاً نَلْتَقِي في مَسَـائِـهِ صَبَـاحٌ إلى قَلْبي الغَدَاةَ حَبِيبُ

ولإبراهيم بن المهدي في رثاء الأمين ويصف مقتله وتمثيل طاهر بن الحسين به :

(١) المرجع السابق .
(٢) في البيت إقواء .

عُـوجَـا بِمَـغْنَى طَـلَـلٍ دَاثِـرِ بِـالخُلْدِ ذَاتِ الصَّخْـرِ وَالآجِـرِ
وَالمَـرْمَـرِ المَسْنُـونِ يُـطْلَى بِـهِ وَالبَـابِ بَـابِ الـذَّهَبِ النَّاضِرِ
وَأَبْـلِغَـا عَـنِّي مَـقَـالاً إلى المَـوْلَى عَـنِ المَـأْمُـورِ وَالآمِـرِ
قُـوْلا لَـهُ : يَـا ابْنَ وليِّ الهُـدَى طَهِّـرْ بِـلاَدَ اللَّهِ مِنْ طَـاهِـرِ[1]
لَمْ يَـكْـفِـهِ أَنْ حَـزَّ أَوْدَاجَـهُ ذَبْـحَ الهَـدَايَـا بِمِـدَى الجَـازِرِ
حَـتَّى أَتي يَـسْـحَـبُ أَوْصَـالَـهُ في شَطَنٍ ، هَذَا مَـدَى السَّائِـرِ
قَــدْ بَـرَدَ المَـوْتُ عَـلَى جَفْنِـهِ فَـطَـرْفُـهُ مُـنْـكَسِرُ الـنَّـاظِـرِ[2]

فهو خليفة وأمير وابن خليفة وأخو خليفة وعمّ أربعة خلفاء لا سبيل إلى فن الهجاء إليه ، وبالرغم من هذا فقد هجا وشارك في هذا الفن لأنّه كان يشنأ محمّد بن عبدالملك الزيّات هذا الذي ولي وزارة الخليفة المعتصم ابن أخيه ، فقال إبراهيم فيه لمّا ولي الوزارة :

يَـا بُؤْسَ يَـوْمٍ كَـاسِفٍ إنْ لَمْ يُـغَـيِّرْ في غَـدِهْ
لأُمَّـــةٍ وَزِيـرُهَـــا عَـاصِرُ زَيْـتٍ بِـيَــدِهِ
يُـظْهِـرُ نُصْحـاً وَجْهُـهُ وَغِـشُّـهُ في كَـبِـدِهْ[3]

وعن محمّد بن صالح أنّ إبراهيم بن المهدي مع إحسان الخليفة المأمون له ، يَشنؤه ويعيب أفعاله ، وله في ذلك أشعار كثيرة ، منها :

صَـدَّ عَنْ تَـوْبَـةٍ وَعَنْ إخْبَـاتِ وَلَهَـا بِـالمُجُـونِ والقَـيْـنَـاتِ
لَيْسَ يَنْفَـكُّ مَـازِجَـاً في يَـدَيْـهِ خَمْـرَ قُـطْرُ بُّـلَ بِمَـاءِ الفُـرَاتِ

---

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي .
(٣) انظر أشعار أولاد الخلفاء للسيوطي ٢٥ .

مَا يُبَالي إذَا خَلاَ بِأَبِي عيـ ـسى وَشَرِبَ مِنْ بُدَّنٍ عَطِراتِ
أَنْ يَغَصَّ المَظْلُومُ فِي حَوْمَةِ الجَوْ رِ بِدَاءٍ بَيْنَ الحَشَا وَاللَّهَاةِ[1]

وأمَّا الوصفُ فكان له نصيب من شعر إبراهيم بن المهدي ، كيف لا وهو الذي اندفعَ يعبُّ من مباهج الحياة وكأنّها نهرٌ جارٍ لن يمرَّ مرّة أخرى ، ولا عجب إنّ افتتنتْهُ مباهجُ الحياة ومناظرها وما تغصُّ به من أوابدَ وسماء ونجوم وأفلاك ومجالس شرب وقصف ، فقد روى لنا عبدالله بن المعتزّ ، ما كتبه إبراهيم بن المهدي إلى بعض أصحابه في يوم غيم ، يدعوه لشراب الصباح ، فقال :

إنْ كُنْتَ تَنْشُطُ لِلْصَّبُوحِ فَإِنَّهُ يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ الأَطْرَافِ
وَأَرَى الغَمَامَةَ كَالعُقَابِ مُحَلِّقاً مُسْوَدَّةَ الأَوْسَاطِ وَالأَكْنَافِ
طَوْراً تَبُلُّكَ بِالرَّذَاذِ وَتَارَةً تَهْمِي عَلَيْكَ بِدَلْوِهَا الغَرَّافِ
فَانْعَمْ صَبَاحاً وَائْتِنَا مُتَفَضِّلاً وَدَعِ الخِلاَفَ فَلَيْسَ يَوْمَ خِلاَفِ

وقال مرة أخرى يصف الناقة ويشكو إليها ما يلقاه ويبثها ما به ، فيقول :

بِكُلِّ جَلاَلَةٍ عَيْسَاءَ حَرْفٍ عَلَنْدَاةٍ وَأَعْنَسَ عَجْرَفِيٍّ
إذَا شُدَّت بِهَا الأَنْسَاعُ أَصْغَتْ كَمَا أَصْغَى النَّجيُّ إلى النَّجِيِّ
وَرَاغِيَةٍ ثَنَتْكَ عَنِ التَّصَابِي كَمَا ثَنَتِ الضَّعيفَ يَدُ القَوِيِّ
هُنَاكَ شَكَوْتُ مَا تلقى إِلَيْهَا كَمَا يَشْكُو الفَقيرُ إلى الغَنِيِّ

ومرة أخرى يروي لنا عبدالله بن المعتز لإبراهيم بن المهدي أبياتاً في الفكاهة والرمز والكناية ، مما يدلّ على روح إبراهيم الخفيفة المقبلة على الحياة ، يقول :

أَنَا أَفْدِي عَلَى الهِجْرَانِ زَيْنا وَإِنْ كُنَّا عَلَى عَمْدٍ كَنَيْنَا
وَمَازَيْناً بِتَفْدِيَةٍ أَرَدْنَا وَلَكِنَّا عَنَيْنَا مَا عَنَيْنَا
أَقُولُ وَقَدْ رَأَيْتُ لَهَا سَمَاءً مِنَ الهِجْرَانِ مُقْبِلَةً عَلَيْنَا

(١) انظر المرجع السابق صفحة ٢٤ .

وَقَــدْ سَحَّتْ عَــزَالَيْهَــا بِصَــدٍّ ... حَــوَالَيْنَــا الصُّــدُودُ وَلَا عَلَيْنَــا[1]

ويذكر أن إبراهيم بن المهدي الذي ملأ ليالي بغداد بغنائه . وأنشد معظم المغنّين من ألحانه ، وأبهج مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء وزينها ، عزف عن الغناء في آخر أيّامه ، وذلك حين غنّى المعتصم صوتاً بشعر له :

ذَهَبْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ ذَهَبتْ مِنِيٍّ ... هَوَى الشَّيْبُ بِي عَنْهَا وَوَلَّى بِهَا عَنِّي

فَإِنْ أَبْكِ نَفْسِي أَبْكِي نَفْساً نَفِيسَةً ... وَإِنْ أَحْتَسِبْهَا ، أَحْتَسِبْهَا عَلَى ظَنِّ

وجعل يغني ويبكي ، فقال الخليفة المعتصم : ما هذا يا عم ؟

قال : حلفتُ بين يدي الرشيد أني إذا بلغت الستين ، لم أشرب ولم أغنّ .

قال : ومن يشهد بهذا .

قال : جماعة قد بقي منهم مسرور الخادم .

فسأله المعتصم عن ذلك ، فشهد له ، فأعفاه عن الغناء والشرب ، فما عاد لذلك إلى أن مات .[2]

وينسب إلى الفضل بن مروان قوله : كان إبراهيم بن المهدي أصحَّ الناس رأياً لغيره ، وأفسدَهم رأياً لنفسه . فقيل له في ذلك ، فقال : أنا أنظر في أمر غيري برأيٍ سليم من الهوى ، ويغلب على رأيي في أمر نفسي ما أهواه .

ولما أحسَّ بدنوِّ أجله أوصى وصيّة شهد بها جماعة من بني العبّاس ، ثم أوصى لولد أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وسائر ولد العشيرة ، ولأولاد الأنصار ، ولم يوصِ لولد علي رضي الله عنه بشيء ، مما أثار عليه استنكار الواثق والمعتصم بالله الذي أمر أن يجعل لولد علي من الوصيّة كما لولد العبّاس ، ممّا دعا بعض الشعراء إلى هجائه بسبب وصيّته .

---

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) انظر أشعار أولاد الخلفاء للسيوطي ٢٥ .

وهجا المأمونُ إبراهيمَ بن المهدي المعروف بابن شِكْلَةَ ، عَمَّهُ . وكان المأمونُ يظهر التشيّع ، وابن شكلة التسنُّنَ، فقال المأمون :

إِذَا الْمُــرْجِـيُّ سَــرَّكَ أَنْ تَـرَاهُ   يَمُوتُ لِحَيْنِـهِ مِنْ قَبْـلِ مَـوْتِـهْ
فَـجَــدِّدْ عَـنْـدَهُ ذِكْـرَى عَــلِيٍّ   وَصَــلِّ عَـلَى النَّبِيِّ وآلِ بَيْتِـهْ

فأجابه إبراهيم ردّاً عليه :

إِذَا الشِّيعيُّ جَمْجَمَ في مَـقَــالٍ   فَسَـرَّكَ أَنْ يَبُوحَ بِـذَاتِ نَفْسِـهْ
فَصَــلِّ عَـلَى النَّبِيِّ وَصَــاحِبَيْــهِ   وَزِيــرَيْـهِ وَجَــارَيْـهِ بِــرَمْسِــهْ (١)

وبثَّ المأمون عيونه في طلب إبراهيم بن المهديّ ، وقد علم باختفائه ببغداد ، فظفر به ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومئتين في زِيِّ امرأة ، ومعه امرأتان ، أخذه حارسُ بن أسود في الدرب المعروف بالطويل ببغداد . فأدخل إلى المأمون ، فقال : هه يا إبراهيم !

فقال : يا أمير المؤمنين ! وليُّ الثارِ محكَّمٌ في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الشقاء، أمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلِّ ذي عفو ، كما جعل كلَّ ذي ذنب دوني ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعفُ فبفضلك .

قال : بل العفو يا إبراهيم(٢) .

فَكَبَّرَ، ثُمَّ خَرَّ ساجِداً. فأمر المأمون فصيّرت المقنعة التي كانت عليه، على صدره، ليرى الناسُ الحال التي أخذ عليها، ثم أمر به فصيّر في دار الحرس أيّاماً، ينظر الناس إليه، ثم حُوِّلَ إلى أحمد بن أبي خالد، ثم رضي عنه من بعد أن كان

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/ ٥ .
(١) انظر المرجع السابق ٢٢ .

وَكَّلَ إليه به، فقال إبراهيم في ذلك من كلمة له:

إنَّ الَّـذي قَسَمَ المَكَارِمَ حَـازَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ لَلإمَامُ السَّابِعُ[1]
جَمَعَ القُلُوبَ عَلَيْكَ جَامِعُ أَهْلِهَا وَحَوى وِدَادَك كُلُّ خَـيْرٍ جَامِـعُ
فَبَـذَلْتَ أَعْـظَمَ مَـايَقُـومُ بِحَمْلِهِ وُسْعُ النُّفُوسِ مِنَ الفِعَالِ البَارِعُ
وَعَفَوْتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ عَفْوٌ، وَلَمْ يَشْفَعْ إلَيْكَ بِشَافِـعِ[2]

ودخل إبراهيم المهدي يوماً على المأمون بعد مدّة من الظفر به، فقال: إنّ هذين يحملاني على قتلك ـ يعني المعتصم أخاه، والعبّاس بن المأمون.

فقال: ماأشارا عليك إلا بما يشار به على مثلك، ولكن تَدَعُ ماتخاف لما نرجو، وأنشد:

رَدَدْتَ مَالي وَلَمْ تَبْخَلْ عَـلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالي، قَدْ حَقَنْتَ دَمي
فَبُؤْتَ مِنْهَـا وَمَـا كَـافَيْتَهَـا بِيَـدٍ هُمَا الحَيَاتَان؛ مِنْ مَوْت، وَمَنْ عَدَم
البِرُّ وَطَّأَ مِنْكَ العُذْرَ عِنْدَكَ لي فِيمَا أَتَيْتَ، وَلَمْ تَعْذِلْ، وَلَمْ تَلُمَ
وَقَامَ عُذْرُكَ بي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لي مَقَامُ شَاهِدِ عَدْلٍ غَـيْرِ مُتَّهَمِ[3]

ومن طرائف إبراهيم بن المهدي ولطائفه. وخفَّة روحه، ودليل عشقه للحياة و الأدب والفنّ والجمال، مارواه للخليفة المأمون بعد رضائه عنه، قال: ياأميرَ المؤمنين، خرجت يوماً، فمررت في سككٍ بغداد متطرِّفاً، حتى انتهيت إلى موضوع، فشممتُ رائحةَ أباريز من جناحٍ في دار عالية، وقدور قد فاحَ قتارُها، فتاقت نفسي إليها. فوقفتُ علي خيّاط، فقلت: لمن هذه الدار؟

فقال: لرجل من التجّار البزّازين.

---

(١) الامام السابع: المأمون.
(٢) مروج الذهب ٤/٢٩ ـ ٣٠ .
(٣) المرجع السابق ٣١ .

قلت ما اسمه؟

قال: فلان بن فلان.

فرفعت طرفي إلى الجناح، فإذا فيه شباكٌ، فنظرت إلى كفّ قد خرجت من الشباك، ومعصمٍ ما رأيت أحْسَنَ منهما قط. فشغلني ياأميرَ المؤمنين حسْنُ الكف والمعصم عن رائحة القدور، فبقيتُ باهتاً وقد ذهل عقلي! ثم قلت للخياط: هو ممّن يشربُ النبيذَ؟

قال: نعم، وأحسب أن عنده اليوم دعوةً، ولاينادم إلا تجاراً مثله مستورين.

فأنا كذلك، إذْ أقبل رجلان نبيلان راكبان، من رأس الدرب. فقال لي الخياط: هذان منادماه.

قلت: ماآسماهما؟ وما كُناهما؟

فقال: فلان وفلان.

فحرّكت دابَتي حتى دخلتُ بينهما، وقلت: جُعِلْتُ فِداكما! قد استبطأَ كُما أبو فلان أعزَّه الله! وسايرتُهما حتى انتهينا إلى الباب؛ فقدّماني، فدخلتُ ودخلا. فلما رآني صاحب المنزل لم يَشُكَّ إلا أنيّ منهما بسبيل. فرحّبَ وأجلسني في أَجَلِّ موضع، فجيءَ ياأمير المؤمنين بالمائدة وعليها خبز نظيف، وأُتينا بتلك الألوان؛ فكان طعمها أطيب من رائحتها، فقلت في نفسي: هذه الألوان قد أكلتها، وبقي الكف والمعصم.

ثم رُفعَ الطعامُ، فغلسنا أيدينا ـ ثم صِرنا إلى مجلس المنادمة؛ فإذا هو أَنبَلُ مجلس، وأَجَلُّ فرش، وجعل صاحبُ المجلس يلطف بي ويُقْبِلُ عليَّ بالحديث، والرجلان لايشكّان أنّه مني بسبيل، وإنما كان ذلك الفعل منه بي لَمَّا ظن أنيّ منهما بسبيل. حتى إذا شربنا أقداحا، خرجتْ علينا جاريةٌ تتثنى كأنَّها غصنُ بان،

فسلمَّت غيرَ خجلة، وهُيِّئتْ لها وسادةٌ، وأُتي بعود فوضِعَ في حجرها، فَجَسَّتْهُ، فَتَبَيَّنْتُ الحِذْقَ في جسِّها، ثمَّ اندفعت تغنّي:

تَـوَهَّمَهَـا طَـرْفي، فَـآلَمَ خَـدَّهَـا فَصَارَ مَكَانَ الوَهْمِ، مِنْ نَظرِي أَثْرُ
وَصَـافَحَهَـا كَفيِّ، فَـآلَمَ كَفُّهَـا فَمِنْ لَمْسِ كَفِّي في أَنَامِلِهَا عَقْرُ
وَمَـرَّتْ بِقَلْبِي خَاطِـراً فَجَرَحْتُهَـا وَلَمْ أَرَ شَيْئاً قَطُّ يَجْرَحُـهُ الفِكْر

فهيَّجتْ والله، ياأمير المؤمنين عليَّ بلابلي، وطربتُ لحسن غِنائها وحِذْقها، ثم اندفعت تُغنِّي:

أَشَرْتُ إِلَيْهَا: هَلْ عَلِمْتِ مَوَدَّتي فَرَدَّتْ بِطَرْفِ العَيْنِ: إنيِّ عَلَى العَهْدِ
فحِدْتُ عَنِ الإظْهَارِ عَمْداً لِسِرِّهَا وَحَادَتْ عَنِ الإظْهارِ أَيْضاً عَلَى عَمْدِ

فصحت: السلامة! وجاءني من الطرب ما لاأملك معه النفس ولا الصبر، واندفعت تُغنِّي.

أَلَيْسَ عَجيبـاً أَنَّ بَيْتاً يَضُمُّني وَإِيَّـاك، لانَخْلُو، وَلا نَـتَكَـلَّمُ؟
سِوى أَعْيُنٍ تَشْكُو الهَوَى بِجُفُونِهَا وَتَرْجِيعُ أَحْشَاءٍ عَلَى النَّار تَضْرَمُ
إشَـارَةُ أفْـوَاهٍ، وغَمْـزُ حَـوَاجِبٍ وَتَكْسِـيرُ أَجْفَـانٍ، وَكَفٌّ يُسَلِّمُ

فحسدتها والله ياأمير المؤمنين على حذقها، ومعرفتها بالغناء، وإصابتها معنى الشعر! وأنّها لم تخرج من الفنِّ الذي ابتدأته، فقلت: بقي عليك ياجارية شيء.

فغضبت، وضربت بعودها الأرض، ثم قالت: متى كنتم تُحْضِرُونَ مجالسكم البُغَضَاءَ؟ فندمتُ على ماكان مني، ورأيتُ القومَ قد تغيَّروا إليَّ، فقلتُ: أليس ثَمَّ عُودٌ؟ قالوا: بلى ياسيدنا! فَأُتيتُ بعودٍ فأصلحتُ من شأنه ماأردت، واندفعت أُغنِّي:

مَـالِلْمَنَـازِلِ لا يُجِبْنَ حَـزِينَـا؟ أَصَمَمْنَ أَمْ بَعُدَ المَدَى فَبَلِينَـا؟
رَاحُـوا العَشِيَّـةَ رَوْحَـةً مَـذْكُـورَةً إنْ مِتْنَ مُتْنَ، وَإنْ حَيينَ حَيينا

مما استتممته جيِّداً حتى خرجت الجارية، فأكبت على رجلي تقبلها وهي تقول: المعذرة والله لك ياسيِّدي، فما سمعتُ مَنْ يغني هذا الصوتَ مثلك!

وقامَ مولاها وكلُّ من كان عنده، فصنعوا كصنْعِها، وطربَ القوم، واستحثوا الشرب، فشربوا بالطاسة، ثم اندفعتُ أغني:

أَبا للَّهِ هَلْ تُمْسِينَ لاتَذْكُـرِينَني؟ وَقَدْ سَجَمَتْ عَيْنَايَ مِنْ ذِكْرِكِ الدَّمَا
إلى اللَّهِ أَشْكُو بُخْلَهَا وَسَمَاحَتي لَهَـا عَسَـلٌ مِنِيٍّ، وَتَبْـذُلُ عَلْقَـمَا
فَرُدِّي مُصَابَ القَلْبِ أَنْتِ قَتَلْتِهِ وَلا تَتْرُكيهِ ذَاهِلَ العَقلِ مُغْـرَمَا
إلى الله أَشْـكُـو أَنَّهَا أَجْنَـبِـيَّـةٌ وَإِنِّي لَهَا بِالْـوُدِّ مَاعِشْتُ مُكَـرِمَا

فجاء من طرب القوم ياأمير المؤمنين ماخشيت أن يخرجوا من عقولهم! فأمسكت ساعة، حتى إذا هدأ القوم، اندفعت أغني الثالثة:

هَـذَا مُحِبُّكِ مَـطْوِيٌّ عَلَى كَمَـدِهْ صَبٌّ، مَدَامِعُهُ تَجْرِي عَلَى جَسَدِهْ
لَـهُ يَـدٌ تَسْـأَلُ الـرَّحْمَنَ رَاحَتَـهُ مِمَّا بِهِ، وَيَدٌ أُخْرَى عَـلَى كَبِدِهْ
يَا مَنْ رَأى كَلِفاً مُسْتَهْتِراً أَسَفاً كَـانَتْ مَنِيَّتُـهُ في عَيْنِـهِ وَيَـدِهْ

فجعلتْ الجاريةُ ياأميرَ المؤمنين تصيحُ: السلامة هذا والله الغناء يامولاي! وسكِرَ القومُ، وخرجوا من عقولهم.

وكان صاحبُ المنزل جيِّدَ الشراب، ونديماه دونَه. فأمر غلمانَه مع غلمانهم بحفظهم وصرفهم إلى منازلهم. وخلوتُ معه، فشربنا أقداحاً، ثم قال: ياسيدي! ذهبَ والله ماخلا من أيّامي باطلاً، إذْ كُنتُ لاأعرفُكَ، فمن أنت يامولاي؟

فلم يزلْ يلحُّ عليّ حتى أخبرته، فقام فقبَّلَ رأسي، وقال: ياسيدي، وإني أعجبُ أن يكون هذا الأدبُ إلا لمثلك! وإذا أنا منذ اليوم مع الخلافة ولا أعلم!

وسألني عن قِصّتي، وكيف حملت نفسي على مافعلته. فأخبرته خبرَ الطعام

والكفّ والمعصم، فقال: يافلانة، لجارية له، قولي لفلانة تنزل، فجعل يُنزل إليَّ جواريه واحدة واحدة، فأنظر إلى كفِّها وأقول: ليست هي، حتى قال: والله مابقي غير أمي وأختي، ولأنزِلَنَّهما إليكَ.

فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت له: جُعِلتُ فداك، ابدأ بالأخت قبل الأم، فعسى أن تكونَ صاحبتي.

فقال: صدقت، ففعل، فلما رأيت كفها ومعصمَها قلت: هي هي! جُعلت فداك.

فأمر غلمانه من فوره فصاروا إلى عشَرَةِ مشايخ من جِلّة جيرانهم فأحضروا، وجيء ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم، ثم قال: هذه أختي فلانة، وأنا أشهدكم أني قد زوجتُها من سيدي إبراهيم بن المهدي، وأمهرتُها عنه عشرين ألف درهم. فرضيتُ وقبِلتُ النكاحَ، ودفعت إليها البدرة الواحدة، وفرَّقتُ الأخرى على المشايخ وقلت لهم: اعذروا فهذا الذي حضرني في هذا الوقت، فقبضوها وانصرفوا.

ثم قال: ياسيدي أمهد لك بعض البيوت تنام مع أهلك.

فأحشمني والله ياأميرَ المؤمنين مارأيت من كرمه وسعة صدره، فقلت: بل أحضر عمارية وأحملُها إلى منزلي.

فقال: افعل ماشئت. فأحضرت عمارية وحملتها إلى منزلي، فوحقِّك ياأمير المؤمنين لقد حُمِلَ إلي من الجهاز ماضاق عنه بعضُ دوري.

فتعجّب المأمونُ من كرم ذلك الرجل.. وأمر إبراهيم بإحضار ذلك الرجل؛ فصار بعدُ من خواصّ المأمون وأهلِ مودّته، ولم يزلْ معه على أفضل الأحوال السارّة في المنادمة وغيرها[1].

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/١٠ - ١٣.

وفي خبر رواه صاحب الأغاني، أن المأمون تقدّم إلى محمّد بن مزداد لما أطلق إبراهيم بن المهدي، أن يمنعه داريْ الخاصّة والعامّة، ويُوكّل به رجلاً من قِبله يثق به لِيُعرِّفه أخبارَه وما يتكلّم به. فكتب إليه الموكَّلُ به أن إبراهيم لما بلغه منعه من داريْ الخاصّةَ والعامّةَ تمثّل:

يَا سَرْحَةَ المَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوارِدُهُ ... أَمَا إلَيْكِ طَرِيقٌ غَيْرُ مَسْدُودِ
لِحَائِمٍ حَامَ حَتَّى لا حِيَامَ لَهُ ... مُحَلإٍ عَنْ طَرِيقِ المَاءِ مَطْرُودِ

فلما قرأها المأمون بكى، وأمر بإحضاره من وقته مكرَّماً وإنزاله في مرتبته. فصار إليه محمدّ فبشّره بذلك، وأمره بالركوب فركب. فلما دخل على المأمون قبّل البساط، ثم قال:

البِرُّ بِي مِنْكَ وَطَّا العُذْرَ عِنْدَكَ لِي ... دُونَ اعْتِذَارِي، فَلَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلُمِ
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي، فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي ... مَقَامَ شَاهِدِ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهَمِ
تَعْفُو بِعَدْلٍ، وَتَسْطُو إنْ سَطَوْتَ بِهِ ... فَلا عَدِمْنَاكَ مِنْ عَافٍ وَمُنْتَقِمِ[1]

وجرى بين محمدّ الأمين وبين إبراهيم بألطاف فلم يقبلها، فوجه إليه وصيفة مليحة مغنّية معها عود معمول من عود هندي، وقال هذه الأبيات، وغنى فيها، وألقاها عليها حتى أخذت الصنعة وأحكمتها، ثم وجّه بها إليه.

فوقفت الجاريةُ بين يدي المأمون، وقالت له: عمُّكَ وعبدُكَ يا أميرَ المؤمنين يقول لك: واندفعتّ تُغني بالشعر، وهو:

هَتَكْتَ الضَّمِيرَ بِرَدِّ اللُّطَفْ ... وَكَشَفْتَ هَجْرَكَ لي فَانْكَشَفْ
وَإِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ شَيْئاً جَرَى ... فَهَبْ لِلْخِلافَةِ مَا قَدَ سَلَفْ
وَجُدْ لي بِصَفْحِكَ عَنْ زَلَّتِي ... فَبِالفَضْلِ يَأخُذُ أَهْلُ الشَّرَفْ

(١) انظر الأغاني ١٠/١١٨ .

قال: فسرّ محمّد بها، وبعث إلى إبراهيم، فأحضره ورضي عنه، وأمر له بخمسة آلاف دينار، وتمّم يومه معه[1].

من شعر إبراهيم بن المهدي الذي غنّى به المغنّون، وقد أخذوه عنه، قوله:

جَـدَّدَ الحُبُّ بَـلايَـا أَمْـرُهَـا لَـيْسَ يَـسـيرَا
كـبِـرَ الحُبُّ وَقِـدْماً كَـانَ إذْ حَـلَّ صَـغـيـرَا
ذَلَّـلَ الحُبُّ رِقَـاباً كَـانَ أَدْنَـاهَـا عَـسـيرَا
لَـيْسَ لي مِـنْ حُـبِّ إلْـفـي غَـيْـرَ حِـرْمَـاني الـسُّـرُورَا

ولمّا قتل بابك الخرمي وأخوه، قام في مجلس المعتصم الخطباء فتكلّموا، وقالت الشعراء، فَمِمَّنْ قامَ في ذلك اليوم إبراهيم بن المهدي، فقال شعراً بدلاً من الخطبة، وهو:

يَـا أَمـيـنَ اللهِ إنَّ الـ ـحَـمْـدَ لِـلَّه كَـثِـيـرَا
هَـكَـذَا الـنَّـصْرُ فَـلَا زَا لَ لَـكَ اللهُ نَـصِـيرَا
وَعَـلى الأَعْـدَاءِ أُعْـطِيـ ـتَ مِـنَ اللهِ ظَـهِـيرَا
وَهَـنـيـئـاً هَـيَّـأَ الـلَّـ ـهُ لَـكَ الـفَـتْـحَ الخَـطِيرَا
فَـهْـوَ فَـتْـحٌ لَمْ يَـرَ الـنَّـ ـاسُ لَـهُ فَـتْـحـاً نَـظِيرَا
وَجَـزَىٰ الأَفْـشِـينَ عَـبْـداً لِـلَّه خَـيْراً وَحُـبُـورَا
فَـلَقَـدْ لَاقَـى بِـهِ بَـا بَـكَ يَـوْمـاً قَـمْـطَرِيـرَا
ذَاكَ مَـوْلَاكَ الَّـذي أَلْـ ـفَـيْـتَـهُ جَـلْدَاً صَـبُـورَا
لَـكَ حَـتَّى ضَـرَّجَ الـسَّـيْـ ـفُ لَـهُ خَـدّاً نَـضِـيرَا
ضَـرْبَـةً أَلْقَتْ عَـلَى الـدَّهْـ ـرِ لَـهُ في الـوَجْـهِ نُـورَا[2]

---

(١) المرجع السابق ١٠/١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢) انظر مروج الذهب للسمعودي ٤/٥٨ ـ ٥٩ .

وفي سنة مئتين وثلاث وعشرين خرج تيوفيل ملك الروم في عساكره ومعه ملوك برجان والبرغر والصقالبة ، وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الأمم ، حتى نزل مدينة زِبَطْرَةَ من الثغر الخزري ، فافتحها بالسيف ، وقتل الصغير والكبير ، وسبى وأغار على بلاد ملطية . فضج الناس في الأمصار ، واستغاثوا في المساجد والديار ، فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأنشده قائماً قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بالناس ، ويحضه على الانتصار لهم ، ويحثه على الجهاد منها قوله :

يَا غَارَةَ الله قَدْ عَايَنْتِ فَانْتَهكي هَتْكَ النِّسَاءِ ، وَمَا مِنْهُنَّ يُرْتَكَبُ
هَبِ الرِّجَالَ عَلَى أَجْرَامِهَا قُتِلَتْ مَا بَالُ أَطْفَالِهَا بِالذَّبْحِ تُنْتَهَبُ ؟

وإبراهيم بن المهدي ، أول من قال في شعره «يَا غَارَةَ الله»(١) .

فخرج المعتصم من فوره نافراً عليه دُرَّاعَةٌ من الصوف بيضاء ، وقد تعمم بعمامة الغزاة سنة ٢٢٣ هـ ففتح حصونا كثيرة ، ونزل مدينة عمورية ففتحها الله على يديه ، وما ثناه عن الوصول إلى القسطنطينية وفتحها إلّا ما أزعجه من أمر العباس بن المأمون ، وأن ناساً قد بايعوه ، فعاد وحبسه فمات في السنة ذاتها .

---

(١) مروج الذهب ٤/٥٩ ـ ٦٠ .

عبد الله المأمون
١٧٠ ـ ٢١٨ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م

هو عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور عبدالله بن محمّد بن عليّ بن العبّاس . ولد بالياسريَّةِ(١) في ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل سنة سبعين ومئة ١٧٠ هـ ، وهي اللَّيلة التي مات فيها الهادي ، عمُّهُ ، واستُخْلِفَ فيها أبوه الرشيد ،(٢) وقيل كنيته أبو العبّاس(٣) .

وأمُّه أمُّ ولد باذغيسية اسمها مُرَاجِلُ ، ماتت في نفاسها به . وهو أكبر من الأمين أخيه بستة أشهر . وأدَّبَهُ اليزيديُّ ، وجمعَ الفقهاءَ من الآفاق ، وبرع في الفقه والعربيّة ، وأيَّام الناس ، ولمَّا كبر عُني بالفلسفة وعلوم الأوائل وَمَهَر فيها ، فجَّرهُ ، ذلك إلى القول بخلق القرآن(٤) .

وكان أبيضَ تعلوه شُقرة ، أَجْنَأَ(٥) أعينَ ، طويلَ اللحية رقيقَها ، ضيِّق

---

(١) الياسرية : قرية كبيرة على نهر عيسى بينها وبين بغداد ميلان .
(٢) العقد الفريد ٥/١١٩ .
(٣) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/٤ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٤ .
(٥) أجنأ : من أشرف كاهله على صدره ١١٩ .

الجبين ، بخدِّه خال أسود ، وكان قد وخطه الشيب . نقشُ خاتمه «سَلِ الله يُعْطِكَ» .

استقلّ المأمون بالخلافة بعد قتل أخيه الأمين سنة ثمان وتسعين ومئة وهو بخراسان واكتنى بأبي جعفر . وقال الصولي وكانوا يحبُّون هذه الكنية لأنها كنية المنصور[1] . وتوفي بالبَدَيْدُون سنة ثماني عشرة ومئتين لثمانٍ خلون من رجب ، ودفن بطرسوس[2] ، فكانت خلافته عشرين سنةً وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً . وكانت سِنُّهُ ثمانياً وأربعين سنة وأربعة أشهر إلاّ أيَّاماً[3] .

تزوج بوران بنت الحسن بن سهل[4] سنة عشر ومئتين ، ووَهَب لأبيها عشرةَ آلافِ ألفِ درهمٍ ، ولولده ألفَ ألف درهم . وبلغ جهازها أُلوفاً كثيرة . وقام أبوها بِخَلعِ القواد[5] وكِلْفَتهمُ مدَّةَ سبعة عشر يوما ، وكتب رِقاعاً فيها أسماء ضِياعٍ له ، ونثرها على القُواد العباسيّين ، فمن وقعت في يده رقعةٌ باسم ضيعة تسلَّمها . ونثر صينيّة ملئت جواهراً بين يدي المأمون عندما زُفَّت إليه[6] .

وكان المأمون ثالث ثلاثة من الخلفاء العباسيّين اشتهروا بالمقدرة والحكمة وحسن الإدارة وهم ؛ أبو جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، وعبدالله المأمون . وكان أفضل رجال بني العبّاس حزماً ، وعزماً ، وحلماً ، وعلماً ، ورأياً ، ودهاءً ، وهيبةً ، وشجاعةً ، وسؤدداً ، وسماحةً ، ولولا ما أتاه من مِحْنَةِ الناس في

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٥ .
(٢) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين حلب وانطاكية .
(٣) العقد الفريد ٥/١١٩ .
(٤) يقال لها خديجة .
(٥) الخلع : الكساء والعطايا .
(٦) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٣٦ .

القول : بخلق القرآن ، فلم يُفرِّقوا بزعمه بين الله وبين خلقه ، وذلك أنهم ساوَوا بين الله وبين ما أنزلَ من القرآن ، فأطبقُوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ، وقد قال الله تعالى : ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾(١) ، فكل ما جعله الله فقد خلقه . كما قال الله تعالى : ﴿وجعل الظلمات والنور﴾(٢) وقال : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾(٣) فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وقال : ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾(٤) والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه (٥).

وفي سنة ٢٠١ هـ خلع المأمون أخاه المؤتمن من العهد ، وجعل ولي العهد من بعده علياً الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، حمله على ذلك إفراطه في التشيع ، حتى قيل : إنّه همَّ أن يخلع نفسه ويفوض الأمر إليه ، وهو الذي لقَّبه الرضا، وضرب الدراهم باسمه ، وزوجه ابنته(٦) وكتب إلى الآفاق بذلك ، وأمر بترك السواد ولبس الخضرة ، فاشتدّ ذلك على بني العباس جدّاً ، وخرجوا عليه ، وبايعُوا إبراهيم بن المهدي ، ولُقِّب المبارك ، فجهز المأمونُ لقتاله وجرَت أمور وحروب ، وسار المأمون إلى العراق ، فلم ينشب عليٌّ الرضا أن مات سنة ثلاثٍ ومئتين(٧) بطوس لعنبٍ أكله وأكثر منه ، وقيل : إنه كان مسموماً ، وذلك في صفر

---

(١) الزخرف ١٦/٣ .
(٢) الأنعام ٦/١ .
(٣) طه ٢٠/٩٩ .
(٤) هود ١١/١ .
(٥) انظر تراريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٧ وقد أظهر المأمون ذلك سنة ٢١٢ هـ .
(٦) وزوج ابنته الثانية أم الفضل لابنه محمد بن علي بن موسى الرضا ، مروج الذهب ٢٨/٤ .
(٧) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٥ .

من السنة ذاتها ، وصلّى عليه المأمون وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وقيل تسع وأربعين أو سبع وأربعين ، وكان مولده بالمدينة سنة ثلاث وخمسين ومئة . وكتب المأمون إلى أهل بغداد يُعلِّمهم أنهم ما نقموا عليه إلاّ ببيعته لعلي الرضا ، وقد مات . فردوا عليه أغلظ جواب ، فسار إلى بغداد ، وبلغ إبراهيم بن المهدي تسلُّل الناس من عهده ، فاختفى في ذي الحجّة ، فكانت أيّامُه سنتين تقريبا ، وبقي في اختفائه مدّة ثمان سنوات[1] ودخل المأمون بغداد سنة أربع ومئتين ولباسه الخضرة ، ثم غَيَّرَ ذلك وعاد إلى السواد . . وبثَّ عيونه في طلب إبراهيم بن المهدي حتى ظفر به ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومئتين في زيّ امرأة ، ومعه امرأتان ،

تفتحت موهبة المأمون الشعرية في حياة أبيه . فقد روي أن الرشيد أراد سفرا ، فأمر الناس أن يتأهبّوا لذلك ، وأعلمهم أنّه خارج بعد الأسبوع ، فمضى الأسبوع ولم يخرج ، فاجتمعوا إلى المأمون فسألوه أن يستَعْلِمَ ذلك ، ولم يكن الرشيد يعلم أن المأمون يقول الشعر ، فكتب المأمون للرشيد يقول :

يَا خَيْرَ مَنْ دَبَّتِ المَطِيُّ بِهِ ... وَمَنْ تُقْدِي بِسَرْجِهِ فَرَسُ
هَلْ غَايَةٌ في المَسِيرِ نَعْرِفُهَا ... أَمْ أَمْرُنَا في المَسِيرِ مُلْتَبَسُ ؟
مَا عِلْمُ هَذَا إلاَّ إلى مَلِكٍ ... مِنْ نُورِهِ في الظَّلاَمِ نَقْتَبِسُ
إنْ سِرْتَ سَارَ الرَّشَادُ مُتَّبِعاً ... وَإنْ تَقِفُ فَالرَّشَادُ مُحْتَبِسُ

فقرأها الرشيد ، فسرَّ بها ، ووقع فيها : يا بني ! ما أنت والشعر ؟ إنما الشعر أرفع حالات الدنيّ ، وأقلّ حالات السريّ[2] .

---

(١) تاريخ الخلفاء ٣٦٦ .
(٢) السري : الرفيع السيد انظر تاريخ الخلفاء ٣٧٣ .

ربّما كان لملاحظة الرشيد هذه أثرٌ في انصراف المأمون عن الشعر والتفاته إلى فروع الثقافة الأخرى . وكان المأمون كثيراً ما ينشد هذه الأبيات :

وَمَنْ لاَ يَزَلْ غَرَضاً لِلْمَنُو ... نِ يَتْرُكْنَه ذَاتَ يَوْم عَميدَا
فَإنْ هُنَّ أَخْطَأْنَهُ مَرَّةً ... فَيُوشِكُ مُخْطِئُهَا أَنْ يَعُودَا
فَبَيْنَا يَحِيدُ وَتُخْطِيَنْه ... قَصَدْنَ فَأَعْجَلْنَهُ أَنْ يَحِيدَا[1]

وكان المأمون رجلَ علمٍ وأدب ، لا يجالس إلا العلماء وأهلَ الأدب ، فتعقد في بلاطه مجالسُ الأدباء والعلماء ، يتحاورون في أمور اللغة والشعر والفقه والعلم وغيرها من أشكال المعرفة . وكان المأمونُ عارفاً بالشعر وفنونه ، مطّلعاً على شعر شعراء عصره بِبُصرٍ ودِرايةٍ وحِذق ، حافظاً له ، إذا أُنشد البيت في قصيدة عرف قافيته عند سماع صدره . وما روي لنا من شعره يدلُّ على ذوق رفيعٍ ، وخيال جيد ، وتصوير بارع ، ولا أدلّ على ذلك من قوله في وصف الأنامل وهي ممسكة بالقلم :

كَأَنَّمَا قَابَلَ القِرْطَاسَ إذْ مَشَقَتْ ... مِنْهَا ثَلاَثَةَ أَقْلاَمٍ عَلَى قَلَمِ[2]

وروِيَ عنه أنّه نظر مرة إلى جارية من جواريه تخطُّ خطّاً حسناً ، فقال فيها يصف وصفاً جيّداً :

وَزَادَتْ لَدْينَا حُظْوَةً حينَ أَطْرَقَتْ ... وَفي إصْبَعَيْهَا أَسْمَرُ اللَّوْنِ أَهْيَفُ
أَصَمٌّ سَميعٌ سَاكِنٌ مُتَحَرِّكٌ ... يَنَالُ جُسَيْمَاتِ المُنَى وَهْوَ أَعْجَفُ[3]

وقد مرّ معنا خَبَرَهُ مع الجارية التي كانت تصب الماء على الرشيد من إبريقها ، إذْ أشار إليها بقبلة ، فأعتقها الرشيد ، وأهداها إليه ، وقال له

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/٤٥ .
(٢) انظر العقد الفريد ٤/١٩٢ .
(٣) العقد الفريد ٤/١٩٨ .،

بعدئذ : قل في ذلك شعراً ، فقال :

ظَبْيٌ كَنَيْتُ بِطَرْفِي عَنِ الضَّمِيرِ إلَيْهِ
قَبَّلْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ فَاعْتَلَّ مِنْ شَفَتَيْهِ
وَرَدَّ أَحْسَنَ رَدٍّ بِالكَسْرِ مِنْ حَاجِبَيْهِ
فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى قَدِرْتُ عَلَيْهِ(١)

وأخرج ابن عساكر عن أبي خليفة الفضل بن الحباب قال : سمعتُ بعضَ النخّاسينَ يقول : عُرِضَتْ على المأمون جاريةٌ شاعرة فصيحة متأدّبة شطرنجيَّة ، فساومتُه في ثمنها بألفي دينار ، فقال المأمون : إنْ هي أجازت بيتا أقوله ، ببيت من عندها ، اشتريتها بما تقول وزدتك ، فأنشد المأمون :

مَاذَا تَقُولِينَ فيمَنْ شَفَّهُ أَرَقٌ من جَهْدِ حُبِّكِ حَتَّى صَارَ حَيْرَانَا(٢)

فأجازته :

إذَا وَجَدنا مُحِبّاً قَدْ أَضَرَّ بِهِ دَاءُ الصَّبَابَةِ أَوْلَيْنَاهُ إحْسَانَا(٣)

فاشتراها .

ويروى عن المأمون أنَّه أرسل رسولاً إلى فتاة أحبَّها ، ليكشف له عنها ، فلما عاد الرسولُ ، قَرَأَ المأمون في عينيه شوقاً دفينا ، ودهشةً بادية ، فقال في ذلك :

بَعَثْتُكَ مُرْتَاداً فَفُزْتَ بِنَظْرَةٍ وَأَغْفَلْتَني حَتَّى أَسَأْتُ بِكَ الظَّنَا(٤)
فَنَاجَيْتَ مَنْ أَهْوَى وَكُنْتَ مُبَاعِداً فَيَا لَيْتَ شِعْرِي ، عَنْ دُنُوِّكَ مَا أَغْنَى
أَرَى أَثَراً مِنْهُ بِعَيْنَيْكَ بَيِّناً لَقَدْ أَخَذَتْ عَيْنَاكَ مِنْ عَيْنِهِ حُسْنَا

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٨١ - ٣٨٢ .
(٢) شفه ؛ أضناه وأهزله . الوجد : الحزن .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء ٣٨٢ للسيوطي .
(٤) مرتاداً : من الريادة وهي الكشف .

قد جاء في الصفحة ٢٢٣ من أخبار النساء لابن قيم الجوزية إضافة بيتين اثنين مع اختلاف في رواية الأبيات ، فبعد البيت الثاني جاء :

وَرَدَّدْتَ طَرْفاً في مَحَاسِنَ وَجْهِهَا   وَمَتَّعْتَ باسْتِمْتَاعِ نَغْمَتِهَا الأُذْنَا

وجاء في آخر الأبيات قوله :

فَيَا لَيْتَني كُنْتُ الرَّسُولَ فَأَشْتَفي   وَكَنْتُ الَّذي يَعْصي ، وَكُنْتُ الَّذي أُدْنىٰ

وزعموا أن المأمون قد أخذ هذا المعنى من قول العباس بن الأحنف :

إنْ تَشْقَ عَيْني بِهَا فَقَدْ سَعَدَتْ   عَيْنُ رَسُولي وَفُزْتُ بِالخَبَرِ

وَكُلَّمَا جَاءَني الرَّسُولُ لَهَا   رَدَدْتُ عَهْداً في عَيْنِيهِ نَظَرِي

خُذْ مُقْلَتِي يَارَسُولُ عَارِيَةً   فَانْظُرْ بِهَا وَاحْكُمْ عَلَى بَصَرِي

ولا أظنَّ أنَّ قولهم هذا إلاّ من قبيل التمحّك ، ولو صحَّ ذلك ، فالمأمون جوَّدَ وزاد .

وزعم صاحب بدائع البداية أنَّ المأمون قال لمتيَّم الهاشميّة ، قيل لجارية عليٍّ بن هشام وقد طلب إليها أن تجيز قوله :

تَعَالَيْ تَكُونُ الكُتْبُ بَيْني وَبَيْنكُمْ   مُلاَحَظَةً ، نُومِي بِهَا وَنُشِيرُ

فَعِنْدي مِنَ الكُتُبِ المَشُومَةِ حِيْرَةٌ   وَعِنْدِيَ مِنْ شُؤْمِ الرَّسُولِ أُمُورُ

فقالتْ :

جَعَلْتُ كِتَابِي عَبْرَةً مُسْتَهَلَّةً   ففي الخَدِّ مِنْ مَاءِ الجُفُونِ سُطُورُ

وَرُسْلي لِحَاجَاتِي وَهُنَّ كَثيرَةٌ   إِلَيْكَ إِشَارَاتٌ بِهَا وَزَفِيرُ(١)

وروى بعضهم قال : إنَّ الخليفة المأمون كان واقفاً أتمَّ الوقوف ، وأكمله على شعر عصره ، ومقولات الشعراء ، مع حُسنِ بُصْرٍ وأتمِّ حِذقٍ ، وأدقِّ فَهمٍ ،

---

(١) انظر بدائع البداية صفحة ٦٨ .

حتى إنَّه كان يحفظ بعضها مثال ذلك ما أخرجه الصولي عن الحسين الخليع قال : لما غضب عليَّ المأمون ومنعني رزقا لي ، عملت قصيدة أمتدحه بها ، ودفعتها إلى من أوصلها إليه ، وأوّلها :

أَجِرْنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِئْتُ إِلى الوَعْدِ مَتَى تُنْجِزُ الوَعْدَ المُؤكَّدَ بِالعَهْدِ
أُعِيذُكَ مِنْ خَلَفِ المُلُوكِ ، وَقَدْ تَرَى تَقَطُّعَ أَنْفَاسي عَلَيْكَ مِنَ الوَجْدِ
أَيَبْخَلُ فَرْدُ الحُسْنِ عَنِّي بِنَائِلٍ قَلِيل ، وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوىً فَرْدِ

إلى أن قال :

رَأى اللَّهُ عَبْدَاللَّه خَيْرَ عِبَادِهِ فَمَلَّكَـهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا المَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ مُفَرِّقَةٌ بَيْنَ الضَّلالَةِ وَالرُّشْدِ

فقال المأمون : قد أحسن ، إلّا أنه القائل :

أَعَيْنَايَ جُودَا وابكيا لي مُحَمَّداً وَلَا تَذْخَرَا دَمْعاً عَلَيْهِ وأَسْعِدَا
فَلَا تَمَّتِ الأَشْيَاءُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَلَا زَالَ شَمْلُ المُلْكِ فيهِ مُبَدَّدَا
وَلا فَرِحَ المَأْمُونُ بِالمُلْكِ بَعْدَهُ وَلَا زَالَ في الدُّنْيَا طَرِيداً مُشَرَّدَا

فهذا بذاك ، ولا شيء له عندنا .

فقال الحاجب : فأين عادة أمير المؤمنين في العفو؟

فقال : أما هذا فنعم . فأمر له بجائزة ، وردَّ رزقَه عليه .(١)

وجاء في كتاب عصر المأمون الجزء الأول : أن حاول أحد أخوة المأمون أن يفسد قلب أخيه على قائده عبدالله بن طاهر ، فأرسل المأمون من جاءه يؤكِّد بما لا يرقى إليه الشكّ بولاء عبدالله بن طاهر إليه ، فاستبشر وقال : ذلك غرس يدي ، وكتب إلى عبدالله بن طاهر ، يقول :(٢)

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .
(٢) انظر كتاب عصر المأمون الجزء الأول صفحة ٣٣٨ .

أخي أنت ومولاي ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإني لست أرضاه
لك الله على ذاك لك الله لك الله

وكان المأمون حليماً حكيماً ، يحبُّ العلمَ والعلماءَ ويجلس للمناظرة في الفقه في يوم الثلاثاء من كلّ أسبوع . وله في مجلسه هذا طُرفٌ ونوادرُ تغصُّ بها كتب الأدب والسِّيَرِ . ومن أقواله : ما أعياني جواب أحد مثل ما أعياني جواب رجل من أهل الكوفة ، قدّمه أهلُها ، فشكا عاملَهم ، فقلت : كذبتَ ، بل هو رجل عادل !

فقال : صدقَ أمير المؤمنين ، وكذبت أنا . قد خصصْتَنا به في هذه البلدة دون باقي البلاد . خذْهُ واستعملْه على بلد آخر يشملهم من عدله وإنصافه مثل الذي شملنا .

فقلت : قم في غير حفظ الله ، عزلته عنكم .[1]

ويروى أنَّ المؤمون قال لإبراهيم بن المهدي ، أخي الهادي والرشيد ، عمّه ، حين عفا عنه بعد ثورته : أنت الخليفة الأسود[2].

فقال له : يا أمير المؤمنين ! أنت مننت علي بالعفو ، وقد قال عبدبني الحسحاس :

إنْ كنتُ عبداً ، فنفسي حُرَّةٌ كرماً أو أسودَ الجلد ، إني أبيضُ الخُلُقِ

فقال المأمون : يا عمّ اخرجك الهزل إلى الجدِّ ، ثم أنشأ يقول :

لَيْسَ يُـزْري السَّوَادُ بِالرَّجُـ ـلِ الشَّهْمِ وَلاَ بِالفَتَى الأَديب الأَريبِ
إنْ يَكُنْ لِلسَّوَادِ مِنْكَ نَصيبٌ فَبَيَاضُ الأَخْلاَقِ مِنْكَ نَصيبي[1]

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٨٧ .
(٢) كان إبراهيم بن المهدي أسود وقد أخذ هذا اللون من أمه السوداء .

وكان المأمونُ رقيقَ العاطفة ، سخيَّ الدمع ، مشبوبَ المشاعر ، حنواً على الأهل والأصدقاء ، ومن شعره الذي يُعبِّر عن هذه الخلال ، قوله :

لِسَـاني كَتُـومٌ لأسْرَارِكُـمْ وَدَمْعي نَمُـومٌ لِسِرِّي مُـذِيـعْ
فَلَوْلاَ دُمُـوعي كَتَمْـتُ الهَـوَى وَلَوْلاَ الهوَى لَمْ يَكُنْ لي دُمُوعْ (٢)

وكتب إلى المأمون مرةً أحدُ عماله ، يُنبهه بخروج الأعراب وعبثهم ، فأجابه ببيتين من الشعر ، وجَّهَ بهما عاملَه إلى الأعراب ، فما بقي منهم أحدٌ يعبث ؛ والبيتان هما :

أَسْمَعْتَ غَيْرَ كَهَامِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ لاَ يَقْطَعُ السَّيْفُ إلَّا في يَدِ الحَذِرِ
سَيُصْبِحُ القَوْمُ مِنْ سَيْفي وَضارِبِهِ مِثْلَ الهَشيمِ ذَرَتْهُ الرِّيحُ بِالمَطَرِ (٣)

وللمأمون شعر في الشطرنج ، منه قوله :

أرْضٌ مُرَبَّعَةٌ ، حَمْـرَاءُ مِنْ أَدَمٍ مَا بَيْنَ إِلْفَيْنِ مَعْرُوفَيْنِ بِالكَـرَمِ
تَذَاكَرَا الحَرْبَ فَاحْتَالاَ لَهَا حِيَلاً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْثَمَا فيهَا بِسَفْكِ دَمِ
هَذَا يُغِيرُ عَلَى هَذَا ، وَذَاكَ عَلَى هَذَا يُغِيرُ ، وَعَيْنُ الحَزْمِ لَمْ تَنَمِ
فَانْظُرْ إلى فِـطَنٍ جَالَتْ بِمَعْـرِفَةٍ في عَسْكَرَيْنِ بِلاَ طَبْلٍ وَلاَ عَلَمِ (٤)

وكان المأمون يجلس للمظالم يقضي بنفسه بين الناس ، ورووا مرَّة أنّه كان آخر من تقدّم إليه في مجلس من مجالسه تلك ، وقد همَّ بالقيام ، امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثّة . فوقفت بين يديه وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٧٣ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٨٧ .
(٣) انظر زهر الآداب للقيرواني ٤/٢٠٥
(٤) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣٨٧ ـ ٣٨٨ .

فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم ، قاضيه ، فقال لها : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلّمي بحاجتك ، فقالت :

يَا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يَهْدِي لَهُ الرُّشَدُ ... ويا إمَامَاً بِهِ قَدْ أَشْرَقَ البَلَدُ
تَشْكُو إِلَيْكَ ، عَميدَ القَوْمِ ، أَرْمَلَةٌ ... عُدِّي عَلَيْهَا ، فَلَمْ يُتْرَكْ لَهَا سَبَدُ
وَابْتَزَّ مِنِّي ضِيَاعِي بَعْدَ مِنْعَتِهَا ... ظُلْمَاً ، وَفُرِّقَ مِنِّي الأَهْلُ وَالوَلَدُ

قالوا : فأطرق المأمون حينا ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

في دُونِ مَا قُلْتِ زَالَ الصَّبْرُ والجَلَدُ ... عَنِّي ، وأُقْرِحَ مِنِّي القَلْبُ وَالكَبِدُ
هَذَا أَوَانُ صَلَاةِ العَصْرِ فَانْصَرِفي ... وَأَحْضِرِي الخَصْمَ في اليَوْمِ الَّذي أَعِدُ
فَالمَجْلِسُ السَّبْتُ إِنْ يُقْضَ الجُلُوسُ لَنَا ... نُنْصِفْكِ فيهِ ، وإلَّا المَجْلِسُ الأَحَدُ

قالوا : فلما كان يوم الأحد ، جلس المأمون ، فكان أوّل من تقدم إليه تلك المرأة .

فسألها المأمونُ : أينَ الخصمُ ؟

قالت : الواقف على رأسك ! وأومأت إلى العبّاس ابنه .

ولمّا عرف الحقيقة ، أنصفها وردّ لها صنيعتها ، وأمر عامله هناك بأن يُحْسِنَ معاونتها وأمر لها بنفقة .[1]

وأخرج عن يحيى بن أكثم قال : ما رأيت أكمل من المأمون ، بتُّ عنده ليلة فانتبه فقال : يا يحيى انظر أيش[2] عند رجلي ؟

فنظرت فلم أر شيئاً . فقال : شمعة . فتبادر الفرّاشون ، فقال : انظروا ! !

---

(١) انظر العقد الفريد ١/٣٢ ـ ٣٤ عد الى التفصيل .
(٢) أيش : إدغام عاميٌّ لكلمتين هما : أيُّ شيء .

فنظروا فإذا تحت فراشه حية بطوله ، فقتلوها .

فقلت : قد انضاف إلى كمال أمير المؤمنين علم الغيب .

فقال : معاذ الله ! ولكن هتف بي هاتف الساعة وأنا نائم ، قال :

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ انْتَبِهْ إنَّ الخُطُوبَ لَهَا سُرَى
ثِقَةُ الفَتَى بِزَمَانِهْ ثِقَةٌ مُحَلَّلَة العُرَى

فانتبهت ، فعلمت أن قد حدث أمر ؛ إمَّا قريب ؛ وإمَّا بعيد ، فتأملت ما قرب فكان ما رأيت .[1]

وجاء في الفوات شعر للمأمون يقول فيه :

أَنا المَأْمُونُ والمَلِكُ الهُمَامُ وَلَكِنِّي بِحُبِّكَ مُسْتَهَامُ
أَتَرْضَى أَنْ أَمُوتَ عَلَيْكَ وَجْداً وَيَبْقَى النَّاسُ لَيْسَ لَهَا إِمَامُ ؟[2]

ويقال : إنه لَمَّا حضرت الوفاةُ المأمونَ ، جلست عند رأسه جارية كان بها مشغوفاً ، وقد استصحبها معه إلى بديدون ببلاد الروم ، فأخذته غشية . فجعلت الجارية تبكيه ، وأنشأت تقول :

يَا مَلِكاً لَسْتُ بِنَاسِيهِ وَلَيْتَنِي بِالنَّفْسِ أَفْدِيهِ

فأفاق من غشيته ، ونظر إليها ، وأنشأ يقول :

بَاكِيَتِي مِنْ جَزَعٍ أَقْصِرِي قَدْ غَلَّقَ الرَّهْنُ بِمَا فِيهِ[3]

وروى محمّد بن الفضل الهاشميّ قال : لَمّا فرغ المأمون من خطاب عمّه إبراهيم بعد أن قبض عليه دفعه الى ابن أبي خالد الأحول ، وقال : هو صديقك ، فخذه إليك .

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .
(٢) انظر الفوات ٢/٢٣٩ .
(٣) انظر بدائع البدائه ٢٨ .

فقال : وما تغني صداقتي عنه وأمير المؤمنين ساخط عليه ! أما إني وإن كنت له صديقاً لا أمتنع من قول الحقِّ فيه .

فقال له المأمون : قل فإنك غير متَّهم .

قال وهو يريد التسلُّق على العفو عنه : إن قَتَلْتَهُ فقد قَتَلَتِ الملوكُ قبلَك أَقَلَّ جُرْماً منه ، وإن عفوتَ عنه عفوت عمن لم يُعْفَ قبلَكَ عن مثله .

فسكت المأمون ساعة ثم تمثل :

فَلَئِنْ عَـفَـوْتُ لأَعْفُـوَنْ جَـلَلاً وَلَئِن سَـطَوْتُ لاوهِنَنْ عَـظْمي

قَـوْمي هُمُ قَـتَلُوا أُمَـيْمَ أَخِـي فَـإِذَا رُميتُ أَصَبَـابَني سَـهْمِـي

خذه يا أحمد إليك مكرماً ، فانصرف به ، ثم كتب إلى المأمون قصيدته العينية ، فلما قرأها رَقَّ له ، وأمر بردِّه إلى منزله وَرَدَّ ما قُبِضَ منه من أمواله وأملاكه .(١)

ولما قدم المأمون بغداد ، جاءت زينبُ بنت سليمان بن علي ، وكانت أَقْعَدَ ولد العباس نسباً ، وأكبرهم سنّاً ، فقالت له : إنك على بِرِّ أهلك من ولد عليّ بن أبي طالب أَقْدَرُ منك على برّهم لنا ، من غير أن تزيل سنة مَن مَضىٰ من آبائك ، فدعْ لباس الخضرة ، ولا تُطْمِعَنَّ أحداً فيما كان منكَ . فقال لها كلاماً بليغاً (٢) وأنشدَ في معناه شعراً قال :

أَلاَمُ عَلَى شُكْرِ الوَصيّ أَبِي الحَسَنْ وَذَلِكَ عِنْدي مِنْ عَجَائِبِ ذَا الزَّمَنْ

خَليفَةِ خَيْرِ النَّاسِ ، وَالأَوَّلِ الَّذي أَعَانَ رَسُولَ اللَّهِ في السِرِّ وَالعَلَنْ

وَلَـوْلاَهُ مَا عُـدَّتْ لِهَاشِمٍ إِمْـرَةٌ وَكَانَتْ عَلَى الأَيَّامِ تُقْضَىَ وَتُمْتَهَنْ

فَوَلَّى بَنِي العَبَّاسِ مَا اخْتَصَّ غَيْرَهُمْ وَمَنْ مَسَّه أَوْلَى بِالتَكَـرُّمِ وَالمِنَنْ

(١) انظر الأغاني دار الكتب ١٠/١١٨ .

(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/٣٣٤ .

فَأَوْضَحَ عَبْدُ اللَّهِ بِالبِصْرَةِ الهُدَى ... وَفَاضَ عُبَيْدُ اللَّهِ جَوَاداً عَلَى اليَمَنْ
وَقَسَّمَ أَعْمَالَ الخِلاَفَةِ بَيْنَهُمْ ... فَلاَ زِلْتُ مَرْبُوطاً بِذَا الشُّكْرِ مُرْتَهَنْ (١)

وللمأمون شعر جيد في الخمر ، منه قوله :

صِلِ النَّدْمَانَ يَوْمَ المِهْرَجَانِ ... بِصَافٍ مِنْ مُعَتَّقَةِ الدِّنَانِ
بِكَأْسٍ خُسْرُوَانِي عَتِيقٍ ... فَإِنَّ العِيدَ عِيدُ خُسْرُوَانِي
وَجَنِّبْنِي الزَّبِيبِيِّينَ طُرّاً ... فَشَأْنُ ذَوِي الزَّبِيبِ خِلاَفُ شَانِي
فَأَشْرَبُهَا وأَزْعَمُهَا حَرَاماً ... وَأَرْجُو عَفْوَ رَبٍّ ذِي امْتِنَانِ
وَيَشْرَبُهَا وَيَزْعُمُهَا حَلاَلاً ... وَتِلْكَ عَلَى الشَّقِيِّ خَطِيئَتَانِ (٢)

ومما يلفت النظر في هذا العصر أنه على الرغم من سلطة الخليفة المطلقة، فقد هيمن الفرس على شؤون الدولة حين وزروا للخلفاء ، فصاروا يولون ويعزلون ويتجرَّأون على أوامر الخليفة ، وكان أشهرهم أبو مسلم الخراساني وزير السفَّاح ، ويعقوب بن داود وزير المهدي ، ويحيى بن خالد البرمكي وولده جعفر والفضل وزراء الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون . وقد نكب الخلفاء هؤلاء الوزراء جميعاً حين أحسّوا بتعاظم سلطانهم وغلبتهم على أمور الحكم . وسيأتي يوم لا يملك فيه الخلفاء شيئاً حتى أمور قصورهم ستصبح بأيدي الشعوبيّين من الغرباء .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣٤٤/٣٣٥ .
(٢) المرجع السابق ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

محمد المعتصم بالله
١٧٨ - ٢٢٨ هـ/٧٩٣ - ٨٤٢ م

هو محمد المعتصم بن هارون الرشيد ثامن الخلفاء العباسيّين، ولد في شهر رمضان سنة ١٧٨هـ ببغداد، وأُمُّهُ أُمُّ ولدٍ من مولَّدات الكوفة اسمها مارِدَةُ بنت شبيب[١] ثم بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثماني عشرة ومئتين ٢١٨هـ، وكنيته أبو إسحاق.

وقال نفطويه والصولي: وكان يُقال للمعتصم: المثمَّنُ، لَأنه ثامن خلفاء بني العباس، والثامن من ولد العباس، وثامن أولاد الرشيد، وملَكَ سنة ثمان عشرة، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومولده سنة ثمان وسبعين ومئة، وعاش ثمانيا وأربعين سنة، وطالعُهُ العقربُ وهو ثامن برج، وفتح ثمانية فتوح، وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمانية أولاد، ومن الإناث كذلك، ومات لثمان بقين من ربيع الأول سنة ٢٢٨[٢] وصلى عليه ابنه هارون الواثق.

---

(١) انظر العقد الفريد ٥/١٢٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٩٣ وحاشية الصفحة ٤٦ من الجزء الرابع من مروج الذهب يقول: وأمه أسامية اسمها مارية بنت شبيب.
(٢) انظر تاريخ الخلفاء ٣٩٣/٣٩٤ والعقد الفريد ٥/١٢١ .

وكان المعتصم ذا شجاعة، وقوّة وهمّة، ومن أعظم الخلفاء وأهيبهم، ومن أشدّ الناس بطشاً، وكان يجعل زَنْدَ الرجل بين أصبعيه فيكسره[1]، وكان يتشبه بملوك الأعاجم، ويمشي مشيهم، وبلغت غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفاً.

وكان أبيض، أصهب اللحية طويلها، مربوعاً، مشرّب اللون حمرة، نقش خاتمه: الله ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن. وكان شديد البأس، وإنّه اعتمد يوماً على غلام فدقَّه. ووزر له الفضل بن مروان، ثم أحمد بن عمار، ثم محمّد بن عبد الملك الزيّات، واستحجب وصيفاً مولاه، ثم محمد بن حماد بن دنفش[2].

تحول المعتصم من العاصمة بغداد، وبنى عاصمة أخرى له هي سُرَّمَن رَأى (سامرَّاء)، وذلك أنه اعتني باقتناء الترك واستقدمهم من سمرقند وفرغانه، وألبسهم الديباج ومناطق الذهب، وكانوا يطردون خيلهم في بغداد، ويؤذون الناس، فضاقت بهم البلد، فشكوه أهل بغداد، فرحل بهم عنهم.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئتين غزا المعتصم الروم، فأنكاهم نكاية عظيمة لم يسمع بمثلها، وشتت جموعهم، وفتح عمورية بالسيف وقتل ثلاثين ألفا وسبى مثلهم، وكان لمّا تجهّز لغزوها حكم المنجِّمون أن ذلك طالع نحس، وأنه سيكسر، فكان من نصره وظفره ما لم يكن مثله، فمدحته الشعراء، وقال أبو تمام وقد خلده بقصيدته المشهورة:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
وَالعِلْمُ في شُهَبِ الأَرْمَاحِ لا مِعَةً ... بَيْنَ الخَميسَيْنِ، لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيْنَ الرِّوَايَةُ؟ أَمْ أَيْنَ النُّجُومُ؟ وَمَا ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فيها وَمِنْ كَذِبِ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٩٤.
(٢) العقد الفريد ١٢١/٥.

تَخَرُّصاً وَأَحَاديثاً مُلَفَّقَةً لَيْسَتْ بِعُجْمٍ إِذَا عُدَّتْ وَلا عَرَبِ[1]

وقال الذهبي: كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم، لولا ماشان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن، وهو الذي ضرب الإمام أحمد بن حنبل، وامتحن الناس بخلق القرآن، وكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقا من العلماء[2].

وروى الصولي عن محمد بن سعيد، عن إبراهيم بن محمد الهاشمي، قال: كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلّم معه، فمات الغلام، فقال له الرشيد أبوه: يامحمد مات غلامك. قال: نعم ياسيّدي، واستراح من الكُتَّاب.
فقال: وإنَّ الكُتَّاب ليبلغ منك هذا؟ دعوه لاتعلموه.

قال الراوي: فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة[3] وقال غيره: وكان المعتصم أُمِّياً، ولهذه الأسباب زعموا أن الرشيد لم يسمِّه للولاية، فساقها الله إليه، وكانت الخلفاء من بعده كلّهم من ذريته، ولم يكن من نسل غيره من أولاد الرشيد خليفة.

ومن النوادر أيضاً أنه على أميَّته أَوْ جهله القراءة بشكل مقبول، كان فصيح الكلام يحبُّ الشعر، بل قِيل إن له شعراً لابأس به. وقيل كان المعتصم إذا تكلَّم بلغ ما أراد وزاد عليه[2].

وأخرج عن محمّد بن عمر الرومي، قال: كان للمعتصم غلامٌ يقال له: عجيب، لم ير الناس مثله قط، وكان مشغوفا به، فعمل فيه أبياتا، ثم دعاني وقال: قد علمتَ أني دون إخوتي في الأدب، لحبّ أمير المؤمنين لي، ومَيْلي إلى

---

(٥) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٩٥ - ٣٩٦ .
(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٩٣ .
(٢) تاريخ الخلفاء ٣٩٧ .

اللعب وأنا حدث، فلم أنل مانالوا، وقد عملت في عجيب أبياتا، فإن كانت حسنة وإلا فاصدُقني حتى أكتمها، ثم أنشد شعراً:

لَـقَـدْ رَأَيْـتُ عَـجِـيـبَـا يَحْـكـي الـغَـزَالَ الـرَّبِـيـبَـا
الـوَجْـهُ مِـنْـهُ كَـبَـدْرٍ وَالـقَـدُّ يَحْكـي القَـضِـيـبَـا
وَإنْ تَـنَـاوَلَ سَـيْـفـاً رَأَيْـتُ لَـيْـثَـاً حَـرِيـبَـا
وَإنْ رَمَـى بِـسِـهَـامٍ كَـانَ الْمُـجِـيـدَ الْمُـصِـيـبَـا
طَـبِـيـبُ مَـا بِي مِـنَ الحُـبِّ فَـلا عَـدِمْـتُ طَـبِـيـبَـا
إنيِّ هَـوِيـتُ عَـجِـيـبـاً هَـوىً أَرَاهُ عَـجِـيـبَـا[1]

فحلفت له بأيمان البيعة أنه شعر مليح من أشعار الخلفاء الذين ليسوا بشعراء، فطابت نفسه وأمر له بخمسين ألف درهم[2].

وروى الصولي، قال: حدثنا عبد الواحد بن العبّاس الرياشي، قال: كتب ملك الروم إلى المعتصم كتابا يهدّده فيه. فلما قرىء عليه قال للكاتب: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك، والجواب ماترى، لاما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار[3]. وروى السيوطي له شعرا، منه قوله:

قَرِّبِ النَّحَامَ وَاعْجِلْ يَاغُلامُ وَاطْرَحِ السَّرْجَ عَلَيْهِ وَاللِّجَامْ
أعْـلِمِ الأتْـرَاكَ أَنِّي خَـائِضٌ لُجَّـةَ المَوْتِ فَمَنْ شَـاءَ أَقَامْ

وكان المعتصم على الرغم مما قيل عن أميَّته، يحفظ بعض الشعر الذي قيل في عصره، فقد أخرج الصولي عن الفضل اليزيدي قال: وجَّهَ المعتصم إلى

---

(١) تاريخ الخلفاء ٣٩٧/٣٩٨ .

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر تاريخ الخلفاء ٣٩٨ .

الشعراء ببابه؛ مَنْ منكم يحسن أن يقول فينا كما قال منصور النمري في الرشيد:

إنَّ المَكَارِمَ وَالمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ الله مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ الله مُعْتَصِماً فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إنْ أَخْلَفَ القَطْرُ، لَمْ تُخْلِفُ فَوَاضِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فقال أبو وهيب: فينا من يقول خيراً منه فيك، فقال:

ثَلاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى، وَأَبو إسْحَقَ، والْقَمَرُ
تَحْكي أَفَاعِيلَهُ في كُلِّ نَائِبَةٍ اللَّيْثُ، وَالغَيْثُ، والصَّمْصَامَةُ الذَّكَرُ(١)

وتُوِّجَ الأفشين قبل أن ينقلب على المعتصم، بتاج من الذهب مرصّع بالجوهر، وإكليل فيه من الجوهر والياقوت الأحمر والزمرّد الأخضر قد شبك بالذهب. وأُلبِسَ وشاحين. وزوّج المعتصمُ الحسَنَ بن الأفشين بأُتْرُجَةَ بنت أشناس، وزفَّت إليه، وأقيم لها عرس يجاوز المقدار في البهاء والجمال، وكانت توصف بالجمال والكمال، ولما كان من ليلة الزفاف ما عمَّ سرورُهُ خواصَّ الناس وكثيراً من عوامهم، قال المعتصم أبياتاً، يصف حسنها وجمالها واجتماعهما:

زُفَّتْ عَرُوسٌ إلى عَرُوسِ بِنْتُ رَئِيسٍ إلى رَئِيسِ
أَيُّهُمَا كَانَ لَيْتَ شِعْرِي أَجَلَّ في الصَّدْرِ وَالنُّفُوسِ
أَصَاحِبُ المُرهَفَ المُحَلَّى أَمْ ذُو الوِشَاحَيْنِ والشُّمُوسِ(٢)

وفي سنة خمس وعشرين ومئة خالف المازيار بن قارن فعصى المعتصم، فكتب إلى عبد الله بن طاهر يأمره بحربه، فسيّر إليه من نيسابور عمه الحسن بن مصعب، فنازله في حروب كثيرة، وأسره في نفر من جنده في رحلة صيد وحمله إلى

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٩٨.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٥٩/٤.

سامرّاء، فأقر على الأفشين: أنّه بعثه على الخروج والعصيان، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنويّة والمجوس، وقبض على الأفشين قبل قدوم المازيار بسامرّاء بيوم، وأقرّ عليه كاتب يقال له: سابور، فضرب المازيار بسوط حتى مات، وأُشهر وصلب إلى جانب بَابَك، وكان المازيار رغَّبَ المعتصم بأموال كثيرة، فأبي المعتصم قبول ذلك، وتمثّل:

إنَّ الأسُودَ أَسُودَ الغيل هِمَّتُهَا ... يَوْمَ الكَرِيهَةِ، في المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ[1]

ومالت خشبة مازيار إلى خشبة بابك، فتدانت أجسامهما، وقد كان صلب في ذلك الموضع باطِسُ بَطْرِيقُ عموريه، وقد انحنت نحوهما خشبته. ففي ذلك يقول أبو تمام من قصيدة له:

وَلَقَدْ شَفَى الأَحْشَاءَ مِنْ بُرَحَائِهَا ... إذْ صَارَ بَابَك جَارَ مَازِيَّارِ

ثَانِيهِ في كَبِدِ السَّمَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ ... لاثْنَيْنِ ثَانٍ إذْ هُمَا في الغَارِ

فَكَأَنَّمَا انْحنَيَا لِكَيْمَا يَطْوِيَا ... عَنْ بَاطِسٍ خَبَراً مِنَ الأَخْبَارِ[2]

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٦١ .

(٢) مروج الذهب للسمعودي ٦١/٤ .

هارون الواثق بالله بن محمد المعتصم
١٩٦ - ٢٣٢ هـ/ ٨١٠ - ٨٤٧ م

الخليفة الواثق بالله واسمه هارون بن المعتصم، وكنيته أبو جعفر، أمّه أمّ ولد روميّة اسمها قَرَاطيسَ(١) وُلدَ يوم الاثنين لعشرٍ بقيْنَ من شعبان سنة ستٍّ وتسعين ومئة ١٩٦هـ. بويع بالخلافة صبيحة اليوم الذي توفي فيه أبوه المعتصم يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومئتين ٢٢٧هـ بعهدٍ من أبيه. وتوفي بسُرَّمَنْ رأى يوم الأربعاء لستٍ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئتين ٢٣٢هـ، وصلى عليه أخوه المتوكِّل، فكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وكانت سِنُّهُ ستّاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأياماً(٢)،

وكان أبيضَ يميل إلى الصفرة، حسنَ الوجه جسيماً، في عينه اليمنى نكتة بياض، نقش خاتمه: محمّد رسول الله، وخاتم آخر: الواثق بالله(٣).

ورزق من الولد: محمداً المهتدي وأمه أم ولد يقال لها قُرب. وعبدَ الله، وأبا

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٠٠ .
(٢) العقد الفريد ٥/١٢١ - ١٢٢ .
(٣) المرجع السابق ١٢٢ .

العبّاس أحمد، وأبا إسحاق محمّدا، وأبا إسحاق إبراهيم[1].

ووزر له محمّد بن عبد الملك الزيّات، وحاجبه إيتاخ، ثم وصيف مولاه، ثم ابن دنفش، وقاضيه ابن أبي دُؤاد[2].

وقال الصولي: كان الواثق يسمّى المأمون الأصغر، لأدبه وفضله. وكان المأمون يعظمه ويقدِّمه على ولده. وكان الواثق أعلمَ الناس بكل شيء، وكان شاعراً، وكان أعلم الناس بالغناء، وله أصوات وألحان عملها نحو مئة صوت، وكان حاذقاً بضرب العود، راوية للأشعار والأخبار[3].

وقال الفضل اليزيدي: لم يكن في خلفاء بني العباس أكثرَ رواية للشعر من الواثق. فقيل له: كان أروى من المأمون؟ فقال: نعم، كان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق، وكان الواثق لايخلط بعلم العرب شيئا[4].

وفي سنة ثمان وعشرين ومئتين استخلف على السلطنة إشناس التركي، وألبسه وشاحين وتاجاً مجوهراً، وأظنُّ أنّه أوَّلُ خليفة استخلَفَ سلطاناً، فإنَّ الترك إنما كثروا في أيام أبيه. وولاه من بابه في بغداد إلى آخر أعماله في المغرب، جاعلاً أمر كل هذه البلدان بيده يولي عليها من يشاء[5].

امتحن الأئمَّة بخلق القرآن، وكان قد تبع أباه في ذلك، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي المحدِّث وصلبه لعدم قوله بخلق القرآن. وقال الخطيب: كان أحمد بن

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٠٣ .
(٤) تاريخ الخلفاء ٤٠٣ .
(٥) تهذيب التهذيب ٦/ ٤ .

أبي دؤاد قد استولى على الواثق، وحمله على التشدّد في المحنة، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن.

وقيل: حُمِلَ إليه أبو عبد الرحمن بن محمد الأذرمي[1] شيخ أبي داود النسائي مكبَّلًا بالحديد من بلاده، فلما دخل، وابن أبي دؤاد حاضر، قال أبو عبد الرحمن: أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتُمُ الناس إليه، أَعَلِمَهُ رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلم يدعُ الناس الناس إليه، أم شيء لم يعلمه؟

قال ابن أبي دؤاد: بل عَلِمَهُ.

قال: فكيف يَسَعَهُ أن لا يدعو الناس إليه، وأنتم يسعكم؟

قال: فبهتوا، وضحك الواثق، وقام قابضاً على فمه، ودخل بيتاً ومد رجليه وهو يقول: وَسِعَ النبي ﷺ أن يسكت عنه ولا يسعنا! فأمر له أن يعطى ثلاثمئة دينار، وأن يردّ إلى بلده، ولم يمتَحِنْ أحداً بعدها، ومَقَتَ ابنَ أبي دؤاد يومئذ[2] وقال يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد إلى آل أبي طالب، ما أحسن إليهم الواثق، ما مات وفيهم فقير.

شعره . .

كان الواثق وافر الأدب، مليح الشعر. وكان يحبّ خادماً أهدي له من مصر، فأغضبه الواثق يوماً، ثم إنّه سمعه يقول لبعض الخدم: والله إنّه ليرومُ أن أكلّمه من أمس فما أفعل، فقال الواثق:

يَا ذَا الَّذي بِعَذَابي ظَلَّ مُفْتِخَراً ... مَا أَنْتَ إلاَّ مليكُ جَارَ إذْ قَدَرَا

لَوْلَا الهَوَى لتَجَارَيْنَا عَلَى قَدَرٍ ... وَإنْ أُفِقْ مِنْهُ يَوْماً ما فَسَوْفَ تَرَى[3]

(١) تاريخ الأب العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ١١ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) المرجع السابق ٤٠٢ .

ومن شعر الواثق في خادمه مُهَجٍ ، قوله :

مُهَجٌ يَمْلِكُ المُهَجْ بِسَجِيِّ اللَّحْظِ وَالدَّعَجْ
حَسَنُ القَدِّ مُخْطَفٌ ذُو دَلَالٍ وَذُو غَنَجْ
لَيْسَ لِلْعَيْنِ إنْ بَدا عَنْهُ بِاللَّحْظِ مُنْعَرجْ[1]

وأسند الصولي عن جعفر بن الرشيد قال : كنّا بين يديِّ الواثق وقد اصطبح ، فناوله خادمه مهج ورداً ونرجساً ، فأنشد في ذلك بعد يوم لنفسه :

حَيَّاكَ بِالنَّرجِسِ وَالوَرْدِ مُعْتَدِلُ القَامَةِ وَالقَدِّ
فَألْهَبَتْ عَيْنَاهُ نَارَ الهَوَى وَزَادَ في اللَّوْعَةِ وَالوَجْدِ
أمَّلْتُ بِالمُلْكِ لَهُ قُرْبَهُ فَصَارَ مِلْكي سَبَبَ البُعْدِ
وَرَنَّحَتْهُ سَكَرَاتُ الهَوَى فَمَالَ بِالوَصْلِ إلىٰ الصَّدِّ
إنْ سُئِلَ البَذْلَ ، ثَنَى عِطْفَهُ وَأسْبَلَ الدَّمْعَ عَلَى الخَدِّ
غُرٌّ بِمَا تَجْنِيهِ ألْحَاظُهُ لَا يَعْرِفُ الإنْجَازَ لِلْوَعْدِ
تَوْلَّ تَشَكَّى الظُّلْمَ مِنْ عَبْدِهِ فَأنْصِفُو المَوْلَى مِنَ العَبْدِ[2]

قال : فأجمعوا أنه ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات .

وقال الصولي : حدثني عبدالله بن المعتزّ قال : أنشدني بعض أهلنا للواثق ، وكان يهوى خادمين ، لهذا يوم يخدمه فيه ، ولهذا يوم يخدمه فيه ، فقال في ذلك :

قَلْبِي قسيمٌ بَيْنَ نَفْسَيْنِ فَمَنْ رَأى رُوحاً بِجِسْمَيْنِ
يَغْضَبُ ذَا إنْ جَادَذَا بِالرِّضَا فَالْقَلْبُ مَشْغُولٌ بِشَجْوَيْنِ[3]

ومن شعره الحسن ، ما ذكره صاحب الفوات ، قوله :[4]

---

(١) المرجع السابق ٤٠٢ .
(٢) تاريخ الخلفاء ٤٠٥ .
(٣) المرجع السابق ٤٠٥ .
(٤) انظر الفوات ٤/٢٢٩ .

قَـالَتْ إِذَا اللَّيْـلُ دَجَـا فَـأْتِنَـا   فَـجِئْتُـهَـا حِـيْنَ دَجَـا اللَّيْـلُ
خَفِيَّ وَطْءِ الرِّجْلِ مِنْ حَاسِدٍ   وَلَـوْ دَرَى حَلَّ بِـهِ الـوَيْـلُ

وروى أيضاً قوله :

تَـنَـحَّ عَنِ الـقَبِـيـح وَلاَ تُـرِدْهُ   وَمَـنْ أَوْلَـيْـتَـهُ حُـسْـنَـى فَـزِدْهُ
سَتَكْفَىٰ مِنَ عَـدُوِّكَ كُـلَّ كَيْـدٍ   إِذَا كَـادَ الـعَـدُوُّ، وَلَمْ تَكِـدْهُ

وجاء في الفوات ٢٣٠ ، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٠٤ ، أنه لما احتضر الواثق بالله جعل يُرِّددُ هذين البيتين :

المَـوْتُ فيه جَمِيـعُ الخَلْقِ مُشْتَرِكُ   لاَ سُوقَةٌ مِنْهُمُ يَبْقَى وَلاَ مَلِكُ
مَا ضَرَّ أَهْلُ قَليلٍ في تَفَارُقِهِمْ   وَلَيْسَ يُغْني عَنِ الأَمْلاَكِ مَا مَلَكُوا

وقال بعضهم في ما قيل على قبر الإسكندر ، بمجلس الواثق : يا أمير المؤمنين ! وَأَحْسَنُ ما نَطَقَ به مَنْ حضر ذلك المشهد من الحكماء ديوجانس ، فقال : إن الإسكندر أمسِ أنطقُ منه اليوم ، وهو اليوم ، أوعظ منه أمس . وقد أخذ هذا المعنى ، أبو العتاهية الحكيم ، فقال :

كَفَى حَـزَنـاً بِـدَفْنِـكَ ثُمَّ إِنيِّ   نَفَضْتُ تُـرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَـدَيَّـا
وَكَـانَتْ في حَيَاتِـكَ لي عِـظَاتٌ   وَأَنْتَ الـيَـوْمَ أَوْعَظُ مِنْـكَ حَيَّـا

فاشتدّ بكاء الواثق وعلا نحيبُه ، وبكى معه كل من حضر من الناس ، ثم قام من فوره ذلك وهو يقول :

وَصُرُوفُ الـدَّهْـرِ في تَقْـدِيـرِهِ   خُلِقَتْ فيهَـا انْخِفَاضٌ وَانْحِدَارْ
بَـيْنَـمَا المَـرْءُ عَـلَى إِعْـلاَئِـهَـا   إِذْ هَـوَى في هُوَّةٍ مِنْهَا فَحَارْ
إِنَّمَـا مُـتْـعَـةُ قَـوْمٍ سَـاعَـةٌ   وَحَيَـاةُ المَرْءِ ثَـوْبٌ مُسْتَعَـارْ[1]

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٨٤/٤ .

واعتلَّ الواثق ، فصلّى بالناس يوم النحر أحمد بن أبي دؤاد ، وكان قاضي القضاة ، فدعا في خطبته للواثق ، فقال : اللهمّ اشفه مما ابتليته ، فلم يلبث أن مات ، فبويع أخوه المتوكّل ، فلقَّبَهُ «المتوكلُ على الله» . وكان الأمر قد خرج من أيدي الخلفاء ، إذْ كان الواثق ، وَلَّى إشناس من باب بغداد إلى آخر أعمال المغرب يتصرف بها كيف شاء ، وولّى الجانب الشرقي من كور دجلة حتى خراسان والسند «إيتاخ» وعندما توفي إشناس ٢٣٠ منح ايتاخ مرتبة وأكثر أعماله ، وزاد الطين بلَّةً انصراف الواثق عن اتخاذ ولي عهده بعده للخلافة[١] فاستغل ابن أبي داؤد وقواد الترك ؛ ايتاخ وصاحباه وصيف وبغا الكبير فحملُوا رجالَ الدولة على البيعة للمتوكِّل .

---

(١) اليعقوبي ٢٠٦/٣ .

هبة الله العبّاسي
٢١١ ـ ٢٧٥ هـ/ ٨٣٤ ـ ٨٩٨ م

هو هبة الله بن إبراهيم بن المهدي العبّاسي ، كنيته أبو القاسم ، من أُمراء آل العبّاس ، عالم بالغناء ، وشاعر مجيد ، وكان أسود اللون كأبيه ، جالس الخلفاء ، وآخر مَنْ جالسه الخليفة المعتمد على الله ، وكان من أهل بغداد[1] .

وكان لهبة الله غلام يقال له بدر ، قد رمى بأمره كله عليه ، فتركه ومضى إلى غلامٍ لِمُؤْنِسَ بن بُغا ، فأقام عنده ، فقال هبة الله فيه شعرا :

لَا يَفي دَهْرُكَ هَذَا لأَحَدْ　　وَجَميعُ النَّاسِ فيهِ قَدْ فَسَدْ
كُلُّ مَنْ تُبْصِرُ مِنْ جَارِيَةٍ　　وَغُلَامٍ ، فَهْوَ مُسْتَرْخي القَوَدْ
مَا مِنَ النَّاسِ جَميعاً أَحَدٌ　　مُسْتَحِقاً في الهَوَى أَنْ يُعْتَقَدْ
فَدَعِ المُرْدَ ، وَدَعْ ذِكْرَهُمُ　　وَارْمِ بِالعِشْقِ إلى أَقْصَى بَلَدْ
وَتَغَنَّ اليَوْمَ إنْ بَاكَرْتَهَا　　قَهْوَةً صَفْرَاءَ تَرْمي بِالزَّبَدْ
اسْتَجِرْ بِالرَّاحِ مِنْ حَدِّ الأَحَدْ　　لَا تُؤَخِّرْ لَذَّةَ اليَوْمِ لِغَدْ[2]

---

(١) أنظر الأعلام لخير الدين الزركلي ٨/٧٠ .
(٢) انظر أشعار أولاد الخلفاء للصولي صفحة ٥٠ وما بعد ذلك .

ومن أوّل أشعاره التي نظمها هبة الله وشُهر بها ، وغنّاه أبوه إبراهيم بلحن وضعه ، وكذلك غنّاه إسحاق الموصلي بلحن من وضعه ، وعلويّة من لحنه ، قوله :

أَصَابَكَ الظَّبْيُ إِذْ رَمَاكَا وَعَنْ ظِبَاءِ النَّقَا حَوَاكَا
فَلَوْ تَمَنَّيْتَ لَمْ تَجُزْهُ وَلَوْ تَمَنَّى لَمَا عَدَاكَا
يَا ظَالِمَاً نَفْسَهُ بِظُلْمِي لاَ تَبْكِ مِمَّا جَنَتْ يَدَاكَا
أَنْتَ الَّذِي إِنْ كَفَرْتَ وُدِّي صَرَفْتُ قَلْبِي إِلىٰ سِوَاكَا(١)

ومن شعره الذي شكا فيه الحب والهيام ، واستجار من الصدّ والهجران قوله يخاطب من يحبّ بعتاب رقيق حزين :

أَلاَ يَا طَالِباً يَفْدِيـ ـهِ مِنِّي الجِسْمُ وَالرُّوحُ
فُؤَادُ الهَائِمِ المِسْكِـ ـينِ بِالهِجْرَانِ مَجْرُوحُ
وَقَلْبُ الصَّبِّ بِالصَّدِّ الَّذِي أَظْهَرْتَ مَقْرُوحُ
فَأَلاَّ كَانَ ذَا الصَّدُّ وَبَابُ الصَّبْرِ مَفْتُوحُ

ومن شعره الذي يغنى به قوله :

يَا جَلِيلاً فِي العُيُونِ وَمَلِيحاً فِي المُجُونِ
وَالَّذِي يَمْطُلُنِي الوَعْـ ـدَ وَلاَ يَقْضِي دُيُونِي
أَنْتَ بَاعَدْتَ بِهَجْرٍ بَيْنَ نَوْمِي وَجُفُونِي
سَوْفَ يَدْعُونِيَ إِنْ لَمْ تَرْثِ لِي دَاعِي المَنُونِ(٢)

وله في الشكوى وعذاب الحب ، والتشهي إلى الوصل ، والخوف من الهجران ، قوله :

---

(١) أنظر أشعار أولاد الخلفاء للصولي ٢٩ وما بعد .

عَـذَّبَـنِي الحُـبُّ وَأَبْـلاَنِي مَـا أَعْنَفَ الحُـبَّ بِـالإِنْسَـانِ
مَا أَطْيَبَ الوَصْـلَ عَلَى عَـاشِقٍ إِنْ لَمْ يُـنَـغِّـصْـهُ بِهِـجْـرَانِ

ومن شعره في وصف المحبوب بالجمال والرشاقة ، والقسوة والجفاء ، متمنّياً لو أن وصله كحسنه إذاً لما بات كئيباً حزيناً ، قوله :

وَمُهَفْهَفٍ فَضَحَتْ رَشَاقَـ ـةُ قَدِّهِ الغُصْنَ الرَّطِيبَا
وَإِذَا بَدا إِشْـرَاقُـهُ لِلشَّمْسِ أَسْرَعَتِ المَغِيبَا
يَـا قَاسِيـاً أَدْعُـو بِعَـطْفِـ ـهِ فَيَـأْبَى أَنْ يُجِيبَا
لَـوْ كَانَ فِعْلُكَ مِثْـلُ وَجْهِـ ـكَ لَمْ أَكُنْ صَبّـاً كَئِيبَـا[1]

وله في الزهد والتوبة ، حينما حاوفته المنيّة ، واشتدّت عليه علّة الموت قوله :

إِلَـى المُهَيْمِنِ رَبِّـي أَتُـوبُ مِـنْ كُـلِّ ذَنْـبِ
رَجَـوْتُـهُ عَـنْـدَ قَـوْلي لِـدَفْـعِ هَمِّـي وَكَـرْبِي
يَـا رَبِّ فَـأَغْـفِـرْ ذُنُـوبي فَـأَنْـتَ غَـوْثـي وَحَـسْـبِـي

ومما رثى به أباه إبراهيم بن المهدي قوله :

الحَـمْـدُ لله عَـلَى مَـا أَرَى أَفْقَدَني المَوْتُ لَـذيذَ الكَـرَى
أَصْبَحَ أَعْلَى النَّاسِ في قَدْرِهِ مُنْخَفِضـاً يَعْلُو عَـلَيْـهِ الـثَّرَى
وَقَـدْ وَتَرَ المَـوْتُ الـوَرَى كُلَّهُمْ بِمَـوْتِ إِبْرَاهِيمَ خَـيْرِ الـوَرَى

ومات هبة الله في شهر بيع الأول سنة ٢٧٥ هـ ، عن توبة حسنة ، ووصيّة جميلة ، بعد أن فرّق في حياته مالاً عظيماً .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولي صفحة ٢٨ وما بعد .

الفصل الثاني
الدور العباسي الثاني
٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦ م

المقدمة ..

١ ـ المتوكِّل على الله جعفر بن المعتصم ٢٠٥ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨١٩ ـ ٨٦١ م

مدة حكمه ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ «خمس عشرة سنة ناقصة»

٢ ـ المنتصر بالله محمد بن المتوكِّل ٢٢٢ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٣٦ ـ ٨٦٢ م

مدة حكمه ٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ «ستة أشهر»

٣ ـ المستعين بالله أحمد بن المعتصم ٢٢١ ـ ٢٥٢ هـ/ ٨٣٥ ـ ٨٦٦ م

مدة حكمه ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ «ثلاث سنوات وتسعة أشهر»

٤ ـ المعتزُّ بالله محمّد بن المتوكِّل ٢٣٢ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٦٩ م

مدة حكمه ٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ «ثلاث سنين ونصف»

٥ ـ المهتدي بالله محمد بن الواثق ٢١٨ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٧٠ م

مدة حكمه ٢٢٥ ـ ٢٥٦ هـ «سنة ناقصة»

٦ ـ المعتمد على الله أحمد بن المتوكِّل ٢٢٩ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٩٢ م

مدة حكمه ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ «ثلاث وعشرون سنة»

٧ ـ المعتضد بالله أحمد (بن الموفق أخي المعتمد) ٢٤٢ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٥٥ ـ ٩٠٢ م

مدة حكمه ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ «عشر سنوات ناقصة»

٨ ـ المكتفي بالله علي بن المعتضد ٢٦٤ ـ ٢٩٥ هـ/ ٨٧٧ ـ ٩٠٨ م

مدة حكمه ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ «ست سنوات وسبعة أشهر»

٩ ـ المقتدر بالله جعفر بن المعتضد ٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ/ ٨٩٤ ـ ٩٣٢ م

مدة حكمه ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ «خمس وعشرون سنة»

١٠ ـ الغالب بالله عبدالله بن المعتز ٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٦١ ـ ٩٠٨ م

مدة حكمه ٢٩٦ ـ ٢٩٦ هـ «يوم وليلة فقط»

١١ ـ عَادَ المقتدر بالله ثانيةً ٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ/ ٨٩٤ ـ ٩٣٢ م

مدة حكمه ٢٥ سنة

١٢ ـ القاهر بالله محمّد بن المعتضد ٢٨٧ ـ ٣٣٩ هـ/ ٩٠٠ ـ ٩٥١ م

مدة حكمه ٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ «سنة ونصف»

١٣ ـ الراضي بالله محمّد بن المقتدر ٢٩٧ ـ ٣٢٩ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٤٠ م

مدة حكمه ٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ «سبع سنوات»

١٤ ـ المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر ٢٩٧ ـ ٣٥٧ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٦٩ م

مدة حكمه ٢٢٩ ـ ٣٣٣ هـ «أربع سنوات»

١٥ ـ المستكفي بالله عبدالله بن المكتفي ٢٩٢ ـ ٣٣٩ هـ/ ٩٠٤ ـ ٩٥١ م

مدة حكمه ٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ «سنة وأربعة أشهر»

العصر العباسي الثاني
٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ

المقدمة ..

غلب على هذا العصر أو الطور من الخلافة العباسيّة نفوذ الأتراك الذين كان قد استقدمهم الخليفة المعتصم ، ليقوّي بهم جيشه ، ويدفعَ نفوذ الفرس الذي سيطر على العصر العبّاسي الأوّل . فكان الأمر كالمستجَير من الرمضاء بالنار .

فإنْ كان خلفاء العصر العباسي الأوّل أقوياء أشدّاء ونكبوا الفرس أكثر من مرّة ، مِنْ قتلِ أبي مسلم الخرسانيّ ونكبة البرامكة وغيرهم ، فإنَّ الفرس كانوا أهلَ حضارة ومعرفة امتزجت بحضارة العرب وأثرت فيها ودفعتها إلى الأمام .

أما في هذا العصر فإن الأتراك المتسلِّطين هم قبائل سنوحِّشة إلى حد ما ، لا حضارة عندهم ولا علوم ، فتدهورت أحوال البلاد ، وتقلَّصت سلطة الخلفاء ووهنت حتى صاروا ألعوبة في يد الوزراء والقادة الأتراك والحجاب ، كقول الناس :

خَـليـفَـةٌ في قَـفَصْ بَـيْنَ وَصيـفٍ وَبُـغَـا
يَـقُـولُ مَـا قَـالاَ لَـهُ كَـمَا تَـقُـوُل الـبَـبَّـغَـا

واجترأ أمراء الأطراف على السلطة المركزية ، فتقلّصت الرقعة التي كان يسيطر عليها الخلفاء العباسيّون ، وتضاءلت حتّى لم يبق في أيديهم إلّا العراق وفارس والأهواز . وأمّا الخلفاء الذين استخلفوا في هذا العصر فثلاثة عشر ؛ أوّلهم أبو الفضل جعفر المتوكّل بن المعتصم ، الذي حاول التخلّص من هيمنة الأتراك، فأدرك بحسه العربي ألّا عروبة خارج دمشق ، فعمل على الانتقال إليها ، وأقام فيها نحواً من ثلاثة أشهر ، وفشل واضطرّ للعودة إلى سامرّاء ثم إلى الماحوزة ، فدفع حياته ثمناً لهذه المغامرة ، ولهذا الإحساس ، فقتله الأتراك مستغلّين خلافاته مع ابنه وولي عهده محمّد المنتصر ، وبقتله أنتهت آخر هيبة للخلفاء ، وأصبحوا دمىً تحرّكها أيدي الترك الشعوبيينّ . وقد حاول الخليفة أحمد المتسعين بالله بن المعتصم أن يكرّر مرّة أخرى التخلّص من الأتراك بالرحيل هذه المرة إلى بغداد ، فخلعوه ، ثم أرغموه تحت التعذيب إلى التنازل عن الخلافة والبيعة لمحمّد المعتز بالله بن المتوكّل ، ثم قتلوه ، وحين حاول هذا التخلّص منهم بالتجائه إلى الجند المغاربة عذّبوه وقتلوه شرَّ قتلة . ولمّا حاول خليفته محمّد المهتدي بالله بن الواثق إصلاح أحوال الحاشية والناس ونشر العدل لاقى المصير نفسه ، فخلعوه وقتلوه . وكذلك سُمَّ بعده أحمد المعتمد بن المتوكّل لأنّه انغمس بملذّاته ومجونه . وأما أحمد المعتضد بن الموفّق أخي المعتمد الذي سمّي السفاح الثاني لهيبته وبطشه فلم يكن أسعدَ حالا . وجاء علي المكتفي بن المعتضد فحارب الطولونيّين والبزنطيّين والقرامطة فمات شاباً مخلّفاً ثمانية ذكور وثمان إناث وثروة طائلة . وتوالى بعده المقتدر ، والغالب ، والقاهر ، والراضي ، والمتقي الذي كان ألعوبة في أيدي الحمدانيين من جهة ، وتوزون أمير الأمراء الديلمي من جهة ثانية إلى أن غدر به

الأخير وسمل عينيه ثم قتله بعد أن أمنّه . ويختتم هذه السلسلة البائسة المستكفي بالله الذي اعترف رسمياً بمعزٍّ الدولة البويهي سلطانًاً على بغداد ، فسمل عينيه وسجنه حتى موته ، ونشأ طور جديد بعد ذلك هو طور النفوذ البويهيّ ، أو ما يسمى العصر العباسي الثالث .

جعفر المتوكِّلُ على الله بن المعتصم
٢٠٥ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨١٩ ـ ٨٦١ م

هو جعفر المتوكِّل على الله بنُ المعتصم بن الرشيد ، وكنيتُه أبو الفضل ، وُلد يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلْت من شوّال سنة خمس ومئتين للهجرة ٢٠٥ ، وقيل سنة ستٍّ ومئتين . وكان مولده بفم الصلح[١] . وأُمُّه أمٌّ ولدٍ اسمها شجاع ، خوارزميّة[٢] .

وبويع له بالخلافة بعد الواثق بالله بضغط من إتياخ وصاحبيه وصيف وبُغَا كبيرا الأتراك ، يوم الأربعاء لستّ بقين من ذي الحجّة سنة اثنّتين وثلاثين ومئتين ٢٣٢ هـ . وقُتل ليلة الأربعاء لثلاثٍ خلون من شوّال سنة سبع وأربعين ومئتين ٢٤٧ هـ ، ودُفن في القصر الجعفريّ ، وصلّى عليه ابنه ووليُّ عهده المنتصر ، فكانت مدّة خلافته أربعَ عَشْرَةَ سنةً وتسعةَ أشهرٍ وتسعةَ أيّام ، وكانت سنُّهُ نيِّفاً وأربعين سنة[٣] . وكان عهده بدءاً لطور النفوذ التركي ، وهو العصر العباسي الثاني .

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/ ١١٨ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٠٦ .
(٣) العقد الفريد ٥/ ١٢٢ .

وكان المتوكلُ أسمرَ كبيرَ العينين ، نحيفَ الجسم ، خفيفَ العارضين . نقش خاتمه : على إلهي اتّكالي . وكان كثير الولد ، فبايع لبنيه الثلاثة : محمّد المنتصر بالله ، وأبي عبدالله المعتزّ بالله ، والمويّد بالله ، وفي ذلك يقول علي بن الجهم :

قُلْ لِلْخليفَةِ جَعْفَرٍ : يَا ذا النَّدَى ... وَابنِ الخَلاَئِفِ وَالأَئِمَّةِ وَالهُدَى
لَمَّا أَرَدْتَ صَلاَحَ دِينِ مُحَمَّدٍ ... وَلَّيْتَ عَهْدَ المُسْلِمِينَ مُحَمَّدَا
وَثَنَّيْتَ بِالْمُعْتَزِّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... وَجَعَلْتَ ثَالِثَهُمْ أَعَزَّ مُؤَيَّدَا[1]

ومما هو جدير بالذلكر أنَّه كان استخلاف المتوكِّل على الله بعد استخلاف أبي العبّاس السفّاح بمئة سنة ، وبعد موت العبّاس بن المطلب بمئتي سنة[2] .

وَزَرَ له محمّد بن عبد الملك الزيّات ، ثمّ محمّد بن الفضل الجرجاني ، ثم عبيدالله بن يحيى بن خاقان . واستحجب وصيفاً التركيّ ، ثم محمَّد بن عاصم ، ثم إبراهيمَ بن سهل . وكان خليفتُه على القضاء يحيى بن أكثم[3] .

أظهر الميلَ إلى السنَّةَ ، ونصرَ أهلَها ، ورفع المحنة بخلق القرآن ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، واستقدم المحدثين إلى سامرّاء ، وأجزلَ عطاياهم وأكرمهم ، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرُّصافة ، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس ، وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور ، فاجتمع إليه مثلُهم ، وتوفَّر دعاء الخلق للمتوكل ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتل أهل الردَّةِ ، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم ، والمتوكل في إحياء

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٤/٨٧ .
(٢) المرجع السابق ٨٨ .
(٣) العقد الفريد ٥/١٢٢ .

السنَّة وإماتَةِ التجهُّم ، فأصابَ الفالج ابنَ أبي دؤاد فصيَّره حجراً ملقى ، فلا آجره الله[1] .

وحدثتْ في عصر المتوكّل كوارث وزلازل في أرجاء الخلافة كلِّها لم يشهد لها مثيل حتى الآن روّعت الناس وقتَّلتهم بالآلاف . وفي سنة ٢٣٦ هـ أمر بهدم قبر الحسين ، وهدم ما حوله من الدور ، وأن يعملَ مزارع ، ومنع الناس من زيارته ، وخُرِّبَ ، وبقي صحراء[2] وكان قدْ بذل الرغائب لمن تقدم على هذا القبر لهدمه ، فكل خشي العقوبة وأحجم ، فتناول الذيريج مسحاةً وهدم أعالي قبر الحسين ، فحينئذٍ أقدم الفَعَلَةُ فيه ، حتى انتهوا إلى الحفرة وموضع اللحد ، فلم يروا فيه أثرَ رمَّةٍ ولا غيرها . ولم تزل الأمور على ما ذكرنا إلى أن استخلف المنتصر ، فأمَّن الناس ، وتقدم بالكف عن آل أبي طالب ، وترك البحث عن أخبارهم ، وأن لا يُمنع أحدُ زيارةَ الحيرة لقبر الحسين رضي الله تعالى عنه . ولا قبر غيره من آل أبي طالب . وأمر بردِّ فَدَكَ إلى ولد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف آل أبي طالب وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم[3] .

وكان المتوكّل جوادا مُمَدَّحاً ، يقالُ : ما أعطى خليفةٌ شاعراً ما أعطى المتوكّل ، وفيه يقول مروان بن أبي الجنوب :

أَمْسِكْ نَدَى كَفَّيْكَ عَنِّي ، لَا تَزِدْ فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرا

فقال : لا أُمسك حتى يغرقُك جودي . وكان أجازه على قصيدةٍ مئةً وعشرين ألفاً[4] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .
(٢) المرجع السابق ٧٠٤ .
(٣) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/ ١٣٥ .
(٤) المرجع السابق ٤٠٩ .

وقال بعضهم : سَلَّمَ على المتوكّل بالخلافة ثمانيةٌ ، كلٌّ واحد منهم أبوه خليفة : منصور بن المهدي ، والعباس بن الهادي ، وأبو أحمد بن الرشيد ، وعبدالله بن الأمين ، وموسى بن المأمون ، وأحمد بن المعتصم ، ومحمّد بن الواثق ، وابنه المنتصر[1] .

وقال المسعودي : لا يُعلم أحدٌ متقدِّم في جدٍّ ولا هزْلٍ إلّا وقد حظي في دولته ـ دولة المتوكّل ـ ووصل إليه نصيب وافر من المال . وكان منهمكاً في اللّذات والشراب ، وكان له أربعةُ آلاف سُرِّيَّةٍ ، ووطىءَ الجميعَ[2] .

وقال عليُّ بن الجهم : كان المتوكِّل مشغوفاً بقبيحة ، أمّ ولده المعتز ، لا يصبر عنها ، فوقفتْ له يوماً ، وقد كتبت على خدِّها بالغالية ؛ جعفراً ، فتأمّلها ، وأنشأ يقول :

وَكَاتِبَةٍ بِالمِسْكِ في الخَدِّ جَعْفَراً ... بِنَفْسي مَحَطُّ المِسْكِ مِنْ حَيْثُ أَثَّرَا
لَئِنْ أَوْدَعَتْ سَطْراً مِنَ المِسْكِ خَدَّهَا ... لَقَدْ أَوْدَعَتْ قَلْبي مِنَ الحُبِّ أَسْطُرَا
فَيَا مَنْ لِمَمْلوكٍ يَظَلُّ مَليكُهُ ... مُطيعاً لَهُ فيمَا أَسَرَّ وأَجْهَرَا
وَيَا مَنْ لِعَيْنَيَّ مَنْ رَأَى مِثْلَ جَعْفَرٍ ... سَقَى الله صَوْبَ المُسْتَهِلَّاتِ جَعْفَرَا[3]

وكان المتوكّل بايَعَ بولاية العهد لابنه المنتصر ، ثم المعتزّ ، ثم المؤيَّد . ثم أراد تقديم المعتزّ لمحبَّته لأُمِّه ، فسأل المنتصرَ أن ينزلَ عن العهد ، فأبى ، فراح يذمُّه ويحطُّ من منزلته ويتوعَّدُه . فاتَّفق المنتصرُ مع التُّركِ على قتل أبيه ، وقد انحرفوا عن المتوكِّل لأنّه أحسَّ بخطرهم وازدياد نفوذهم ، ممَّا دفعه إلى التخلّص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالي ،

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١٠ .
(٢) المرجع السابق ٤١٠ .
(٣) جاء هذان البيتان زيادة في مروج الذهب للمسعودي ٤/١٢٥ .

وديوان الخبر أو البريد والحجابة ، والقيام على دار الخلافة . فأوحى المتوكّلُ إلى بعض أوليائِه أن يُشيروا على إيتاخ بالإستئذان للحجِّ ، وما إن خرج من سامراء وأبْعدَ في الطريق إلى مكّةَ حتى عزلَه المتوكِّلُ عن الحجابة وولّاها وصيفاً التركي(1) . وهي سياسة سيتّبعها الخلفاء بعد المتوكِّل : أن يضربوا قوّادَ الأتراك بعضهم ببعض . وعاد إيتاخ من الحجِّ ودخل بغداد ، فَقَبَضَ عليه حاكمُها بأمر المتوكِّل وأودَعه السجنَ مقيَّداً بالحديد إلى أن توفي لسنة ٢٣٥ هـ . ولكنّ المتوكِّلَ لم يسدِّدْ للترك ضربةً قاضية ؛ بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يُضيفُ بغا الكبير إلى وصيفٍ في الحجابة .

وتتوالى السنوات وهو ضَيِّقٌ بقادة الترك ، ويفكِّر في التخلُّص منهم جميعاً ، ويهديه تفكيرُه في سنة ٢٤٣ هـ أن يتركَ سامراءَ ويتّخِذَ دمشقَ حاضرةً له(2) لأنّها موئل العروبة الأوّل وحصنُها المنيع منذ أيّام بني أُميّة ، حتى يصبَحَ بمنأىً عن الترك وشرورهم ، ولو نَجَحَ في ذلك لتغيَّر وجهُ التاريخ ، وعادت العروبة إلى عِزِّها ومجدها . ويُنَفِّذُ المتوكل خطَّتَهُ هذه ويشخصُ إلى دمشق في ذي العقدة من العام نفسه ، ويبدو أنَّ فكرتَه ذاعتْ في الناس ممَّا جعلَ يزيدَ بن محمّد المهلَّبي ينشدُ في قصيدةٍ طويلة :

أَظُنُّ الشَّامَ تَشْمَتُ بِالعِراقِ ... إِذَا عَزَمَ الإِمَامُ عَلَى انْطِلَاقِ
فَإِنْ تَدَعِ العِرَاقَ وَسَاكِنِيهَا ... فَقَدْ تُبْلَى المَلِيحَةُ بِالطَّلَاقِ(3)

ودخل المتوكّلُ دمشق في صفر لسنة ٢٤٤ هـ عازماً على المُقامِ بها ، ونقلِ دواوين الخلافة إليها وأَمَرَ أنْ يُبنَى له بها بعضُ القصور . غير أنَّ التركَ فطنوا

(1) تاريخ الطبري دار المعارف ١٦٧/٩ وما بعدها .
(2) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ١٢ .
(3) انظر الطبري دار المعارف ٢٠٩/٩ .

لمأرَبه ، وأنّه يريد الإطاحةَ بهم ، فطالبوا برواتبهم - وهو سيف سيظلُّون يشهرونه على الخلفاء كُلَّما أرادوا منهم أمراً وأرادوا لهم عزلاً - واضطرَّ المتوكلُ أن ينزلَ على إدارتهم ، وأن يبرحَ دمشق بعد نحو شهرين(١) .

وعاودته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالي سامرَّاءَ ، فانتقل إلى الماحوزة على ثلاثة فراسخ منها ، وأقطع القواد وحواشيه فيها ، وسمَّاها الجعفريّة ، وبنى لنفسه قصره الجعفريّ ، وقصراً آخر سمَّاه لؤلؤة وقصوراً أخرى . وفي أثناء ذلك أخذ يجفو الترك ويجيلُ الآراء في استئصالهم والاستبدال بهم . وكان أوَّل ما صنعه أن ضمَّ إلى وزيره عبيدالله بن يحيى بن خاقان اثني عشر ألفاً من العرب(٢) وكأنَّه يريد أن يُعيدَ العربَ إلى الجيش وقيادته ، وراجت شائعات بأنه يريد الفتك بحاجبَيْهِ وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من الأتراك ، فصمَّموا على مبادرته ، وكانت الأمور وقد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر وليّ عهده ، فوضع يده في أيديهم ، وأعدُّوا لذلك نفراً من أصاغر الترك ، منهم بُغا الشرابي ، وباغر ، وموسى بن بغا الكبير ، فدخلوا عليه هو ووزيره الفتح بن خاقان ليلة الخامس من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين ٢٤٧ هـ وقتلوهما غيرَ مراعين فيهما عهداً ولاذِمَّةً(٣) . ومن حينئذ أصبح للترك كل شيء في الدولة ولم يعدْ للخلفاء شيءٌ ، وفي ذلك يقول ابن الطقطقي : استولى الأتراك منذ قتلِ المتوكِّلِ على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفةُ في يدهم كالأسير ، إنْ شاؤوا أبقوه ، وإنْ شاؤوا خلعوه ، وإنْ شاؤوا قتلوه(٤) .

(١) مروج الذهب ٣٢/٤ وتاريخ الطبري ٢١٠/٩ والعصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ١٣ .
(٢) التنبيه والإشراف للسمعودي طبع أوربا ص ٣٦١ .
(٣) تاريخ الطبري ٢٢٥/٩ .
(٤) الفخري في الآداب السلطانية طبع مصر صفحة ١٨١ .

ورؤي المتوكل في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟

قال غفر لي بقليل من السُّنَّة أُحْيَيْتُهَا . ولمَّا قُتِلَ رثته الشعراء على كثرتهم ، ومن ذلك رثاء يزيد المهلبي :

جَـاءَتْ مَنِيَّتُـهُ وَالعَـيْنُ هَـاجِعَـةٌ   هَـلاَّ أَتَتْهُ المَنَـايَـا وَالقَنَـا قِصَـدُ
خَليفَـةٌ لَمْ يَنَلْ مَـا نَالَـهُ أَحَـدٌ   وَلَمْ يَضِعْ مِثْلُهُ رَوحٌ وَلاَ جَسَدُ[٥]

وكان من حظايا المتوكِّل وصيفةٌ تسمَّى محبوبة ، شاعرة ، عالمةٌ بصنوف العلم عوَّادة ، فلما قُتل ، ضُمَّتْ إلى بُغا الكبير ، فأمر بها يوماً للمنادمة ، فجلست منكسةً ، فقال : غنِّي ! فاعتلَّتْ ، فأقسمَ عليها ، وأمر بالعود ، فَوُضِعَ في حجرها ، فغنّت ارتجالاً :

أيُّ عَـيْـشٍ يَـلَـذُّلـي   لاَ أَرَى فِـيـهِ جَـعْـفَـرَا ؟
مَـلِـكٌ قَـدْ رَأَيْـتُـهُ   فــي نَجِيعٍ مُعَـفَّـرَا
كُـلُّ مَـنْ كَـانَ ذَا هُـيَـا   مٍ ، وَسُـقْـمٍ فَـقَـدْ بَـرَا
غَـيْـرَ مَحْـبُـوبَـةَ الَّـتـي   لَـوْ تَرَى المَـوْتَ يُـشْـتَـرَى
لاَشْـتَـرَتْـهُ بِمَـا حَـ   ـوَتْـهُ يَـدَاهَـا لِـتُـقْـبَرَا
إنَّ مَـوْتَ الحَـزِيـنِ أَطْـ   ـيَـبُ مِـنْ أَنْ يُـعَـمَّـرَا

فغضب بُغا ، وأمر بها فسجنت ، فكان آخر العهد بها[٦] .

ومن الغرائب أنَّ المتوكِّل قال للشاعر البحتري : قل فيَّ شعراً وفي الفتح بن خاقان ، فإني أحبُّ أن يحيا معي ولا أفقده ، فيذهب عيشي ولا يفقدني ، فَقُلْ في هذا المعنى ، فقال :

---

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١١ .
(٦) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١١ .

سَيِّدي أَنْتَ كَيْفَ أَخْلَفْتَ وَعْدي ... وَتَثَـاقَلْتَ عَنْ وَفَـاءٍ بِعَهْــدِي ؟
لَا أَرَتْني الأَيَّـامُ فَقْدَكَ يَـا فَتْـ ... ـحُ ، وَلَا عَرَّفَتْكَ مَا عِشْتَ بَعْدِي
أَعْـظَمُ الـرِّزْءِ أَنْ تُقَـدِّمَ قَبْـلي ... وَمِنَ الـرِّزْءِ أَنْ تُؤَخَّـرَ بَعْــدِي
حَـذَراً أَنْ تَكُـونَ إِلْفـاً لِغَـيْرِي ... إِذْ تَفَرَّدْتُ بالهَوَى فِيكَ وَحْـدِي

فقُتِلا معاً كما تقدّم[1] .

ومن الغرائب أيضاً أن يكون الشاعر البحتريّ نفسُه فيمن كانوا يسمرون مع المتوكّل ساعة قتله ، فرثاه بقصائد ظلّت خالدة على الزمن .

وحفِلَ مجلس المتوكّل بالشعراء ، وأغدق عليهم ، وكانوا يشاركونه مجالس سمره وأُنسه ، ويعاتبهم إنْ تأخّروا عن حضور مجلسه ، فقد ذُكِرَ عن عبد الأعلى بن حمّاد الترسيّ قال : دخلت على المتوكّل ، فقال : يا أبا يحيى ! ما أبطأَكَ عنّا ؟ منذ ثلاثٍ لم نرَكَ ! كُنّا هممنا لك بشيء ، فصرفناه إلى غيرك :

فقلت : يا أمير المؤمنين ! جزاك الله عن هذا الهَمِّ خيراً ، ألا أُنشدك بهذا المعنى بيتين ؟

قال : بلى ، فأنشدته

لأَشْكُـرَنَّـكَ مَعْـرُوفـاً هَمَمْتَ بِـهِ ... إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالمَعْرُوفِ مَعْـرُوفُ
وَلَا أَلُـومُكَ إِذْ لَمْ يُمْضِـهِ قَـدَرٌ ... فَالرِّزْقُ بِالقَدَرِ المَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فأمر لي بألفِ دينار[2] .

وروي عن جعفر بن عبد الواحد الهاشميِّ قال : دخلْتُ على المتوكّل لمّا

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١١ ـ ٤١٢ .
(٢) المرجع السابق ٤١٣ .

توفِّيت أمُّهُ ، فقال : يا جعفر ! ربّما قلْتُ البيتَ الواحد ، فإذا جاوزْته خَلَطْتُ ، وقد قلْتُ :

تَـذَكَّرْتُ لَمَّـا فَرَّقَ الـدَّهْرُ بَيْنَنَـا فَعَــزَّيْتُ نَفْسي بِـالنَّبيِّ مُحَـمَّـدِ

فأجازه بعضُ مَنْ حضر المجلس بقوله :

وَقُلْتُ لَهَـا : إنَّ المَنَـايَـا سَبيلُنَـا فَمَنْ لَمْ يَمُتْ في يَوْمِهِ ، مَاتَ في غَدِ[1]

وروي عن الفتح بن خاقان قال : دخلت يوماً على المتوكِّل ، فرأيته مطرقاً متفكِّراً .

فقلت : يا أمير المؤمنين ! ما هذا الفكر ؟ فوالله ما على ظهر الأرض أطيبُ منك عيشاً ، ولا أنعمُ منك بالاً !

فقال : يا فَتْحُ ! أطيبُ عيشاً منِّي ، رجلٌ له دارٌ واسعةٌ ، وزوجةٌ صالحةٌ ، ومعيشةٌ حاضرة ، لا يعرُفنا فنُؤذيه ، ولا يحتاج إلينا فنَزْدريه[2] .

وروى عليُّ بن الجهم قال : أهديَ إلى المتوكِّل جارية يقال لها محبوبة ، قد نشأت بالطائف ، وتعلمت الأدب ، وروت الأشعار ، فأغري المتوكِّل بها وأغرم ، ثم إنه غضب عليها ، ومنع جواري القصر من كلامها . فدخلْتُ عليه يوماً ، فقال لي : قد رأيت محبوبة في منامي كأنّي قد صالحتها وصالحتني ، فقلت : خيراً يا أمير المؤمنين !

قال : قم بنا لننظر ما هي عليه .

فقمنا حتى أتينا حجرتها ، فإذا هي تضرب على العود وتقول :

---

(١) سبيلنا : بالفتح اسم إن المؤخر ، وكان حقها الرفع على الخبرية انظر تاريخ الخلفاء ٤١٣ .
(٢) المرجع السابق .

أدُورُ في القَصْرِ لَا أَرَى أَحَداً أَشْكُو إِلَيْهِ وَلَا يُكَلِّمني
حتَّى كَأَنِّي أَتَيْتُ مَعْصِيَةً لَيْسَتْ لَهَا تَوْبَةٌ تُخَلِّصُني
فَهَلْ شَفيعٌ لَنَا إِلىٰ مَلِكٍ؟ قَدْ زَارَني في الكَرَى وَصَالحَني
حَتَّى إِذَا مَا الصَّبَاحُ لَاحَ لَنَا عَادَ إِلىٰ هَجْرِهِ فَصَارَمَني

فصاح المتوكّل هُياماً، فخرجتْ، فأَكبَّتْ على رجليه تقبِّلُهما، فقالت: يا سيدي! رأيتُك في ليلتي هذه كأنّك قد صالحتني.

قال: وأنا والله قد رأيتكِ. فردَّها إلى مرتبتها[1].

ورُوِيَ عن عمرو بن شيبان الجهني قال: رأيت في الليلة التي قتل فيها المتوكِّل في المنام قائلاً يقول:

يا نائمَ العَيْنِ في أوْطَارِ جُسْمَانِ أَفِضْ دُمُوعَك يَا عَمْرُو بنُ شَيْبَانِ
أَمَا تَرى الفِئَةَ الأَرْجَاسَ مَا فَعَلُوا بالهَاشِمِيِّ وَبِالفَتْح بنِ خَاقَانِ؟
وَافَى إِلىٰ الله مَظْلُوماً تَضِجُّ لَهُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ مِنْ مَثْنَى وَوُحدَانِ
وَسَوْفَ يَأْتيكُمُ أُخْرَى مُسَوَّمَةٌ تَوَقَّعُوهَا لَهَا شَأْنٌ مِنَ الشَّانِ
فَابْكُوا عَلَى جَعْفَرٍ وَارْثُو خَليفَتَكُمْ فَقَدْ بَكَاهُ جَمِيعُ الإِنْسِ وَالجَانِ

ثم رأيت المتوكِّل في النوم بعد أشهر، فقلت: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي بقليل من السنة أَحْيَيْتُهَا.

قلت: فما تصنَعُ هَهُنا؟

قال: أَنْتَظِرُ محمّداً ابْني أُخَاصِمُهُ إلىٰ الله![2].

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١٤.
(٢) المرجع السابق ٤١٥.

ويقول البحتري في غدر المنتصر بأبيه وفتكة به من قصيدة طويلة :

أَكَانَ وَليُّ العَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَةً ؟ فَمِنْ عَجَبٍ أَوَ وُلِّيَ العَهْدَ غَادِرُهْ
فَلاَ مُلِّيَ البَاقِي تُرَاثَ الَّذي مَضَى وَلاَ حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ[1]

وكانت أيّامُ المتوكّل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها ، وحمد الخاصّ والعام لها ، ورضاهم عنها أيَّامَ سرّاءَ لا ضرّاء ، كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكِّل أحسنَ مِنْ أمْنِ السبيل ، ورخص السعر . وأمان الحبِّ ، وأيّام الشباب ؛ وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

قُـرْبُـكَ أَشْهَى مَـوْقِعـاً عِنْـدَنَـا مِنْ لـين السِّعْرِ وَأَمْنِ السَّبيـلِ
وَمِنْ لَيَـالِي الحُبِّ مَـوْصُـولَـةٍ بِطيبِ أَيَّامِ الشَّبَابِ الجَميلِ[2]

وروى صاحب بدائع البدائِهِ أنَّ المتوكِّل صنع بيتا من الشعر ، وطالب فضل الشاعرة أن تجيزه ، والبيت هو[3] :

لاَذَ بِهَـا يَـشْـتَـكِي إِلَـيْـهَـا فَـلَمْ يَجِـدْ عِـنْـدَهَـا مَـلاَذاً

فقالت على البديهة:

ولم يَـزَلْ ضَـارِعـاً إِلَـيْـهَـا تَهْـطُلُ أَجْـفَـانُـهُ رَذَاذَا
فَـعَـاتَـبُـوهُ فَـزَادَ شَـوْقـاً فَمَـاتَ عِشْقـاً فَكَـانَ مَـاذا؟

فطرب المتوكّل وقال: أحسنْتِ وحياتي يافضلُ! وأمر لها بمئتي دينار، وأمر عريب فغنّت به[4].

وممّا قاله مروان بن أبي الجنوب بتولية المتوكّل للخلافة من قصيدة طويلة:

(١) مروج الذهب للسمعودي ١٢٢/٤ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر بدائع البدائة صفحة ٦٠ .
(٤) المرجع السابق.

يَـاعَـاشِرَ الخُلَفَـاءِ! دُمْتَ مُمَتَّعاً   بِـالمُلْكِ تَعْقِـدُ بَعْـدَهُمْ لِلْعَـاشِرِ
حتَّى تَكُـونَ إمَـامَـهُمْ وَكَـأَنَّهُمْ   زُهْـرُ النُجُومِ دَنَتْ لِبَـدْرٍ زَاهِرِ

وممّا قاله الشاعر المعروف بالسلمي من أبيات في بيعة المتوكّل لأولاده الثلاثة بولاية العهد:

لَقَدْ شَدَّ رُكْنَ الدِّينِ بِالبَيْعَةِ الرِّضَا   وَطَـائِرُ سَعْـدٍ جَعْفَـرُ بنُ مُحَمَّـدِ
بِمُنْـتَصِرٍ بِـاللَّهِ أَثْبَـتَ رُكْـنَـهُ   وَأَكَّـدَ بِـالمُعْـتَزِّ قَبْـلَ المُؤَيَّـدِ

محمد المنتصر بالله بن المتوكل
٢٢٢ - ٢٤٨ هـ/٨٣٦ - ٨٦٢ م

هو محمّدُ المنتصرُ بالله أبو جعفر، وقيل: أبو عبد الله، بن جعفر المتوكلّ بن المعتصم بن الرشيد، ولد يوم الخميس لستّ خلون من شهر ربيع الأخر سنة اثنتين وعشرين ومئتين ٢٢٢هـ، وأمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ روميّة اسمها حبشيّة[1] وهو الخليفة الحادي عشر.

بُويعَ محمَّدُ المنتصر بالله في صبيحة الليلة التي قتل فيها أبوه المتوكّل على الله، وهي ليلة الأربعاء لثلاثٍ خَلَوْنَ من شوّال سنة سبع وأربعين ومئتين فخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد الذي عقده لهما المتوكل بعده. ومات ليلة الأحد لثلاث خلون من ربيع الآخر[2] سنة ثمان وأربعين ومئتين ٢٤٨هـ، وكانت خلافته ستّة أشهر[3]. وَسِنُّه ستٌّ وعشرون سنةً إلا ثلاثة أيام[4]. وصلّى عليه محمد بن أحمد المستعين[5]، وكان أوّل خليفة من بني العباس أُظْهِرَ قَبْرُهُ وذلك أن

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١٧ والعقد الفريد ١٢٣/٥ .
(٢) هذه الزيارة بعد الاحد بدلا من السبت من العقد الفريد ١٢٣/٥ .
(٣) انظر مروج الذهب للمسعودي ١٢٩/٤ .
(٤) المرجع السابق.
(٥) ورد اسم المُصَلّي خطأً في مروج الذهب ١٣٤/٤ ثم جرى التصليح بمعرفتنا.

أمه حبشية سألت ذلك، فأُذن لها، وأظهرته بسامرا[1]. ونال عقاب غدره بأبيه.

وكان مليحَ الوجه، أسمرَ، أعْيَنَ، أقْنَى، رَبْعَةً، جسيماً بطيناً، مهيباً، راغبا في الخير، وافرَ العقل، قليلَ الظلم، محسناً إلى العلويّين، وَصُولا لهم، أزال عن آل أبي طالب ماكانوا فيه من الخوف والمحنة بمنعهم من زيارة قبر الحسين، وردَّ على آل الحسين فَدَكَ[2].

نَقش خاتمه «يؤتى الحذر من مأمنه» وعلى خاتم آخر «أنا من آل محمّد، الله وليي ومحمّد»، ورزق من الولد: علياً، وعبدَ الوهاب، وعبدَ الله، وأحمدَ.

ووزر له أحمدُ بن الخصيب، وحاجبه وصيف، ثم بُغا، ثم ابن المرزبان، ثم أوتامش[3]. وبعد أن بويع له بالخلافة، خلع أخويه؛ المعتز، والمؤيِّد من ولاية العهد الذي عقده لهما المتوكّل بعده، وأظهر العدل والانصاف في الرعية، فمالت إليه القلوب مع شدّة هيبتهم له، وكان كريماً حليما، ومن كلامه: لَذَّةُ العفو أعذب من لَذَّة التشفِّي، وأقبحُ أفعال المقتدر الانتقام[4].

ولمّا ولي، صار يسبُّ الأتراك ويقول: هؤلاء قتلةُ الخلفاء. فعملوا عليه، وهمّوا به، فعجزوا عنه لأنه كان مهيباً، شجاعاً، فطِناً متحرِّزاً، فتحيَّلوا إلى أنْ دسُّوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألفَ دينارٍ في مرضه، فأشار بفصده، ثم فصده بريشة مسمومة فمات، ويقال: إن ابن طيفور نسي ذلك ومرض، فأمر غلامَهُ ففصده بتلك الريشة، فمات أيضاً. وقيل غير ذلك والله أعلم[5].

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٤/١٣٤.
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١٧ - ٤١٨.
(٣) العقد الفريد ٥/١٢٣.
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١٨.
(٥) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١٨.

وطرب المنتصر يوما، فدعا ببنَّانَ بنِ الحارث العوَّادِ، وكان مطرباً مُجيداً، فأحضره، فغناه:

لَقَدْ طَالَ عَهْدي بالإمَامِ مُحَمَّدِ ... وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَطُولَ به عَهْدي
فَأَصْبَحْتُ ذَا بُعْدٍ، وَدَارِي قَرِيبَة ... فَيَا عَجَباً مِنْ قُرْبِ دَارِي وَمِنْ بُعْدِي
رَأَيْتُكَ في بُرْدِ النَبِيِّ مُحَمَّدٍ ... كَبَدْرِ الدُّجَا بَيْنَ العَمَامَةِ وَالبُرْدِ
فَيَالَيْتَ أَنَّ العيدَ عَادَ لِيَوْمِهِ ... فَإنِّي رَأَيْتُ العيدَ وَجْهَكَ لي يُبْدي

وكان ذلك ثاني يوم عيد الأضحى، وقد كان المنتصر صلّى بالناس في هذا العيد[1]. ومما غُنِّيَ به من الشعر للمنتصر في ذلك اليوم:

رَأَيْتُكَ في المَنَامِ أَقَلَّ بُخْلاً ... وَأَطْوَعَ مِنْكَ في غَيْرِ المَنَامِ
فَلَيْتَ الصُّبْحَ بَادَ وَلا نَرَاهُ ... وَلَيْتَ اللَّيْلَ أُخِّرَ أَلْفَ عَامِ
وَلَوْ أَنَّ النُّعَاسَ يُبَاعُ بَيْعاً ... لأغْلَيْتُ النُّعَاسَ عَلَى الأنَامِ[2]

ومن شعر المنتصر أيضاً مما غُنِّيَ بحضرته:

إنِّي رَأَيْتُكَ في المَنَامِ كَأَنَّمَا ... أَعْطَيْتَني مِنْ ريقِ فيكَ البَارِدِ
وَكَأَنَّ كَفَّكَ في يَدي، وَكَأَنَّمَا ... بِتْنَا جَميعاً في لِحَافٍ وَاحِدِ
ثُمَّ انْتَبَهْتُ وَمِعْصَمَاكَ كِلاهُمَا ... بِيَدي اليَمين وفي يَمينِكَ سَاعِدي
فَظَلِلْتُ يَوْمي كُلَّهُ مُتَرَاقِداً ... لأرَاكَ في نَوْمي وَلَسْتُ بِرَاقِدِ[3]

وصادف أن دخلت عليه ذات يوم أمُّ موسى القهر مانة الهاشميّة، أو غيرها من القهارمة، فخاطبته في شيء من الأموال، عن رسالة المقتدر، فكان مما خاطبها به أن قال:

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٤/١٣١ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤/١٣١ .
(٣) مروج الذهب ٤/١٣٢ .

اضْـــرُطـــي وَالْــتَــقِــطي وَاحْـسُـبِــي لا تَـغْــلَـطــي

فأخجلها ذلك، وقطعها عَمّا له قصدّتْ، فمضت من فورها إلى المقتدر والسيّدة فأخبرتها بذلك، فأمر القِيَانَ أن يُغَنينَ ذلك اليوم بهذا الكلام، وكان يومَ طرب وسرور.

ومن غرائب الدنيا ماروا أبو العبّاس محمّد بن سهل، حين دخل إلى بعض الأروقة في الماخورة أو الماحوزة الموضع الذي قُتِلَ فيه المتوكّل، وهو الموضع الذي قَتَلَ فيه شيرويه أَباه كسرى أبرويز، فإذا هو مفروشٌ ببساط (سُوسَنْجَرْد) ومسند ومُصلًّ ووسائد بالحمرة والزرقة، وحول البساط دارات فيها أشخاصُ ناسٍ وكتابة بالفارسيه، قال: وكنت أحسن القراءة بالفارسية، وإذا عن يمين المصلّى صورةُ مِلكٍ، وعلى رأسه تاج كأنّه ينطِقُ، فقرأت الكتابة فإذا هي «صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز المِلكِ، مَلَكَ ستّةَ أشهرٍ» ثم رأيت صُوَرَ ملوك شتى ، ثم انتهى بي النظرُ إلى صورة عن يسار المصلًّ عليها مكتوب «صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، مَلَكَ ستّةَ أشهر» فتعجبت من ذلك واتّفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله ، فقلت: لا أرى يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر ، فكان والله كذلك(1) .

وكان المنتصرُ قد نفَى عبيد بن يحيى بن خاقان، واستوزر أحمد بن الخصيب بن الضحاك الجرجاني، وندم على ذلك. وركب أحمد بن الخصيب ذات يوم، فتظلّم إليه متظلّمٌ بقصة، فأخرج رجله من الركاب فزجَّ بها في صدر المتظلّم فقتله. فتحدَّث الناس بذلك، فقال بعض شعراء ذلك الزمان:

قُلْ لِلْخَليفَةِ: يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ اشْكُــلْ وَزيــرَكَ، إنَّــهُ رَكَّــالُ

---

(1) انظر تتمة الخبر في مروج الذهب للمسعودي ٤/١٣٠ .

اشْكُلْهُ عَنْ رَكْلِ الرِّجَالِ، فَإنْ تُرِدْ مَـالاً، فَعِنْـدَ وَزيـرِكَ الأمْـوَالُ[1]

وكان هذا الوزير قليلَ الخير، كثيرَ الشرِّ، شديدَ الجهل، ضيِّقَ الصدر، بخيلاً،

وقال المسعودي: وللمنتصر بالله أخبار حسان،وأشعار، وملح ومنادمات، ومكاتبات ومراسلات قبل الخلافة[2].

---

(١) انظر مروج الذهب.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ١٤٣/٤ .

أحمد المستعين بالله بن المعتصم
٢٢١ - ٢٥٢ هـ/٨٣٥ - ٨٦٦ م

هو أحمد بن المعتصم، وأخو الواثق والمتوكِّل، وثالث خليفة من أبناء المعتصم، والثاني عشر من خلفاء بني العبّاس. كنيته أبو العبّاس. وأُمُّهُ أُمُّ ولد صقلبية يقال لها مُخَارِقُ، وَلِدَ يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة إحدى وعشرين ومئتين ٢٢١هـ[1].

ولمّا مات الخليفة محمّد المنتصر، اجتمع القوّاد الأتراك وتشاوروا وقالوا: متى ولّيتم أحدا من أولاد المتوكِّل، لايبقي منّا باقية. فقالوا: مالها إلا أحمد بن المعتصم ولد أستاذنا. فبايعوه بالخلافة وله ثمان وعشرون سنة، وذلك يوم الاثنين لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومئتين للهجرة ٢٤٨هـ[2]. واستمرّ إلى أوّل سنة إحدى وخمسين ومئتين، فتنكّر له الأتراك، لمّا قتل وصيفاً وبُغا، ونفى باغراً التركيّ الذي فتك بالمتوكِّل، ولم يقم المستعين بذلك إلا بعد أَنْ سمع بأذنه التشهير به، بقولهم:

(١) انظر العقد الفريد ١٢٣/٥ وتصحيح نسبته لورودها خطأ في العقد ومروج الذهب ١٤٤/٤ حيث أضيف كلمة (ابن) بين محمد وبين المعتصم.
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤١٩ .

خَـلـيـفَـةٌ فِي قَـفصٍ بَـيْنَ وَصِـيـفٍ وَبُـغَـا
يَـقُـولُ مَـا قَـالا لَـهُ كَـمَا تَـقُـولُ الـبَـبَّـغَـا[1]

ولمَّا تنكر له الأتراك، خاف وانحدر من سامرّاء إلى بغداد. فأرسلوا إليه يعتذرون له ويخضعون ويسالونه الرجوع، فامتنع. فقصدوا الحبس، وأخرجوا محمَّداً المعتز بالله بن المتوكَّل - وكان قد خلعه وأخاه المؤيد أخوهما المنتصر بالله - وبايعوه بالخلافة، وخلعوا المستعين.

ثم جهز المعتزّ جيشا كثيفاً لمحاربة المستعين بالله، واستعد أهل بغداد للقتال مع المستعين لأنه معهم ضد الترك، فوقعت بينهما مواقع، ودام القتال أشهراً، وكثر القتل، وغلت الأسعار، وعظم البلاء، وانحلّ أمر المستعين، فسعوا في الصلح على خلع المستعين، وقام بذلك إسماعيل القاضي، وخلع نفسه بموافقة المعتز وبواسطة أبي جعفر المعروف بابن الكرديّة، وذلك يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومئتين ٢٥٢هـ، فكانت خلافته ثلاثَ سنين وتسعة أشهر. فأُحدر إلى واسط فأقام بها تسعة أشهر محبوساً، موكّلاً به أمينٌ، فندب المعتزَّ إليه سعيد الحاجب فذبحه في ثالث شوال من السنة ذاتها وله إحدى وثلاثون سنة[2].

وكان المستعين مربوعاً، أحمرَ الوجه، أشقَرَ مُسْمِناً، عريض المنكلبين، ضخم الكراديس، خفيف العارضين، بوجهه أثر جدري، ألثغ بالسين، نقش خاتمه «الاعتبار غنىً عن الاختبار»[3] وقيل عنه: وكان خيِّراً، فاضلاً، بليغاً، أديباً،

---

(١) المرجع السابق.
(٢) انظر تفصيل الخبر في العقد الفريد ١٢٣/٥ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٠.
(٣) العقد الفريد ١٢٣/٥ - ١٢٤.

وهو أوّلُ من أحدث لبس الأكمام الواسعة، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار، وصغّر القلانس وكانت قبله طوالاً[1] ولم نعثر له على شعر فيما بين أيدينا من مراجع، والله أعلم.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٠ .

محمد المعتز بالله بن المتوكل
٢٣٢ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٦٩ م

هو محمدٌ ، المْعتَزُّ بالله ، بن المتوكّل ، بن المعتصم . وقيل اسمُه الزُّبَيْرُ ، وكنيته أبو عبدالله ، ـ وسيكون لابنه عبدالله شأنٌ كبير في دنيا الأدب ـ وأمُّه أمُّ وَلَدٍ روميّة تسمَّى قبيحة ، كانت أحبَّ نساء المتوكِّل إلى قلبه ، لذا رغب أن تكون له الأسبقيّة في ولاية العهد ليكون الخليفة بعده ، مما أوغر صدر المنتصر عليه وتعاون مع الترك على قتله .

ولد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومئتين للهجرة ٢٣٢ هـ . وبويع له بالخلافة عند خلع المستعين ، يوم الجمعة لأربع خلون من المحرَّم سنة اثنتين وخمسين ومئتين للهجرة ٢٥٢ هـ ، فلما انقضت البيعة ، قال المعتز :

تَوَحَّدَني الرَّحْمَنُ بِالعِزِّ وَالعُلاَ فَأَصْبَحْتُ فَوْقَ العَالَمِينَ أَمِيرَا

قال الصولي : وجدت هذا البيت مرفوع القافية في أغاني بنان ، ولعل المعتز قال البيت ، فأضاف بنانٌ إليه آخر ، وجعل المخاطبة عن نفسه للمعتز فقال :

تَوَحَّدَكَ الرَّحْمَنُ بِالعزِّ وَالعُلاَ فَأَنْتَ عَلَى كُلِّ الأَنَامِ أَمِيرُ

تُقَاتِلُ عِنْدَكَ التُّرْكُ وَالخَزْرُ كُلُّهَا كَـأَنَّهُمْ أُسْـدٌ لَهُـنَّ زَئِـيرُ[1]

وكانت الفتنة قبل ذلك بينه وبين المستعين سنة ، وله من العمر تسعَ عشرة سنة ، ولم يَلِ الخلافةَ قبله أحدٌ أصغر منه[2] .

وقُتِلَ عشيّة يوم الجمعة لليلة خلت من شعبان سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة ، ٢٥٥ هـ . فكانت مدّةُ خلافته منذ بويع له واجتمعت الكلمة عليه ثلاثَ سنينَ وستّة أشهرٍ وثلاثةً وعشرين يوماً ، ومنذ بايعه أهل سُرَّ من رأي إلى أن قتل أربع سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً . والذي قتله هو صالح بن وصيف التركي[3] .

وكان بديعَ الحسن ، أبيضَ شديد البياض ، ربعة حسن الجسم ، على خدِّه الأيسر خال أسود الشعر . نقش خاتمه «الحمد لله ربِّ كلِّ شيء وخالق كلِّ شيء» .

وزر له جعفر بن محمود الإسكافي ، ثم عيسى بن فرخان شاه ، ثم أحمد بن إسرائيل الأنباري . وحاجبه سماء بن صالح بن وصيف التركي .

ويظهر من بعض أخباره أنه كان يحسن النظم ، فأُهمل هو وشعره . وقد ذكر صاحب بدائع البَدَائِه نقلاً عن ابن الأنباري قال : دخل الزبير بن بكّار على أمير المؤمنين المعتزّ بالله ، وهو محموم ، فقال له : يا أبا عبدالله ! قد قلت في ليلتي هذه أبياتاً ، وقد أعيا عليَّ إجازة بعضها ، وأنشدني :

إنِّي عَرَفْتُ عِلاَجَ الجِسْمِ مِنْ وَجَعي وَمَا عَرَفْتُ عِلاَجَ الحُبِّ وَالجَزَعِ
جَزِعْتُ لِلْحُبِّ ، وَالحُمَّى صَبَرْتُ لَهَا إنِّي لأَعْجَبُ مِنْ صَبْرِي وَمِنْ جَزَعي

(١) انظر الأغاني ٣٢٢/٩ .
(٢) انظر العقد الفريد ١٢٤/٥ أو تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٠ .
(٣) ودفن بسامراء أنظر مروج الذهب ١٦٦/٤ .

مَنْ كَانَ يَشْغَلُهُ عَنْ حُبِّهِ وَجَعٌ　　فَلَيْسَ يَشْغَلُني عَنْ حُبِكُمْ وَجَعي

فقال أبو عبدالله :

وَمَـا أَمَـلُّ حَبيبي لَيْتني أَبَـداً　　مَعَ الحَبيبِ ويَا لَيْتَ الحبيبَ مَعي

فأمر له على هذا البيت بألف دينار[1] .

فليس كثيراً لمن قال هذا الشعر أن ينجب شاعراً كبيراً ينتسب إليه هو عبدالله بن المعتز . ففي رواية طويلة عن محمد بن يحيى الصولي عن حمدون بن اسماعيل قال : اصطبح المعتّز في يوم الثلاثاء ونحن بين يديه ، ثم وثب فدخل ، واعترضته جارية كان يحبُّها ، ولم يكن ذلك اليوم من أيّامها ، فقبلَّها وخرج ، فحدَّثني بما كان وأنشدني لنفسه في ذلك :

إنيِّ قَمَرْتُكَ يَا سُؤْلي وَيَا أَمَلي　　أَمْراً مُطَاعاً بِلاَ مَطْلٍ وَلاَ عِلَلِ
حَتَى مَتى يَا حبيبَ النَّفْسِ تَمْطُلُني　　وَقَدْ قَمَرْتُكَ مَرَّاتٍ فَلَمْ تَفِ لي
يَوْمُ الثَلاَّثَاءِ يَوْمٌ سَـوْفَ أَشْكُرُهُ　　إذْ زَارَني فيهِ مَنْ أَهْوَى عَلَى عَجَلِ
فَلَمْ أَنَلْ مِنْهُ شَيْئـاً غَيْرَ قُبْلَتِـهِ　　وَكَانَ ذَلِكَ عَنْدِي أَعْظَمَ النَّفَلِ[2]

وأخبر محمد بن يحيى الصولي ، قال : حدّثني أحمد بن يزيد المهلبيّ قال ، حدّثني أبي قال : كان المعتزُّ يشرب على بستان مملوء من النّمام ، وبين النمام شقائق النعمان ، فدخل إليه يونس بن بُغا وعليه قباء أخضر ، فقال المعتز :

شَبَّهْتُ حُمْـرَةَ خَـدِّهِ في ثَـوْبِـهِ　　بِشَقَـائِقِ النُّعْمَـانِ في النَّمَـامِ

ثم قال : أجيزوا .

فابتدر بنانُ المغني ـ وكان ربما عبث بالبيت بعد البيت ـ فقال :

---

(١) انظر بدائع البداثة صفحة ٧٤ .
(٢) الأغاني دار الكتب ٣١٨/٩ .

وَالقَـدُّمِنْـهُ إِذَا بَـدا في قَـرْطَقٍ   كَالغُصْنِ في لينٍ وَحُسْنِ قَـوَامِ

فقال له المعتزّ : فغنّ فيه الآن . فعمل فيه لحناً وغنّاه[1] .

وشرب المعتز يوماً مع صحبه ، فدخل عليه يونس بن بغا وبين يديه الشموع ، فلما رآه المعتز دعا بِرِطْلٍ فشربه ، وسقى يونس رطلا ، وغنّاه المغنّون ، فقال المعتزّ :

تَـغـيـبُ فَـلاَ أَفْـرَحْ فَـلَيْـتَـكَ مَـا تَـبْـرَحْ
وَإِنْ جِئْـتَ عَـذَّبْـتَـني بِـأَنَّـكَ لاَ تَـسْـمَـحْ
فَـأَصْـبَـحْـتُ مَـا بَـيْنَ ذَيْـنِ لي كَبِـدٌ تُجْـرَحْ
عَـلَى ذَاكَ يَـا سَـيِّـدي دُنُـوُّكَ لي أَصْـلَحْ[2]

وحدّث الصوليّ قال : حدّثني محمّد بن عبد السميع الهاشميّ قال : حدّثني أبي قال : لما قُتِلَ بُغَا دخلنا فهنَّأْنا المعتزّ بالظفر ، فاصطبح ومعه يونس بن بغا ، وما رأينا قط وجهين اجتمعا أحسنَ من وجهيهما ، فما مضت ثلاث ساعات حتى سكر ، ثم خرج علينا المعتزّ فقال :

مَا إِنْ تَرَى مَنْظَراً إِنْ شِئْتَهُ حَسَناً   إِلاَّ صَرِيعاً يُهَادَى بَـيْنَ سُكرَيْنِ
سُكْرِ الشَّرَابِ ، وَسُكْرِ مَنْ هَوَى رَشَإٍ   تَخَالُـهُ وَالَّـذي يَهْـوَاهُ غُصْنَـيْنِ

ثم أمر فتغنى فيه بعض المغنين[3] .

وذكر الصولي أن عبدالله بن المعتز أنشده لأبيه :

أَلاَ حَيِّ الحَبيبَ فَـدَتْـهُ نَفْسي   بِكَـأْسٍ مِنْ مُـدَامَـةِ خَـانِقِينَـا
فَـإِنِّي قَـدْ بَقِيتُ مَـعَ اللَّيَـالي   أُقَـاسي الهَمَّ في يَـدِهِ سِنِـينَـا

فغنّى فيه بنان وعريب[4] .

---

(١) الأغاني ٩/٣١٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ٣٢٠ .
(٤) انظر الأغاني ٩/٣٢٢ .

محمد المهتدي بالله بن الواثق
٢١٨ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٧٠ م

الخليفة محمد المهتدي بالله بن الواثق بن المعتصم ، ويكنى بأبي عبدالله أو بأبي إسحاق ، ولد سنة ثماني عشرة ومئتين للهجرة ٢١٨ هـ ، وأمُّه أمُّ ولد روميّة يقال لها قرب ، وقيل وردة[١] .

وبويع بالخلافة بسرَّ من رأى قبل الظهر من يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين ، بعد أن تنازل له عن الخلافة محمّد المعتزّ بالله مرغماً وأعيد إلى حبسه وقتل بعد أن خلع بستة أيام[٢] .

وكان محمّد المهتدي أسمر ، رقيقا ، مليح الوجه ، ورعاً ، متعبِّداً ، عادلاً ، قوياً في أمر الله ، بطلاً شجاعاً ، لكنّه لم يجد ناصراً ولا معيناً ، وقيل عنه الخليفة الصالح[٣] .

ولمّا علم موسى بن بُغا بقتل المعتزّ بالله قدم من الري يريد سامرّاء لقتل

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٢ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ١٧٨/٤ وما بعد .
(٣) المرجع السابق .

صالح بن وصيف بِدَمِ المعتزّ وأَخْذِ أموال أمِّه ، ومعه جيشة ، فاستبشرت العامة وصاحت على ابن وصيف ، يا فرعون قد جاءك موسى . فطلب موسى بن بُغا الإذن على المهتدي فلم يأذن له ، فهجم بمن معه عليه وهو جالس في دار العدل ، فأقاموه وحملوه ، وأخذوا منه عهداً ألّا يمالىء صالح بن وصيف ، فأقرّهم ، وجدّدوا بيعتهم له ، وبثّوا العيون وراء صالح حتى وجدوه وقطعوا رأسه ، ورحل موسى ومعه بكيال إلى السند في طلب مساور .

وكتب المهتدي إلى بكيال أن يقتل موسى ومفلحاً أحد أمراء الأتراك أو يمسكهما ، ويكون هو الأمير على الأتراك كلّهم ، فأطلع بكيالُ موسى على الكتاب ، عندئذ أجمعوا على قتل المهتدي وساروا إليه ، فقاتل مع المهتدي المغاربة والفراغنة والأشروسينة ، وقتل خلق كثير من الترك ، ودام القتال إلى أن هزم جيش الخليفة ، وأُمسك هو فعصر على خصيتيه فمات ، وذلك في رجب سنة ست وخمسين ، فكانت خلافته سنة إلّا خمسة عشر يوما[1] .

وحاول أن يقلِّد سيدة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، بالعبادة والعدل ، والصوم ، فلم يزل صائماً منذ أن ولي الخلافة إلى أن قتل . ولم نجد له شعراً ، ولا رواية للشعر[2] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٤ .
(٢) المرجع السابق .

أحمد المعتمد على الله بن المتوكل
٢٢٩ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٩٢ م

هو أحمد المعتمد على الله ، بن المتوكّل ، كنيته أبو العبّاس ، ولد يوم الثلاثاء لثمان بقين من المحّرم سنة تسع وعشرين ومئتين للهجرة ٢٢٩ هـ . وأمّه أمُّ ولد كوفية يقال لها فتيان روميَّة الأصل[١] .

بويع بالخلافة بعد المهتدي وكان محبوساً فأخرج ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وذلك يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ستٍّ وخمسين ومئتين للهجرة ٢٥٦ هـ[٢] .

استعمل أخاه الموفَّقَ طلحةَ على المشرق ، وصيَّرَ ابنه جعفراً وليَّ عهده وولَّاه مصر والمغرب ولقبه المفوَّض إلى الله ، ثم انهمك المعتمد في اللهو واللذات ، واشتغل عن الرعية ، فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة الموفق[٣] .

ووزر له عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، ثم سليمان بن وهب ، ثم الحسن بن

---

(١) العقد الفريد ٥/٢٥ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤/١٩٨ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٥ .

مخلد ، ثم صاعد بن مخلد ، ثم أبو الصقر إسماعيل بن بلبل . وحاجبه موسى بن بغا ، ثم جعفر بن بغا ، ثم بكتمر . وكان نقش خاتمه «السعيدُ من كُفيَ بغيره»[1] .

في أيامه حدثت ثورة الزنج ودخلوا البصرة وأعمالها وأخربوها ، وبذلوا السيف وأحرقوا وخرّبوا وسبَوا ، فانتدب المعتمد أخاه الموفق ومفلحاً التركي يوم الخميس مستهلّ ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومئتين للهجرة ٢٥٨ هـ ، لمحاربة الزنج في البصرة ، فأوقع مفلح التركي بصاحب الزنج ، ولكن أصابه سهم في صدغه فمات ، وانصرف الموفّق عن محاربة صاحب الزنج . وأعقب ذلك الوباء الذي عصف بالناس بشكل يفوق الوصف ، وتلته الزلازل والكوارث الطبيعية[2] .

وعاود الموفقُ أخو المعتمد قتالَ الزنج واستمّر من حين تولّى المعتمد حتى سنة سبعين حين تغلب الموفق عليهم وقتل صاحبَهم بهبوذَ واحتزَّ رأسه وسار به إلى بغداد ، ونصبت الزينات ودعا الناس للموفق وأعظموه . وذكر الصولي عن جرائم بهبوذ أنه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمئة ألف آدمي ، وقتل في يوم واحد بالبصرة وحدها ثلثمئة ألف ، وكان له منبر في مدينته يصعد عليه ويسب عثمان وعليا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهما . وكان ينادي على المرأة العلوية في عسكره بدرهمين وثلاثة ، وكان عند الواحد من الزنج العشر من العلويات يطؤهن ويستخدمهن[3] .

واشتدّ أمر الموفق ، وغلب على الأمر لميل الناس إليه ، واصبح اسمه الناصر

---

(١) المرجع السابق .
(٢) العقد الفريد ٥/٢٦ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٥ .

لدين الله ، وكان يدعى له على المنابر في أيّام أخيه المعتمد . وَقَبَضَ على المعتمد وحَجَرَ عليه ، وهو أوَّلُ خليفة يحجرُ عليه ، وأقام صاعدٌ على خدمة المعتمد ، فقال المعتمد في ذلك :

أَلَيْسَ مِنَ العجائِبِ أَنَّ مِثْلي   يَرَى مَا قَلَّ مُمْتَنِعاً عَلَيْهِ ؟
وَتُؤْخَذُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا جَميعاً   وَمَا مِنْ ذَاكَ شَيءٌ في يَدَيْهِ
إِلَيْهِ تُحْمَلُ الأَمْوَالُ طُرّاً   وَيُمْنَعُ بَعْضَ مَا يُجْبَى إِلَيْهِ[1]

ولما اشتد الأمر على المعتمد عام ٢٦٩ هـ كاتب ابن طولون نائبه بمصر ، واتّفقا على أمر ، فخرج ابن طولون حتى قدم دمشق ، وخرج المعتمد من سامراء بحيلة التنزه ، وقصده دمشق . وحين علم الموفق بذلك كتب إلى إسحاق بن كنداج ليردَّه ، فسار من نصيبين الى أن لقيه بالموصل والحديثة ، فأقنعه بالعودة ومنّاه بالوعود والأمان ، فعاد به الى سامراء ، فتلقاه صاعد بن مخلد ، وأنزله دار أحمد بن الخصيب ومنعه من نزول دار الخلافة . وبلغ ابن طولون ما جرى ، فاستعدى الناس على الموفق وأمر بسبه ولعنه على المنابر . وفي شعبان من سنة ٢٧٠ هـ أعيد المعتمد إلى سامرّاء ، ودخل بغداد ومحمّد بن طاهر بين يديه بالحربة ، والجيش في خدمة كأنه لم يحجر عليه .

ومات ابن طولون في هذه السنة ، فولى الموفّق ابنه أبا العبّاس أعماله ، وجهزه إلى مصر في جنود من العراق ، وكان خمارويه بن أحمد بن طولون أقام على ولايات أبيه بعده ، فوقع بينه وبين أبي العبّاس ابن الموفق وقعة عظيمة بحيث جرت الأرض من الدماء ، وكان النصر للمصريين[2]

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٧ والغوات ١/٦٦ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .

وفي هذه السنة ٢٧٠ هـ ظهرت دعوة المهدي عُبَيْدِالله بن عبيد جَدِّ بني عبيد خلفاء المصريين الروافض في اليمن . وأقام على ذلك إلى سنة ٢٧٨ هـ ، فحجّ تلك السنة واجتمع بقبيلة كتامة ، فأعجبهم حاله ، فصحبهم إلى مصر ، ورأى منهم طاعة وقوة ، فصحبهم إلى المغرب ، فكان ذلك أول شأن المهدي .(١)

ثم ظهرت القرامطة بالكوفة ؛ وهم نوع من الملاحدة ، يدَّعون أنه لا غسل من الجنابة ، وأن الخمر حلال ، ويزيدون في أذانهم «وأن محمد بن الحنفية رسول الله» وأن الصوم في السنة يومان ؛ يوم النيروز ، ويوم المهرجان ، وأن الحجّ والقبلة إلى بيت المقدس(٢).

وفي سنة تسع وسبعين ومئتين ، ضعف أمر المعتمد جداً ، لتمكّن أبي العباس بن الموفّق من الأمور وطاعة الجيش له ، فجلس المعتمد مجلساً عاماً ، وأشهد فيه على نفسه أنّه خلع ولده المفوَّض من ولاية العهد ، وبايع لأبي العبّاس ، ولقَّبه المعتضد . ومات المعتمد بعد أشهر من هذه السنة فجأة ، واختلف في سبب وفاته ، فقيل : إنه سُمَّ . وقيل : بل نام فغم ـ أي أدرج ـ في بساط ، وذلك ليلة الاثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومئتين ٢٧٩ هـ ، فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة ، عاشها مقهوراً من أخيه الموفق لاستيلائه على الأمور وكان قد مات قبله ، وسيطر عليه بعده المعتضد بن الموفق أي ابن أخيه .(٣) ومن شعر المعتمد وهو محجور عليه قوله :

أَصْبَحْتُ لَا أَمْلِكُ دَفْعاً لِمَا ... أُسَامُ مِنْ خَسْفٍ وَمِنْ ذِلَّةِ
تَمْضِي أُمورُ النَّاسِ دُونِي ، وَلَا ... يُشْعِرُنِي فِي ذِكْرِهَا قِلَّتِي

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٨ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق ٤٢٩ .

إِذَا اشْتَهَيْتُ الشَّيْءَ وَلَّوْا بِهِ عَنِّي ، وَقَالُوا : هَهُنَا عِلَّتِي[1]

وقال الصولي : كان للمعتمد ورَّاق يكتب شعره بماء الذهب .[2] وهذه إشارة واضحة أنه كان للمعتمد شعر ، كيف لا ، وهو الذي طالت مدة خلافته إلى ثلاثة وعشرين عاماً ، لاقى فيها ما لا قى من الأهوال والمحن ، ولا ندري إن كان له ديوان شعر ، وربما ضاع في زحمة الأحداث ـ ومن الغرائب أن ملكاً آخر لقب بالمعتمد لكن هذه المرة في الأندلس ، ونكب كما نكب المعتمد العبّاسي ، ولكنَّ الكثير من شعره حفظ لنا في ديوان حققه الدكتور عبدالوهاب عزام وطبعته دار المعارف في مصر في دراسة جيدة عنه وعن عصره ، سنأتي على ذكره .

وقال المرزباني في معجم الشعراء : وكان المعتمد يقول الشعر ويغني به المغنون ، فمن شعره الذي غني به ، قوله :

طَالَ وَاللَّهِ عَذَابِي وَاهْتِمَامِي وَاكْتِئَابِي
بِغَزَالٍ مِنْ بَنِي الأَصْـ ـفَرِ لَا يَعْنِيهِ مَا بِي
أَنَا مُغْرىً بِهَوَاهُ وَهُوَ مُغْرىً بِعَذَابِي
فَإِذَا مَا قُلْتُ : صِلْنِي كَانَ «لَا» مِنْهُ جَوَابِي

وكان الموفق ينقله من مكان إلى مكان ، ففي ذلك يقول المعتمد :

أَلِفتُ التَّبَاعُدَ وَالغُرْبَه فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا تُرْبَهْ
وفي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا حَادِثٌ يُؤَدِّي إلى كَبِدِي كُرْبَهْ
أَمَرَّ الزَّمَانُ لَنَا طَعْمَه فَمَا إِنْ أَرَى سَاعَةً عَذْبَهْ[1]

ومن شعره أيضاً في الغزل ، قوله :

بُليتُ بِشَادِنٍ كَالبَدْرِ حُسْناً يُعَذِّبُنِي بِأَنْوَاعِ الجَفَاءِ

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي الصفحة ٤٢٩ والفوات ١/٦٦ .
(٢) انظر الفوات ١/٦٥ .

وَلِي عَـيْنَـانِ دَمْعُهُـمَا غَـزِيـرٌ ... وَنَـوْمُـهُـمَا أَعَـزُّ مِنَ الـوَفَـاءِ

وقال فيه عبدالله بن المعتز مادحاً :

يَـا خَيْرَ مَنْ تُـزْجَى المَطِيُّ لَـهُ ... وَيُمَـرُّ حَبْـلَ العَـهْـدِ مُـوثِقُـهُ

أَضْحَى عِنَـانُ المُلْكِ مُـقْتَسِـراً ... بِـيَـدَيْـك تَحْبِـسُـهُ وَتُـطْلِقُـهُ

فَـاحْكُمْ لَـكَ الـدُّنْيَـا وَسَـاكِنَهـا ... مَـا طَاشَ سَهْمٌ أَنْتَ مُـوفِقُهُ (١)

ورثاه أبو سعيد الحسن بن سعيد النيسابوري يقوله :

لَقَـدْ مَرَّ طَـرْفُ الزَّمَـانِ النَّكِـدْ ... وَكَـانَ سَـخِينـاً كَليـلاً رَمِـدْ

وَبُـلِّغَـتِ الحَـادِثَـاتُ المُـنَى ... بِمَـوْتِ إِمَامِ الهُـدَى المُعْتَمِـدْ

وَلَمْ يَـبْـقَ لِي حَـذَرٌ بَـعْـدَهُ ... فَـدُونَ المَصَـائِبِ فَـلْتَجْـتَهِـدْ (٢)

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٩ .

(٢) المرجع السابق ٤٣٠ .

أحمد المعتضد بالله بن الموفَّق
٢٤٢ ـ ٢٨٩ هـ/٨٥٥ ـ ٩٠٢ م

هو أحمد المعتضد بالله ، ابن ولي العهد الموفق طلحة بن المتوكّل بن المعتصم بن الرشيد ، كنيته أبو العبّاس ، ولد في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين ومئتين ٢٤٢ هـ . وقال الصولي : في ربيع الأول سنة ثلاثة وأربعين ومئتين للهجرة . وأمُّه أمُّ ولدٍ روميّة يقال لها ضِرارُ .(١) وخلَّف المعتضد من الأولاد أربعة ذكور ، ومن الإناث إحدى عشرة .(٢)

بويع أبو العباس أحمد المعتضد بالله في اليوم الذي مات فيه عمّه المعتمد ، وهو يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومئتين ٢٧٩ هـ . وكانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومئتين للهجرة ٢٨٩ هـ . فكانت خلافته تسع سنينٍ وتسعةَ أشهرٍ ويومين ، وتوفي بمدينة السلام وله سبعٌ وأربعون سنة .(٣)

وكان نحيف الجسم معتدل القامة ، طويل اللحية ، أسمر ، نقش خاتمه

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي وقد قيل ان اسمها صواب ، وقيل حرز والصحيح ما أوردناه .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٧ .
(٣) مروج الذهب للمسعودي ٢٣١/٤ .

«الاضطرار يزيل الاختيار» وزر له عبيدالله بن سليمان بن وهب ، ثم ابنه القاسم بن عبيدالله ، وحاجبه صالح الأمين .(١)

ولما أفضت الخلافة إليه سكنت الفتن وصلحت البلدان ، وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهدأ الهرج ، وسالمه كل مخالف ، وكان مظفراً قد دانت له الأمور ، وانفتح له الشرق والغرب . وكان صاحبَ المملكة والقيم بأمر الخلافة . بَدْرٌ مولاه .(٢)

وكان ملكاً شجاعاً ، مهيباً ، ظاهر الجبروت ، وافِرَ العقل ، شديد الوطأة ، قليل الرحمة ، إذا غضب على قائد أمر أن يلقى في حفيره ويطم عليه حيّاً ، وله صنوف أخرى من التعذيب ، وكان ذا سياسة عظيمة(٣).

وقد أسقط المكوس ، ونشر العدل ، ورفع الظلم عن الرعية ، وكان يسمّى السفاح الثاني ، لأنه جدَّدَ ملك بني العباس. وفي أوّل سنة استخلف فيها منع الورّاقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ، ومنع القصّاص والمنجمين من القعود في الطريق .

شعره ...

للمعتضد أشعار كثيرة ضاع معظمها مع ما ضاع من تراثنا بين أحداث الزمان وعلى رأسها الغزو التتريّ المغولي ، ومدحته وفود الشعراء ، فقال ابن الروميّ :

هَنيئاً بَني العَبَّاس إنَّ إمَـامَكُمْ ... إمامُ الهُدَى وَالبَاسِ وَالجُودِ أَحْمَدُ
كَمَا بِأَبِي العَبَّاسِ أُنْشِىءَ مُلْكُكُمْ ... كَذَا بِأَبِي العَبَّـاسِ أَيْضاً يُجَـدَّدُ

(١) العقد الفريد ٥/٢٦ .
(٢) مروج الذهب ٤/٢٣٢ .
(٣) المرجع السابق .

إِمَامٌ يَظَلُّ الأَمْنُ يَعْمَلُ نَحْوَهُ   تَلَهُّفَ مَلْهُوفٍ وَيَشْتَاقُهُ الغَدُ[1]

وكانت قد زفَّت إليه قطر الندى بنت خمارويه ابن أحمد بن طولون بجهاز فاق ما جهزت به بوران إلى المأمون ، يضاف إلى ذلك عشر صناديق من الجوهر ، وبنى لها على رأس كلِّ مرحلة تنزل بها قصراً ، فيما بين مصر وبغداد ، ومع ذلك لم يذكرها في شعره ، في حين أنه ذكر بعض جواريه ، إذ كانت إحداهنَّ تدعى دريرة ، فماتت فجزع عليها جزعاً شديدا وقال يرثيها :

يَا حَبِيباً لَمْ يَكُنْ يَعْـ   ـدِلُهُ عِنْدِي حَبِيبُ
أَنْتَ عَنْ عَيْنِي بَعِيدٌ   وَمِنَ القَلْبِ قَرِيبُ
لَيْسَ لِي بَعْدَكَ فِي شَـ   ـيْءٍ من اللهو نَصِيبُ
لَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى قَلْبِـ   ـي وَإِنْ بِنْتَ رَقِيبُ
وَخَيَالٌ مِنْكَ مُذْ غِبْـ   ـتَ ، خَيَالٌ لَا يَغِيبُ
لَوْ تَرَانِي كَيْفَ لِي بَعْـ   ـدَكَ عَوْلٌ وَنَحِيبُ ؟
وَفُؤَادِي حَشْوُهُ مِنْ   حُرَقِ الحُزْنِ لَهِيبُ
لَتَيَقَّنْتَ بِأَنِّي   فِيكَ مَحْزُونٌ كَئِيبُ
مَا أَرَى نَفْسِيَ وَإِنْ سَـ   ـلَّيْتُهَا عَنْكَ تَطِيبُ
لِيَ دَمْعٌ لَيْسَ يَعْصِـ   ـينِي وَصَبْرٌ مَا يُجِيبُ[2]

وقد شكا المعتضد نار الهوى ، وما يلاقيه من دلِّ الحبيب وغنجه ، وما يقاسيه من صبابة ووجد ، وما تفعله ألحاظ الحبيب فيه من أفاعيل ، فقال :

يَا لاحِظِي بِالفُتُورِ والدَّعَجِ   وَقَاتِلِي بِالدَّلالِ وَالغَنَجِ
أَشْكُو إِلَيْكَ الَّذِي لَقِيتُ مِنَ الـ   ـوَجْدِ ، فَهَلْ لِي إِلَيْكَ مِنْ فَرَجِ ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣١ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٤ ـ ٤٣٥ .

حَلَلْتَ بِالظَّرْفِ وَالجَمَالِ مِنَ النَّـ ـاسِ مَحَلَّ العُيُونِ وَالمُهَجِ [1]

ومما أنشده الصولي للمعتضد ، في الشكوى من الفراق ومرّه ، وما يفعله فيه من نحول ، وذرف دموع ، واشتعال قلب ، وما يقلقه من الأشواق والوحدة والاكتئاب سائلا الله أن يحفظه في الحلّ والتّرحال :

لَمْ يَلْقَ مِنْ حَرِّ الفِرَاقِ أَحَدٌ كَمَا أَنَا مِنْهُ لاَقِ
يَا سَائِلي عَنْ طَعْمِهِ أَلْفَيْتُهُ مُرَّ المَذَاقِ
جِسْمِي يَذُوبُ ، وَمُقْلَتِي عَبْرَى ، وَقَلْبِي ذُو احْتِرَاقِ
مَالِي أَلِيفٌ بَعْدَكُمْ إِلَّا اكْتِئَابِي وَاشْتِيَاقِي
فَاللَّهُ يَحْفَظُكُمْ جَمِيعاً فِي مَقَامٍ وَانْطِلاَقِ [2]

عجيبة حالات الشوق التي يلاقيها ملك كالمعتضد ، وهو الذي يملك الأرض وما عليها وعلى الرغم من ذلك يغلبه شوقه ، وتطوّح به تباريح الفراق فيفقد اصطباره ، ومهما نأت بجسمه عصا الترحال يظلّ قلبه مرتهن بالعراق ، فيقول :

غَلَبَ الشَّوْقُ اصْطِبَا رِي لِتَبَارِيحِ الفِرَاقِ
إِنَّ جِسْمِي حَيْثُ مَا سِرْ تُ ، وَقَلْبِي بِالعِرَاقِ
أَمْلِكُ الأَرْضَ وَلاَ أَمْـ ـلِكُ دَفْعَ الإِشْتِيَاقِ [3]

وحكى المسعودي قال : شكّوا في موت المعتضد ، فتقدّم إليه الطبيب وجسَّ نبضه ، ففتح عينيه ، ورفسَ الطبيب برجله ، فدحاه أذرعاً فمات الطبيب ، ثم مات المعتضد من ساعته ، ولّما احتضر أنشد مفتخراً بنفسه وسؤددها ، معدِّداً أفعاله المجيدة نادماً على ما فرط فيه من إفساد حياته ودينه ودنياه بظلم الناس ، فيا

(١) تاريخ الخلفاء ٤٣٦ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٦ .
(٣) انظر الفوات ١/٧٣ .

لشقوته وعذابه ، وحيرته بمصيره ، أَلجنَةِ الله أم إلى ناره يلقى !!

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ لَا تَبْقَى ... وَخُذْ صَفْوَهَا مَا إِنْ صَفَتْ وَدْعِ الرَّنَقَا
وَلَا تَأْمَنَنَّ الدَّهْـرَ ، إِنِّي أَمِنْتُـهُ ... فَلَمْ يُبْقِ لِي حَالاً ، وَلَمْ يَدَعْ لِي حَقّاً
قَتَلْتُ صَنَادِيدَ الرِّجَالِ ، فَلَمْ أَدَعْ ... عَدُوًّا ، وَلَمْ أُمْهِلْ عَلَى ظَنَّةٍ خَلْقَا
وَأَخْلَيْتُ دُورَ المُلْكِ مِنْ كُلِّ نَازِلٍ ... وَشَتَّتُّهُمْ غَرْباً ، وَمَـزَّقْتُهُمْ شَرْقَـا
فَلَمَّا بَلَغْتُ النَّجْمَ عِـزّاً وَرِفْعَـةً ... وَدَانَتْ رِقَابُ الخَلْقِ أَجْمَع لِي رِقًّا
رَمَانِي الرَّدَى سَهْماً فَأَخْمَدَ جَمْرَتِي ... فَهَا أَنَا ذَا فِي حُفْرَتِي عَاجِلاً مُلْقَى
فَـأَفْسَدْتُ دُنْيَـايَ وَدِينِي سَفَـاهَـةً ... فَمَنْ ذَا الَّذِي مِنِّي بِمَصْرَعِهِ أَشْقَى ؟
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ مَوْتِي مَا أَرَى ... إِلَىٰ نِعْمَةِ الله ، أَمْ نَارِهِ أُلْقَى ؟[1]

ثم مات المعتضد ليلاً وأعلنت وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر فرثاه عبدالله بن المعتز بقصيدة من أبلغ ما رثي به أحد من الخلفاء قبله ، مطلعها :

يَا دَهْرُ وَيْحَكَ مَا أَبْقَيْتَ لِي أَحَدَا ... وَأَنْتَ وَالِدُ سُوءٍ تَأْكُلُ الـوَالَدَا

يقول فيها :

أَسْتَغْفِرُ الله ، بَلْ ذَا كُلُّهُ قَدَرٌ ... رَضِيتُ بالله رَبّاً وَاحِـداً صَمَدَا
يَا سَاكِنَ القَبْرِ مِنْ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ ... بِـالظَاهِـرِيَّة مُقْصَى الـدَّارِ مُنْفَرِدَا
أَيْنَ الجُيُوشُ الَّتِي قَدْ كُنْتَ تُنْجِبُهَا ؟ ... أَيْنَ الكُنُوزُ الَّتِي أَحْصَيْتَهَا عَدَدَاً ؟[2]

ومما يدلّ على اهتمام المعتضد على حفظ الشعر والاهتمام بروايته ، ما رواه لنا المسعودي صاحب مروج الذهب ، في سند طويل عن يحيى بن علي المنجِّم النديم

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٦ .
(٢) انظر تتمة القصيدة في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٧ .

قال : كنت يوماً بين يدي المعتضد وهو مقطب ، فأقبل بدر بن خير من موالي المتوكِّل ، اتصل بالمعتضد وأصبح أثيرا لديه ، فلما رآه من بعيد ضحك وقال : يا يحيى ! من الذي يقول من الشعراء :

فِي وَجْهِـهِ شَافِـعٌ يَمْحُو إِسَـاءَتَهُ مِنَ القُلُوبِ ، وَجِيهٌ حَيْثُمَا شَفَعَا

فقلت : يقوله الحكم بن قنبرة المازني البصري[1] .

فقال : لله دره ! أنشدني هذا الشعر . فأنشدته :

وَيْلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النَّوْمَ فَامْتَنَعَا وَزَادَ قَلْبِي عَـلَى أَوْجَاعِـهِ وَجَعَا
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ فِي أَعْـطَافِهِ لَمَعَتْ حُسْناً ، أَوِ البَدْرُ مِنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَا
مُسْتَقْبِل بِالَّذِي يَهْوَى ، وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ الذُّنُوبُ ، وَمَعْذُورٌ بِمَا صَنَعَا
فِي وَجْهِـهِ شَافِـعٌ يَمْحُو إِسَـاءَتَهُ مِنَ القُلُوبِ وَجِيـهٌ حَيْثُمَا شَفَعَـا

أهم أحداث عصره . .

ـ في سنة إحدى وثمانين ومئتين فتحت مكورية في بلاد الروم .

وفيها هدم المعتضد دار الندوة بمكة ، وصيرها مسجداً إلى جانب المسجد الحرام .

ـ وفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين ، أزال سنة المجوس في النيروز . من وقدٍ للنيران وصب الماء على الناس .

وفيها زفت إليه قطر الندى بنت خُمَارَوَيْهِ بن أحمد بن طولون ، ودخل فيها في ربيع الأول .

ـ وفي سنة ست وثمانين ومئتين ظهر بالبحرين أبو سعيد القِرْمِطِيُّ ، وقويت

(١) في حاشية مروج الذهب صفحة ٢٧٩/٤ (الحكم بن مرة) .

شوكته «وهو أبو أُبيّ طاهر سليمان الذي سيقلع الحجر الأسود فيما يأتي» وأغار على البصرة ونواحيها وهزم جيش الخليفة مرّات .

ـ وقال ابن حمدون النديم : غَرِمَ المعتضد على عمارة البحيرة ستين ألفاً دينار ، وكان يخلو فيها مع جواريه وفيهن محبوبته «دريرة» ، فقال ابن بسام في ذلك :

تَـرَكَ الـنّـاسَ بِـحَـيْـرَهْ وَتَخَـلَّى في الـبُـحَـيْـرَهْ
قَـاعِـدٌ يَضْـرِبُ بِـالـطَّبْـلِ عَـلَى حِـرِ دُرَيْـرَهْ

قال : فبلغ ذلك المعتضد ، فلم يُظهر أنه بلغه ، ثم أمر بتخريب تلك العمارة . ثم ماتت دريرة في أيام المعتمد ، فجزع عليها جزعاً شديداً ، ورثاها ، وقد مرَّ معنا رثاؤه لها .

عليٌّ المكتفي بالله بن المعتضد
٢٦٤ ـ ٢٩٥ ـ ٨٧٧ ـ ٩٠٨ م

هو عليٌّ أبو محمد بن أحمد المعتضد بالله بن الموفَّق أخي المعتمد بالله بن جعفر المتوكِّل بن المعتصم بن هارون الرشيد . ولد في مدينة السلام في غرة ربيع الآخر سنة أربع وستين ومئتين للهجرة ٢٦٤ هـ[1] . وجاء في العقد الفريد ١٢٦/٥ : وكان مولده في رجب سنة أربع وستين ومئتين . وأمه تركيّة اسمها جيجك وقيل : ظلوم ، وقيل جيجيق ، وكان يضرب بحسنها المثل ، حتى قال بعضهم :

قَـايَسْتُ بَـيْنَ جَمَـالِهَا وَفِعَـالِهَا فَـإِذَا المَلَاحَـةُ بِالخِيَـانَـةِ لَا تَفِي
وَاللهِ لَا كَـلَّمْتُـهَـا ، وَلَـوَ أَنَّهَا كَالشَّمْسِ أَوْ كَالبَدْرِ أَوْ كَالمُكْتَفِي[2]

وكان أبوه المعتضد قد عهد إليه بالخلافة ، فبويع في مرضه يوم الجمعة بعد العصر لإحدى عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومئتين للهجرة ٢٨٩ هـ[3] ولما بويع له عند موت أبيه كان غائباً بالرّقة ، فنهض بأعباء البيعة الوزير أبو الحسن القاسم بن عبيدالله ، وكتب له فوافى بغداد في سابع جمادى الأولى ،

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٧ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ٤٣٨ .

ونزل في دار الخلافة ، وقالت الشعراء ، وخلع على القاسم الوزير سبع خلع ، وهدم المطامير التي اتخذها أبوه للتعذيب وصيرها مساجد ، وردّ ما سلب لأصحابها ، وسار سيرة جميلة ، فأحبّه الناس ، ودعَوْا له[1] .

وكان ربعةً حسنَ الوجه ، أسودَ الشعر ، وافِرَ اللحية عريضها ، ولم يشِب إلى أن مات . نقش خاتمه «بالله عليٌّ بن أحمد يثقُ» .

ووزر له القاسم بن عبيدالله ، ثم العبّاس بن الحسن ، ثم الحسن بن أيّوب . وحاجبه حفيف السمرقندي ، ثم سوسن مولاه[2] .

وتوفي المكتفي ببغداد شاباً ، ودفن عند قبر أبيه ليلة الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي العقدة سنة خمس وتسعين ومئتين للهجرة ٢٩٥ هـ . وخلف ثمانية أولاد ذكور وثماني بنات[3] . وكانت خلافته ست سنين وسبعة أشهر تقريباً[6] .

وفي سنة توليه ٢٨٩ هـ خرج يحيى بن زكرويه القِرْمِطِيُّ ، فاستمرّ القتال بينه وبين عسكر الخليفة إلى أن قتل في سنة تسعين ومئتين ، فقام عوضَهُ أخوه الحسين ، فأظهر رشاقةً في وجهه ورغم أنّها آية ، وجاءه ابنُ عمه عيسى بن مهرويه ، وزعم أنّ لقبه المدَّثر ، وأنه المعنيُّ في السورة ، ولقّب غلاماً له «المُطَوَّقُ بالنور» وظهر على الشام ، وعاث وأفسد وتسمّى بأمير المؤمنين المهديّ ، ودعي له على المنابر ، ثم قتل الثلاثة سنة إحدى وتسعين[4] .

وروى لنا المسعودي صاحب مروج الذهب، في مسند وطويل عن يحيى بن علي المنجِّم النديم ، ما يشير إلى إهتمام المكتفي بالله بالشعر وحفظه لشوارد

(١) المرجع السابق .
(٢) العقد الفريد ١٢٧/٥ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٩ .
(٤) المرجع السابق ٤٣٨ .

الأبيات ، قال له : هل وصفت الشعراء مثل هذا ؟ ويقصد قطائف في نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل . قال نعم : قال أحمد بن يحيى فيها :

قَطَائِفٌ قَدْ حُشِيَتْ بِاللَّوْزِ وَالسُّكَّرِ المَاذِيِّ حَشْوَ المَوْزِ
تَسْبَحُ في آذِيِّ دُهْنِ الجَوْزِ سُرِرتَ لَمَّا وَقَعَتْ في حَوْزِ
سُرُورَ عَبَّاسٍ بِقُرْبِ فَوْزِ[1]

قال : وأنشدته لابن الرومي قوله :

*وَأَتَتْ قَطَائِفُ بَعْدَ ذَاكَ لَطَائِفُ *

فقال : هذا يقتضي ابتداء .

فأنشدته الشعر من أوله :

وَخَبِيصَةٍ صَفْرَاءَ دِينَارِيَّةٍ ثَمَنًا وَلَوْنًا زَفَّهَا لَكَ جُؤْذَرُ[1]

وهي قصيدة رائعة تصف القطائف[2] . وهناك شواهد أخرى عد إليها في المروج .

ومما استحسن من شعر المكتفي بالله لنفسه ، قوله في جارية له أغرم بها :

إنِّي كَلِفْتُ ، فَلاَ تَلْحُوا ، بِجَارِيَةٍ كَأَنَّهَا الشَّمْسُ ، بَلْ زَادَتْ عَلَى الشَّمْسِ
لَهَا مِنَ الحُسْنِ أَعْلاَهُ ، فَرُؤْيَتُها سَعْدِي ، وَغَيْبَتُهَا عَنْ نَاظِرِي نَحْسِي[3]

وله في شوارد الحكمة أشعار منها قوله :

بُلَغُ النَّفْسِ ما اشْتَهَتْ فَإِذَا هِي قَدِ اشْتَفَتْ
إِنَّمَا العَيْشُ سَاعَةٌ أَنْتَ فيهَا وَمَا انْقَضَتْ

---

(١) إشارة إلى العباس بن الأحنف وحبيبته فوز .
(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/٢٨٧ .
(٣) مروج الذهب ٤/٢٨٩ .

كُــلُّ مَــنْ يَــعْــذِلُ المُـحِــبَّ إِذَا مَــا هَــدَا سَــكَــتْ[1]

وله أيضاً في وصف حال العاشقين ، ما يدلّ على أنّه كان عاشقاً مدنفاً ، يقول :

مَـنْ لي بِـأَنْ يَعْـلَمَ مَـا أَلْقَـى فَـيَعْـرِفَ الـصَّبْـوَةَ وَالـعِـشْـقَـا
مَـازَالَ لي عَبْـداً ، وَحُبِّي لَـهُ صَـيَّرَنِي عَـبْـداً لَـهُ رِقَّـا[2]
أُعْـتِـقَ مِـنْ رِقـيِّ ، وَلَـكِـنَّـنِي مِنْ حُبِّـهِ لاَ أَمْلِكُ العِـتْـقَـا[3]

من أهم أحداث عصره . .

ـ في سنة إحدى وتسعين ومئتين فتحت أنطالية ـ باللام ـ من بلاد الروم عُنوة ، وغنم منها المسلمون ما لا يحصى من الأموال .

ـ وممن مات من أشهر الأعلام في عصره ، عبدالله بن أحمد بن حنبل ، وثعلب إمام العربية ، وأبو جعفر الترمذي شيخ الشافعية بالعراق .

ـ ويقول السيوطي : ورأيت في تاريخ نَيْسَابُورَ لعبد الغافر عن ابن أبي الدنيا قال : لما أفضت الخلافة إلى المكتفي كتبت إليه بيتين :

إِنَّ حَقَّ التَـأْدِيبِ حَقُّ الأُبُـوَّةْ عِنْدَ أَهْلِ الحِجْىٰ ، وَأَهْلِ المُرُوَّهْ
وَأَحَقُّ الـرِّجَـالِ أَنْ يَحْفَـظُوا ذَا كَ وَيَـدعُـوهُ أَهْـلُ بَيْتِ النُّبُـوهْ

قال : فَحُمِلَ إليّ عشرة آلاف درهم[4] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) صيرني عبداً له حقا هذا ما ورد في حاشية مروج الذهب .
(٣) مروج الذهب ٤/٢٨٩ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

جعفر المقتدر بالله بن المعتضد
٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ/ ٨٩٤ ـ ٩٣٢ م

هو الخليفة جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد ، وكان مولده لثمان بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين ومئتين للهجرة ٢٨٢ هـ ، ويكنّى أبا الفضل ، وأمُّه أمّ ولد يقال لها شغب روميّة ، وقيل تركيّة اسمها غريب .

بويع له بالخلافة في اليوم الذي توفّي فيه أخوه علي المكتفي بالله ، يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي العقدة سنة خمس وتسعين ومئتين ٢٩٥ هـ وهو ابن ثلاثة عشر عاماً ، ولم يل الخلافةَ قبله أصغرُ منه ، فاستصباه الوزير العبّاس بن الحسن ، فعمل على خلعه . وخُلع في خلافته دَفْعَتَيْنْ :

الأولى : عندما خلعه الوزير العبَّاسُ بن الحسن ، بعد جلوسه بأربعة أشهر وأيام ، ووافقَ الوزيرَ على ذلك جماعةٌ ، على أن يولُّوا عبدَ الله بنَ المعتزِّ ـ محمد المعتز بن المتوكل ـ فأجاب عبدُالله بنُ المعتز ، بشرط أن لا يكون فيها دم . فبلغ المقتدرَ ذلك ، فأصلح حال العبّاس بن الحسن ، ودفع إليه أموالاً أرْضَتْه ، فرجع عن ذلك ، وبطل العمل من يومه .

وأما الباقون فإنّهم ركبوا عليه في العشرين من ربيع الأول سنة ستّ وتسعين

ومئتين ، والمقتدرُ يلعب الأُكرة ، فهرب ودخل ، وأُغْلِقت الأبواب ، وقُتِلَ الوزير العبّاس وجماعة ، وأُرْسِل إلى ابن المعتز ، فجاءَ ، وحضرَ القوَّادُ والقضاةُ والأعيانُ ، وبايعوه بالخلافة ، ولقَّبُوهُ «الغالِبَ بالله» فاستوزَرَ محمَّد بنَ داود بنِ الجَّراح ، واستقْضَى أبا المثنّى أحمدَ بنَ يعقوب ، ونفذَتِ الكتبُ بخلافة ابن المعتزّ(١) .

وقال المعافى بن زكريا الجريري : لما خُلِعَ المقتدر وبويع ابن المعتز ، دخلوا على شَيْخَنا محمّد بن جرير الطبري ، فقال : ما الخبر؟ قيل : بويع ابنُ المعتز .

قال : فمن رشح للوزارة ؟ قيل : محمد بن داود .

قال : فمن ذكر للقضاء ؟ قيل : أبو المثنى أحمد بن يعقوب .

فأطرق ثم قال : هذا أمر لا يتمّ !

قيل له : وكيف ؟

قال : كل واحد ممن سمّيتهم متقدّم في معناه ، عالي الرتبة ، والزمان مدبر والدنيا مولّية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال ، وما أرى لمُدَّتِهِ طُولاً !!(٢) .

وبعث ابن المعتزّ إلى المقتدر يأمره بالإنصراف إلى دار محمّد بن طاهر لكي ينتقل ابن المعتز إلى دار الخلافة . فأجاب المقتدر ، ولم يكن بقي معه إلا طائفة يسيرة .

أما من بقي مع المقتدر من الرجال فقالوا : يا قوم ! نسلم هذا الأمر

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٤٠ والعقد الفريد ١٢٧/٥ ومروج الذهب للمسعودي ١٢٦/٤ وما بعد .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٤٠ .

ولا نجرب نفوسنا في دفع ما نزل بنا ؟! فلبسوا السّلاح وقصدوا المخرم وبه ابن المعتزّ ، فلمّا رآهم من حوله ، ألقى الله في قلوبهم الرعب ، فانصرفوا منهزمين بلا قتال . وهرب ابن المعتزّ ووزيره وقاضيه . ووقع النهب والقتل في بغداد . وقبض المقتدر على الفقهاء والأمراء الذين خلعوه ، وسُلِّمُوا إلى يونس الخازن ، فقتلهم إلا أربعة منهم ، وَحُبِسَ ابن المعتزّ ، ثم أُخرج فيها بعد ميّتاً .

واستقام الأمر للمقتدر ، فاستوزر أبا الحسن عليّ بن محمّد بن الفرات ، فسار أحسن سيرة ، وكشف المظالم ، وحضّ المقتدرَ على العدل . ففوَّض إليه الأمور لصغره ، واشتغل باللعب واللهو ، وأتلف الخزائن[1] .

ثم حدثت كوارث طبيعيّة وسياسيّة لا تحصى ، وفي سنة ٣٠١ هـ ولي الوزارة علي بن عيسى ، فسار بعفّة وعدل وتقوى . وأعيد القاضي أبو عمر إلى القضاء ، وركب المقتدر من داره إلى الشماسية ، وهي أول ركبة ركبها وظهر فيها إلى العامّة . وأدخل الحسين الحلاّج إلى بغداد وصلب حياً ونودي عليه : هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه ، ثم حبس إلى أن قتل سنة ٣٠٩ هـ ونوظر فلم يوجد عنده شيء من القرآن ، ولا الحديث ، ولا الفقه .

وفي هذه السنة سار المهدي الفاطميُّ من المغرب يريد مصر في أربعين ألفاً من البربر ، فحال النيل بينه وبينها فرجع الى الاسكندرية وأفسد فيها وقتل ، ثم رجع فسار إليه جيش المقتدر إلى برقة ، وجرت لهم حروب ، ثم ملك الفاطميُّ الاسكندرية والفيوم من هذا العام .[2] ثم صار الأمر والنهي بيد حرم الخليفة لضعفه وركاكته ، فصارت أمُّ المقتدر تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس كلَّ جمعة

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٤١ .
(٢) المرجع السابق ٤٤٢ .

وتوقّع عليها بحضور القضاة والأعيان . واستفحل أمر القرامطة وانقطع الحجّ ، وهزمت جيوش المقتدر غير مرّة .

الثانية : في سنة ٣١٧ هـ خرج مؤنس الخادم الملقب بالمظفَّر على المقتدر وجاؤوا الى دار الخلافة ، فهربت خواصّ المقتدر ، وأُخرج بعد العشاء ليلة رابع عشر المحرم من داره ، وأمّه ، وخالته وحرمه ، ونهب لأُمّه ستمئة ألف دينار ، وأُشْهد عليه بالخلع . وأحضر محمد بن المعتضد ، وبايعه مؤنس والأمراء ، ولقّبوه «القاهر بالله» وفوضت الوزارة إلى أبي علي بن مقلة، وذلك يوم السبت، وجلس القاهر بالله يوم الأحد ، وعمل الموكب يوم الاثنين . فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السنة ، ولم يكن مؤنس حاضراً ، فارتفعت الأصوات ، فقتلوا الحاجب ، ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردُّوه إلى الخلافة ، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة . وجيء بالقاهر وهو يبكي ، فاستدناه وقبّله وقال له : يا أخي أنت والله لا ذنب لك ، فطب نفساً . وسكن الناس ، وعاد الوزير فكتب إلى الأقاليم بعودة الخلافة إلى المقتدر بعد غيابها يومين وبعض الثالث ، وبذَلَ المقتدرُ الأموال في الجند .[1]

وفي هذه السنة وافى أبو طاهر القِرمطي الحجيج يوم التروية ، فقتلهم بالمسجد الحرام ، وطرح القتلى في بئر زمزم ، وضرب الحجر الأسود بدبوس فكسره ، ثم اقتلعه ، أقام بمكّة أحد عشر يوما ثم رحلوا ، وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة ، حتى أُعيد في خلافة المطيع[2] .

وفي سنة ٣٢٠ هـ ركب مؤنس على المقتدر ، ومعظم جنوده من البربر ، والتقى الجمعان ، فرمى بربري المقتدر بحربة سقط منها على الأرض ، ثم ذبحه

(١) المرجع السابق ٤٤٥ .
(٢) المرجع السابق .

بالسيف ، ورفع رأسه على رمح ، ثم حفر له بالموضع ودفن وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال[1] .

وكان المقتدر مبذِّراً ، مؤثراً للشهوات والشراب على الرغم من أنّه جيِّد العقل صحيح الرأي . خلف اثني عشر ولداً ذكراً ، وولي الخلافة من أولاده ثلاثة : الراضي ، والمتّقي ، والمطيع . وهذا ما اتَّفق للمتوكّل والرشيد قبلهُ . وأمّا عبد الملك بن مروان فولي الأمر من أولاده أربعة .

---

(١) المرجع السابق ٤٤٦ .

الغالب بالله عبد الله بن المعتز
٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٦١ ـ ٩٠٨ م

آ ـ حياته .

ب ـ ثقافته .

حـ ـ شعره .

١ ـ الشعر السياسي .

٢ ـ شعر الغزل .

٣ ـ شعر الخمرة .

٤ ـ شعر المديح .

٥ ـ شعر الرثاء .

٦ ـ شعر الهجاء .

٧ ـ شعر شكوى الزمن .

٨ ـ شعر الحكمة .

٩ ـ شعر الاخوانيات .

١٠ ـ شعر الطرديات .

١١ ـ شعر الوصف .

١٢ ـ شاعرية ابن المعتز .

عبد الله بن المعتز (الغالب بالله)
٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٦١ ـ ٩٠٨ م

آ ـ حياته ..

هو عبدُ الله أبو العباس ، بنُ محمدّ المعتزّ ، بن متوكّل ، بن المعتصم . وُلد بسامرَّاء سنة سبع وأربعين ومئتين للهجرة ٢٤٧ هـ ، قُبَيْلَ أيّام قليلة من مصرع جدّه المتوكِّل الجاري في الخامس من شوال على يد عُصْبَة من أصاغر الترك منهم ؛ بُغا الشرابي ، وباغر ، وموسى بن بغا الكبير ، بالتآمر مع ابنه المنتصر بالله ، وذلك بسبب محاولة المتوكلِّ تقديم ابنه الآخر محمد المعتزّ عليه من ولاية العهد . فاقتحموا عليه قصرَهُ وقتلوه في مجلسه على مرأى ومسمع من حاشيته ، ومعه وزيره الفتح بن خاقان . ومن حينها أصبح للترك كلُّ شيء في الدولة ، وأصبح الخلفاءُ دمى بين أيديهم ، يخلعون ، وينصبِّون ، ويسجنون ويسملون ، ويقتلون .

وعاش عبد الله في كنف والده المعتز وأمَّه الرومية الأصل كجدّته ، في ظل الخليفة المنتصر أخي المعتز ، الذي ماتَ مسموماً بعد ستة أشهرٍ من بدء خلافته ، ثم تبعه عمّ المعتز ، المستعين بن المعتصم الذي خلعه الأتراك سنة إحدى وخمسين ومئتين ٢٥١ هـ ، وبايعوا المعتزَّ خليفة للمسلمين ، وتحارب المعتزّ والمستعين قرابة

عام حتى خلع المستعين نفسه في أربع لمحرم سنة اثنتين وخمسين ومئتين ٢٥٢ هـ ، فأُرسِلَ إلى واسط محبوساً ، وقتل في محبسه بعد تسعة أشهر ، واستتبَّ الأَمر للمعتزّ .

ومضت سنوات ثلاث على خلافة المعتز كان فيها عبدُ الله منعَّماً بعزٍّ أبيه ، يرفل بالسعادة ، ويهنأ بالإطمئنان ، ويحلم بالسلطان المقبل عليه ، كيف لا وقد قال عليُّ بن حرب ، أحد شيوخ ابن المعتز في الحديث عن المعتزّ : ما رأيت خليفة أحسنَ منه ، وهو أول خليفة أحدث الركوب بِحِلْيَةِ الذهب ، وكان الخلفاء قبله يركبون بالحلية من الفضة[1] .

وقد فكر أبوه المعتز بجعله ولياً لعهده ، فأقصى أخاه المؤيد بن المتوكل وحرمه من الولاية ، وضرب الدنانير باسم عبد الله . ولعل أفضل ما يمثل تلك الفترة من حياة عبد الله ، قول البحتري :

رَأَيْنَا بَنِي الأَمْجَادِ في كُلِّ مَوْطِنٍ فَكَانُوا لعَبْدِ الله في الجُودِ أَعْبُدَا
عَلَيْـهِ مِنَ الْمُعْـتَزِّ بِـالله بَهْجَـةٌ أَضَاءَتْ ، فَلَوْ يَسْرِي بِهَا الرَّكْبُ لاَهْتَدَى
سُـرِرْنَـا بِـأَنْ أَمَّـرْتَـهُ وَنَصَبْتَـهُ لَنَا عَلَماً . يَأْوِي إلىَ ظِلِّهِ الهُدَى
وَأَبْهَجَنَا ضَرْبُ الـدَّنَانـيرِ بِاسْمِـهِ وَتَقْلِيدِهِ مِنْ أَمْرِنَـا مَا تَقَلَّدَا[2] .

ومات أشناش التركي الذي كان الواثق قد استخلفه على السلطنة ، فخلف خمسمئة ألف دينار فأخذها المعتز ، فخلع على محمدّ بن عبد الله بن طاهر ، ثم عزله وخلع على أخيه أبي أحمد ـ أخو المعتز ـ وتوَّجَهُ بتاجٍ من الذهب ، وقلنسوة مجوهرة ، ثم عزله وخلع على بُغا الشرابي وألبسه تاج الملك ، ثم خلع أخاه المؤيَّد

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٠ .
(٢) انظر ديوان البحتري ٢/٦٧٩ ـ حسن كامل الصيرفي ـ دار المعارف ـ خمسة مجلدات من ١٩٧١ - ١٩٧٧ م .

من العهد . فاجتمع الأتراك على خلع المعتزّ ، ووافقهم صالح بن وص
ومحمد بن بغا ، فهجموا عليه وجرّوا برجله ، وضربوه بالدبابيس ، وأق
الشمس وهم يلطمونه ، حتى خلع نفسه ، وبايع محمد المهتدي بالله بن ال
ومات المعتز بعد خمسة أيام ، وذلك في شعبان سنة خمس وخمسين
٢٥٥ هـ[١] .

وكانت السنة الثامنة من عمر عبد الله حينما دارت هذه الأحداث
والده ، فانقلب عِزُّهُ ذُلّاً وعذاباً ، وشحَّت قبيحة على المعتزّ ابنها بالما
طالبه الجند برواتبهم ، فقتلوه ، وهي التي أعطت فيها بعد صالح بن وصيف
عظيماً منه ألف ألف دينار وثلاثمئة ألف دينار ، وسفطاً فيه مكّوك زمرد ،
فيه لؤلؤ حبّ كبار ، وكيلجة ياقوت أحمر وغير ذلك[٢] .

وعلى الرغم من رقة قلب المهتدي خليفة المعتزّ ، وعدله واستقامته
صبَّ جام غضبه على أسرة المعتز المنكوبة ، فشرَّدها بعد أن صادر أملاكها
بنفي عبد الله بن المعتز مع جدته قبيحة إلى مكّة ، وهكذا عاش الصبيُّ المشر
من الفزع والخوف ، والذِّلَّةِ والهوان ، فترك ذلك أثراً عميقاً في نفسه
اتجاهاته المستقبليّة ، وهو ما نلمسه في أشعاره ، حيث الإحساس بالألم
الحياة واللهفة على زمن الصبا القصير فيقول :

لَهْفي عَلَى دَهْرِ الصِّبَا القَصيرِ وَغُصْنِهِ ذِي الوَرَقِ الـ
وَسُكْرِهِ وَذَنْبِهِ المَغْفُورِ وَمَرَحِ القُلُوبِ في الـ
وَطُولِ حَبْلِ الأَمَلِ المَجْرُورِ في ظَلِّ عَيْشٍ غَافِلٍ .

ثم يشكو مصائب الدهر ، وأحداث الزمان وتصاريف القدر

---

(١) المرجع السابق ٢٢١ .
(٢) تاريخ الخلفاء صفحة ٤٢٢ .

لا يرحم ، ويشكون من الناس ، فيقول :

أَخْنَى عَلَيْكَ الدَّهْرُ مُقْتَدِراً وَالدَّهْرُ أَلْأمُ غَالِبٍ ظَفِراَ
مَازِلْتَ تَلْقَى كُلَّ حَادِثَةٍ حَتَّى حَنَاكَ وَبَيَّضَ الشَّعَرَا
فَالآنَ هَلْ لَكَ في مُقَارَبَةٍ فَلَقَدْ بَلَغْتَ الشَّيْبَ وَ الكِبرَاَ
لِلَّهِ إِخْوَانٌ فَقَدْتُهُمُ سَكَنُوا بُطُونَ الأَرْضِ وَالحُفَرَاَ
أَيْنَ السَّبيلُ إلى لِقَائِهِمُ أَمْ مَنْ يُحَدِّثُ عَنْهُمُ خَبَرَا ؟
كَمْ مُورِقٍ بِالبِشْرِ مُبْتَسِمٍ لاَ أَجْتَني مِنْ غُصْنِهِ ثَمَراً !
مَازَالَ يُولِيني خَلاَئِعَةُ وَصَبَرْتُ أَرْقُبُهُ وَمَا صَبَرَا
وَعَدُوِ غَيْبٍ طَالِبٍ لِدَمي لَوْ يَسْتَطيعُ لَجَاوَزَ القَدَرَا
يُوري زِنَادِي كَيْ يُخَادِعَني وِيُطِيرَ في أَثْوَابِيَ الشَّرَرَا

وانتهت خلافة المهتدي بعد ذلك بأقلّ من سنة ، غَصْباً . وولي الخلافة بعده المعتمد بن المتوكلّ عمُّ عبدِ الله ، فأرسل في طلب ابن أخيه عبد الله ، فجاء الغلامُ المروَّعُ بصحبة جدته قبيحة ، فعادَ الهدوء إلى نفسه ، ونَعِمَ بقدرٍ غير قليل من الاستقرار في ظلال وِدِّعمِّه ورعايته .

وامتدّت هذه الفترة حتى الثانية والثلاثين من عمره أي حتى سنة موت عمِّه المعتمد سنة ٢٧٩ هـ ، لَمَا خلاها عبدُ الله وعَبَثَ مع عمِّه المعتمد الذي كان شاعراً ميّالاً إلى المجون ، غيرَ مبالٍ بشؤون الحكم وشجونه . يضاف إلى ذلك فتحُهُ بيْت أبيه المعتزّ للصحب والندماء والشعراء أمثال البحتري والنميري وعلي بن مهدي الأصبهاني الكسروي ، وجحظة وغيرهم من الشعراء والأدباء والظروفاء ، وينعم بالمشاركة فيما كان يدور بين هؤلاء من معارضات شعرية ومطارحات طريفة . ولم يقتصر روّاد قصره على هؤلاء ، بل كان يروده كثيرون من علماء اللغة والأدب ،

وفي مقدمتهم المبرِّد ، وثعلب أستاذاه وصديقاه[1] .

فكتب وهو معتقل إلى استاذه أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب يتشوَّقة :

مَا وَجْدُ صَادٍ بِالحِبَالِ مُوَثَّقِ ... بِمَاءِ مُزْنٍ بَارِدٍ مُصَفَّقِ
بِالرِّيحِ لَمْ يَكْدَرْ وَلَمْ يُرَنَّقِ ... جَادَتْ بِهِ أَخْلاَفُ دَجْنٍ مُطْبِقِ
بَصَخْرَةٍ إنْ تَرَ شَمْساً تَبْرُقِ ... مَادَ عَلَيْهَا كَالزُّجَاجِ الأَزْرَقِ
صَرِيحُ غَيْثٍ خَالِصٍ لَمْ يُمْذَقِ ... إلاَّ كَوَجْدِي بِكَ ، لَكِنْ أَتَّقي
يَا فَاتِحاً لِكُلِّ بَابٍ مُغْلَقِ ... وَصَيْرَفِيّاً نَاقِداً لِلْمَنْطِقِ
إنْ قَالَ هَذَا بَهْرَجٌ لَمْ يَنْفُقِ ... إنَّا عَلَى البِعَادِ وَالتَّفَرُّقِ
لِنَلْتَقِي بِالذِّكْرِ إنْ لَمْ نَلْتَقِ[2]

ولم تقتصر علاقَةُ ابن المعتزّ محصورة على عمِّه المعتمد ، فقد كان على علاقة جيّدة على صعيد الحكّام ، وطيدة مع عمِّه الموفّق أخي المعتمد وصاحب السلطة الفعلية في الدولة . ولكنَّه كان مع المعتمد صادقاً مخلصاً محبّاً ، بينما نراه مع الثاني متوجِّساً يتَّقي سياسته ويخاف حسد الحساد ودسائس المتآمرين .

وَوَثَّق ابنُ المعتز علاقاته أيضاً بالوزيرين الخطيرين سليمان بن وهب وولده عبيد الله ومدحهما وآلهما بعدَّةِ قصائد قَرَّبَتْه منهما ، وحمتْه من تقلبّات السياسة وظلمها ، وحين زَجَّ به رئيس الحرس مؤنسٌ في السجن ، استنجد بالقاسم بن عبيد الله بن وهب ، وشكا إليه ، فأطلق سراحه ، وردَّ إليه راتبه وأعطياته . ومما قاله في القاسم هذا ، قوله :

أَيَا حَاسِداً يَكْوِي التَّلَهُّفُ قَلْبَهُ ... إِذَا مَا رَأَى غَازِياً وَسْطَ عَسْكَرِ

---

(١) العصر العباسي الثاني للدكتور شوقي صيف ٣٣٠ .
(٢) انظر زهر الأداب للقيرواني ١/٢١٨ .

تَصَفَّحْ بَني الدُّنْيَا فَهَلْ فِيهِمُ لَهُ نَظيرٌ تَرَى ، ثُمَّ اجْتَهِدْ وَتَفَكَّرِ ؟
فَإِنْ حَدَّثَتْـكَ النَّفْسُ أَنَّكَ مِثْلُهُ بِنَجْوَى ضَلاَلٍ بَيْنَ جَنْبَيْكَ مُضْمَرِ
فَجُدْ ، وَأَجِدْ رَأْياً ، وَأَقْدِمْ عَلَى العِدَا وَشُـدَّ عَنِ الإِثْمِ المَآزِرَ وَاصْـبِرِ
وَعَاصِ شَيَاطِينَ الشَّبَابِ وَقَارِعِ النَّوَائِبَ وَارْفَعْ صَرْعَةَ الضُّرِّ وَاجْبُرِ(١)

ثم تولّى المعتضدُ بن الموفّق الخلافة بعد المعتمد سنة مئتين وتسع وسبعين للهجرة ٢٧٩ هـ ، وكان مهيباً ، شديد الوطأة . وبطلاً من أبطال بني العبّاس ، وقائداً مظفَّراً ، نجح في كلِّ ما قام من أجله ؛ فتمكَّن من الأتراك ولجمهم ، ومن الزنج والقرامطة ، فهزمهم ، ومن الخارجين فأخضعهم . وأقبلَ عبدُ الله بن المعتز على هذا البطل يرصدُ أعمالَه ويشيدُ بانتصاراته ، ويكثر من مدحه وقد تحوَّلَ من سامرّاء إلى بغداد لتصبح حاضرةَ الدولة ، ونرى عبدَ الله بن المعتزّ يمدحُه طالباً الإذن له بالتحوُّلِ من سامرَّاءَ إلى بغداد ، كقوله :

لَعَمري لَئِنْ أَمْسَى الإمَامُ بِبَلْدَةٍ وَأَنْتَ بِأُخْرَى شَائِقُ القَلْبِ نَازِعُ
وَمَـا أَنَـا وَالـدُّنْيَـا بِشَيْءٍ أَنَـالُـهُ سِوَى أَنْ أَرَى وَجْهَ الخَليفَةِ قَانِعُ(٢)

ويأذَنُ له المعتضدُ ، وينزلُ إلى بغداد ، وتتحوَّلُ دارُهُ إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء والشعراء . ويبادُله المعتضدُ مودّة بمودَّةٍ ، وقرَّبَهُ منه حتى غدا صديقَه المخلص ونديمَه المؤنس ، فتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث في مديحه عن عاطفةٍ صادقة حارَّة ، وربّما كانت خيرَ مدائحه فيه رائيَّتُهُ التي يستهلها بقوله :

سَلِمْتَ ـ أَمِيرَ المُؤْمنينَ ـ عَلَى الدَّهْرِ وَلاَزِلْتَ فِينا بَاقِياً وَاسِعَ العُمْـرِ
حَلَلْتَ الثُّرَيَّاَ ، خَيْرَ دَارٍ وَمَنْزِلٍ فَلاَ زَالَ مَعْمُوراً وَبُورِكَ مِنْ قَصْرِ

---

(١) انظر زهر الآداب للقيرواني ٩٢١/٤ .
(٢) العصر العباسي الثاني لشوقي صيف ٣٣١ .

فَلَيْسَ لَهُ فيمَا بَنَى النَّاسُ مُشْبَهٌ وَلاَ مَا بَنَاهُ الجِنُّ في سَالِفِ الدَّهْرِ[3]

والثُّريَّا مجموعة قصور ودور بناها المعتضدُ وحوْلَها البساتين والرياض ، وقد صوَّرها ابن المعتز تصويراً رائعاً ، إذْ يقول في القصيدة نفسها :

وَأَنْهَارُ مَـاءٍ كَالسَّـلاَسِلِ فُجِّـرَتْ لِتُرْضِعَ أَوْلاَدَ الـرَّيَاحِـينِ وَالزَّهْـرِ
جِنَـانٌ وَأَشْجَارٌ تَـلاَقَتْ غُصُـونُهَا فَأَوْرَقْنَ بِالأَثْمَـارِ وَالوَرَقِ الخُضْرِ
تَرَى الطَّيْرَ في أَغْصَانِهِنَّ هَوَاتِفـاً تَنَقَّلُ مِنْ وَكْرٍ لَهُنَّ إلى وَكْـرِ[2]

ثم يتحدَّثُ عن بأس المعتضد وجراءته ، وأنّه يفوق فيهما ليثَ الغاب الذي يَجُرُّ إلى أشباله كلَّ ليلةٍ ذبيحةَ وحشٍ أو ذبيحاً من البشر ، والذي ما زال يُفْزع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويقضمه قضماً .

وَمَازِلْتَ حَيَّ المُلْكِ تُرْجَى وَتُتَّقَى وَتَفْتَرِسُ الأَعْدَاءَ بالبيضِ وَالسُّمْرِ
وَمَالَيْثُ غَابٍ يَهْدِمُ الجَيْشَ خَوْفُهُ بِمَشْيَةِ وَثَّابٍ عَلَى النَّهْيِ وَالزَّجْرِ
يَجُـرُّ إلى أَشْبَـالِـهِ كُـلَّ لَيْـلَةٍ عَقِيرَةَ وَحْشٍ أَوْ قَتيلاً مِنَ السَّفْرِ
إِذَا مَـارَأَوْهُ طَـارَ جَمْعُهُمُ معـاً كَمَا طَيَّرَ النَّفْخُ التُّرَابَ عَنِ الجَمْرِ[3]

وكان المعتضدُ حقّاً شجاعاً شجاعة خارقة . ويصوِّر ابن المعتز ما بسط في البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد ، كقوله في القصيدة :

حَكَمْتَ بِعَدْلٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ وَدَاوَيتَ بِالرِّفْقِ الجُمُوحَ وَبِالقَهْرِ[4]

ورثاه بعد وفاته في أكثر من قصيدة ، تأسّى فيها لفقده ، وبرهَن فيها عن وفائه له ، فقال :

---

(١) المرجع السابق ٣٣٧ .
(٢) المرجع السابق ٣٣٨ .
(٣) انظر ديوان ابن المعز ٢١٦ .
(٤) المرجع السابق .

قَضَوْا مَاقَضَوْا مِنْ أَمْرِهِمْ ثُمَّ قَدَّمُوا إِمَاماً إِمَامَ الخَلْقِ بَيْنَ يَدَيْهِ
وَصَلُّوا عَلَيْهِ خَاشِعِينَ كَأَنَّهُمْ صُفُوفٌ قِيَامٌ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ(١)

وقال يرثيه أيضاً رثاءً حارّاً ، وقد لاحظت شريرةُ تَقَرُّحَ جفنيْه سُهداً وقلقا ، فأجابها أنّ مصابه الجلل أبهظ ظهره ، وأشعل ما بداخله من لواعج الحزن والأسى ، ويحاول أن يُصبِّرَ نفسه ويُسلِّيها ، ثم راح يُعدِّدُ مناقبَ المعتضد الميّت بما لا يجارى من ريِّق النظم وجليل المعاني :

قَالَتْ شَرِيرَةُ مَاجَفْنِكَ سَاهِراً قَلِقاً ، وَقَدْ هدَأَتْ عُيُونُ النُّوَّمِ
مَا قَدْ رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ أَحَلَّ بِي هَذَا ، وَتَحْتَ الصَّدْرِ مَالَمْ تَعْلَمي !
يَانَفْسُ صَبْراً لِلزَّمَانِ وَرَيْبِهِ فَهْوَ المَلِيءُ بِمَا كَرِهْتَ فَسَلِّمي
إِنَّ الَّذِي حَازَ الفَضَائِلَ كُلَّهَا هُوَ ذَاكَ فِي قَعْرِ الضَّرِيحِ المُظْلِمِ
أَمَّا السُّيُوفُ فَمِنْ صَنَائِعِ بَأْسِهِ لَوْلَاهُ لَمْ يَرْوَيْنَ مِنْ سَفْكِ الدَّمِ
وَكَأَنَّ أَحْدَاثَ الزَّمَانِ عَبِيدُهُ فَمَتَى يُؤَخِّرْهنَ لَا تَسْتَقْدِمِ
يَقْظَانُ مِنْ سِنَةِ المُضَيِّعِ قَلْبُهُ وَمُعَوِّلٍ لِلْمُعْوِلِ المُتَظَلِّمِ
يَرْعَى الضَّغَائِنَ قَبْلَ سَاعَةِ فُرْصَةٍ فَإِذَا رَآهَا أَمْكَنَتْ لَمْ يُحْجِمِ
كَمْ فُرْصَةٍ تُرِكَتْ فَصَارَتْ غُصَّةً تَشْجَى بِطُولِ تَلَهُّفٍ وَتَنَدُّمِ
وَلَرُبَّ كَيْدٍ ظَلَّ يَسْجُدُ بَعْدَهَا فِي بِشْرِوَجْهٍ مُطْلَقٍ مُتَجَهِّمِ
وَهْيَ المَنَايَا إِنْ رُمِينَ بِنَبْلِهَا يَرْمِينَ فِي نَفْسِ الأَجَلِّ الأَعْظَمِ
لِلَّهِ دَرُّكَ أَيَّ لَيْثِ كَتِيبَةٍ وَالخَيْلُ تَعْثُرُ بِالقَنَا المُتَحَطِّمِ
وَلَقَدْ عَمَرْتَ وَلَا حَرِيمَ مُعَانِدٌ حَرَمٌ وَلَا الإِسْلَامُ بِالمُسْتَسْلِمِ(٢)

وكان ابن المعتز قد نيَّف على الأربعين حين استخلف المكتفي بن المعتضد

---

(١) المرجع السابق ٤/٨٢٧ .
(٢) انظر زهر الآداب للقيرواني ٤/٨٢٧ - ٨٢٨ .

سنة ٢٨٩ هـ ، فاستقبلَ العهدَ الجديدَ وهو في السجن ، إذ أُلْقيَ القبضُ عليه احترازاً وتخوُّفاً منه ، وذلك ريثما تتمُّ البيعة للخليفة الجديد . ويبدو أن ابنَ المعتزّ كان يستشعر في نفسه أهلية للخلافة ، وربّما أحسَّ مؤنسٌ رئيس الخدم ذلك ، فألقى القبض عليه . ولكن صديقه الوزير القاسم بن عبيد الله بن وهب ، استطاع بنفوذه أن يطلقَ سراحَهُ ويعيدَإليه أعطياته . فقال من قصيدة طويلة يمدحه فيها ويشيد بفعاله الحميدة :

أَيَا مُوصِلَ النُّعْمَي عَلَى كُلِّ حَالَةٍ   إِلَيَّ قَرِيباً كُنْتَ أَوْ نَـازِحَ الدَّارِ
كَـمَا يَلْحَقُ الغَيْثُ البِلاَدَ بِسَيْلِهِ   وَإِنْ جَادَ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا بِأَمْطَارِ
لَقَـدْ عَمَّرَ اللهُ الـوَزَارَةَ بِـاسْمِـهِ   وَرَدَّ إِلَيْهَـا أَهْلَهَـا بَعْـدَ إِقْفَـارِ
وَكَـانَتْ زَمَانـاً لاَ يَقِـرُّ قَـرَارُهَـا   فَلاَقَتْ نِصَاباً ثَابِتاً غَيْرَ خَـوَّارِ(١)

ورغم الآمال التي كانت تخفق في قلبه ، فقد اتَّصلَ بالخليفة المكتفي ، وامتدح انتصاراته وأشاد بدولته ، محافظاً بذلك على نفسه ، بعد أن نشطت دسائس القصر ، وكثر الإيقاع بشخصيات الدولة .

وبوفاة المكتفي المفاجئة سنة ٢٩٥ هـ ، واستخلاف أخيه المقتدر بعده ، وسنة لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة ، يكثر اللَّغطُ حولَه لأنه لم يبلغ الحلم . فتزداد آمال ابن المعتز بالخلافة فلقد كان في نظر الناس رجلاً مُحنَّكاً محمودَ السيرة وافرَ الأدب ، بينما كان الخليفة الجديد صبياً غِرّاً ، غلبتْ عليه إرادةُ النساء ، فقد استولت أُمُّهُ «شغب» وقهرمانتها على مقاليد الحكم ، تُعيِّنُ وَتعزِلُ وتديرُ شؤون الدولة بالرشاوي والهبات .

---

(١) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٣٨ .
(٢) انظر الديوان لابن المعتز ٢١٧ .

استغلَّ عبدالله بن المعتزّ ، فسادَ الوضع ، وغيظَ رجال الدين والدولة والقادة وعامّة الناس ، من تولية من لا يصلح لإمارة ولا حجٍّ ولا غزوٍ . وفي يوم السبت لإحدى عشرة ليلةً بقيت من ربيع الأول سنة ستّ وتسعين ومئتين للهجرة ، اجتمعت جماعة كبيرة من رجال الدين والقضاة والقادة وعامّة الشعب ، واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبدالله بن المعتز ، وبايعته بالفعل في اليوم التالي ، وكان الرأس المدبِّر لذلك محمد بن داود بن الجرَّاح الكاتب ، فقلَّده ابن المعتزّ الوزارة ، وبعث إلى المقتدر يأمره بإخلاء دار الخلافة لكي ينتقل إليها ، فأجابه هذا إلى طلبه ، وانتقل إلى دار محمّد بن طاهر .

ولم يكدْ يمرُّ يومٌ على هذه البيعة ، حتى هَبَّ مؤنس الخادم التركي في جندٍ كثيرين ، فنقضها ، وجدَّدَ البيعة للمقتدر ، وأخرج الأموال وزاد في الأعطيات ، فلم يبق مع ابن المعتز أحدٌ ، فهرب إلى دار ابن الجصَّاص ، تاجر الجواهر المشهور ، وقبض عليه مؤنس وقتله . وبذلك لم تتمَّ له الخلافة إلَّا لمدة يوم وليلة .[1]

ب ـ ثقافته ..

وَلعلّ فيما مرَّ يوضِّحُ العناصرَ التي كونت شخصيَّة ابن المعتزّ الأدبيّة ؛ فهو عربيّ عبّاسيّ يعتزُّ بعروبته وأسرته ، وُلد في القصر العبّاسي وفي كلّ ما انبثَّ فيه من لهوٍ وطرب ، مما قد يكون الباعثَ عنده على الإحساس الماديّ للأشياء ، ووصْفِها وصفاً مادياً يلائم مزاجه المترف ، وعقله الذي عاش في النعيم ، فلم يستطع أن يتعمّق الأشياء ، وإنّما يقف عند ظاهرها الحسيّ المكشوف . وعنصرٌ آخر اشترك في تكوين شخصيته الأدبيّة بقوّة وهو عنصر ثقافته العربيّة الإسلامية ، مما جعلَهُ أقربَ إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجدّدين .

(١) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٣٢ وما بعد .

ولئن قتلت السياسة ابن المعتز ، فلقد أحياهُ الأدبُ في أذهان الناس على اختلاف العصور ، وما كان للأدب أن يلعبَ هذا الدور في تخليد ابن المعتز لو لم يكن صاحبه يتمتّع باستعدادٍ فطريّ وثقافة غنيَّة منوَّعة . وحين كان في التاسعة من عمره ، لفت نظر البحتريّ الشاعر المعروف فقال البحتريّ يمتدحه :

أَبَا العَبَّاسِ بَـرَّزْتَ عَلَى قَـوْمِـ ـــكَ آدَابَـاً وَأَخْـلاَقَـاً وَتَـبْـرِيْـزَا
فَـأَمَّـا حَلْبَـةُ الشِّعْـرِ فَتَسْتَـوْلي عَلَى السَّبْقِ بِهَا قَرْضاً وَتمييزا [1]

وفي ظلِّ المعتمد الذي طلَبَهُ وطلبَ جدَّته وابني عمّه وردَّهم إلى سامرّاء ، فاطمأن الغُلامُ المروَّعُ وأخذت جدتُه قبيحةُ تُعنَى بتربيته ، وأحضرت له المعلِّمين في الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمّد بن عمران ، والحسن العنزي الإخباريّين ، ومحمّد بن هبيرة صاحب الفرَّاء ، ويبدو أنّه كان يلقى المبرِّدَ وثعلباً في أثناء زيارتها لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ هـ . ففي المختار من شعر بشار أن ثعلباً كان مؤدّبهُ فقطعه وقتاً ، فكتب إليه من قصيدة طريفة :

يـا فـاتحـاً لِكُـلِّ عِلْمٍ مُغْلَقِ وَصَيْـرفِيّـاً عَـالِمـاً بِـالمَنْـطِقِ
إِنّـا عَـلَى الـبُعَـادِ وَالـتَّـفَـرُّقِ لَنَلْتقي بِـالـذِكْـرِ إِنْ لَمْ نَلْتَقِ [2]

وكان يقصدُ فصحاءَ الأعراب ويأخذُ عنهم [3] ، وأهمُّ معلِّميه ؛ أحمد بن سعيد الدمشقيّ المحدث الإخباريّ ، ويروى أنّ المؤرِّخ البلاذريَّ سعى عند جدّته كي يصبحَ من معلِّميه ومؤدِّبيه ، فغضب ابنُ سعيد ولزمَ بيته ، وكانت سنُّ ابن المعتزّ حينئذ ثلاثةَ عَشَرَ عاماً ، وعلم بغضب أستاذه ، فكتب إليه أبياتاً يترضّاه بها ، وهي تصوّر ثقافته تصويراً دقيقاً ، إذ يخاطبه بقوله :

---

(١) المرجع السابق ٣٢٥ .
(٢) انظر المختار من شعر بشار طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر صفحة ٥٤ .
(٣) انظر الفهرست لابن النديم صفحة ١٧٤ .

أَصْبَحْتَ يَابْنَ سَعيدٍ حُزْتَ مَكْرُمَةً   عَنْهَا يُقَصِّرُ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
سَرْبَلْتَني حِكْمَةً قَدْ هَذَّبَتْ شِيَمي   وَأَجَّجَتْ غَرْبَ ذِهْني فَهْوَ مُشْتَعِلُ
أَكُونُ إِنْ شِئْتُ قُسّاً في خَطَابَتِهِ   أَوْ حَارِثاً وَهْوَ يَوْمَ الفَخْرِ مُرْتَجِلُ
وَإِنْ أَشَأْ فَكَزَيْدٍ في فَرائِضِهِ   أَوْ مِثْلَ نُعْمَانَ مَا ضَاقَتْ بِيَ الحِيَلُ
أَوْ الخليلَ عَرُوضِيّاً أَخا فِطَنٍ   أَوْ الكِسَائِيَّ نَحْوِيّاً لَهُ عِلَلُ
عُقْبَاكَ شُكْرٌ طَويلٌ لاَ نَفَاذَ لَهُ   تَبْقَى مَعَالِمُهُ مَا أَطَّتِ الإِبِلُ (١)

فهو يقول : إن ابن سعيد خرَّجه خطيباً فصيحاً لا يقلُّ عن قُسَّ بن ساعدة في خطابته التي اشتهر بها بين الجاهليّين ، كما لا يقلُّ عن الشاعر الجاهليّ الحارث بن حِلِّزةَ في شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت الأنصاري في علمه بالميراث ، ولا عن أبي حنيفة النعمان في علمه بالفقه ولا عن الخليل بن أحمد الفراهيديّ في علمه بالعروض ، ولا عن الكسائيّ في النحو واستنباط علله . هذه هي مواد ثقافته في سنِّ الثالثة عشرة ، ولم يذكر بينها فلسفةً ولا منطقاً (٢) .

بهؤلاء الأساتذة الكبار ، وبسواهم ، قد اكتملت لدى ابن المعتز ثقافة دينيّة ولغويّة وعروضيّة وأدبيّة وتاريخيّة ، استغلَّها أفضلَ استغلال له في نظم شعره وتحبير مؤلَّفاتِه التي أَتحف بها تاريخ الأدب العربيّ .

وقد أضاف ابن المعتزّ الى ثقافته هذه إلماماً واسعاً بالغناء والموسيقى ، وله أصواتٌ مشهورة من صُنعه ، ومذهبٌ غنائيّ مال فيه إلى التجديد ، يقول صاحب الأغاني : وكان عبدالله حسنَ العلم بصناعة الموسيقى ، والكلام على النغم وعللها . وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة (٣).

---

(١) انظر معجم الأدباء ١/١٣٣ .
(٢) انظر العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٢٨ .
(٣) الأغاني دار الكتب ١٠/٢٧٦ .

أما مؤلّفاته التي تحدث عنها الذين ترجموا له فكثيرةٌ منها : كتاب الآداب ، وفصول التماثيل في تباشير السرور ، وطبقات الشعراء ، وأشعار الملوك ، وسرقات الشعراء ، وكتاب البديع ، وكتاب الجامع في أحكام الغناء ، وكتاب الجوارح والصيد ، وحُلى الأخبار ، وكتاب الزهر والرياض ، ورسالة في محاسن أبي تمام ومساويه ، ومكاتبات الإخوان . . وغير ذلك من المؤلفات التي تشهد له بالتميُّزِ بين أبناء عصره ، وتجعله شيخاً من شيوخ الأدب وعالماً من علماء النقد .

ونقطة أخرى يجب أن نتنبَّه لها في الحكم على ثقافته ، وهو الذي كان نَهْماً بالقراءة ، فقد اطَّلع بعد أن يَفعَ واستوى على شيء من الفلسفة ، وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، وهذا ما نجد إشاراتٍ لها في شعره ، ومن الطريف أن نجدَهُ يقول :

وَلَا تَفْزَعَنْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُفَزِّعٍ فَمَا كُلُّ تَرْبِيعِ النُّجُومِ بِضَائِرِ[1]

وكأنّه كان يتشكّك في حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوالع السعد والنحس .

جـ - شعرُه ..

طرق ابنُ المعتز أبواباً شعريّة كثيرةً ، تتناسب مع ذوقه الفنيّ وتركيبه النفسيّ ، فنظم في موضوعات سياسيَّة ، من مدحٍ وفخرٍ ورثاء ، وفي موضوعات اللهو من خمرٍ وغزل وطرد ، وفي موضوعاتٍ فنيَّةٍ كالوصف والغناء والموشَّح . وكان هذا التنوّع الشعريُّ نتيجةً طبيعيةً لحياته الَّتي كان يحياها . فلم يُعْرَفْ عنه الانصراف التامّ الى حياة الجدِّ ورصانتها ، ولا إلى حياة العبث ومجونها ، وإنما كان يتدبَّرُ أمور السياسة ، ويعقدُ ندوات العلم والأدب ، ويحضر جلسات اللهو

(١) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٢٨ .

والغناء والطرب ، وتلك هي حياة الملوك المتّزنة التي لا يطغى فيها أمرٌ ، فيصرف صاحبه عن بقية الأمور . من هذا وذاك نلمس أنَّه كان في شعره رقَّةُ الملوكيَّةِ ، وغزلُ الظرفاء ، وهلهلةُ المحدثين ، وفيه أشياءُ كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ، ولا تقصِّرُ عن مدى السابقين ، وفيه أشياءُ ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ، وليس عليه أن يتشبَّه فيها بفحول الجاهليّة .

فليس يمكن لواصفِ «الصبوح» في مجلس شكل ظريف ، بين ندامى وَقِيان ، وعلى ميادين من النَّوْرِ والبنفسج والنرجس ومنضودٍ من أمثال ذلك ، إلى غير ما ذكرتُه من جنس المجالس وفاخر الفُرُش ومختار الآلات ، ورقَّة الخدم ؛ أن يَعْدِلَ بذلك عَمَّا يُشْبِهُهُ من الكلام السَّبْطِ [1] الرقيق الذي يفهمه كلُّ من حضرَ ، إلى جَعْدِ [2] الكلام ووحشيَّتهِ ، وإلى وصف البيدِ والمهامِهِ والظبي والظليم [3] والناقة والجمل والديار القفار والمنازل الخالية المهجورة . ولا يجوز إذا عدلَ عن ذلك وأحسن ، قيل إنه مسيءٌ ، ولا يجوز أن يُغْمَطَ حقه كله إذا أحسن الكثير ، وتوسط في البعض ، وقصَّرَ في اليسير ، وأن يُنْسَبَ إلى التقصير في الجميع ، لنشر المقابح ، وطيّ المحاسن . ولو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحدٍ بمن تقدم لوجد مساغاً [4] . وها نحن بإذن الله نستعرض أغراضه الشعريَّة وخصائصه الأدبيّة لتكتمل بها الصورةُ التي أردنا رسمها لابن المعتزّ الشاعر .

---

(١) السبط هنا : السهل المرسل .
(٢) الجعد : المعقد .
(٣) المهامه : الصحارى القفر والظليم : ذكر النعام .
(٤) الأغاني ١٠ / ٢٧٤ .

١ ـ الشعر السياسي ..

كان ابن المعتزّ هاشمياً فخوراً بهاشميته ، وعباسيّاً معتزّاً بعباسيّته ، فكان من الطبيعيّ أن يدافع بشعره عن قضايا الحزب الذي ينتمي إليه ، ويروِّجَ مبادئَهُ ، ويدعوَ إلى وحدة صفوفه ، ويدحضَ حُجَجَ خصومه الّذين تمثّلوا بالطالبيِّين ، والأمويّين والقرامطة . فهو يفخر ببني هاشم عامّةً عِزّ قريش ، ووارثي المكارم كمثل قوله :

إنِّي مِنَ القَوْمِ الَّذينَ بِهِمْ فَخَرَتْ قُرَيْشُ عَلَى بَني كَعْبِ
صُبُرٌ إذَا مَا الدَّهْرَ عَضَّهُمُ وَأَكُفُّهُمْ خُضرٌ لَدَى الجَدْبِ
وَلَهُمْ وِرَاثَةُ كُلِّ مَكْرُمَةٍ وَبِهِمْ تَعْلَقُ دَعْوَةُ الكَرْبِ
وَإذَا الوَغَى كَانَتْ ضَرَاغِمُهُ وَعَلَتْ عَجَاجَةُ مَوْقِفٍ صَعْبِ
لَبِسُوا حُصُوناً مِنْ حَديدِهِمُ صَبَّارَةً لِلطَّعْنِ وَالضَّرْبِ

ويفخر الشاعر بنفسه ، ويُنصِّب ذاتَه البطلَ والمطالبَ بحقِّ بني العبّاس من الأمويّين في الشام ، وهو لو شاء لملأ البلادَ خيلاً وسارت خلفه جيوشُ هاشم ونزار ، فارتفع النقع من حوافرها ليغطِّيَ وجهَ السماء وكأنّه دخان ، ولقدحت رؤوس رماحهم شرراً ، وملأت خيولُهم الأرضَ ناراً ، مدِّرعين بالضّافيات من الدروع ، واللامعات من السيوف ، وذلك عن خبرةٍ لأن مَنْ يَعْجُم عوده سيتكسَّرُ نابُهُ ويعرف الحقيقة فيقول :

سَليني إذَا مَا الحَرْبُ ثَارَتْ بِأَهْلِهَا وَلَمْ يَكُ فِيهَا لِلْجِبَالِ قَرَارُ
وَدَارَتْ رَحِى المَوْتِ وَالصَّبْرُ قُطْبُهَا وَأَكْثَرُ مَا فيهَا دَمٌ وَغُبَارُ
وَقَامَ لَهَا الأَبْطَال بِالبِيضِ وَالقَنَا وَهَبَّتْ رِيَاحُ الآخَرينَ فَطَارُوا
وقَدْ عَلِمَ المَقْتُولُ بِالشَّامِ أَنَّني أُريدُ بِهِ ، مَنْ رَامني ، وَأَغَارُوا
إذا شِئْتُ أَوْقَرْتُ البِلَادَ حَوَافِراً وَسَارَتْ وَرَائِي هَاشِمٌ وَنِزَارٌ

وَعَمَّ السَّماءَ النَّقْعُ حَتَّى كَأَنَّهُ دُخَانٌ ، وَأَطْرَفُ الرِّمَاحِ شَرَارُ
وَبي كُلُّ خَوَّارِ العِنَانِ كَأَنَّهُ إِذَا لاَحَ في نَقْعِ الكَتِيبَةِ ، نَارُ
وَقُمْصُ حَدِيدٍ ضَافِيَاتٍ ذُيُولها لَهَا حَدَقٌ خُزْرُ العُيُونِ صِغَارُ
وَبِيضٌ كَأَنْصَافِ البُدُورِ أَبِيَّةٌ إِذَا امْتَحَنَتْهُنَّ السُّيُوفُ خِيَارُ
وَكَمْ عَاجِمٍ عُودِي تَكَسَّرَ نَابُهُ إِذَا لاَنَ عِيدَانُ اللِّئَامِ وَخارُوا [١]

وابن المعتزّ يُلبِّي الدعوةَ ويكونُ دائماً عند حسن الظنِّ إذا ما داعي الحرب دعاه والليل بينهما ، فهو يدعو ماجداً لا يعرف الشحَّ قلبُهُ بل تراه متهلِّلاً وقد أعدَّ للحرب سيفاً مهنَّداً ورمحاً خطيّاً إذا هُزَّ تمايل مرونةً وزهواً ، وقاد جيشاً كالجبال الراسيات يمهِّدُ خلال سيره ما يكسو وجهَ الأرض من وعورة ، وأثبتوا أقدامهم في سوح القتال وصبروا في مواجهة العدوِّ الذي لا بُدَّ له من أن يلوذَ بالفرار كما ترك حصونه وملاجئه من قبل :

وَدَاعٍ دَعَا ، وَاللَّيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكُنْتُ مَكَانَ الظَنِّ مِنْهُ وَأَفضَلاَ
دَعَا مَاجِداً لاَ يَعْلَمُ الشُّحَّ قَلْبُهُ إِذَا مَا عَرَاهُ الحَقُّ يَوْماً تَهَلَّلاَ
وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ العَوَانِ مُهنَّداً وَأَسْمَرَ خَطِيّاً ، إِذَا هُزَّ أَرْقَلاَ [٢]
وَجَيْشَاً كَرُكْنِ الطَّوْدِ رَحْبَاً طَرِيقُهُ إِذَا مَا عَلاَ حَزَناً مِنَ الأَرْضِ أَسْهَلاَ
وَجَرُّوا إِلَيْنَا الحَرْبَ حَتَّى إِذَا غَلَتْ وَفَارَتْ رَأَوْا صَبْراً عَلَى الحَرْبِ أَفْضَلاَ
وَعَاذُوا عِيَاذاً بِالفِرَارِ ، وَقَبْلَهُ أَضَاعُوا بِدَارِ السِّلْمِ حِرْزاً وَمَعْقَلاَ [٣]

ثم يطالبُ ابنُ المعتزّ بيته العبّاسيَّ بشدِّ الأكفِّ على ميراثهم ، لأنَّهم أصحابُ حقٍّ في وراثة رسول الله ﷺ ، فإذا ما نازعهم عليها أحدٌ فلْيبادِروا إلى حصده بكل

(١) انظر الديوان لابن المعتز ١٩٤ .
(٢) أرقلا : تمايل .
(٣) ديوان ابن المعتز ٣٨٥ .

قاطعٍ بتّار ، وليغيروا عليه بخيلٍ مسوَّمة ، هذا ما ينصح به ولا غير هذا شيء آخر :

شُـدُّوا أَكُفَّكُمُ عَـلَى مِـيرَاثِكُـمْ ... فَـالحَقُّ أَعْـطَاكُمْ خِـلاَفَـة أَحْمَـدِ
وَمَتَى يَـرُمْهَـا الـرَّائِمُـونَ فَبَـادِرُوا ... هَـامَـاتِهِمْ حَصْـداً بِكُـلِّ مُهَنَّـدِ
قُـودُوا لَهُمْ قَوْدَ الجِيَـادِ شَوَاذِبـاً ... لاَ يَهْتَدُونَ إِلىٰ الطَّرِيقِ الأَبْعَدِ[1]
هَذَا هُوَ النُّصْحُ الصَّرِيحُ ، وَرُبَّمَا ... مَحَضَ النَّصِيحَةَ صَاحِبٌ لَمْ يَجْهَدِ[2]

وربّما أحسَّ الشاعرُ أكثر منْ غيره الخطرَ الّذي يواجهه قومُهُ ، فيصرخ بأعلى صوته منبِّهاً إياهم أن يهبُّوا من رقدتهم ، وأن يحثُّوا خيولَهم لمواجهة الأعداء لأنَّه يرى ما لا يرون ، فالأعداءُ يُهيِّؤن لهم الدواهي ، ويترقّبون الفرصَ للإيقاع بهم :

مَنْ مُبْلِغٌ قَـوْمِي عَـلَى قُـرْبِهِمْ ... وَبُعْـدِ أَسْمَـاعٍ عَنِ الـوَاعِـظِينْ
هُبُّـوا فَقَـدْ طَـالَتْ بِكُمْ رَقْـدَةٌ ... مِنْ بَعْـدِهَا أَحْسَبُ لاَ تَـرْقُدُونْ
حُثُّـوا مَطَايَا الجِدِّ تُـرْقِـلْ بِكُمْ ... نَاجِينَ بَيْنَ النَّاسِ أَو مُعْـذِرِينْ
إِنِّي أَرَى الأَعْـدَاءَ قَـدْ رسَّخُـوا ... دَاوَهِيـاً ، أَنْتُمْ لَهَـا حَـافِـرُونْ[3]

ويدعو الشاعر أبناء عمومته من الطالبيّين إلى الأُلفة والمحبَّة ، أوليس العبّاس أخاً لأبيهم وصاحبه وموضع نجواه ؟ ثمّ ألم يسبق للمأمون أن عهد لواحد منهم بالخلافة متجاوزاً المطامع الدينويّة ومتخطِّياً حرصهم عليها ، فمات الرضَى كما هو معروف وعادت الخلافة إلى بني العبّاس ، فاتركوا لنا دنيانا ، كما كنا قد تركناها لكم :

بَنِي عَمِّنَا الأَدْنَيْنَ مِنْ آلِ طَالِبٍ ... تَعَالَوْا إِلىٰ الأَدْنَى ، وَعُودُوا إِلىٰ الحُسْنَى
أَلَيْسَ بَنُـو العَبَّاس صِنْـوَ أَبِيكُمُ ... وَمَوْضِعَ نَجْوَاهُ ، وَصَاحِبَهُ الأَدْنَى

---

(١) قَودُ : المذلل المنقاد من الخيل . الشواذب : الضامرة .
(٢) ديوان ابن المعتز .
(٣) ديوان ابن المعتز ٤٤٢ .

وَأَعْـطَاكُمُ المَأْمُـونُ عَهْدَ خِـلاَفَـةٍ لَنَا حَقُّها ، لَكِنَّـهُ جَادَ بِـالدُّنْيَـا
لِيُعْلِمَكُمْ أَنَّ الَّتِي قَـدْ حَـرَصْتُمُ عَلَيْهَا ، وَغُـودِرْتُمُ عَلَى أَثْرِهَا صَرْعَى
فَمَاتَ الرِّضَى ، مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ عَلِمْتُمُ وَلاَذَتْ بِنَا مِنْ بَعْدِهِ مَرَّةً أُخْرَى
دَعُـونَا وَدُنْيَـانَـا الَّتِي كَلِفَتْ بِنَـا كَمَا قَدْ تَرَكْنَاكُمْ ، وَدُنْيَاكُمُ الأُولَى[1]

ثم يعاتبُ الطالبّيين عتاباً مُرّاً لمزاحمتهم على الخلافة ، ويتساءل ؛ لقد تركناكم زمناً طويلاً لتأخذوا ميراث النبيّ عليه السلام بالرِّماح والسيوف ، فلماذا فلم تفعلوا ذلك زمان الأمويين يوم كانوا ممسكين زمام الخلافة ؟ وهم الذين كانوا يضربون منكم الهام والرِّقاب ! فلمّا قُمْنَا بدافع القرابة وأخذنا بثأركم ، رُحْتم تشعلونَ نارَ العداوة نحونا ، ونحن الذين استعدنا ما عجْزتم استعادته من حقّنا ، فما ذنبنا ؟ وهل مستعيدُ الحَقِّ كسالِبِهِ ؟

أَبَى اللهُ ، إلاَّ مَا تَرَوْنَ ، فَمَالَكُمْ عِتابٌ عَلَى الأَقْدَارِ ، يَا آلَ طَالبِ ؟
تَـرَكْنَاكُمُ حيناً ، فَهَـلاَّ أَخَـذْتُمُ تُـرَاثُ النَّبِيِّ بِالقَنَـا وَالقَوَاضِبِ[2]
زَمَانَ بَنِي حَرْبٍ وَمَرْوانَ مُمْسِكُوا أَعِنَّةَ مُلْكٍ جَائِرِ الحُكْمِ غَاصِبِ
أَلَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ كَسَوْكُمْ عَمَائِماً مِنَ الضَّرْبِ فِي الهَامَاتِ حُمْرَ الذَّوائِبِ
فَلَمَّا أَرَاقُوا بِـالسُّيُـوفِ دَمَـاءَكُمْ أَبَيْنَا ، وَلَمْ نَمْلِكْ حَنِينَ الأَقَارِبِ
فَحِينَ أَخَذْنَا ثَأْرَكُمْ مِنْ عُدوِّكُمْ قَعَدْتُمْ لَنَا ، تُورُونَ نَارَ الحُبَاحِبِ[3]
وَحُزْنَا الَّتِي أَعْيَتْكُمُ ، قَدْ عَلِمْتُمُ فَمَا ذَنْبُنَا ؟ هَلْ قَاتِلٌ مِثْلُ سَالبِ ؟[4]

ثم لا يلبث ابنُ المعتزّ ، فيمِّيزُ بين العباسيّين ، من بقية الهاشميّين ، ويؤكِّد

---

(١) ديوان ابن المعتز ٢٣ ـ ٢٤ .
(٢) القواضب : السيوف .
(٣) تورون : توقدون . الحباحب : ذباب الليل .
(٤) الديوان ٥٠ .

بأنّهم يعني العباسيّين أحقُّ بالخلافة من الطالبيّين ، لقرابتهم من رسول الله ﷺ ، مُدَلِّلاً على ذلك بنصرتهم له ووقوفهم إلى جانبه ، ومواقفهم الشجاعة في الذود عن رسول الله عليه السلام يوم حنين ، وفي سُقيا الحجاز ، وفي إدالة دولة الأمويِّين .

وَنَحْنُ وَرِثْنَا ثِيَابَ النَبِيِّ ··· فَلِمَ تَجْذِبُونَ بِأَهْدَابِهَا ؟
لَكُمْ رَحِمٌ يَا بَنِي بِنْتِهِ ··· وَلَكِنْ بَنُو العَمِّ أَوْلَى بِهَا
بِهِ غَسَلَ اللهُ مَحْلَ الحِجَازِ ··· وَأَبْرَأَهَا بَعْدَ أَوْصَابِهَا
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ تَدَاعَيْتُمُ ··· وَقَدْ أَبْدَتِ الحَرْبُ عَنْ نَابِهَا
فَمَهْلاً بَنِي عَمِّنَا ، إِنَّهَا ··· عَطِيَّةُ رَبٍ حَبَانَا بِهَا

ثم يقول :

قَتَلْنَا أُمَيَّةَ في دَارِهَا ··· وَنَحْنُ أَحَقُّ بِإِسْلَابِهَا
وَلَمَّا أَبَى اللهُ أَنْ تَمْلِكُوا ··· نَهَضْنَا سِرَاعاً وَقُمْنَا بِهَا
وَكَانَتْ تُزَلْزِلُ في العَالَمِينَ ··· فَشُدَّتْ إِلَيْنَا بِأَطْنَابِهَا
وَأُقْسِمُ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ ··· بِأَنَّا لَهَا خَيْرُ أَرْبَابِهَا

وكثيراً ما يردّد هذه المعاني في معرض فخره بالعباسيّين ، أو أثناء محاجّته للطالبينّ ، أو تعرّضه للقرامطة ، كما في معرض إشادته بالمتوكّل أبي الفضل ، فيقول :

وَنَحْنَ رَفَعْنَا سَيْفَ مَرْوَانَ عَنْكُمُ ··· فَهَلْ لَكُمْ يَا آلَ أَحْمَدَ في الشُّكْرِ
أَبُو الفَضْلِ أَوْلَى النَّاسِ بِالفَضْلِ كُلِّهِمْ ··· تَعَالَوْا نُحَاكِمْكُم إِلىٰ البَيْتِ وَالحَجَرِ

وتدفعه غيرته على العباسيّين وملكهم ، إلى التوجُّه بالتكاتف ، والوقوف بالمرصاد للطامعين ، محذِّراً من الغُواة والحاسدين ، يقول :

---

(١) انظر الديوان لابن المعتز .

يَا آلَ عَبَّاسٍ لَهَا مِنْ عَثْرَةٍ　لَا تَرْكِنَنَّ إِلَىٰ الغُوَاةِ الحُسَّدِ
إِيَّاكُمْ مِنْ بَعْدِهَا ، إِيَّاكُمْ　كُونُوا لَهَا كَأَرَاقِمَ فِي مَرْصَدِ[٢]
خُذُوا نَصَائِحَ حَازِمٍ مُتَعَصِّبٍ　بِالشَّيْبِ مُجْتَمِعِ النُّهَى مَتَأَسِّدِ

وأمّا الطامعون من الطالبّيين فينصحهم بالإستسلام لإرادة الله الذي أبى لهم أن يملكوا ، ويدعوهم إلى المودّة والإلفة ، ويحذّرهم من الحرب وعواقبها الوخيمة ويصل أحياناً بتحذيرهم إلى درجة التهديد والوعيد ، فإرادة بني العبّاس صُلبة ، وقلوبهم جريئة ، وسيوفهم أبداً دامية ، يقول :

أَبَى اللهُ إِلَّا مَا تَرَوْنَ فَمَالَكُمْ　عِتَابٌ عَلَى الأَقْدَارِ يَا آلَ طَالِبِ
عَطِيَّةُ مُلْكٍ قَدْ جَنَاهَا بِفَضْلِهِ　وَقَدَّرَهَا رَبٌّ جَزِيلُ المَوَاهِبِ
وَلَيْسَ يُرِيدُ النَّاسُ أَنْ تَمْلِكُوهُمُ　فَلَا تَثِبُوا فِيهَا وُثُوبَ الجَنَادِبِ
وَإِيَّاكُمْ ، إِيَّاكُمْ ، وَحَذَارِ مِنْ　ضَرَاغِمَةٍ فِي الغَابِ حُمْرِ المَخَالِبِ
أَلَا إِنَّهَا الحَرْبُ الَّتِي قَدْ عَلِمْتُمُ　وَجَرَّبْتُمُ ، وَالعِلْمُ بَعْدَ التَّجَارِبِ

ويظلُّ ابن المعتزّ حريصاً على طيب العلاقة مع الطالبّيين ، بعكس ما أشيع عنه من كرههم وعدم مودّتهم ، فما هي إلّا تخّرصات ردّدها المشكّكون والشانئون فها هو يدافع عن نفسه راداً التهمة على المرجفين فعليٌ من لحمه ودمه ، فهل يأكلُ الأنسانُ لحمَهُ :

أَآكُلُ لَحْمِي وَأَحْسُو دَمِي　فَيَا قَوْمِ لِلْعَجَبِ الأَعْجَبِ
عَلِيٌّ يَظُنُّونَ بِي بُغْضَهُ　فَهَلَّا سِوَى الكُفْرِ ظَنُّوهُ بِي
إِذاً لَا سَقَتْنِي غَداً كَفُّهُ　مِنَ الحَوْضِ وَالمَشْرَبِ الأَعْذَبِ

ولنستمع بعد ذلك إلى هذه الدعوة المخلصة ، التي تورثه الحزن والهم والأسى إنْ لَمْ يستجيبوا لها :

---
(١) الديوان ١٥٩ .

بَني عَمِّنَا عُودُوا ، نَعُدْلَكُمْ فَإِنَّا إلىٰ الحُسْنَى سِرَاعُ التَّعَطُّفِ
وَإِلاَّ فَإِنِّي لاَ أَزَالُ عَلَيْكُمُ مُحَالِفُ أَحْزَانٍ كَبِيرُ التَّلَهُّفِ

ويبقى الدفاع عن حقِّ بني العبّاس في الملك يتلامح بين عينيه ، فإنّه مصير محتوم أن يكونوا أو لا يكونون ويظلُّ الطالبيُّون غرضه من القول في التحذير من بطش العباسيّين الذين لا يهابون أو يخشون الردى ، فسيوفهم دامية على المدى ، فيقول :

دَعُوا آلَ عَبَّاسٍ وَحَقَّ أَبِيهِمُ وَإِيَّاكُمُ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُمُ هُمُ
مُلُوكٌ إِذَا خَاضُوا الوَغَى فَسُيُوفُهُمْ مَقَابِضُهَا مِسْكٌ وَسَائِرُهَا دَمُ

أمَّا القرامطةُ، فيهاجمهم بقسوة هجوماً شديداً، ويملأُ شعره الموجَّه إليهم تهديداً ووعيداً ، ويزري بفعالهم وأهوالهم الَّتي ارتكبوها ، ويعيب عليهم معتقداتهم التي يتمسّكون بها ، ويَصِمُهم بالإلحاد والكفر والزندقة ، مدافعاً بذلك عن الحكم العباسيّ ، ومسوِّغاً ما قام به من قمعهم وضربهم بشدَّة . فيقول في إحدى مدائحه للمكتفي واصفاً فظائع القرامطة :

فَلَمَّا أَنْ طَغَى وَبَغَى وَأَمْسَى لَهُ في الأَرْضِ حَيْثُ سَرَى اغْتِصَابُ
وَعَاثَ وَقَتَّلَ الوِلْدانَ قَتْلاً ذَرِيعاً لاَ يُحِيطُ بِهِ حِسَابُ
وَلَمْ تَسْلَمْ عَلَى يَدِهِ عَجُوزٌ مِنَ الفِعْلِ الدَّنِيِّ ، وَلاَ كَعَابُ

ثم ينتقل في القصيدة نفسها إلى ذكر بطولات العبّاسيّين وفتكهم بالقرامطة وسفكهم لدمائهم التي تنسكب فوق الرمال :

وَلاَقَى القُرْمِطِيُّ بِهِمْ كُمَاةً كَأَنَّهُمُ إِذَا ثَبَتُوا ، الهِضَابُ
وَإِنْ طُلِبُوا فَكُلُّ فَتًى مَشِيحٌ قَطَامِيٌّ تَطِيرُ بِهِ عُقَابُ
وَأَمْسَتْ مِنْ سُيُوفِهُمُ دِمَا الـ ـقَرَامِطُ في الرِّمَالِ لَهَا انْسِكَابُ

ويقول من قصيدة أخرى معدِّداً آثامَ القرامطة ، وشرائعهم الفاسدة ، وإهلاكهم الحرثَ والنسلَ ، فيقول مُصوراً نهايتهم المحتومة بالزوال :

وَقُــرْ مُــطِيُّــونَ ذَوُو الآثَــامِ ... طَغَــوْا فَقَــدْ بَــادوا مَــعَ الأَيَّــامِ
وَشَــرَّعُــوا شَرَائِــعَ الــفَسَــادِ ... وَأُهْلِكُــوا إِهْــلَاكَ قَــوْمِ عَــادِ
كَــانُوا يَقُــولُــونَ : إِذَا قُتِلْنَــا ... صَــبْراً عَــلَى مِلَّتِنَــا ، رَجَعْنَــا
مِنْ بَعْــدِ أَيَّــامٍ إِلىٰ أَهْلِينَــا ... فَقَبَّحَ الــرَّحْمَنُ هَــذَا الــدِّنيــا[1]

ويكثر ابنُ المعتزّ في شعره من الفخر بجود قومه وشجاعتهم ، ومضائهم في الحروب وفروسيَّتهم ، وهو يحاكي في ذلك القدماء في حماستهم ، فهو بصورة عامة فخرٌ مصطنع متكلَّفٌ في معظمه ، وكما يفخر بنفسه ، يفخر طويلاً بأسرته وبجَدِّه العبَّاس عمِّ الرسول ﷺ وبلائه في موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم ، من قصيدة له يقول :

إِنَّــا لَنَنْتَــابُ العُــدَاةَ وَإِنْ نَــأَوْا ... وَنَهُزُّ أَحْشَــاءَ البِــلَادِ جُمُــوعَــا
وَنَقُــولُ فَــوْقَ أَسِــرَّةٍ وَمَنَــابِــرٍ ... عَجَبَاً مِنَ القَوْلِ المُصيبِ بَديعَا
قَــوْمٌ إِذَا غَضِبُوا عَــلَى أَعْدَائِهِمْ ... جَــرُّوا الحَــديــدَ أَزِجَّــةً وَدُرُوعَــا
وَكَــأَنَّ أَيْــدِينَــا تُنَفِّــرُ عَنْهُــمُ ... طَــيْراً عَلَى الأَبْــدَانِ كُنَّ وقُوعَــا

٢ ـ شعر الغزل :

وإذا انتقلنا للحديث عن غزل ابن المعتزّ ، لم نخرج من دائرة شعرِ اللهو ، ذلك أن أشعارَ الحبِّ التي تلقانا في ديوانه هي مقطوعات كثيرةٌ متنوِّعة ، تشتمل على معاني الغزل الحضريّ ، وأخبار اللقاءات الليليّة ، وما يسبقها من رسائل العشق ، وأقوال العاذلين والوشاة ، وما قد يتخلَّلها من تعهُّرٍ وإفحاش في بعض

---

(١) يلاحظ تعدد القافية في هذه القصيدة ، انظر الديوان .
(٢) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٤٠ .

الأحيان «ولكنَّها لا تنبىء عن حبٍّ حقيقيّ كان يكتوي بناره ، فما هي إلّا مقطوعات وقد تكون استهلالاتٍ لقصائد ، لا تصدر عن وجدٍ شديد ، وإنما تصدر غالبا عن ودٍّ ، وكأنّ مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحبُّ أن يتعمَّقه ، ولذلك كنّا نفقد عنده الإلحاح في الطلب والأمل والشوق المبرِّح والتضرُّع الحارّ . وكلّ ما نجد إنَّما هو حبُّ الشباب المترف الذي لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هي أبيات ينظمها فيمن كُنَّ يغشين مجالسه من الجواري أمثال نشر وشِرَّة على سبيل الدعابة»[1] من مثل قوله :

وَابَــلاَئِي مِـنْ مُحْضَرٍ وَمغـيبِ   وَحبيبٍ مِنِّي بعَيـدٍ قَـريبِ
لَمْ تَـرِدْ مَـاءَ وَجْهِـهِ العَـيْنُ إلَّا   شَـرِقَتْ قَبْـلَ رِيِّهَـا بِـرَقيبِ[2]

أو قوله :

زَاحَمَ كُمِّـي كُمَّـهَ فَـالْتَـوَيَـا   وَافَقَ قَلْبي قَلْبُـهُ فَـاسْتَـوَيَـا
وَطَـالَمَا ذَاقَـا الهَـوَى فَـاكْتَـوَيَـا   يَـا قُرَّةَ العَـيْنِ وَيَا هَمِّي وَيَـا[3]

ـ وكثيراً ما يشكو ابن المعتز عناءَ الحبِّ وآلامَ الفراق ، ولكنَّنا لا نحسُّ بأنَّه عناءٌ حقيقيّ ، يتعذَّب صاحبه ويشقى ، ولا نشعر بأنَّها آلامٌ مبرحة تصدر عن عواطف حقيقيّة تضني صاحبَها ، وإنَّما أرادَ أن يشكو كما يفعل العشَّاق ، فجاءت شكواه باردة ، تتخلَّلُها الدعابة وروح المزاح ، كما في قوله :

تَقُــولُ العَـاذِلَاتُ : تَعَـزَّ عَنْهَا   وَاطْفِ لَهِـيبَ قَلْبِـكَ بِـالـسُلُوِّ
وَكَيْفَ وَقُبْلَةٌ مِـنْـهُ اخْتِـلاسَـاً   أَلَــذُّ مِنَ الشَّمَـاتَـةِ بِـالعَـدُوِّ

والشاعر لا يبالي بالشامتين ، لأنَّهم سيلاقون نصيبهم من النوائب

---

(١) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف .
(٢) ديوان ابن المعتز ٥٢ .
(٣) ضيف العصر العباسي الثاني ٣٤٢ .

والخطوب ، إنْ عاجلاً ، وإن آجلاً ، فهو يقول :

قُـلْ لـلِشَّـامِتـيـنَ بِـهِ رُوَيْـداً أَمَـامَـكُمُ الـنَّـوائِبُ والخُـطُوبُ
هُوَ الدَّهْرُ الَّذي لاَبُدَّ مِنْ أَنْ يَـكُـونَ إِلَيْـكُـمُ مِـنْـهُ ذَنُـوبُ

ثم يذكر لنا الشاعر ما حلّ به من تعنُّتِ المحبِّ القاسي ، فيقول :

أَلاَ تَرَى يَا صَاحِ مَا حَلَّ بي مِنْ ظَـالِمٍ في حُكْمِـهِ مُعْتَـدِي ؟
يَقُـولُ لِلْقَلْبِ ، إِذَا مَـا خَـلا يَـا قَلْبُ قُمْ وَاطْلُبْ وَلاَ تَقْعُدِ
كَمْ مِنْ فُسُـوقٍ في كَـلاَمٍ لَـهُ وَغَـمْـزَةٍ مَـكْـتُـومَـةٍ بَـالـيَـدِ
وَلَحْظَةٍ أَسْـرَعُ مِـنْ تُهْـمَـةٍ تُخِيبُ مَنْ يَسْـأَلْ ، أَوْ يَبْتَدِي
يَا مَوْسِمَ العُشَّـاقِ قُلْ لي مَتَى تَخْلُو مِنَ الـغَـائِـرِ وَالمُـنْـجِـدِ
لَيْتَـكَ قَـدْ أَحْسَنْتَ لي مَـرَّةً وَاحِدَةً ، أَوْ حُلْتَ عَنْ مَوْعَدِي[1]

وكما في قوله :

أَلْبَسْتَني سُقْمـاً أَقَامَ ، وَسَـارَتْ وَاسْتَجَـابَتْ قَلْبي إِلَيْهَا ، فَـطَارَا
لي حَبِيـبٌ مُكَـذِّبٌ بِـالأَمَـاني جَعَـلَ الدَّهْـرَ مَـوْعِـداً وَانْتِـظَارَا
عَـيَّرُوني بِمَـا يُـضَـنُّ بِـهِ عَـ ـنِّي ، فَيَـالَيْتَـهُ يُحَقِّقُ عَـارَا
قَدْ شَغَلْتِ الهَوَى بِطُولِ التَّجَنِّي كُـلَّ يَـوْمٍ يَؤُمُّ قَلْبي اعْتِـذَارَا[2]

ومن طريف قوله في الشكوى وطلب الصفح عن دموعه المسفوحة :

بِـاللَّهِ ! يَـاذَا المُقْلَةِ السَّـاهِـرَهْ إِغْفِـرْ ذُنُـوبَ الـدَّمْعَـةِ القَـاطِـرَهْ
تِـهْ كَيْفَـمَا شِئْتَ عَلَيْنَـا فَقَـدْ تَاهَتْ بِكَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَهْ[3]

ويشكو الشاعر هواه لِشرٍ بعتاب حارٍّ سخين لنفسه في مطلع إحدى

---

(١) ديوان ابن المعتز ١٦٥ .
(٢) انظر ديوان ابن المعتز ٢٠٤ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٢١٤ .

قصائده، فيقول :

أَبَى آبي الهَـوَى أَنْ لا تُـفيـقَـا وَحَمَّلَكَ الهَـوَى مَـالَنْ تُـطيقَـا
بِـرَغْمِ البَيْنِ ، لاَ صَـارَمْتَ شُرّاً وَلاَ زَالَتْ ، وَإِنْ بَعُدَتْ ، صَديقاً[1]
كَـذَاكَ بَكَيْتُ مِنْ طَـرَبٍ إِلَيْهَـا وَبِتُّ أَشيمُ بِـالنَّجَفِ البُـرُوقَـا
وَمَـا أَدْري ، إِذَا مَا جُنَّ لَيْـلٌ أَأَشَـوْقاً في فُؤَادي أَمْ حَـريقاً ؟
أَلاَ يَـا مُـقْـلَتَيَّ دَهَمْـتُمَانـي بِلَحْظِكُمَا ، فَـذُوقا ، ثُمَّ ذُوقَـا[2]

ويتأوّه الشاعر من بخل الدهر وحرمانه من رؤية من يحبُّ ويقسم رغم ذلك على عدم سُلُوِّه ، وإن سلا الناس كلُّهم ، ثم يتحدَّث عن حبِّه وسقمه ، وما فعلته به عيون الغانيات ، فيقول :

بِخُلاً بِهَذَا الدَّهْرِ لَسْتُ أَرَاكِ ! وَإِذَا سَلاَ أَحَدٌ ، فَلَسْتُ كَذَاكِ
غَادَرْتِ ذَا سقَم بِحُبِّكِ مُـدْنَفاً إِيَّـاكِ مِـنْ دَمٍ مِثْـلِهِ إِيَّـاكِ
سَحَـرَتْ عُيُونُ الغَـانِيَاتِ وَقَتَّلَتْ لاَ مِثْـلَ مَا فَعَلَتْ بِـهِ عَيْنَـاكِ
لَمْ تُقْلعَا حَتَّى تَخَضَّبَ مِنْ دَمي سَهْمَـاهُمَا ، وَحُسِبْتُ مِنْ قَتْـلاَكِ
بَـاتَتْ يُغَنِّيها الحِـلِيُّ ، وَأَصْبَحَتْ كَالشَّمْسِ تَنظِمُ جَوْهَراً بِـأَرَاكِ[3]

والشاعر يشكو أسقام النوى قبل وقوعها ، فكيف إذا وقعت ، عندها يعدِّد لنا الشاعر أوصابه ويشكو لنا همّه وبلواه ، حتى يعلِّل نفسه بآمال خادعة ، ويصبِّر قلبه على احتمال حدثان الدَّهر :

أَيَا مَعْقَلي لِلنَّائِبَاتِ ، وَإِنْ قَسَتْ عَلَيَّ خُطُوبُ الدَّهْرِ ، وَهِي تَلينُ
خُلِقْتُ لأَسْقَامِ النَّوَى قَبْل كَوْنِهَا فَكَيْفَ تَـرَاني إِنْ نَـأَيْتُ أَكُـونُ

(١) شرُّ : إحدى الجوارى التي أحبهن ابن المعتز وقد تكرر اسمها في كثير من قصائده .
(٢) ديوان ابن المعتز ٣٣٩ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

أَكُونُ كَذِي دَاءٍ ، يُعَدُّ دَوَاؤُهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ زَفْرَةٌ وَأَنِينُ
أَلَا رُبَّ حَالٍ قد تَحَوَّلَ بُؤْسُهَا وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا نَبْوَةٌ وَسُكُونُ
وَقَدْ يَعْقُبُ المَكْرُوهُ يَوماً مَحَبَّةٌ وَكُلُّ شَدِيدٍ مَرَّةً سَيَهُونُ
وَ يَا قَلْبُ صَبْراً عِنْدَ كُلِّ مُلِمَّةٍ وَخَلِّ عِنَانَ الدَّهْرِ ، فَهْوَحَرُونُ[1]

ويشكو الشاعر سرعة محبوبة للقلى والجفاء ، بعد أيّام الوصال واللقاء ، فلا بأس عليه لأنَّه سيجترُّ الذكرى ويعيش على اللمسات التي ما زالت تعمر خياله ، وسيظلُّ حبُّه صحيحاً مُعا فىً وإن كان حبُّ الحبيب في سَقَمٍ دائم :

يَا جَافِياً مُسْتَعْجِلاً بِالقِلَى لَمْ يَبْقَ لِي مِن بَعْدِهِ بَاقِيَهْ
قَدْ كَانَ لِي ، فِيمَا مَضَى ، وَاصِلاً ، فَقَدْ دَهَتْنِي عِنْدَهُ دَاهِيَهْ
وَطَالَمَا اسْتَسْقَيْتُ مِنْ رِيقِهِ ، وَكَمْ لَهُ مِنْ زَوْرَةٍ خَافِيَهْ
وَغَمْزَةٍ مِنْ كَفِّهِ كُلَّمَا صَافَحْتُهُ نَافِعَةٍ شَافِيَهْ
حُبُّكَ لِي فِي سَقَمٍ دَائِمٍ لَكِنَّ حُبِّي لَكَ فِي عَافِيَهْ[2]

فإذا كان الحبيب مستعجلاً بالقلى ، والشاعر يشكو عدم الوفاء والهجر ، فلِمَ لا يجرِّبُ غفلة الرقباء ويغزوه لعلَّه ينعم بالوصال ، يقول :

وَزَائِرٍ زَارَنِي عَلَى عَجَلٍ مُنَقَّبِ الوَجْنَتَيْنِ بِالخَجَلِ
قَدْ كَانَ يَسْتَكْثِرُ الكِتَابَ لَنَا فَجَادَ بِالاعْتِنَاقِ وَ القُبَلِ
يَقُودُهُ الشَّوْقُ خَائِفاً وَجِلاً تَحْتَ الدُّجَى ، وَالعُيُونُ فِي شَغَلِ
فَنِلْتُ مِنْهُ الَّذِي أُؤَمِّلُهُ بَلِ الَّذِي كَانَ دُونَهُ أَمَلِي[3]

أما إذا صدَّ الشاعر نفسه عن حِبِّه فإنما يصدُّ تقيَّةً وخوفاً عليه من عيون

(١) ديوان ابن المعتز ٤٣٠ .
(٢) ديوان ابن المعتز ٤٦٢ .
(٣) انظر ديوان ابن المعتز ٣٦٨ .

العذّال والحاسدين :

صَدَدْتُ ، وَإِنْ صَدَدْتُ بِرُغْمِ أَنْفي ... فَكَمْ في الصَدِّ مِنْ نَظَرٍ إِلَيْكَا
أَرَاكَ بِعَيْنِ قَلْبٍ لَا تَرَاهَا ... عُيُونُ النَّاسِ مِنْ حَذَرٍ عَلَيكَا
فَأَنْتَ الحُسْنُ ، لَاصِفَةٌ بِحُسْنٍ ... وَأَنْتَ الخَمْرُ ، لَا مَا في يَدَيْكَا[1]

ويقول في المعنى نفسه :

أُرُدُّ الطَّرْفَ مِنْ حَذَرِي عَلَيْهِ ... وَأَمْنَحُهُ التَّجَنُّبَ وَالصُّدُودَا
وَأَرْصُدُ غَفْلَةَ الرُّقَبَاءِ عَنْهُ ... لِتَسْرِقَ مُقْلَتِي نَظَراً جَدِيدَا[2]

ولكن ما حيله الشاعر إذا كان حِبُّهُ جافيا ، وعاذلته لا ينفع معها النهى ، فما تعلبه إلّا أن يلهو بفاتنة اللحظ وغِرِّيدة الصوت على أنغام الناي والعود :

أَمْكَنْتُ عَاذِلَتي مِنْ صَمْتِ أَبَّاءِ ... مَا زَادَهُ النُّهَى شَيئاً غَيْرَ إِغْرَاءِ
أَيْنَ التَّوَرُّعُ مِنْ قَلْبٍ يَهِيمُ إِلى ... حَانَاتِ لَهْوٍ غَدَا بِالعُودِ وَالنَّاءِ
وَصَوْتِ فَتَّانَةِ التَّغْرِيدِ ، نَاظِرَةٍ ... بِعَينِ ظَبْيٍ تُرِيدُ النَّوْمَ ، حَوْرَاءِ
جَرَّتْ ذُيُولَ الثِّيَابِ البِيضِ حينَ مَشَتْ ... كَالشَّمْسِ مُسْبِلَةً أَذْيَالَ لَألَاءِ[3]

وَمَنْ مُعِينٌ للشاعر على السهر والضنى من محبٍّ غافلٍ عَن أَوْصَابِهِ وَبَلْوَاه :

مَنْ مُعِينِي عَلَى السَّهَرْ ... وَعَلى الغَمِّ وَ الفِكَرْ ؟
وَبَلَائِي مِنْ شَادِنٍ ... كَبَّرَ الحُبَّ إِذْ كَبِرْ !
غَافِلاً عَنْ بَلِيَّتي ... قَاتِلاً لي ، وَمَا شَعَرْ[4] !

إنّها القسوة التي ما بعدها قسوة إذا أقسم المحبُّ على الهجر ، لذا يتمنّى

(١) ديوان ابن المعتز ٣٥٠ .
(٢) ديوان ابن المعتز ١٦١ .
(٣) ديوان ابن المعتز ١٣ .
(٤) ديوان ابن المعتز ٢٢٦ .

الشاعر من ربِّه أن يدفع هذا المحبَّ القاسي إلى الحنث بقسمه :

أَيَا فِتْنَةً مَا كُنْتُ مُنْتَظِراً لَهَا أَمَا لِقَتِيلِ الهَجْرِ بِالوَصْلِ مِنْ بَعْثِ
طَلاَئِعُ شَوْقِي لاَ يَقِرُّ قَرَارُهَا وَمَوْلاَيَ قَاسٍ لاَ يَرِقُّ وَلاَ يَرْثِي
هَلِكْتُ لأَنْ دَامَتْ عَلَيَّ يَمِينُهُ فَيَارَبِّ أَدْرِكْنِي وَوَفِّقْهُ لِلْحَنْثِ(١)

الغدر والقلى مذهب ينتهجه المحبُّ القاسي ، قريب من الهجر بعيد عن العتبى ، لكنَّ القلبَ شفيعُه ، فلتنتهبِ الشاعرَ عواملُ اليأس والأمل ، ولتداهمْهُ الأسقامُ التي تتأبَّى على الطبِّ والدواء ، حتى يملَّه الصبرُ ويقلوهُ القلى ، فيقول :

وَمُسْتَبْصِرٌ فِي الغَدْرِ مُسْتَعْجِلُ القِلَى بَعِيدٌ مِنَ العُتْبَى قَرِيبٌ مِنَ الهَجْرِ
لَهُ شَافِعٌ فِي القَلْبِ مِنْ كُلِّ زَلَّةٍ فَلَيْسَ بِمُحْتَاجِ الذُّنُوبِ إِلى العُذْرِ
تُجَاذِبُنِي الأَطْرَافُ بِالوَصْلِ وَالقِلَى فَتَخْتَصِمُ الآمَالُ وَاليَأْسُ فِي الصَّدْرِ
بِنَفْسِي سَقَامٌ لاَيُدَاوَى مَرِيضُهُ خَفِيٌّ عَلَى العُوَّادِ ، بَاقٍ عَلَى الدَّهْرِ(٢)
هَوىً بَاطِنٌ فَوْقَ الهَوَى لجَّ دَاؤُهُ وَأَعْيَا عَلَى العُذَّالِ فِي السِرِّ وَالجَهْرِ
بُلِيتُ بِجَبَّارٍ يُجَلُّ عَنِ المُنَى عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنَ التِّيهِ وَالكِبْرِ
قَدِيرٌ عَلَى مَا شَاءَ مِنِّي مُسَلَّطٌ جَرِيٌّ عَلَى ظُلْمِي ، أَمِيرٌ عَلَى أَمْرِي(٣)
أَلِفْتُ الهَوَى حَتَّى قَلَتْ نَفْسِيَ القِلَى وَطَالَ الضَّنَى حَتَّى صَبَرْتُ عَلَى الصَّبْرِ(٤)

الحبيب قاتل لا يبالي ، يُصمي قلب الشاعر بسهام حبِّه ، ولكن دلَّ الحبيب وقامتَه الممشوقةَ تجعلُ الشاعرَ في ريبٍ من أمره ، فيقول :

يَا قَاتِلاً لاَ يُبَالِي بِالَّذِي صَنَعَا رَمَيْتَ قَلْبِي بِسَهْمِ الحُبِّ ، فَانْصَدَعَا

(١) ديوان ابن المعتز ١٢٤ .
(٢) العواد : جمع عائد وهو زائر المريض .
(٣) جري : مخففه من جريء .
(٤) ديوان ابن المعتز ٢٣٢ .

لَوْلاَ الْقَضِيبُ الَّذِي يَهْتَزُّ فَوْقَ نَقاً شَكَكْتُ فِيكَ ، وَفِي الْبَدْرِ الَّذِي طَلَعَا[1]

لقد نصح أهلُ الهوى الشاعرَ بالصبر ، وأنّى له أن يتصبّر ، وهو الذي يرنو إلى الحبِّ والهوى لأنَّهما نعيمُ الحياة وأنسها ، وما شفاؤه إلّا أن يأنسَ برؤية عيون من يحبُّ ، وأن يلقاه زائراً أو مسلِّماً ، يقول :

وَقَالُوا : تَصَبَّرْ ! قُلْتُ : كَيْفَ ؟ وَإِنَّمَا أُرِيدُ الهَوَى حَتَّى أَلَذَّ ، وَأَنْعَمَا
وَيَأْخُذُ لَحْظَ العَيْنِ مِمَّنْ أُحِبُّهُ شِفَاءً ، وَأَلْقَى زَائِراً وَمُسَلِّمَا[2]

وإنّه ليطالبهم أن يسألوا الله بُرْأه ، بعد أن تمكّن منه السقم ، وأن يردُّوا دموع الشوق بين أجفانه لعلّه يفيق ، أو يعيدوا لحمه الذي نصل عن عظمه ، فمن جرَّبَ ليس كمن سمع :

أَلاَ تَسْأَلُونَ اللَّهَ ، بُرْءَ مُتَيَّمٍ تَمَكَّنَ مِنْهُ السُّقْمُ في اللَّحْمِ وَالدَّمِ
وَرُدُّوا دُمُوعَ الشَّوْقِ بَيْنَ جُفُونِهِ يُفِقْ ، أَوْ فَرُدُّوا لَحْمَهُ فَوْقَ أَعْظُمِ
وَقَدْ قَيَّدُوا غَيْرَ الفَقِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ يَلْقَ مَا لاَقَى مِنَ النَّاسِ يَعْلَمِ[3]

وأمّا بخلُ المحبِّ وضنُّه بالمواعد ، فأكثرُ ما يرفض المحبّين ويؤذيهم ، فيتطاوَل ليلُهم حتى لا انقضاءَ له ، يتقلّبون على هجير الوجد والضنى ، فيقول الشاعر :

مَازِلْتُ أَطْمَعُ حَتَّى قَدْ تَبَيَّنَ لي جِدُّ مِنَ الخُلْفِ في مِيعَادِ مِزَّاحِ
لَيْلِي ! كَمَا شِئْتَ ، لَيْلٌ لا انْقِضَاءَ لَهُ بَخِلْتَ حَتَّى عَلَى لَيْلِي بِإِصْبَاحِ[4]

وعلى الرغم من تأكّد المحبِّ من خُلْف حبيبه مواعيدَه ، يظلُّ متعلِّقاً بأملٍ

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز ٣٠٩ .
(٢) المرجع السابق ٣٩٦ .
(٣) المرجع السابق ٣٩٥ .
(٤) المرجع السابق ١٤٠ .

واهٍ يربطه بهذا المحبوب ويحاول أن يجد له المعاذير ، وينقِّبُ عن الأسباب المخففة التي دعته إلى ذلك فيقول :

يا شُرُّ ! هَلْ لِلْوَعْدِ مِنْ نُجْحٍ ؟ أَمْ لِلذُّنُوبِ لَدَيْكِ مِنْ صَفْحِ
لَيْسَتْ لَهَا كَبِدٌ تَرِقُّ بِهِ شَهِدَتْ بِذَاكَ لَطَافَةُ الكَشْحِ
هَامَتْ رَكَائِبُنَا إِلَيْكِ ، فَمَا يَخْبِطْنَ أَهْلَ النَّارِ وَالنَّبْحِ
فَكَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ لَازِمَةٌ يَفْحَصْنَ لَيْلَتَهُنَّ عَنْ صُبْحِ(١)

ويساءل الشاعر نفسه عن هذه البلوى التي ابتلي بها ، بحبيب عقيدتُه مطلُ المواعيد وخُلفها ، فيقول :

كَيْفَ ابْتُلِيتَ بِمَطْلِهِ وَبِوَعْدِهِ ؟ يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الشَّقِيُّ الخَائِبُ
عَسَاكَ لَا تَشْغَلْ مُنَاكَ بِوَعْدِ مَنْ مَنْ وَعْدُهُ خَلَقَ السَّرَابِ الكَاذِبُ(٢)

لكن ماذا يفعل الشاعر بقلبه إذا علق بحبٍّ من هو هاجره ؟ وذكرُ من ينساه ، ونسي من يذكره ؟ يختلق له المعاذير ، ولا معاذير له ، ويضع الشاعر نفسه في زحمة من التساؤلات الصعبة ، فيقول :

أَبَى القَلْبُ إِلَّا حُبَّ مَنْ هُوَ هَاجِرُ وَمَنْ هُوَ يَنْسَانِي ، وَمَنْ هُوَ ذَاكِرُ(٣)
وَمَنْ هُوَ عَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ مُعْرِضٌ وَمَن لَا يُوَا فِينِي ، وَمَنْ أَنَا عَاذِرُ
فَكَيْفَ بِمَعْشُوقٍ يُحِبُّ وَيَشْتَهِي ؟ أَأَكْتُمُهُ وَجْدِي بِهِ ، أَمْ أُجَاهِرُ ؟
وَكَيْفَ يَرَانِي ، إِنْ بَدَا لِي مَنْعُهُ ؟ أَأَتْرُكُهُ زُهْداً بِهِ ، أَمْ أُكَابِرُ

وكعادة كلِّ المحبِّين يرفضون العذل فيمن يحبُّون ، ويصرّون على حبِّهم رغم قسوة المحبوب ومطله وخداعه ، معلّلين أنفسهم بآمال الوصال ، يفتِّشون له عن

(١) ديوان ابن المعتز ١٤٠ .
(٢) المرجع السابق ٥٦ .
(٣) هو الأخير في البيت تعود على القلب .

أعذار ، كقوله :

أَصْبَحَ سِرِّي في الحُبِّ قَدْ شَاعَا ... وَصِرْتُ عَبْداً في الحُبِّ مطْوَاعَا
لاَ تَعْذِلُوني ، فَقَدْ بَرِمْتُ بِكُمْ ... وَاجْتَنِبُوا نُصْحَكُمْ ، فَقَدْ ضَاعَا
أَفْنَى رَجَائِي بِخُلْفِهِ رَشَأٌ ... يُدِيُر لَحْظاً بِالوَعْدِ خداعَا
مُجَدِّدٌ لِلْوِصَالِ مُخْلِفُهُ ... فَدَيْتُهُ مُعْطِياً وَمَنَّاعَا(1)

أو كقوله :

لِي حَبِيبٌ يَكِذُّنِي بِمِطَالِهِ ... غَشَّ دِينِي بِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ
قَمَرٌ يَلْبَسُ الظَّلاَمَ ضِيَاءً ... عَجِبَ النَّقْصُ في الوَرَى مِنْ كَمَالِهِ
نَازِحُ الوَصْلِ لَيْسَ يَرْحَمُ آمَا ... لِي ، مِنْ طُولِ هَجْرِهِ وَاعْتِلَالِهِ
وَجَّهْتُ نَفْسِيَ الرَّجَاءَ إِلَيْهِ ... فَأَقَامَتْ عَلَى انْتِظَارِ نَوَالِهِ(2)

ولعل الغيرةُ تلهبُ مشاعرَ المحب وتلسعُه بنارها ، فتحركُ لسانَه بما يعبِّر عن دخيلة نفسه ، ولابدّ أن نعترفَ لابن المعتزِّ رغم كل ما قيل وما يقال عن غزله ، برقَّة ألفاظه ودقَّةٍ تعبيرية متناهية في أشعاره تتمثَّل باللفظ الأنيق السلس ، والموسيقى ذات الأجراس اللطيفة ، والمعاني الظريفة ذات المبالغة المقبولة ، كما في قوله :

أَغَارُ عَلَيْكِ مِنْ قَلْبي ، إذَا مَا ... رَآكِ ، وَقَدْ نَأَيْتِ ، وَمَا أَرَاكِ
وَطَيْفي ، حينَ نِمْتِ فَبَاتَ لَيْلاً ... يَسِيرُ ، وَلَمْ أَسِرْ حَتَّى أَتَاكِ
وَغَيْثاً جَادَ رَبْعاً مِثْلَكِ قَفْراً ... أَلَيْسَ كَمَا بَكَيْتُكِ قَدْ بَكَاكِ
ومِنْ عَيْنِ الرَّسُولِ ، وَمِنْ كِتَابٍ ... إِذَا مَا فُضَّ ، مَسَّتْهُ يَدَاكِ

---

(١) المرجع السابق ٢٠٥ .
(٢) المرجع السابق ٣٦٩ .

وَمِـنْ طَرَفِ القَضيبِ مِنَ الأَرَاكِ إذا أَعْـطَيْتِـهِ «يَـاسُـرُّ» فَـاكِ(١)

ولابن المعتزّ في الغزل مغامراتُ حبٍّ ليلية قلّد فيها عمرَ بن أبي ربيعة ، ولا أظنُّه بحاجةٍ إلى مثل هذه المغامرات نظراً لوضعه كملك وابن ملك ، يملك القصور وَالقيان والجواري إنّما هي نفثات شعريّة أحب ألا يكونَ مقصراً في مجالها ، من مثل قوله :

وَغِزْلَانِ إِنْسٍ قَدْ طَرَقْتُ بِسُدْفَةٍ فَلَمْ تَكْتَحِـلْ أَجْفَـانُهُمْ بِـرُقَـادِ(٢)
يَقُلْنَ لَنَا : يَا لَيْتَ ذَا اللَّيْلَ سَرْمَداً عَلَيْنَـا ، وَلاَ نَخْشى عُيُـونَ أَعَـادِ
فُؤَادِيَ مَشْغُوفٌ ، وَسَيْفِيَ صَارِمٌ فَهَـذَا لإِبْعَـادِي ، وَذَا لِسُعَـادِ(٣)

وكثيراً ما يستعمل ابن المعتزّ ألفاظ عمر بن ربيعة نفسها ، ويجاريه في أسلوبه ، كقوله :

وَبَيْضَاءَ تُعْطي العَيْنَ حُسْناً وَنَضْرَةً شَغَلْتُ بِهَا عَصْرَ الشَّبَابِ ، وَأَفْنَيْتُ
سَمَوْتُ لَهَا ، وَاللَّيْلُ قَدْ لاَحَ نَجْمُهُ فَلاَقَيْتُ بَدْراً في الدُّجَى ، حينَ لاَقَيْتُ
وَكُنْتُ امْرَأً مِنِّي التَّصَابِي الَّذي تَرَى فَقَدْ بَلَغَتْ مِنِّيَ النُّهى ، فَتَنَاهَيْتُ(٤)

ويحاول الشاعر أن يخطو أكثر فيحاكي ابن أبي ربيعة في استعمال الحوار ، وإشراك شخوص آخرين ، كالرسول ، والأتراب وغير ذلك ، كقوله :

هَـلْ تَـذْكُـرِينَ ؟ وَأَنْتِ ذَاكِـرَةٌ مَشْيَ الـرَّسُـولِ إِلَـيْكُـمُ سِرًّا
إِنْ يَـغْفَـلُوا يُسْـرِعْ لِحَـاجَتِـهِ وَإِذَا رَأَوْهُ أَحْـسَـنَ الـعُـذْرَا
فَـطِنٌ يُـؤَدِّي مَـا يُقَـالُ لَـهُ وَيَـزِيـدُ بَعْضَ حَـدِيثِنَا سِحْـرَا

---

(١) ديوان ابن المعتز صفحة ٣٥١ .
(٢) السدفة : الظلام .
(٣) ديوان ابن المعتز ١٦٢ .
(٤) المرجع السابق ٩٧ .

قَـالَـتْ لأتْـرَابٍ خَـلَوْنَ بِهَـا وَبَكَتْ ، فَبَلَّلَ دَمْعُهَـا النَّحْـرا :
مَـا بَالُـهُ قَـطَعَ الـوِصَـالَ ، وَلَمْ يَسْمَـحْ زِيَـارَةَ بَيْنِنَـا شَهْـرَا[1]
يَـا لَـيْتَـهُ فِي مَجْلِسٍ مَـعَـنَـا نَشْكُـو إِلَيْـهِ النَّـأْيَ والهَجْـرَا
حَـتَّى طَـرَقْتُ عَـلَى مُخَـاطَـرَةٍ أَطَـأُ الصَّـوَارِمَ والقَنَـا السُّمْرَا
يَـا لَيْلَةً مَـا كَـانَ أَقْصَـرُهَـا لاَزِلْتُ أَشْكُـرُ بَعْدَهَـا الـدَّهْـرا[2]

إذا كان هذا دأبه في مغامراته ، فإنه لم يحرم نفسه من مواعيد تُعطى ، وجلسات تُشتهى بين نديم وريحان وروح وقينة وحبيب ، يسرقها في غفلة من الزمن ، فيقول :

يَوْمُ سَعْدٍ قَدْ أَطْرَقَ الدَّهْرُ عَنْهُ خَاسِىءُ الطَّرْفِ لاَ تَرَاهُ الخُطُوبُ
فيهِ مَا تَشْتَهي : نَديمٌ ، وَرَيْحَانٌ ، وَرُوحٌ ، وَقَـيْـنَـةٌ ، وَحَـبِيـبُ
مُنْعِمٌ مُسْعِـدٌ يُؤاتِيـهِ في الـوَصْـ ـلِ ، رَقيبٌ عَلَى العُيُونِ رَقيبُ
وَرَسُولٌ يَقُولُ مَـا تَعجزُ الأَلْفَـا ظُ عَنْـهُ ، حُلْوُ الحَديثِ أَديبُ
وَلَنَـا مَـوْعِـدٌ ، إِذَا هَـدَأَ النُّـ ـوَّامُ لَيْلاً ، وَاللَّيْلُ مِنَّا قَريبُ[3]

ـ ومع كلِّ ما يصوِّر من مغامرات ولقاءات فإن حبه يظلُّ نظيفاً ، بعيداً عمّا حرَّم الله ، يردُّ بذلك على من يتَّهمونه من الشانئين والعذَّال ، فيقول :

وَلَمْ آتِ مَا قَدْ حَرَّمَ الله في الهَوَى وَلَمْ أَتْـرِكْ مِمَّـا عَفَـا الله بَـاقِيَـا
إِذَا مَا تَمَشَّتْ فِيَّ عَيْنُ خَـرِيَدةٍ فَلَيْسَتْ تَخَطَّاني إِلىٰ مَنْ وَرائِيـا
فَيا عَاذِلِي ! دَعْني وَشَأْني ، وَلاَ تَكُنْ شَجِ في الَّذي أَهْوَى ، وَدَعْني لِمَابِيَا[4]

---

(١) نصب زيارة على نزع الخافض .
(٢) ديوان ابن المعتز ٢٠٧ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٦٠ .
(٤) ديوان ابن المعتز ٤٦٩ .

ـ وأمَّا الوداعُ فله مراسم وطقوسٌ ، وحرارة ودموعٌ في شعر ابن المعتزّ ، إذْ لا يعقل أنْ تمرَّ مثل هذه الأوقات الحرجةُ الصعبة دون أن تتركَ مياسمَها على نَتاج الشاعر فيقول :

مَا أَنْسَ لاَ أَنْسَ ، إِذْ قَامَتْ تُوَدِّعُنَا   بِمُقْلَةٍ جَفْنُهَـا فِي دَمْعِهَا غَـرِقُ
كَـأَنَّهَا حِينَ تَبْدُو مِنْ مَجَاسِدِهَا   بَـدْرٌ تَمَـزَّقَ فِي أَرْكَـانِـهِ الغَسَقُ
تَفْـتَرُّ عَنْ مُقْلَةٍ حَمْـرَاءَ مُـوقَـدَةٍ   تَكَادُ لَوْلَا دُمُوعُ العَيْنِ تَحْتَرِقُ[1]

ويصف لنا في قصيدة أخرى بما يخلفه الوداع والفراق من حسرة وجزع في المهج ووكف من العيون لا سبيل إلى رقئه ، فيقول :

أَلَمْ تَعْلَمْ بِمَـا صَنَـعَ الفِـرَاقُ   عَشِيَّـةَ جَدَّ بِـالحَيِّ انْـطِلاَقُ ؟
بَلَى ! قَدْ مَاتَ مِنْ جَزَعٍ وَخَلَّى   مَـعَ الأَظْعَـانِ مُهْجَتَـهُ تُسَـاقُ
وَلَيْسَ عَلَيْـهِ شَيْءٌ غَـيْرَ هَـذَا   كَـذَاكَ يُمِيتُ بِـالخَـوْفِ الفِـرَاقُ
وَمَـا أَدْرِي وَقَدْ حَشْـوُ المَطَايَا   أَيَحْمِلُ «شُرًّ» بَرْقٌ أَمْ بُـرَاقُ ؟[2]
فَكَمْ رَدَّ الأَعِـنَّـةَ مِنْ جُمُـوحٍ   وَرَدَّ دُمُـوعَ حُـزْنٍ لَا تُـطَاقُ[3]

والفراقُ جرحٌ عميق في فؤاد العاشق ، يصاحبه سيلٌ من الدموع الحرّى التي تمزِّق الأجفانَ ، وتُداعي بقية أعضاء الجسم بالحمّى والقلق ، يقول :

وَمُـتَيَّـمٍ جَـرَحَ الفِـرَاقُ فُـؤَادَهُ   فَـالـدَّمْـعُ مِنْ أَجْفَـانِـهِ يَتَـدَفَّقُ
بَهَـرَتْـهُ سَـاعَـةُ فُـرْقَـةٍ ، فَكَـأَنَّمَـا   فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ قَلْبٌ يَخْفِقُ[4]

إذا كانت ساعةُ الفراق قد أزِفَتْ ، ولابُدَّ من الرحيل ، فما أمرَّ طعمَ

(١) الديوان ٣٣٠ .
(٢) شُرُّ : اسم المتغزل بها .
(٣) ديوان ابن المعتز ٣٣٤ .
(٤) الديوان ٣٣٢ .

العيش ، وما أظلمَ وجه الحياة ، وتبّاً للحبِّ ، وتعساً للنفس العاشقة ، فالموت خيرٌ من الحياة بعد فراق الأحبة ، يقول :

مَــالِي وَمَــالَــكَ يَــا فِــراقُ ؟   أبــداً رَحــيــلٌ ، وَانْــطِلاَقُ
يَــا نَفْسُ ! مُــوتي بَعْــدَهُــمْ   فَــكَــذَا يَــكُــونُ الاشْــتِــيَــاقُ
كَــذِبُ الهَــوَى ، مُــتَــصَــنِّــعٌ   الحُــبُّ شيَءٌ لاَ يُــطَاقُ ![1]

ومن ثَمّ يُتعتِعُه الفراق ، ويضني قلبَه الخفقانُ ، وترهقُ أجفانَه كثرةُ الدموع ويُضنيه السهرُ ، ويغرقُ في لجّةٍ من الدموع ، فأين المفر ؟ يقول :

مَـا بَالُ قَلْبِـكَ لاَ يَقَرُّ خُفُـوقَا   وَأَرَاكَ تَـرْعَى النَّسْرَ وَالعَيُّـوقَـا ؟
وَجُفُونُ عَيْنِكَ قَدْ نَثَرْنَ مِنَ البُكَا   فَــوْقَ المَــدَامِــعِ لُؤْلُؤاً وَعَقِيقَــا
لَوْ لَمْ يَكُنْ إنْسَانُ عَيْنِكَ سَابِحاً   في بَحْرِ دَمْعَتِهِ ، لَمَاتَ غَرِيقَـا[2]

ـ وكان لديار الأحبّة نصيب وافر في شعر ابن المعتز ، فكثيراً ما وقف عليها يسائلها عن إنسها وبدورها ، وظبائها اللُّعْسِ ، كقوله :

يـا دَارُ ! أَيْنَ ظِبَاؤُكِ اللُّعْسِ ؟   قَــدْ كَـانَ لي في إنْسِهَـا أُنْسُ
أَيْنَ البُـدورُ عَلَى غُصُـونِ نَقاً ؟   مِنْ تَحْتِهِنَّ خَــلاَخِلُ خُــرْسُ[3]

وفي قصيدة أخرى يقف على ديار سلمى ويترك العنان لدموعه تنهلّ ، ولأنفاسه تتأوّه ، ويُحمِّل الدهرَ وِزرَ المعاندة والتقلُّب ، فيقول :

مَنْزِلٌ أَقْـوَى بِسَلْمىٰ ، وَربُــوعُ   تُعْـذَرُ الأَنْفَـاسُ فيـهِ والـدُّمُــوعُ
وَلَــقَــدْ كُنْــتُ أَرَاهَــا آهِــلاً   تٍ ، كَذَاكَ الدَّهْرُ يَعْصي وَيُطِيعُ
كَـذَبَ الـدَّهْـرُ فَـمَا فيـهِ سُرورٌ   يُقْلَبُ الحَـالُ وَيَنْفَضُّ الجَـمِيــعُ

---

(١) الديوان ٣٣٣ .
(٢) الديوان ٣٣٣ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٢٦٨ .

ونراه في قصيدة أخرى يترحم على ديار الأحبَّة ، ويرجو لها السقيا ، ثم تتداعى الذكريات العذاب فيها واللذائذ التي ما عرفها إلّا بأكنافها ، ويتمنّى لو تعودُ ، ويُهيّجُ أشجانهَ نَوحُ حمامة فيبكي لبكائها ، وينوحُ لنواحِها ، فهي تبكي إلْفَها ، وهو يندبُ «شَريرةَ» محبوبته ، فيقول :

سُقْياً لِمَنْزِلَةِ الحمىٰ وَكَثيبِهَا إذْ لَا أَرى زَمَناً كَأَزْماني بهَا
مَا أَعْرِفُ اللَّذَاتِ إلَّا ذاكِراً هَيْهاتَ ! قَدْ خلَّفْتُ لَذَّاتي بِهَا
وَبَكَيْتُ مِنْ جَزَعٍ لِنوحِ حَمَامَةٍ دَعَتِ الهَديلَ ، فَظَلَّ غَيْرَ مجُيبها
نُحْنَا ، وَنَاحَتْ ، غَيْرَ أَنَّ بُكَاءَنَا بعُيُونِنَا ، وَبُكَاءَهَا بِقُلُوبِهَا
مَنَعَ الزِّيَارَةَ مِنْ شَريرَة خائِفٌ لَوْ يَسْتَطيعُ لَبَاتَ بَيْنَ جُيُوبِهَا(١)

وهذا يقودنا إلى الوقوف على الأطلال ، ومخاطبتها ، ووصفِها ، وما فعلت بها ريحُ القدر من محوٍ وسفوٍ للرمال ، وما عفتْ عليها يدُ البِلى فغيّرت معالمها ، يقول :

لِمَنْ دَارٌ ، وَرَبْعٌ قَدْ تَعَفَّى بِنَهْرِ الكَرْخِ مَهْجُورُ النَّواحي
إذَا مَا القَطْرُ حَلَّاهُ تَلَاقَتْ عَلَى أَطْلَالِهِ هُوجُ الرِّيَاحِ
مَحَاهُ كُلُّ هَطَّالٍ مُلِحٍ بَوْبلٍ مِثْلِ أَفْوَاهِ اللِّقَاحِ
فَبَاتَ بِلَيْلِ بَاكِيَةٍ ثَكُولٍ ضَريرَ النَّجْمِ مُتَّهَمَ الصَّبَاحِ
وَأَسْفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ سَمَاءٍ كَأَنَّ نُجُومَهَا حَدَقُ المِلَاحِ
سَقَى أَرْضاً تَحِلُّ بِهَا سُلَيْمىٰ وَلَا سَقَّى العَوَاذِلَ وَاللَّوَاحي(٢)

ومرّة أخرى يقف على ديار «شُرّة» ويطلب من صاحبيه أن يستنطقا مغانيها ، إذا كان ذلك يعيدُها ، أو يعيدُ إليها الحياةَ كما كانت ، فيقول :

---

(١) انظر الديوان ٦٠ .
(٢) الديوان ١٣٧ .

خَليلَيَّ ! هَذي دَارُ «شُرَّةَ» فَاسْألاَ مَغَانيها ، لَوْ كَانَ ذَاكَ يُعيدُهَا
خَلَتْ وَعَفَتْ إلاَّ أَثَافٍ كَأَنَّهَا عَوائِدُ ذِي سُقْمٍ بَطِيءٍ قُعُودُهَا[(١)]

وأمّا ديار هندٍ فيوغلُ في وصفها ، وما حلَّ بها من كوارثِ الزمن ، وما تعاقبَ عليها من رياحٍ وأمطارٍ سحقتها ومحتْ معالمها ، ويتساءل عن أهل تلك الديار وما حلّ بهم ، فيقول :

أيُّ رَسْمٍ لآلِ هِنْدٍ وَدَارِ ؟ دَرَسَا غَيْرَ مَلْعَبٍ وَمَنَارِ
وَأَثَافٍ بَقِينَ ، لاَ لاِشْتِيَاقٍ جَالِسَاتٍ عَلَى فَرِيسَةِ نَارِ
وَعِرَاصٍ جَرَتْ عَلَيْهَا سَوَاري الـ ـرِّيحِ حَتَّى غُودِرْنَ كَالأَسْطَارِ
وَمغَانٍ ، كَانَتْ بِهَا العينُ مَلأى مِنْ غُصُونٍ تَهْتَزُّ في أَقْمَارِ
سَحَقَتْهَا الرِّيَاحُ في كُلِّ فَنٍ وَمَحَتْهَا بَوَاكِرُ الأَمْطَار
أيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ عَهْدي بِكُمْ فيـ ـهَا جَميعاً ، لاَ أَيْنَ أَيْن الدِّيَارِ[(٢)]

وقد يُفردُ الشاعرُ قصيدة بحالها ، يتحدَّث فيها عن الأطلال ، ويصفُ تعاقبَ الأيّام عليها ومرَّ الليالي ، وما تعاورَها من تغيِّر وتبديلٍ ، ويذكر بثينةَ وزمانَها ، ثم يصفُ روضها وأزهارها ، ويعقِّب بوصفِ الريح والمطر ، كقصيدته «ديار قفر» التي مطلعها :

هَي الدّارُ إلاَّ أَنَّها مِنْهُمُ قَفْرُ وَإنِّي بِهَا ثَاوٍ ، وَإِنَّهُمُ سَفْرُ[(٣)]

وقد يتَّخذُ من الوقوفَ على الأطلال ، وبكاءَ الأحبة مطيةً لغرضٍ آخرَ كالمديح أو الفخر كما في قصيدته «قروم الناس» حيث يقول :

الدَّارُ أَعْرِفُها رُبىً ، وَرُبُوعَا لَكِنْ أَسَاءَ بِهَا الزَّمَانُ صَنيعَا

---

(١) الديوان ١٥٦ .
(٢) الديوان ١٩٦ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٢٠٠ ـ ٢٠٢ .

لَبِسَتْ ذُيُولَ الرِّيح تَعْفُو رَسْمَهَا   وَمَصيفَ عَامٍ قَدْ خَلاَ وَرَبيعَا
وَبَكَيْتُ مَنْ طَرَبِ الحَمَائِمِ غُدْوَةً   تَدْعُو الهَديلَ وَمَا وَجَدْنَ سَميعَا
سَاعَدْتُهُنَّ بِنَوْحَةٍ وَتَفَجُّعٍ   وَغَلَبْتُهُنَّ تَفَجُّعاً وَدُمُوعَا[1]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى غرضه الأساسي من القصيدة وهو الفخر .

وفي مرة أخرى يدعو للطلل بالمطر ، علّة يحدِّثه عن أحبتّه الظاعنين ، فيقول :

تَعَاهَدَتْكَ العِهَادُ يَا طَلَلُ   حَدِّثْ عَنِ الظَّاعِنينَ ، مَا فَعَلُوا ؟[2]
فَقَالَ : لَمْ أَدْرِ غَيْرَ أَنَّهُمْ   صَاحَ غُرَابُ البَيْنِ ، فَاحْتَمَلُوا[3]

وتارةً تكون الأطلال والديارُ مهاجاً لذكريات تصرَّمتْ وانقضت ، فيقف أمَامها ويتركُ لشريطِ الذكريات ينثال ويتوالى، ويتركُ لعالمه الداخلي يسيل مع أبيات القصيد رائعاً عذباً بصور تَستبي العقولَ وتسحرُ الألبابَ ، ومما يقوله :

أَهَاجَكَ أَمْ لاَ ، بِالدُّوَيْرَةِ مَنْزِلُ ؟   يَجِدُّ هُبُوبُ الرِّيحِ فِيهِ وَيَهْزِلُ
قَضَيْتُ زَمَانَ الشَّوْقِ فِي عَرَصَاتِهِ   بِدَمْعٍ هَمُولٍ فَوْقَ خَدِّيَ يَهْطُلُ
وَقَفْتُ بِهَا عيسي تَطيرُ بِزَجْرِهَا   وَيَأْمُرُهَا وَحْيُ الزَّمَانِ فَتُرْمِلُ
وَبِالقصرِ ، إِذْ خَاطَ الخَلِيُّ جُفُونَهُ   عَنَانِيَ بَرْقٌ بِالدُّجَيْلِ مُسَلْسَلُ
وَإِنِّي لِضَوْءِ البَرْقِ مِنْ نَحْوِ دَارِهَا   إِذَا مَا عَنَانِي لَمْحُهُ ، لَمُوَكَّلُ[4]

ـ أما مواعيد الحبيب فمشوبة بالختل والكذب ، هكذا يصور لنا ابن المعتز أحبَّته ، فهم دائماً قصيرو الوفاء ، يمزجون مواعيدهم بالكذب ، كقوله :

---

(١) الديوان ٣٠٠ .
(٢) العهاد : المطر تلو المطر .
(٣) الديوان ٣٥٦ .
(٤) الديوان ٣٦٣ .

وَحُلْوُ الـدَّلَالِ ، مَليحُ الغَضَبْ يَشُـوبُ مَـواعيـدَهُ بـالكَـذِبْ
قَـصـيرُ الـوَفَـاءِ لأَحْـبَـابِـهِ فَـهُمْ مِنْ تَلَوُّنِـهِ في تَـعَبْ[1]

إذا كان الحبيبُ يتجاهل الوعودَ التي يضربها ، ولا يفي بما يقطعُه على نفسه من مواثيق ، فما عليه إلاّ أن يذكِّره بذلك لعلّه يرقُّ ويلين ، يقول مخاطباً «شرُّ» :

قُلْ لِشُرٍّ : بِالله يـا هَمَّ نَفْسي زَوِّديني ، قَبْـلَ الحَـوادِثِ ، زَادَا
قَدْ شَكَا الوَعْدُ مِنْكِ حَبْساً طَويلاً فَاحْلُلي عَنْهُ ، يَا شُرَيْرُ ، الصِّفَادا
أَنْتِ لَا تُحْسِنينَ وَعْـدَكِ هَـذَا كُلُّ مَنْ شَاءَ ، أَخْلَفَ المِيعَادا[2]

وأما إذا جاء المحبوب ووفى بوعده ، فعلى الحِبّ ألاّ يلقاه إلاّ بليل بعيداً عن أعين الرقباء ، وهكذا لم يجعل ابنُ المعتزّ المواعيد كلّها كذباً وميناً ، بل أثر بها قليلاً أو هكذا خيل إليه ، يقول :

لَا تَلْقَ إلَّا بِلَيْـلٍ مَنْ تُوَاصِلُهُ فَـالشَّمْسُ نَمَّامَـةٌ ، وَاللَّيْـلُ قَـوَّادُ
كَمْ عَاشِقٍ وَظَلَامُ اللَّيْلِ يَسْتُرُهُ لَاقَى أَحِبَّتَـهُ ، وَالنَّـاسُ رُقَّـادُ

ويكثر ابنُ المعتزِّ من عتاب الأحبة لعدم وفائهم ، ويطيلُ الإنتظار ، ويطلب الرحمة من الله لتحقيق آماله ، ويطلب لمحبوبته وديارها السقيا ، وسيسامح القدرَ لو حقق بعضاً من آماله ، وينسى عتبه وسخطه ، فهل لشريرةَ أن تستمعَ نجواه ؟ ، يقول :

أَلَا تَريَانِ البَـرْقَ مَاهُـوَ صَانِـعُ بِدَمْعَةِ صَبٍّ شَفَّهُ النَّأْيُ وَالشَّحْطُ
مِنَ اللَّهِ سُقْيَـاهُ « لشُرٍّ » وَجُـودُهُ وَلَيْسَ لَهَا شُحُّ الغَمَامِ وَلَا القَحْطُ
وَمِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ الَّتي أَنَا آمِـلٌ وَمُنْتَظِرٌ قُرْبَ المَزَارِ ، وَإِنْ شَطوُّا
فَإِنْ نَجْتَمِعْ بَعْدَ الفِراقِ ، فَمَا لَنَا عَلَى فَعَلَاتِ الدَّهْرِ عَتْبٌ وَلَا سَخْطُ

(١) الديوان ٦٤ .
(٢) الديوان ١٦٤ .

ثم يحاول من خلال العتاب الحارّ أن يصبّر نفسه ويعلّلها بانقشاع غمامة الصد ، واستمالة المحبّ القاسي لبلواه ، فإن أصلحهم ، فصدره واسع وحلمه أوسع ، يقول :

أَلاَ هَلْ تَرَوْا مَا قَدْ أَرَى مِنْ مَعَاشِرٍ ... لَهُمْ فِيَّ حُكْمٌ يَهْجُرُ الحَقَّ مُشْتَطُّ
يُـذيعُونَ مَـا أَعْتَبْتُهُمْ فِي شَبِيبَتِي ... عَلَى حِينَ أَنْ ذَكَّيْتُ وَاشْتَعَلَ الوَخْطُ
أَلاَ إِنَّهَا أُمُّ العَجَائِبِ ، فَاصْطَبِرْ ... وَإِنْ كُنْتَ مَـالُقِّيتَ أَمْثَـالَهَـا قَطُّ
أَلاَ إِنَّ حِلْمِي وَاسِعٌ إِنْ صَلَحْتُمُ ... بِحِلْمِي ، وَعِنْدِي بَعْضُهُ الجُوعُ وَالخَمْطُ(١)

ومن نفثات صدره المكتوي بنار المحبوب البعيد عن العتبى ، يطلق هذه الآهة وتلك الحسرة من هذا المحبّ الذي هو أشبه بالظلال يجيء كلّ يوم ويرجع ولا يعطي شيئاً ، فيقول :

وَمِنْ حَسْرَةِ الدُّنْيَا ، هَوَاكَ لِبَاخِلٍ ... بعيدٍ مِنَ العُتْبَى ، ضَنينٍ بِمَوْعِدِ
يَجِيءُ مَجِيءَ الفَيْءِ ، كُلَّ عَشِيَّةٍ ... وَتَرْجِعُ لاَ يُعْطِي ، بِقَوْلٍ وَلاَ يَدِ(٢)

وفي حوار جميل يردُّ عتبها وقد نهشت الغيرةُ صدرَ المحبوب لأنَّ الشاعر ذكر في شعره اسماً غيرَ اسمها تقيَّةً وخوفاً على سمعتها ، فقال يطمئنُها ويغسلُ ضِغْنَها :

قَالَتْ : تَبَدَّلْتَ أُخرى ، قُلْتُ : أَفْديكِ ... مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ ، وَأَحْمِيكِ
قَالَتْ : وَسَمَّيْتَهَا فِي الشِّعْرِ ، قُلْتُ لَهَا : ... سَمَّيْتُ غَيْرَكِ ، لَكِنْ كُنْتُ أَعْنِيكِ
دَعِي العِتَابَ لَطَيِّ الكُتْبِ ، وَاغْتَنِمِي ... يَوْمَ التَّلاَقِي ، وَرَوِّي فَايَ مِنْ فِيكِ(٣)

وفي غمرة نُكرانها لخصاله ومناقبه وشمائله ، راح يُعاتبها عتابَ المحبِّ الوامق ، ويصف لهندٍ صفاءَ ودِّه ، واخلاصَ حبِّه ، وتعفُّفه ، وما يُلاقيه من أرَق

---

(١) الديوان ٢٩٤ .
(٢) الديوان ١٦٣ .
(٣) الديوان ٣٥١ .

يُضنيه ، فقال :

سَلي ، فَدَيْتُكِ ، هَلْ عَرَّيْتُ مِنْ مِنَني خَلْقاً ، وَهَلْ رُحْتُ في أَثْوابِ مَنَّانِ ؟
وَهَلْ فَرَجْتُ صَفَائِي لِلصَّديقِ ، وَهَلْ أَوْ دَعْتُ ، يَا هِنْدُ ، غَيْرَ الحَمْدِ خَزَّاني ؟
وَلَا عَقَقْتُ بِجَسِّ الكَأْسِ سَاقِيَتي وَلَا عَفَفْتُ ، وَظَلَّ الدَّهْرُ يَنْعَاني
أَسْرَرْتُ حُزْناً بِهَا وَالقَلْبُ مُضْطَرِبٌ وَرَاحَ يُنْبي بِغَيْرِ الحَقِّ إِعْلَاني
وَقَدْ أَرِقْتُ لِبَرْقٍ طَارَ طَائِرُهُ وَالنَّوْمُ قَدْ خَاطَ أَجْفَاناً بِأَجْفَانِ(١)

ويبدو أنَّ هنداً تعانده ، وتدِلُّ عليه ، ولا تعتبه ، فراح يزجي إليها عتابه في القصيدة تلو القصيدة ، فبعد عتابه السابق ، نراه في الأبيات التالية يقول لها :

يَا هِنْدُ ! حَسْبُكِ مِنْ مُصَارَمتي لَا تَحْكُمي في الحُبِّ بِالظَنِّ
فَاتَ الصِّبَا ، وَرُميتُ بِالوَهْنِ وَيَدُ المَنِيَّةِ قَدْ دَنَتْ مِنِّي
وَلَقَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ وَعَبَرْتُ حَظَّ الجَهْلِ مِنْ سِنِّي
وَوَجَدْتُ في الأَيَّامِ مَوْعِظَةً نَصَرَتْ مَلائكتي عَلَى جِنِّي(٢)

وأما «شُرَيْرَةُ» فلها نصيبها من العُتْبِ على ضنِّها بالوصل ، وعبثها بالمواعيد ، فيقول :

يَالَائمي قَدْ لُمْتَ غَيْرَ مَليمِ كَمْ جَاهِلٍ مُغْرىً بلَوْمِ حَكيمِ
ضَنَّتْ شُرَيْرُ بِوَصْلِهَا ، وَلَطَالَمَا لَعِبَتْ مَوَاعِيدُهَا بِكُلِّ غَريمِ(٣)

لكنَّ هنداً تظلُّ معاندةً ويظل الشاعر مُلِحّاً في عتابه ، ومن يستقرىء قصائد عتابه في هندٍ يجد أنَّها قاسيةٌ متعنِّتة ، فكيف يعمل الشاعر وقد تمكَّن حبُّها قلبَه ، وهي صعبة لا ترقُّ ولا تلين ، إذاً ما عليه إلّا المثابرة في العتاب ، فهاهو يخاطبها

---

(١) الديوان ٤٢٠ .
(٢) ديوان ابن المعتز ٤١٦ .
(٣) الديوان ٣٩٧ .

فيقول :

قَطَّعْتُهُ يَوْماً ، وَلَيْسَ يُطيعُهُ ... هَيْهَاتَ إِنَّ قَنَاتَهُ لَمْ تُمْضَغِ
ظَلَّتْ تُخَوِّفُني لِقَاءَ مَنيَّتي ، ... فَأُجِلُّهَا ، يَا هِنْدُ ! مِمَّا أَبْتَغي
وَأَطَلْتِ بي سَفَرَ المَلاَمَةِ وَالأَذى ... فَاثْني الرِّكَابَ هُنَيْدَ إِنْ تَتَبَلَّغي
صِيري إلى عُذْري ، فَإِنِّي مُشْتَرٍ ... بالجُودِ ، مِنْ جُودِ الإلَهِ الأَسْبَغِ[1]
يَا مَنْ يُنَاجي صَعْبَةً في نَفْسِهِ ... وَيُدِبُّ مِنْ تَحْتِ الأَفَاعي اللُّدَّغِ
وَيَبِيتُ يُنْهِضُ زَفْرَةً في صَدْرِهِ ... مِنِّي ، فَإِنْ دَمِيَتْ جِرَاحي يُولَغِ[2]
وَيَظَلُّ مُنْتَهِكاً لِعِرْضِيَ آمِناً ... وَيُسَرِّحينَ يَخَافُ حُسْنَ المَرْبَغِ[3]
نَغَلَتْ ضَمائِرُ صَدْرِهِ مِنْ دَائِهِ ... نَغَلَ الإِهَابِ مُعَطَّلاً لَمْ يُدْبَغِ[4]
لاَ تَبْتَغي مِنِّيَ الَّتي لاَ أَبْتَغي ... إِنْ كُنْتَ مَشْغُولاً بِشَأْني فَافْرَغِ
أَنْهَاكَ غَيْرَ مُعَاتِبٍ عَنْ خِطَّةٍ ... حَزْنٍ مُقَوِّمَةٍ زُيُوغَ الزُّيَّغِ[5]

ـ قد لا نتمكّن من إيفاء غزل ابن المعتزّ حقّه لكثرة ما طرقَ من مواضيع ، كشقاء المحبّ ، وموت الوصال ، ودلّ الحبيب ، والغيرة ، وبكاء الحمائم ، وفتون الهوى ، وطيف الحبيب ، ودموع الهوى ، وطلب الوصال ، وسفر المحبوب ، والهجر والصدود ، وذكرى الأيّام الخوالي ، ومواضيع كثيرة شتّى أبدع فيها وأكثر ، ونكتفي في هذا الفن بخاتمة عن شعره بالغِلمان .

وغزلُ الغِلمان فنٌ شاذٌ ألهمتْه البيئةُ المتحلّلة في العصر العبّاسي ، وما طفا على السطح فيها من فساد أخلاقيٍّ ، وتفكُّك اجتماعيّ ، وترف ومجون ، فالْتاثَ

(١) الأسبغ : الأوسع .
(٢) يولغ : يلعق .
(٣) المربغ : سعة العيش .
(٤) نغلت : فسدت . الزيوغ : الميل عن الحق .
(٥) انظر ديوان ابن المعتز ٣١٥ .

المجتمعُ بعادات الفرس ومباذِلهم الذين نقلوا هذا التحلّلَ والفسادَ عن خطةٍ مرسومة للإطاحةِ بالخلافة ، ونلتقي في ديوان ابن المعتز بهذا اللون من الغزل الشاذ ، والجديد على الشعر العربي والقيم العربية والذي نظمه في بعض غلمانه ، كقوله :

وَمُسْتَكْـبِرٍ يُزْهَى بِخُضْـرَةِ شَارِبٍ ... وَفَتْـرَةِ أَجْفَـانٍ ، وَخَـدٍّ مُـوَرَّدِ
كَـأَنَّ عِـذَارَيْـةِ عَـلَى قَمَـرٍ عَـلَى ... قَضيبٍ عَلَى دِعْصٍ رَطيبِ الثَّرَى نَدِي
تَبَسَّمَ إِذْ مَـازَحْتُـهُ ، فَكَـأَنَّـهُ ... يُكَشِّفُ عَنْ دُرٍّ حِجَابَ زُمُرُّدِ

وكقوله له أيضاً في ساقٍ يدير الراح :

وَعَاقِدِ زُنَّـارٍ عَلَى غُصْنِ الآسِ ... رَقيقِ المَعاني مُخْطَفِ الكَشْحِ مَيَّاسِ
سَقَاني عُقَاراً صَبَّ فيها مِزَاجَها ... فَأَضْحَكَ عَنْ ثَغْرِ الحَبَابِ فَمَ الكَاسِ

وقال في أحد الغلمان وقد التحى ، فزادته لحيته حسناً على حسن :

لَعَمْرُكَ مَا أَزْرَتْ بِيـوُسُفَ لِحْيَةٌ ... وَلكِنَّهُ قَدْ زَادَ حُسْناً ، وَأَضْعَفَا
فَلَا تَعْتَذِرْ في حُبِّهِ في الْتِحَائِـه ... فَـمَا يَحْسُنُ الدِّينَـارُ إِلَّا مُشَنَّفَا(١)

وقال في رده عمن لحاه بحب غلام كان قد استهواه :

كَـذَبْتَ يَـا مَنْ لَحَـاني في مَحَبَّتِـهِ ... مَا صُورَةُ البَدْرِ ، إِلَّا مِثْلُ صُورَتِهِ
يَا رَبِّ ! إِنْ لَمْ يَكُنْ في وَصْلِهِ طَمَعٌ ... وَلَمْ يَكُنْ فَرَجٌ مِنْ طُولِ هِجْرَتِهِ
فَاشْفِ السَّقَامَ الذَّي في لَحْظِ مُقْلَتِهِ ... وَاسْـتُرْ مَلَاحَـةَ خَدَّيْـهِ بِلِحْيَتِـهِ(٢)

وكثيرة هي المقطعات التي نظمها في غزل الغلمان ، ولم تكن تتعدّى الأبيات القليلة ، كقوله في غلام اسمه أحمد كان يدير كؤوس الصهباء :

---

(١) ديوان ابن المعتز ٢٧٣ .
(٢) المرجع السابق ٣١٨ .

يَـا عَـاذِلي فِي لَـيْـلِهِ وَنَهَارِهِ خَلِّ الهَوَى يَكْوِي المُحِبَّ بِنَارِهِ
وَيْحَ المُتَيَّمِ ، وَيْحَهُ ، مَـاذَا عَلَى عُـذَّالِـهِ مِـنْ ذَنْـبِهِ ، أَوْ عَـارِهِ
يَـا حُسْنَ أَحْمَدَ إِذْ غـداَ مُتَشَمِّراً فِي قُرْطَقٍ يَمْشِي بِكَأْسِ عُقَـارِهِ
وَالغُصْـنُ فِي أَثْـوابِـهِ وَالـدُّرُّفِي فِمَهِ ، وَجِيدُ الـظَبْي فِي أَزْرَارِهِ
لَـكِـنَّـهُ قَـاسٍ كَـذُوبٌ وَعْـدُهُ نَـائِي المَـزَارِ عَـلَى دُنُـوِّ جِوَارِهِ
مَـا كَـان أَحْـذَقَنِي بِهُجْـرَةِ مِثْلِهِ لَـوْلاَ مَـلاَحَـةُ خَـدِّهِ وَعِـذَارِهِ

٣ ـ شعر الخمرة :

كان ابن المعتزّ يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة[1] ، وكأنّه ورث عن أبيه كلَّ مزاجه ، أو قُلْ هي حياة القصور المترفة التي تدفعُ من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء في بعض الأيّام والليالي يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميري ، وكان بينهما مراسلات شعريّة طريفة ، وعليّ بن مهدي الأصبهانيّ الكسرويّ وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[2] ، وجحظة وهو الذي أعطاه لقبه الذي اشتهر به . وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد . وفي أخباره أنّه كان يروي أشعار عمّه المعتمد ، ممّا يدلُّ على أنّه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهي . . . ينفق كثيراً من أوقاته في اللهو والخمرة ، وديوانه طافح بكؤوسها ودنانها وسقاتها وأديرتها[3] .

وقد وصل شعر الخمرة إلى ابن المعتزّ مكتملاً ، بعد ما نشأ على يد الأعشى والأخطل ، وشبّ على يد الوليد بن يزيد الذي شقق طرقه ، وتفنّن في تناوله عبّاً ونهلاً من أوانيه ، ونضج على يد أبي نواس الذي لقح ما تعاوره سابقوه بمعطيات العلم والفلسفة ، فاتّسعت أبعاده ، وتعمَّقت معانيه ، فتعدّى بذلك ذكر الملذات الحسّية إلى ذكر ما تحدِّثه الخمرة من سكينة روحيّة ، ورضي عقلي .

والحقُّ إنّ ابنَ المعتزِّ لم يكن نواسيّاً في تكريسه الفكر للبحث في قضية الخمر من حيث كونها مذهباً من مذاهب الحياة ، مستعيضاً بها عن قضايا الحياة الأخرى . فقد كان للرجل همومُه السياسيّة ، واهتماماته العلميّة ، وهي لم تكن تقل أهميّة ، في رأيه ، عمّا يتطلّبه الجسد والروح من ترفيه ولهو . وهكذا أعطى ابن

---

(١) الأغاني ١٠/٢٧٦ .
(٢) معجم الشعراء ص ١٤٩ .
(٣) العصر العباسي الثاني لشوقي صيف ٣٢٤ وما بعدها .

المعتزّ لنفسه حقَّها من الطموح ، ولعقله زادَه من الثقافة ، ولجسده متطلباتِه من الراحة والمتعة . غير أنَّ ذلك لا يعني ضآلة شعر الخمرة فيما نظمه شاعرنا في أوقات انصرافه إلى الملذَّات ، فشعر الخمرة يحتلُّ قسماً واسعاً من ديوانه .

ـ فهو يتعاطاها في مجالسها وقصورها ، فيصف لنا تلك المجالس والقصور وما بيها من فرش وأثاث ، وما يحيط بها من طبيعة ساحرة ، وما يعمرها من بشَر يهوون ويعشقون ويخالسونه النظر ، ويخاطبونه بلغة العيون ، ويديرون عليه الخمر المعتَّقة ؛ وهنا يُسرف في وصف قِدَمِها ودنانها وصفائها فيقول :

وَهَبْتُ سَلَامي ، مَا حَيِيتُ لِمَجْلِسٍ ... عَلَى قَصْرِ بَسْطَامٍ أَمِيرِ المَجَالِسِ
مُطِلٍّ عَلَى رَوْضٍ أَنِيقٍ كَأَنَّهُ ... مَقَادِمُ خُضْرٌ فَوْقَ فُرْشِ عَرَائِسِ
وَكَمْ فيه مِنْ قُمْرِيٍّ عُودٍ مُغَرِّدٍ ... وَمِنْ كَارِعٍ فِيَ كَأْسِهِ غَيْرِ حَابِسِ
وَكَمْ فيه مِنْ حَيٍّ مَليحٍ مُرَاسِلٍ ... بِعَيْنَيْهِ ، فِيمَا شِئْتَ غَيْرِ مُمَاكِسِ(١)
جَريءٍ عَلَى رُقَّابِهِ ، وَغُيُورِهِ ... ضَحُوكٍ إلى أَحْبَابِهِ غَيْرِ عَابِسِ
تَزَوَّدْتُ مِنْهُ نَظْرَةً لي مُطيعَةً ... أَرَاحَتْ فُؤَادِي مِنْ حَديثِ الوَسَاوِسِ
يُدِيرُ عَلَيْنَا قَهْوَةً بَابِلِيَّةً ... أَدَامَ عَلَيْهَا الخَزْنَ دَهْقَانُ فَارِسِ(٢)
إِذَا غَرَبَتْ مِنْ دَنِّهَا اسْتَبْدَلَتْ بِهِ ... قَميصَ زُجَاجٍ مِنْ جَميعِ المَلَابِسِ
صَفَتْ فَبَكَى ، وَالطَّرْفُ لَا يَسْتَبِينُهَا ... وَيَرْجِعُ مَحْسُوراً بِخَيْبَةِ آيِسِ
وَمَا نَالَ مِنْهَا ، فَهْوَ مِنْهُ كَمُدَّعٍ ... حَقَائِقَ أَمْرٍ غَامِسٍ بِالنَّفَائِسِ(٣)

وفي قصيدة أخرى يحدثنا ابن المعتز عن مجلس من مجالس شرابه ، في مقدمة يشايع بها الشعراءَ المحدثين الذين عابوا على القدامى الوقوف على الأطلال ،

---

(١) مماكس : مبادل ويفاصل في البيع .
(٢) بابلية : نسبة إلى بابل في العراق . الدهقان : التاجر العظيم أو رئيس الإقليم عند الفرس .
(٣) الغامس : الغائب انظر الديوان لابن المعتز ٢٧٥ .

لينتقل بعدها إلى وصف الندامى الذين صرعتهم الخمرة ، والساقي الذي يسبي العقول والقلوب برشاقته وطرفه الكحيل ، فيقول :

أَكْثَـرْتَ يَـا عَـاذِلِي مِنَ العَـذْلِ   إِنِّي عَنِ العَـاذلِـينَ في شَغَـلِ
أَحْـسَنُ مِـنْ وَقْفَةٍ عَلَى طَـلَلٍ   وَمِـنْ بُكَـاءٍ فـي إِثْـرِ مُحْتَـمِـلِ
كَـأْسُ مُدَامٍ أَحْـظَيْتُ فَضْلَتَهَـا   كَـفُّ حَبيبٍ وَالفِعْـلُ مِنْ قِبَـلي
في مَجْلِسٍ حُثَّتِ الكُؤُوسُ بِـهِ   فالقَـوْمُ مِـنْ مَـائِـلٍ وَمُنْجَـدِلِ(١)
يَـطُـوفُ بِـالـرَّاحِ بَيْنَهُمْ رَشَـأٌ   مُحَكَّـمٌ فـي القُلُـوبِ وَالعَـقْـلِ
أَفْـرَغَ نُـوراً فـي قِشْرِ لُـؤْلُـؤَةٍ   تُجَـلُّ عَـنْ قِيمـةٍ وَعَـنَ مِـثْـلِ
يَكَـادُ لَحْظُ العُيُـونِ حِـينَ بَـدا   يَسْفِـكُ مِـنْ خَـدِّهِ دَمَ الخَجَلِ(٢)

- فهو لا يشربها في بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب ، بل يشربها أيضاً في أمكنتها المعروفة لعصره وخاصّة الأديرة ، مثل دير عبدون ، كقوله داعياً له بالسُّقيا ولأيّامه بالخير :

سَقَى المَطِيرَةَ ذاتَ الظِلِّ وَالشَّجَرِ   وَدَيْـرَ عَبْدُونَ هَـطَّالٌ مِنَ المَـطَرِ
فَـطَالَمَـا نَبَّهَتْني لِلصَّبُـوحِ بِهَـا   في غُرَّةِ الفَجْرِ ، وَالعُصْفُورَ لَمْ يَطِرِ
أَصْوَاتُ رُهْبَانِ دَيْرٍ في صَلاتِهِمُ   سُودُ المَدَارِعِ نَعَّارينَ في السَّحَرِ(٣)

ثم مضى يصفُ رهبانَ الدير وصفاً رائقاً ، ويذكر كذلك قطربُّلَ في قصيدة أخرى ، فيقول :

زُرْنَا بِقُطْرَبُّلٍ إِنْ كُنْتَ مُسْعِدَنَا   تَنْعَمْ وَلاَتَسْتَمِعْ عَذلاً وَلاَ صَخَبَا(٤)
وَلاَ تَـزَالُ بِكَأْسِ الشُّـرْبِ دَائِرَةً   تَبُولُ هَمّاً ، وَتَحْسُو اللَّهْوَ وَالطَّرَبَا

(١) منجدل : مطروح .
(٢) ديوان ابن المعتز ٣٨١ .
(٣) نعارين : مصلين مصوتين الديوان ٢٤٦ .
(٤) قطربل : قرية كانت مشهورة بخماراتها .

حَتَّى تَعُودَ حَبيباً بَعْدَمَا سَخِطَتْ   مِنْكَ المُفَارِقُ تَهْوَى الغَيَّ واللَّعِبَا[1]

ثم يعرِّجُ في هذه القصيدة على وصفِ الساقي وصفاً قلَّما نجدُله شبيهاً ، حيث يقول :

وَكَيْفَ أَنْتَ ، إذَا مَا طَافَ يَحْمِلُهَا   ظَبيٌ يُسَقِّيكَ فَضْلَ الكَأْسِ إنْ شَرِبَا
وَقَـدْ تَـرَدَّتْ بِمِنْـديـلٍ عَـوَاتِقُهُ   يُقَطِّفُ الوَجْهُ مِنْ تيهٍ ، وَمَا غَضِبَا
وَنَـاقَلَتْ تَحْتَهُ النَّـدمَـانُ صَـافِيَـةً   كَـأَنَّهُ إذَا حَسَـاهَا ، نَـافِخٌ لَهَبَا
تَرَاكَ تُعْرِضُ عَنْ هَذَا وَتَهْجُرُهُ ،   مَنْ قَالَ : غَيْرُكَ مَنْ أَهْوَى ، فَقَدْ كَذَبَا

كما ويذكر الأيّام الصالحة في الدُّوَيْرَةِ يوم ظلَّ يسقى الراح على جداولها وسواقيها ، فيقول :

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ بِالدُّوَيْرَةِ صَالِحٍ ،   فَكَيْفَ بِيَـوْمٍ بَعْـدَهُ لِيَ فَـاسِـدِ
ظَلَلْتُ بِهَـا أُسْقَى سُلَافَـةَ خَمْرَةٍ   بِكَفِّ غَزَالٍ ذِي جُفُونٍ صَوَائِدِ
عَلَى جَدْوَلٍ رَيَّانَ لَا يَكْتُمُ القَذَى   كَـأَنَّ سَـواقيـهِ مُتُـونُ المَبَـارِدِ[2]

وما ونى يعدِّدُ لنا ارتياده مشارب الخمرة في أماكنها وحيثما وجدت ، ويدعونا إلى زيارة هذه الأماكن المشهورة بخمرتها ، فيقول :

اذْهَـبْ إلى بَـيْـتِ عَـذْرَهْ   وَمَـتِّـعِ الـنَّـفْسَ. قَـطْـرَهْ
وَاصْـرِفْ مِـنَ الهَـمِّ يَـوْمـاً   وَاطْـفِـرْ إلى الـلَّهْـوِ طَـفْـرَهْ
في مَجْـلسٍ فَـوْقَ نَهْـرٍ   فـيـهِ لِـعَـيْـنَـيْـكَ قُـرَّهْ[3]

ولا يجد غضاضة في أن يدعوَ هذه الأماكن خمّارة ، يطرقُها عند الفجر ليعبَّ من خمرها ويمتّعَ النفس بقيانها وسقاتها ، فيقول من قصيدة طويلة :

(١) انظر ديوان ابن المعتز ٧٤ .
(٢) انظر ديوان ابن المعتز ١٧٨ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٢٣٩ .

وخَمَّـارَةٍ تَعْنِي المَسِيـحَ بِـرَبِّهـا   طَرَقْتُ وَضَوْءُ الصُّبْحِ غَيْرُ مُبِينِ[1]
فَلَمَّا رَأَتْـنِي أَيْـقَـنَـتْ بِمُعَـذَّلٍ   قَصيرِ بَقَاءِ الـوَفْرِ غَـيْرُ ضَنِينِ[2]
فَجَـاءَتْ بِهَا فِي كَـأْسِهَـا ذَهَبِيَّـةً   لَهَـا حَدَقٌ لَمْ تَتَصِـلْ بِجُفُـونِ[3]
كَأَنَّا وَضَوْءُ الصُّبْحِ يَسْتَعْجِلُ الدُّجَى   نُـطيرُ غُـرَابـاً ذَا قَـوَادِمَ جُـونِ
فَمَا زِلْتُ أُسْقَاهَـا بِكَفِّ مُقَرْطَقٍ   كَغُصْنٍ ثَنَتْهُ الرِّيحُ بَيْنَ غُصُـونِ
لَوَى صُدْغَهُ كَالنُّونِ مِنْ تَحْتِ طُرَّةٍ   مُمَسَّكَـةٍ ، تُـزْهَى بِعَـاجِ جَبِـينِ

عديدة هي الأماكن التي كان يشربُها فيها ، فهي قصورُ الرصافة والخلد التي كان يسكنها والحدائق التي كانت تزينها ، والخانات التي كان يرتادها ، والأديرة التي كان يؤمها والخمارات التي كان يغشاها ، حيث تجد الخمرة من يعتقها ويقدمها ، من شمامسة وسقاة ظرفاء ، ومن وصفه لهذه الأمكنة قوله من أرجوزة بعنوان «شكوى الجن» يصف رَوْضة فيحاء :

لِي صَاحِبٌ قَـدْ لاَمَنِي ، وَزَادَا   فِي تَـركِيَ الصَّبُـوحَ ثُمَّ عَـادَا
وَقَـالَ : لاَ تَـشْـرَبْ بِـالنَّهَـارِ   وفِي ضِيَـاءِ الفَجْـرِ وَالأَسْحَـارِ
أَمَا تَـرَى البُسْتَـانَ كَيْفَ نَـوَّرَا   وَنَشَرَ المَنْـثُـورَ بُـرْداً أَصْـفَـرَا
وَضَحِـكَ الـوَرْدُ عَـلَى الشَّقَـائِقِ   وَاعْتَنَقَ القَـطْرَ اعْتِنَـاقَ الـوَامِقِ
فِي رَوْضَـةٍ كَـحُـلَّةِ الـعَـرُوسِ   وَخَـدَمٍ كَـهَـامَـةِ الـطَـاوُوسِ
وَيَـاسَمِـينٍ فِي ذُرَى الأَغْصَـانِ   مُـنْـتَـظِماً كَـقِـطَعِ العِـقْيَـانِ
وَالسَّـرْوِ مِثْلِ قِطَعِ الـزَّبَـرْجَـدِ   قَدِ اسْتَمَدَّ المَاءَ مِنْ تُرْبٍ ندي
عَـلَى رِيـاضٍ وَثَـرىً ثَـرِي   وَجَـدْوَلٍ كَـالمَـبْـرَدِ الجَـلِيِّ

(١) ديوان ابن المعتز ٤٤٠ .
(٢) المعذل : الذي يلومونه لكثرة جوده .
(٣) أراد بالحدث : الحباب .

وَجُلَّنَارٍ كَاجْمِرَارِ الخَدِّ أَوْ مِثْلِ أَعْرَافِ دُيُوكِ الهِنْدِ[1]

أو قوله من قصيدة يصف مجلساً لا ينساه ، يفوق الوصفَ بما يعمره من مزهرٍ ومزمارٍ وساقٍ من أبناء النصارى يقدِّمُ خمرةً تزكو على يديه ، ويميسُ بزُنّارِه ، وصفاً بديعاً رائعاً :

وَمَجْلِسٍ جَلَّ أَنْ نُشَبِّهَهُ حَيْثُ بِهِ مِزْهَرٌ وَمِزْمَارُ
وَزَانَهُ مِنْ بَنِي العِبَادِ رَشاً بالجِيدِ ، وَالمُقْلَتَيْنِ سَحَّارُ
ابْنُ نَصَارَى يَدِينُ دِينَهُمُ حَدَّثَ عَنْهُ بِذَاكَ زُنَّارُ
قَدْ رَكَّبَتْ كَفُّهُ مُشَعْشَعَةً إِبْرِيقُهَا في الكُؤُوسِ هَدَّارُ
يَلْمَعُ فيهَا ، مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ كَوْكَبُ نُورٍ إِلَيْكَ نَظَّارُ
بَاكَرْتُهُ وَالنُّجُومُ غَائِرَةٌ وَالصُّبْحُ قَدْ حَانَ مِنْهُ إِسْفَارُ
فَظَلْتُ في يَوْمٍ لَذَّةٍ عَجَبٍ وَافَى بِهِ لِلسُّعُودِ مِقْدَارُ
وَقَابَلَ الشَّمْسَ فِيهِ بَدْرُ دُجىً يَأْخُذُ مِنْ نُورِهَا وَيَمْتَارُ
يَا غُصْنَ بَانٍ ضَمَّتْهُ مِنْطَقَةٌ وَجِيدَ ظَبْيٍ حَوَتْهُ أَزْرَارُ
تَحْسَبُ قَوْمِي يُضَيِّعُونَ دَمي مَا ضَاعَ قَبْلِي لِهَاشِمٍ ثَارُ

وقد كان ابن المُعتز فارساً مجلّياً في هذا الميدان ، طرق المَعاني السابقة وأضافَ إليها من فنِّه وثقافته وبيئته الملوكيّة ما ميزُها عن غيرها ، وأكسبَها طعماً خاصّاً بها . وقد صرَّح ابنُ المعتزِّ بأنَّه كان يشربُ الخمرةَ مهموماً منفعلاً يُغرِق فيها همومه ويُطفِىء غُلَّته ، فكانت دواءً وتسكيناً لتلك الهموم التي نشأت بفعل ظروفه العائلية القاسية ، وأحوال أسرته المتقلبة :

أَمَا تَرَى الدَّهْرَ لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَالدَّهْرُ يَخْرُجُ مَعْسُوراً بِمَيْسُورِ

(١) ديوان ابن المعتز ٤٨٣ ـ ٤٧٤ .

وَلَيْسَ لِلْهَمِّ إِلاَّ شُرْبُ صَافِيَةٍ كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِ مَهْجُورِ (١)

أو كقوله من قصيدة أخرى بعنوان «دواء الهموم» :

دَاوِ الهُمُومَ بِقَهْوَةٍ صَفْرَاءِ وَامْزِجْ بِنَارِ الرَّاحِ نُورَ المَاءِ
مَا غَرَّكُمْ مِنْهَا تَقَادُمُ عَهْدِهَا في الدَّنِّ غَيْرَ حَشَاشَةٍ صَفْرَاءِ
مَا زَالَ يَصْقُلُهَا الزَّمَانُ بِكَرِّهِ وَيَزِيدُهَا مِنْ رِقَّةٍ وَصَفَاءِ

إلى أن يقول :

لاَ تَذْكُرَنِّي بِالصَّبُوحِ وَعَاطِنِي كَأْسَ المُدَامَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسَاءِ
كَمْ لَيْلَةٍ شَغَلَ الرُّقَادُ عَذُولَهَا عَنْ عَاشِقَيْنِ تَوَاعَدَ لِلِقَاءِ (٢)

أو كقوله إنَّ شرب الخمر ثلاثة بلسم يشفي الهموم بسرعة :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ شُرْبَ ثَلاَثَةٍ دِرْيَاقُ هَمٍّ مُسْرِعٍ بِنَجَاةِ (٣)
فَاشْرَبْ عَلَى قَرْنِ الزَّمَانِ ، وَلاَتَمُتْ أَسَفاً عَلَيْهِ ، دَائِمَ الحَسَرَاتِ
وَانْظُرْ إلىٰ دُنْيَا رَبِيعٍ أَقْبَلَتْ مِثْلَ النِّسَاءِ ، تَبَرَّجَتْ لِزُنَاةِ (٤)

وكقوله في قصيدة أخرى :

أَسْقِينِي الرَّاحَ في شَبَابِ النَّهَارِ وَانْفِ هَمِّي بِالخَنْدَرِيسِ العُقَارِ (٥)
قَدْ تَوَلَّتْ زُهْرُ النُّجومِ وَقَدْ بَـ ـشَّرَ بِالصُّبْحِ طَائِرُ الأسْحَارِ (٦)
مَا تَرَى مِنْ نِعْمَةِ السَّمَاءِ عَلَى الأَرْ ضِ ، وَشُكْرِ الرِّيَاضِ لِلأَمْطَارِ
وَغِنَاءِ الطُّيُورِ كُلَّ صَبَاحٍ وَانْفِتَاقِ الأشْجَارِ بِالأَنْوَارِ

---

(١) الديوان ٢٣٠ .
(٢) انظر ديوان ابن المعتز ١٥ .
(٣) الدرياق : دواء يدفع السموم .
(٤) انظر ديوان الشاعر ١١٣ .
(٥) الخندريس : الخمرة المعتقة . العقار : اسم من أسماء الخمر .
(٦) انظر الديوان لابن المعتز ٣٢ .

فَكَأَنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عَرُوساً وَكَأَنَّا مِنْ قَطْرِهِ فِي نِثَارِ[1]

وهي أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً في زمن الربيع . ولكنها كما رأينا لا تصور حباً ولا تهالكاً على الخمر ، ولا عاطفة جامحة أو متّقدة ، إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ، ويظهر مقدرة على النظم في الخمر .[2]

وإنْ ادلهمت عليه الهموم ، استعانَ بالراح لقهر ليله الطويل ، وطردِ الهموم عن خاطره ، وصرفه إلى حبيبه البخيل بوصله ، الناقض لعهده ، فيقول :

مَنْ لأذْني بِعَذُولٍ وَلِكَفِّي بِشَمُولِ
قَهْوَةٍ ، تَذْهَبُ عَنَّا بِهُمُومٍ وَعُقُولِ
اسْتَعِنْ بِالرَّاحِ يَا صَاحِ عَلَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
قُلْ لِمَنْ يَبْخَلُ عَنِّي بِقَلِيلٍ مِنْ قَلِيلِ
بِسَلَامٍ مِنْ كَلَامٍ ، وَبِلَحْظٍ مِنْ رَسُولِ
هَلْ إلى وَصْلٍ ، وَإلَّا فَسَلُوا : هَلْ مِنْ سَبِيلِ ؟
وَيْحَ نَفْسِي مِنْ حَبِيبٍ نَاقِضِ العَهْدِ ، مَلُولِ[3]

فالشاعر يقبل على الخمرة إذاً لتنسيَه همومه ، ولتمسحَ كدرَ حياته بنصاعتها وصفائها ، وليتسلّى بها ويتعزّى عن مقتلِ أبيه الذي لم ينْسه يوماً . ومثَله في الخمر مثَله في الحبِّ ، فهو لا يتعبّدُ لها كما كان أبو نواس ، ولا يسبِّحُ بآلائها مقدِّما إليها قرابينه من الشعر . إنما هو يتسلّى بها[4] .

---

(١) النثار : ما ينثر على العروس من الدراهم والفضة .
(٢) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٤٣ .
(٣) الديوان ٣٦٧٩ .
(٤) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف .

وكما شربها على الهمِّ ، شربها أيضاً لاهياً ماجناً ، فكانت من متمِّمات انشراحه وعبثه . فما العيشُ بنظره إلّا كأس وساقٍ ، وما عداهما فلا يستحقُّ الذكر .

مَـا العَيْشُ إلَّا كَـأْسٌ وَسَـاقٍ وَكُـلّ مَـا بَعْـدَ ذَيْنِ فَقْـدُ (١)

ولذة الحياة ونورها مرتبطان بلذة الكأس ونورها ممزوجتين بالقبل والمواعيد ، كقوله :

وَكَأْسٍ كَمْصْبَاحِ السَّماءِ شَرِبْتُهَا عَـلَى قُبْلَةٍ ، أَوْ مَـوْعِـدٍ بِلقَـاءِ
أَتَتْ دُونَهَا الأَيَّـامُ حَتَّى كَـأَنَّهَا تَسَـاقُطُ نُـورٍ مِنْ فُتُـوقِ سَـماءِ
تَرَى كَأْسَهَا مِنْ ظَاهِرِ الكَأْسِ سَاطِعاً عَلَيْـكَ وَلَـوْ غَـطَّيْتَهَـا بِغَـطَاءِ (٢)

وإذا لم يقض يومه بين المدامة والندامى فليس محسوباً من أيّام عمره ، وإن كان بالقصف والشرب والطرب ، فهو مسروق من الزمن لصالح أيّام عمره :

إِذَا كَانَ يَوْمِي لَيْسَ يَوْمَ مُدَامَةٍ وَلاَ يَوْمَ فِتْيَانٍ ، فَمَا هُوَ مِنْ عُمْري
وَإِنْ كَـانَ مَعْمُوراً بِعُـودٍ وَقَهْوَةٍ فَذَلِكَ مَسْرُوقٌ لِعُمْري مِنَ الدَّهرِ (٣)

أو كقوله في شربها غير عابىء بتصاريف القدر ينتهب اللذات بفرح وسرور :

شَـرِبْنَـا بِـالصَّغـيرِ وَبِـالكَبـيرِ وَلَمْ نَحْفِـلْ بِـأَحْـدَاثِ الـدُّهُـورِ
وَقَـدْ رَكَضَتْ بِنَا خَيْـلُ المَلاَهي وَقَـدْ طِرْنَـا بِـأَجْنِحَـةِ السُّرُورِ (٤)

وهو يقصِّر طول الليالي بشرب الخمرة بين القيان والحسان ، يقول :

وَكَـرْخِيَّةِ الأَنْسَـابِ ، أَوْ بَـابِلِيَّـةٍ ثَوَتْ حِقْباً في ظُلْمَةِ القَارِ لاَ تَسْري
وَكَمْ لَيْلَةٍ لِلَّهْـوِ قَصَّرَ طُـولَهَـا بِسَاقِيَةِ الكَفَّيْنِ ، وَالعَيْنُ لِلْخَمْـرِ

(١) انظر ديوان ابن المعتز ١٦١ .
(٢) ديوان ابن المعتز ١٦ .
(٣) القهوة : من أسماء الخمرة . انظر الديوان ٢٣٣ .
(٤) الديوان ٢٣٨ .

وَإنِّي ، وَإنْ كَانَ التَّصَابِي يَحُثُّنِي   لأبْلُغَ حَاجَاتي ، وَأَجْرِي عَلَى قَدْرِي
كَرِيمُ ذُنُوبٍ إنْ يُصِبْ بَعْضَ لَذَّةٍ   يَدَعْ بَعْضَهَا فَوْقَ الأَحَادِيثِ والوِزْرِ

وهو يُزَيِّنُ لك الشرب على زهر الرياض والصهباء وخدور الفاتنات من خمرةٍ تنسيكَ الهمومَ وتبعثُ فيكَ الأشواق ، فيقول :

هَجَمَ الشِّتَاءُ ، وَنَحْنُ بِالبَيْدَاءِ   وَالقُطْرُبُلُّ الأَرْضَ بِالأَنْوَاءِ
فَاشْرَبْ عَلَى زَهْرِ الرِّياضِ يَشُوبُهُ   زَهْرُ الخُدُودِ ، وَزَهْرَةُ الصَّهْبَاءِ
مِنْ قَهْوَةٍ تُنْسِي الهُمُومَ وَتَبْعَثُ الـ   ـشَّوْقَ الَّذي قَدْ ضَلَّ في الأَحْشَاءِ
تُخْفِي الزُّجَاجَةُ لَوْنَهَا ، وَكَأَنَّهَا   في الكَفِّ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ إنَاءِ (١)

وهو يدعو خليلَه أن يشربَ الخمرة لطردِ ما يعتريه من الهموم ، وأن لا يهتمَّ بقول العاذِل ، لأنَّه سيملُّ من القال القيل :

وَاصِلْ نَهَارَكَ ، يَا خَلِيلِي   وَاطْرُدْ هُمُومَكَ بِالشَّمُولِ (٢)
وَدَعْ العَذُولَ ، فَإنَّهُ   سَيَمَلُّ مِنْ قَالٍ وَقِيلِ (٣)

والمتصفِّح لديوان ابن المعتزّ يراه طافحاً بكؤوسها ، مفعماً بدنانها ، مترفاً بسقاتها ، ضيّقَ الصدر بأقوال الناصحين ، فلنستمعْ إليه يخاطب خليليه ، معرِّضاً بقول النصوح ، مبيِّناً مذهبَه في هذه الحياة :

خَلِيلَيَّ اتْرُكَا قَوْلَ النَّصُوحِ   وَقُومَا فَامْزِجَا راحاً بِرُوحِ
فَقَدْ نَشَرَ الصَّبَاحُ رِدَاءَ نُورٍ   وَهَبَّتْ بِالنَّدى أَنْفَاسُ رِيحِ
وَحَانَ رُكُوعُ إبْرِيقٍ لِكَأْسٍ   وَنَادَى الدِّيكُ حيَّ عَلَى الصَّبُوحِ
وَحَنَّ النَّايُ مِنْ طَرَبٍ وَشَوْقٍ   إلى وَتَرٍ يُجَاوِبُهُ فَصِيحِ

---

(١) ديوان ابن المعتز ١٧ .
(٢) الشمول : الخمرة .
(٣) انظر ديوان ابن المعتز ٢٨٣ .

هَلِ الدُّنْيَا سِوَى هَـذَا ، وَهَذَا وَسـاقٍ لا يُخَـالِفُنَـا مَليـحِ ؟[1]

وها هو يدافع الذين يفنِّدونه في حياة اللهو والطرب ، بأنه متأبٍّ على لومهم وعذلهم له في تعاطيه للخمرة وأنّه لا يعبأُ بنصائحهم ، معرِّجاً على الخمرة يرشفها من كفِّ ساقٍ فتريحه من الحزن والكرب ، ليصفَ بعد ذلك الخمرةَ وكؤوسَها وإبريقَها وكيف عُتِّقت من زمن عادٍ وإرم ، ويخلع عليها من الصفات البشرية ما طابَ له القصيد :

يَا مَنْ يُفَنِّدُني في اللَّهْوِ وَالطَّرَبِ دَعْ مَا تَرَاهُ ، وَخُذْ رَأْيي فَحَسْبُكَ بِي[2]
أفي المُـدَامَـةِ تَلْحَـاني وَتَعْـذِلُني ؟ لَقَدْ جَذَبْتَ جَمُوحاً غَيْرَ مُنْجَذِبِ[3]
وَرُبَّ مِثْلِكَ قَدْ ضَاعَتْ نَصيحَتُهُ وَلَمْ يُطِقْ وِدَّ ذِي رَأْيٍ وَلاَ أَدَبِ
وَقَدْ يُبَاكِرُني السَّاقي ، فَـأَشْرَبُهَـا رَاحاً تُريحُ مِنَ الأَحْزَانِ وَالكُرَبِ
مَا زَالَ يَقْبِضُ رُوحَ الدِّنِّ مِبْزَلُهُ حَتَّى تَغَلْغَلَ سِلْكُ الدُّرِّ في الثُّقُبِ
وَأَمْطَرَ الكَأْسُ مَـاءً مِنْ أَبَارِقِـهِ فَأَنْبَتَ الدُّرَّ في أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ
وَسَبَّحَ القَوْمُ لَمَّا أَنْ رَأَوْا عَجَباً نُوراً مِنَ المَاءِ ، في نَارٍ مِنَ العِنَبِ
لَمْ يُبْقِ فيهَا البِلَى شَيئاً سِوَى شَبَحٍ يُقيمُهُ الظَنُّ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالكَذِبِ
سُـلاَفَـةٌ ورِثَتْها عَـادُ عَنْ إِرَمٍ كَانَتْ ذَخيرَةَ كِسْرَى عَنْ أَبٍ وَأَبِ
في جَوفِ أَكْلَفَ قَدْ طَالَ الوُقُوفُ بِهِ لا يَشْتَكِي السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ وَلاَ تَعَبِ[4]
يَتيمَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الدَّهْرِ قَدْ رُزِقَتْ جِدّاً مُزَاحاً ، وَجِدُّ النَّاسِ مِنْ لَعِبِ[5]

ويعتقد الشاعر أنّه لا عذر للعاذل في شرب الخمرة ، فانَّه لا يرى بأساً في

(١) انظر ديوان ابن المعتز ١٤٦ .
(٢) يفندني : يكذبني .
(٣) تلحاني : تلومني . الجموح : العاصي .
(٤) الآين : التعب .
(٥) ديوان ابن المعتز ٧٥ ـ ٧٦ .

شربها ، فالويل من مثل هؤلاء الناس ومن لومهم ، ثم ينتقل بعدها إلى وصف الساقي ودلّه وغمزه وما يلاقيه منها :

لا عُـذْرَ لِلْعَـاذِلِ فِي الكَـاسِ   فَمَا أَرَى فِي الكَاسِ مِنْ بَاسِ
وَيْـلِي مِنَ النَّاسِ وَمِنْ لَـوْمِهِمِ   مَـا لَقِيَ النَّـاسُ مِنَ النَّـاسِ
مُهَفْهَفُ الخَصْرِ هَضِيمُ الحَشَـا   مَشُـوِّقٌ بِـالـوَعْـدِ مَكَّـاسِ [1]
وَشَـمَّـرَ الـذَّيْـلَ إلى خَصْـرِهِ   وَحَثَّنَـا بِـالـرَّطْـلِ وَالـكَـاسِ
وَلَمْ أَزَلْ ، وَاللَّيْـلُ سِـتْرٌ لَنَـا   مِـنْ دُونِ رُقَّـابٍ وَحُـرَّاسِ
أَشْكُـو إلى غَمْـزَةِ عَيْنَيْـهِ مَـا   قَـاسَيْتُـهُ مِـنْ قَلْبِـهِ القَـاسِ
في لَـيْـلَةٍ مَـا مِثْلَهـا لَـيْـلَـةٌ   لَسْتُ لَهَا مَا عِشْتُ بِالـنَّاسِ [2]

وفي قصيدة أخرى يحمِلُ على اللائم ومن هم على شاكلته حملةً قاسية يؤنّبهم ويطلب منهم أن يتركوا السادرَ في غيِّه ، فلا هو سامعٌ لهم ، ولا لومُهم نافعٌ فيه ، ثم راح يصفُ الخمرةَ وصفاءَها حتى اختفت وغدت كبقايا اليقين كادَ يدركه الشكُّ ، ثمَّ يصف الساقي ومبزلَه ، فيقول :

أَدِيرا عَلَيَّ الكَأْسَ لَيسَ لَهَا تَرْكُ   وَيَا لائمي ! لي فِتْنَتِي ، وَلَكَ النُّسْكُ
دَعُونِيَ وَنَفْسِي ، بَارَكَ اللهُ فِيكُمُ   أَمَا لأسِيرِ الغَيِّ مِنْ لَوْمِكُمْ فَكُّ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرُّشْدِ وَالنُّصْحِ قَابِلاً   فَسَخْطُكُمْ جَهْلٌ ، وَلَوْمُكُمْ مَحْكُ
مُعَتَّقَـةٌ صَـاغَ المِـزَاجُ لِـرَأْسِهَـا   أَكَـالِيلَ دُرٍّ مَـا لِمَنْظُومِهَـا سِلْكُ
فَقَدْ خَفِيَتْ مِنْ صَفْوِهَـا فَكَأَنَّهَا   بَقَايَا يَقِـينٍ كَادَ يُـدْرِكُهُ الشَـكُّ
وَطَـافَ بِهَا سَـاقٍ أَدِيبٌ بِمِبْزَلٍ   كَخِنْجَرِ عَيَّارٍ ، صِنَـاعَتُهُ الفَتْـكُ
إِذَا سَكَنَتْ قَلْبَـاً تَـرَحَّـلَ هَمُّـهُ   وَطَابَتْ لَهُ دُنْيَاهُ وَانْقَمَعَ الضَّنْكُ

---

(١) مكاس : مفاضل .
(٢) ديوان ابن المعتز ٢٦٩ .

وَمَا المُلْكُ في الدُّنْيَا بِهَمٍّ وَحَسْرَةٍ   وَلَكِنَّمَا مُلْكُ السُّرُورِ هُوَ المُلْكُ (١)

وإلى جانب وصفه لهؤلاء اللائمين في شرب الخمرة وذكره لصور من لومهم فإنَّه تحدَّث عن الندمان وصفاتهم المستحبَّة ونشوتهم بالخمر، فقال :

نَبَّهْتُ نَدْمَانِي، فَهَبَّا   طَرَباً إلى كَاسِي وَلَبَّى
نَشْوَانَ يَحْكِي مَيْلُهُ   غُصْناً بِأَيْدِي الرِّيحِ رَطْبَا
وَسَقَيْتُهُ كَأْساً عَلَى   مَرَضِ الخُمَارِ فَمَا تَأَبَّى (٢)

ويحدثنا عن الندامى ولهوهم بدير المطيرة ، فيقول :

وَفِتْيَانِ لَهْوٍ غَدَوْا لِلصَّبُو   حِ ، وَقَدْ قَدَحَ اللَّيْلُ فَجْراً وَأَوْرَى
نَدَامَى ، فَلاَذَا يُمَارِي لِذَا   وَلاَ ذَاكَ يَجْلِسُ عَنْ ذَاكَ دَوْرَا (٣)
بِدَيْرِ المَطِيرَةِ نُقْرَى المُدَا   مَ لَدَى القِسِّ لَمَّا أَتَيْنَاهُ زَوْرَا (٤)
إذَا مَا طَعَنَّا بُطُونَ القَنَا   نِي سَارَ دَمُ الكَرْمِ عَنْهُنَّ سَوْرَا (٥)

ويجمع بين الندمان ووصف الخمرة في أبيات جميلة ، منها قوله :

وَنَدْمَانٍ دَعَوْتُ وَهَبَّ نَحْوِي   وَسَلْسَلَهَا كَمَا انْخَرَطَ العَقِيقُ (٦)
كَأَنَّ بِكَأْسِهَا نَاراً تَلَظَّى   وَلَوْلاَ المَاءُ كَانَ لَهَا حَرِيقُ
وَقَدْ مَالَتْ إلى الغَرْبِ الثُّرَيَّا   كَمَا أَصْغَى إلى الحِسِّ الفَرُوقُ (٧)
كَأَنَّ غَمَامَةً بَيْضَاءَ بَيْنِي   وَبَيْنَ الرَّاحِ تُحْرِقُهَا البُرُوقُ

---

(١) ديوان ابن المعتز ٣٥٢ .
(٢) الديوان ٧٥ .
(٣) يماري : يجادل .
(٤) الزور : الزائرون .
(٥) سار سوراً : وثب وثباً ، انظر ديوان ابن المعتز ٢٣٨ .
(٦) انخرط : انتظم .
(٧) الفروق : الكثير الخوف .

كَأَنَّ نُجُومَهَا ، وَالفَجْرُ يَحْدُو ... بِلَيْلَتِهِ ، سُلَيْمَانُ يفيقُ [1]

ويحدثنا عن سرعة استجابة الندامى لدعوته وتفديته بالأب ، فيقول :

أَلاَ رُبَّ يَوْمٍ لي قَصيرٌ نَهَارُهُ ... كَسَلَّةِ سَيْفٍ ، أَوْ كَرَجْمَةِ كَوْكَبِ

نَعِمْتُ بِهِ في فِتْيَةٍ ، أَيَّ فِتْيَةٍ ... سِرَاعٍ إلى الدَّاعي : بِأَفْديكَ بِالأَبِ [2]

وفي قصيدة أخرى بعنوان «قُم يا نديمي» يصف لنا دعوتَه النديمَ إلى الصبوح ، وخفّةَ روحِ هذا النديم في طيب معاقرته الخمرَ وتلقّيه نصحَهُ في اهتبال ساعات العمر بشربٍ أو لقاء :

قُمْ يَا نَديمي نَصْطَبِحْ بِسَوَادِ ... قَدْ كَادَ يَبْدُو الصُّبْحُ ، أَوْ هُوَ بَادِ

وَأَرَى الثُّرَيَّا في السَّمَاءِ كَأَنَّهَا ... قَدَمٌ تَبَدَّتْ في ثِيَابِ حِدَادِ

فَأَجَابَنِي بِيَمينِهَا ، فَمَلأْتُهَا ... بِزُجَاجَةٍ كَالكَوْكَبِ الوَقَّادِ

يَا صَاحِ لاَ تَخْدَعْكَ سَاعَةُ غَفْلَةٍ ... عَنْ لَذَّةٍ ، أَوْ فِكْرَةٍ لِمَعَادِ

وَاشْرَبْ عَلَى طِيبِ الزَّمَانِ فَقَدْ حَدَا ... بِالصَّيْفِ مِنْ أَيْلُولَ أَسْرَعَ حَادِ

وَأَشَمَّنَا في اللَّيْلِ بَرْدَ نَسيمِهِ ... وَارْتَاحَتِ الأَرْوَاحُ في الأَجْسَادِ

وافَاكَ بِالأَنْدَاءِ قُدَّامَ الحَيَا ... فَالأَرْضُ لِلأَمْطَارِ في اسْتِعْدَادِ [3]

ومرّة أخرى يحثُّ النديم على الاستيقاظ ، وقد أرقّه السهد وحان الصباح ولم يرقد بعد :

قُمْ يَا نَديمي مِنْ مَنَامِكَ وَاقْعُدِ ... حَانَ الصَّبَاحُ وَمُقْلَتِي لَمْ تَرْقُدِ

أَمَّا الظَّلامُ ، فَحينَ رَقَّ قَميصُهُ ... وَأَرَى بَيَاضَ الفَجْرِ كَالسَّيْفِ الصَّدِي [4]

وعن ليل الندامى يحدثنا ، فيقول :

---

(١) ديوان ابن المعتز ٣٤٣ .

(٢) الديوان ٨٠ .

(٣) الديوان ١٧٧ .

(٤) انظر ديوان ابن المعتز ١٧٩ .

وَلَيْلٍ قَدْ سَهِرْتُ وَنَامَ فِيهِ نَدَامَى صُرِّعُوا حَوْلِي رُقُودا
أُسَامِرُ فيهِ قَهْقَهَةَ القَنَاني وَمِزْمَاراً يُحَدِّثُني وَعُودَا
يَكَادُ اللَّيْلُ يَرْجُمُني بِنَجْمٍ وَقَالَ : أَرَاهُ شَيْطَاناً مَرِيدا[1]

ويخاطب الندمان طالبا منهم أن يعلّلوه بناي وعود وابنة العنقود ، مشيراً الى أنّها سبب مقتل الوليدِ بن يزيدَ الخليفة الأمويِّ الماجن ، فيقول :

عَلِّلَاني بِصَوْتِ نَايٍ وَعُودِ وَاسْقِيَاني دَمَ ابْنَةِ العُنْقُودِ
أَشْرَبُ الرَّاحَ وَهْيَ تَشْرَبُ عَقْلي وَعَلَى ذَاكَ ، كَانَ قَتْلُ الوَليدِ
رُبَّ سُكْرٍ جَعَلْتُ مَوْعِدَهُ الصُّبْـ ـحَ ، وَسَاقٍ حَثَثْتُهُ بِمَزِيدِ[2]

ولم ينس الشاعر أن يخصّص قسماً واسعاً من خمريّاته للحديث عن طيب الخمرة ، وعتقها ، وصفائها ، ولونها وطعمها ، ورائحتها ، وكؤوسها ، وأباريقها ، فكان بذلك شريكاً لمن سبقه من أصحاب هذا اللون من الشعر كالأعشى والوليد بن يزيد وأبي نواس وغيرهم . ولكن من الحقّ والإنصاف أن نعترف بخيال ابن المعتزّ الخلّاق الذي مكّنه من التفوّق في بعض الأوصاف ، من مثل قوله في :

آ ـ الخمر المعتقة :

اشْرَبْ وَأَسْقِ ابن بِشْرٍ مِنْ مُشَعْشِعَةٍ كَأَنَّ في حَانِهَا نُوراً بِلَا نَارِ
دَامَتْ ثَلَاثِينَ حَوْلاً في مَعَاصِرِهَا تُسَامِرُ الدَّهْرَ في طَينٍ مِنَ القَارِ[3]

وقال أيضاً في تعتيقها :

فَأَوْدَعَهَا الدِّنَانَ مُصَفَّيَاتٍ وَأَسْلَمَهَا إلى شَمْسِ النَّهَارِ

(١) المرجع السابق ١٧٩ .
(٢) ديوان ابن المعتز ١٨١ .
(٣) انظر الديوان ٢٣٣ .

وَأَلْبَسَهَا قَلاَنِسَ مُعْلَمَاتٍ وَصَاحَبَهَا بِصَبْرٍ وَانْتِظَارِ
فَلَمَّا جَاوَزَتْ عِشْرِينَ عَاماً مُحَذَّرَةً، وَقَرَّتْ فِي قَرَارِ
أُتِيحَ لَهَا مِنَ الفِتْيَانِ سَمْحٌ جَوَادٌ لاَ يَشِحُّ عَلَى العُقَارِ
فَأَبْرَزَهَا تُحَدِّثُ عَنْ زَمَانٍ كَلَمْعِ الآلِ فِي البِيدِ القِفَارِ(١)

وقال في عتقها:

أَسْكَنُوهَا فِي الدَّنِّ مِنْ عَهْدِ نُوحٍ كَظَلاَمٍ فِيهِ نَهَارٌ حَبِيسُ
يُخْرِجُ العِلْجُ خَيْرَهَا، وَتُعَانِي فِي ظِلاَلٍ كَمَا تُصَانُ العَرُوسُ
وَهْيَ عِنْدِي لأَذَا، وَلأَذَا، وَهَذَا هِيَ سَعْدٌ قَدْ فَارَقَتْهُ النُّحُوسُ
أَيُّ حُسْنٍ تُخْفِي الدِّنَانُ مِنَ الرَّا حِ، وَحُسْنٍ تُبْدِيهِ مِنْهَا الكُؤُوسُ
يَا نَدِيمَيَّ! اسْقِيَانِي فَقَدْ لاَ حَ صَبَاحٌ وَأَذَّنَ النَّاقُوسُ
مِنْ كُمَيْتٍ كَأَنَّهَا أَرْضُ تِبْرٍ فِي نَوَاحِيهِ لُؤْلُؤٌ مَغْرُوسُ(٢)

أو قوله:

قَدْ نَعَى الدِّيكُ الظَّلاَمَا فَاسْقِنِي الرَّاحَ المُدَامَا
قَهْوَةٌ بِنْتُ دِنَانٍ عُتِّقَتْ خَمْسِينَ عَامَاً
خِلْتُهَا فِي البَيْتِ جُنْداً صَفَّقُوا حَوْلِي قِيَامَا(٣)

أو قوله من قصيدة طويلة:

جَاءَ بِهَا كَالسِّرَاجِ صَافِيَةً سُلاَفَةً لَمْ تُدَسْ، وَلَمْ تُهَنِ
مِنْ مَاءِ كَرْمٍ قَدْ عُتِّقَتْ حِقَباً فِي بَطْنِ أَحْوَى الضَّمِيرِ مُخْتَزَنِ(٤)

ب - ووصف كؤوسها وأوانيها فيقول:

---

(١) الديوان ٢٣١ .
(٢) ديوان ابن المعتز ٢٧٢ .
(٣) الديوان ٤٠٦ .
(٤) الديوان ٤٣٨ .

وَكَـأْسٍ حَبْـرِيَّـةٍ شَكَّتْ بِمِبْـزَلِهَـا أَحْشَـاءَ مُشْعِلَةٍ بِالقَـارِ جَـوْفَـاءِ[1]

أو قوله :

يَـزِفُّ كَـأْسـاً بِمِنْـديـلٍ مُتَـوَّجَـةٍ وَرَأْسُهَا فِضَّةٌ ، وَالجِسْمُ مِنْ ذَهَبِ[2]

أو كقوله :

يُمجُّ سُلاَفَ الخَمْرِ فِي عَسْجَدِيَّةٍ تَوَهَّجُ فِي يُمْنَاهُ كَالكَـوْكَـبِ الفَرْدِ

مُحَصَّـرَةٍ فيهـا تَصَـاويـرُ فَـارِسٍ وَكِسْرَى غَرِيقٍ حَوْلَهُ فِرَقُ الجُنْدِ

أو كقوله :

ظَلَلْتُ بِنُعْمَى خَـيْرِ يَـوْمٍ وَلَيْلَةٍ يَدُورُ عَلَيْنَا الكَأْسَ فِي فِتْيَةٍ زُهْرِ

بِكَفِّ غَـزَالٍ ذِي عِذَارٍ وَطُـرَّةٍ وَصَدْغَيْنِ كَالقَافَيْنِ فِي طَرَفَيْ سَطْرِ

لَدَى نَرْجِسٍ غَضٍّ وَسِدْرٍ كَأَنَّهُ قُدُودُ جَوَارٍ مِلْنَ فِي أُزُرٍ خُضْرِ[3]

أو كقوله :

غَـدَا وَالصُّبْحُ تَحْتَ اللَّيْـلِ بَادٍ كَـطِرْفٍ أَبْلَقٍ مُلْقَى الجَـلاَلِ[4]

بِكَـأْسٍ مِنْ زُجَـاجٍ فِيـهِ أُسْدٌ فَـرَائِسُهُـنَّ أَلْبَـابُ الـرِّجَـالِ[5]

أو كقوله يصف زق الخمر :

أَتْـلَفَ المَـالَ وَمَـا جَمَّـعْـتُـهُ طَلَبُ اللَّذَاتِ فِي مَـاءِ العِنَـبْ

وَاسْقِيَـا بِـالـزِّقِ مِنْ حَـانُـوتِهَـا شَائِلَ الرِّجْلَيْنِ مَعْصُوبَ الذَّنَبْ[6]

كُـلَّمَا كُـبَّ لِشُـرْبٍ خِـلْتَـهُ حَبَشِيّـاً قُـطِعَتْ مِنْـه الـرُّكَبْ[7]

---

(١) الديوان ١٣ .

(٢) الديوان ٧٣ .

(٣) ديوان ابن المعتز ٢٣٥ .

(٤) الطرف الفرس الكريم .

(٥) انظر الديوان ٣٨١ .

(٦) شائل : مرفوع .

(٧) الديوان ٧٢ .

أو كقوله يصف أباريقها :

يَالَيْلَةَ الوَصْلِ ، لَيْتَ الصُّبْحَ يَهْجُرُهَا ... يَا لَيْلَةَ الوَصْلِ دُومي ، هَكَذَا دُومي
بَـاتَتْ أَبَـارِيقُنَـا حُمْـراً عَصَـائِبُهَـا ... حَيْثُ السُّقَـاةُ بِتَكْبِيرٍ وَتَعْـظيمِ[1]

أو قوله :

طَرِبْتُ إلى قَصْفِ المَجَالِسِ وَالشُّرْبِ ... وَلَحْظَةِ سَاقٍ خَافَ عَيْناً مِنَ الصَبِّ
وَرَاحٍ كَـأَنَّ المَاءَ أَلْبَسَ كَـأْسَهَا ... أَكَاليلَ قَدْ نُظِّمْنَ مِنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبِ[2]

أو كقوله :

وَنَـدْمَـانٍ سَقَيْتُ الـرَّاحَ صِرْفـاً ... وَأُفْقُ الصُّبْحِ مُرْتَفِـعُ السُّجُـوفِ
صَفَتْ وَصَفَتْ زُجَـاجَتُهَا عَلَيْهَـا ... كَمَعْنىً دَقَّ في ذِهْنٍ لَـطيـفِ[3]

جـ ـ ويصف السقاة وهيآتهم ، ويخصُّ أبناء النصارى منهم فيقول :

وَمُقَـرْطَقٍ يَسْعَى إلى النُّـدَمَـاءِ ... بِعَـقـيـقَـةٍ في دُرَّةٍ بَـيْـضَـاءِ[4]
كَـمْ لَيْـلَةٍ قَـدْ سَرَّني بِمَبيـتِـهِ ... عِنْدي ، بِلاَ خَوْفٍ مِنَ الرُّقَبَاءِ
وَمُهَفْهَفٍ عَقَـدَ الشَّرَابُ لِسَـانَـهُ ... فَحَـديثُـهُ بِـالـرَّمْـزِ وَالإيمَـاءِ[5]

أو قوله :

أَلاَ رُبَّمَـا كَأْسٌ سَقَـاني سُلاَفَهَـا ... رَهيفُ التَّثَنّي ، وَاضِحُ الثَّغْرِ أَشْنَبُ[6]
إِذَا أَخَذَتْ أَطْرَافُـهُ مِنْ قُنُوئِهَـا ... رَأَيْتُ لُجَيْنـاً بِـالمُدَامَـةِ مُـذْهَبُ
كَأَنَّ بِخَدَّيْهِ الَّذي جَـاءَ حَامِـلاً ... بِكَفَّيْهِ مِنْ أَلْوَانِهَا حِينَ يُقَطِّبُ[7]

---

(١) الديوان ٤٠٥ .
(٢) الديوان ٧٩ .
(٣) الديوان ٣٢٢ .
(٤) المقرطق : لابس القرطق وهو قباء ذو وطاق واحد .
(٥) الديوان ١٧ .
(٦) الأشنب : عذب الأسنان نقيها .
(٧) انظر الديوان ٧٧ .

وقال في الساقي وصفاً رائعاً قلما نقع له نطير :

سَقَانِي مِنْ مُعَتَّقَةِ الدِّنَانِ ... مَلِيحُ الدَّلِّ مُخْتَضِبُ البَنَانِ
وَهَبْتُ لِوَجْهِهِ أَلْحَاظَ عَيْنِي ... بِلَا خَوْفٍ لِأَوْلَادِ الزَّوَانِي
وَفَرَّغَ حُسْنَهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... وَجَلَّ عَنِ المُشَاكِلِ وَالمُدَانِي
فَجَاءَ كَمَا تَمَنَّى كُلُّ نَفْسٍ ... لَهُ بِدَعُ دَقِيقَاتُ المَعَانِي
وَحَمَّلَ كَفَّهُ كَأْساً تَلَظَّى ... بِنَارٍ لَا تُقَنَّعُ بِالدُّخَانِ
فَلَمَّا صَبَّ فِيهَا المَاءَ ثَارَتْ ... كَمَا ثَارَ الشُّجَاعُ إِلَى الجَبَانِ
فَخِلْتُ الكَأْسَ مَرْكَزَ أُقْحُوَانٍ ... وَتُرْبَتُهُ سَحِيقُ الزَّعْفَرَانِ(١)

وقال في قصيدة أخرى بعنوان «مهرجان ونيروز» مازجاً بين وصف الساقي ووصف الخمرة :

يَا صَاحِ يَشْغَلُ سَمْعِي ، عَنْ عَوَاذِلِهِ ... قَرْعُ الكُؤُوسِ بِأَفْوَاهِ القَوَازِيزِ(٢)
أَصْغَى بِإِبْرِيقِهِ مِنْ تَحْتِ مِبْزَلِهَا ... حَتَّى تَمَلَّأَ مِنْ أَحْشَاءِ مَوْخُوزِ(٣)
يُضَاحِكُ الأُقْحُوَانُ الغَضُّ فِي فَمِهِ ... تُفَّاحَ خَدٍّ بِخَالِ المِسْكِ مَغْرُوزِ
كَأَنَّ دِيبَاجَةً فِي وَجْهِهِ نُشِرَتْ ... تَطْرِيزَةٌ خَتُّهَا فِي حُسْنِ تَطْرِيزِ
فَنَحْنُ مِنْهُ ، وَفِي أَيَّامِهِ أَبَداً ... فِي مِهْرَجَانٍ نُغَادِيهِ وَنَيْرُوزِ
إِذْ لَا يَزَالُ مِنَ الفِتْيَانِ ذُو طَرَبٍ ... يَعُبُّ مِنْ ذَهَبٍ قَدْ ذَابَ إِبْرِيزِ
دَامَ عَلَيْهِ هَجِيرُ الشَّمْسِ يَسْبُكُهُ ... فَمَيَّزَ الصَّفْوَ مِنْهُ أَيَّ تَمْيِيزِ
تُنَازِعُ المَاءَ فِي الأَقْدَاحِ إِذْ مُزِجَتْ ... بِصَارِمٍ مِنْ سُيُوفِ النَّوْمِ مَهْزُوزِ(٤)

أو كقوله :

---

(١) ديوان ابن المعتز ٤٤١ .
(٢) القوازيز : أقداح يشرب بها الخمر مفردها قازوزة .
(٣) الموخوز : من وخزه إذا شكه بإبرة .
(٤) الديوان ٢٦٢ .

قَدْ حَثَّني بِالكَأْسِ ، أَوْ في فَجْرِهِ   سَاقٍ عَلاَمَةُ دِينِهِ في خَصْرِهِ[١]
وَكَأَنَّ حُمْرَةَ خَدِّهِ في لَوْنِهَا   وَكَأَنَّ طيبَ رِيَاحِهَا مِنْ نَشْرِهِ[٢]

أو كقوله :

وَسَاقي حَانَةٍ يَغْدُو عَلَيْنَا   بِزُنَّارٍ ، وَأَقْبِيَةٍ صِغَارِ
أَمَا وَفُتُورِ مُقْلَةِ بَابِلِيٍّ   بَديع القَدِّ ذِي صُدْغٍ مُدَارِ
لَقَدْ فَضَحَتْ دُمُوعُ العَيْنِ سِرِّي   وَأَحْرَقَني هَوَاهُ بِغَيْرِ نَارِ
وَيَخْجَلُ ، إِذْ يُلاَقيني ، كَأَنِّي   أُنَقِّطُ خَدَّهُ بِالجُلَّنَارِ[٣]

أو قوله :

وَشُرْبِ كَأْسٍ في مَجْلِسٍ بَهِجٍ   لَمْ أَرَ فيهِ هَمّاً ، وَلَمْ يَرَني
مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ مُقَرْطَقٍ غَنِجٍ   يَعشَقُهُ مَنْ عَلَيْهِ يَعْذِلُني
تَلُوحُ صُلْبَانُهُ بِلَبَّتِهِ   كَنُورِ زَهْرِيَّةٍ بِلاَ غُصُنِ[٤]

د ـ وقال يصف خمارة :

وَمُصَرَّعينَ مِنَ الخُمَا   رِ عَلَى السَّوَاعِدِ وَاللِّحَمْ
قَتَلَتْهُمُ خَمَّارَةٌ   عَمْداً ، وَلَمْ تُؤْخَذْ بِدَمْ
وَسَقَتْهُمُ مَشْمُولَةً   ظَلَّتْ تُحَدِّثُ عَنْ إِرَمْ
لَمَّا أَرَتْهُمْ كَأْسَهَا   شَرِبُوا ، وَمَا قَالُوا بِكَمْ[٥]

أو كقوله مازجاً بين عتق الخمرة والدير وما يجري به من قرع للنواقيس وأصوات التهليل :

---

(١) كناية عن الصليب في خصره .
(٢) الديوان ٢٢٧ .
(٣) الديوان ٢٣٠ .
(٤) الديوان ٤٣٨ .
(٥) انظر ديوان المعتز ٢٧١ .

لاَ تَبْـكِ لِلظَّاعِـنـينَ وَالـعـيسِ وَمَنْـزِلٍ ظَـلَّ غَـيْرَ مَـأْنُـوسِ
وَاشْرَبْ عُقَاراً قَـدْ عُتِّقَتْ حِقَباً مِنْ عَهْدِ عَادٍ بِالوَعْـدِ مَحْرُوسِ
تَخْـرُجُ مِنْ دَنِّهَا ، وَقَدْ حَـدِبَتْ مِثْـلَ هِـلاَلٍ بَـدَا بِتَقْـويسِ
زُفَّتْ إِلَيْنَـا مِنْ بَيْتِ دَسْكَـرَةٍ وَشَـيَّعَـتْـهَـا جُـنُـودُ إِبْليسِ
فَلَمْ يَـزَلْ يُنْـزِفُ المُـدَامَـةَ مِنْ مُنْتَبَـذٍ بِـالبِـزَالِ مَنْخُـوسِ
كَالنَّجمِ قَدْ لَجَّ في الغُرُوبِ وَقَدْ أَنْـذَرَ بِـالصُّبْحِ قَـرْعُ نَـاقُـوسِ
وَضَـجَّ في الدَّيْـرِ كُلُّ مُبْتَهِجٍ مُـشَـفَّـعٍ لَـيْـلَهُ بِـتَـقْـدِيسِ
يَقُـولُ يَـا مَنْ يَبْغي الكُنُـوزَ إِلى رَزِينِ تِـبْرٍ في الـدَنِّ مَـرْمُـوسِ
تُصْبِـحْ غَنيـاً مِنَ السُّرُورِ وَمِنْ عَـقْـلِكَ تُمْسي مِـنَ المَـفَـالـيسِ
مَنْ رَامَ في تَـرْكي المُدَامَ كَمَنْ يَكْتُبُ بِـالمـاءِ في القَـرَاطـيسِ

هـ - وقد تفنَّن في وصف الخمرة فأكثر ، فقال :

وَمُدَامَةٍ يَكْسُـو الزُّجَـاجُ شُعَاعَهَـا كَـالخَيْطِ مِنْ ذَهَبٍ ، إِذامَا سُلَّتِ
حُبِسَتْ وَلَمْ تَرَ غَيْرَهَـا في دَنِّهَا فَتَقَصَّـرَتْ مِنْ نَقْشِهَـا وَتَخَلَّتِ[1]

وقال في وصفها :

وَعَرُوسٍ زُفَّتْ عَلَى بَـطْنِ كَفٍّ في قَـميصٍ مُـنَـقَّشٍ بِـزُجَـاجِ
فَهْيَ بَعْـدَ المَزْجِ تَـوْرِيـدُ خَـدٍّ وَهْيَ مِثْلُ اليَاقُوتِ قَبْلَ المِزَاجِ[2]

أو قوله :

أَسْـقِـيَـاني وَاعْـمَـلاَ طَـرَبَـا وَأَديـرَا الـكَـأْسَ وَانْـتَـخِـبَـا
بِنْتُ كَـرْمٍ شَـابَ مَـفْـرِقُهَـا وَثَـوَتْ في دَنِّهَا حِـقَـبَـا
وَاكْـتَـسَـتْ مِنْ فِـضَّـةٍ زَرَداً خِـلْتُـهَـا مِـنْ تَحْـتِـهِ ذَهَـبَـا

---

(١) الديوان ١١٢ .
(٢) الديوان ١٣١ .

وَكَـأَنَّ المَـاءَ ، إِذْ مُـزِجَـتْ مُـلْعِـجٌ في كَـأْسِـهَـا لَهَـبَـا
فَـأَدَارَت في جَـوَانِـبِـهـا حَـبَبـاً ، تُـغْـرِي بِـهِ حَـبَبَـا
كَـكُـمَـيْـتِ الَّـلوْنِ قَـلَّدَهَـا فَـارِسٌ مِـنْ لُـؤْلُـؤٍ لَـبَـبَـا[1]

وقال أيضاً في وصفها :

غَـدَا بِهَـا صَـفْـرَاءَ كَـرْخِيَّـةً كَـأَنَّها في كَـأْسِـهَـا تَـتَّـقِـدْ
وَتَحْسَبُ المَـاءَ زُجَاجـاً جَـرَى وَتَحْسَبُ الأَقْـدَاحَ مَـاءً جَمَـدْ[2]

وقال :

خَلِيلَيَّ قَدْ طَـابَ الشَّرَابُ المُبَرَّدُ وَقَدْ عُدْتُ بَعْدَ الشَكِّ ، وَالعَوْدُ أَحْمَدُ
فَهَاتَا عُقَاراً في قَميصٍ زُجَاجِهِ كَـيَـاقُـوتَـةٍ في دُرَّةٍ تَـتَـوَقَّـدُ
يَصُوغُ عَلَيْهَا المَاءُ شُبَّاكَ فِضَّةٍ لَهَـا حَلَقٌ بيضٌ تُحَـلُّ وَتُعْقَـدُ
وَغَنَّى لَهَـا في جَـوْفِهَـا حَبَشِيَّةٌ عَلَيْهـا سَرَاوِيلٌ مَن المَاءِ مُجْسَدُ
فَظَاهِرُهَا حِلْمٌ صَبُورٌ عَلَى الأَذَى وَبَـاطِنُهَـا جَهْـلٌ يَقُـومُ وَيَقْعُـدُ[3]

وقال :

فَـاسْـقِـني لِـلرَّاحِ صَـافِـيَـةً تَـنْشُرُ الإِصْبَـاحَ في الـظُّلَمِ
فَـإِذَا مَـا المَـاءُ خَـالَـطَهَـا رَاضَ مِـنْـهَـا سَـهْـلَةَ الـشِّـيَـمِ
وَنَـفَـى مَـكْـرُوهَ سَـوْرَتِهـا ثُـمَّ هَـدَّاهَـا إلى الـكَـرَمِ
وَاكْـتَسِـبْ مِـنْ شَـكْـلِهِ حَـبَبـاً بَـيْنَ مَـنْـثُـورٍ وَمُـنْـتَـظِمِ
رَحْـلُهَـا كَـفٌّ تَـسِـيرُ بِـهِ مِنْ فَمِ الإِبْـرِيـقِ نَحْـوَ فَمِـي
وَكَـسَـاهَـا قِشْرَ لُـؤْلُـؤَةٍ لَـيْسَ فـيـهَـا سِرُّ مُـكْـتَـتِـمِ[4]

---

(١) اللبب : مكان القلادة من الرقبة انظر الديوان ٧٨ .
(٢) ديوان ابن المعتز ١٧٨ .
(٣) الديوان ١٨٠ .
(٤) الديوان ٤٠٧ .

و ـ ومزجَ الخمرةَ بالفلسفة وما شاع في عصره من ألفاظ علماء الكلام قوله :

وَصَفْرَاءَ مِنْ صَبْغِ الهَجيرِ لِرَأْسِهَا ... إذَا مُزِجَتْ إكليلُ دُرٍّ مُنَظَّمِ
قَطَعْتُ بِهَا عُمْرَ الدُّجَى وَشَرِبْتُهَا ... ظُلاَمِيَّةَ الأَجْسَامِ نُورِيَّةَ الدَّمِ[1]

وقوله :

أَلاَ فَاسْقِنيها قَدْ مَشَى الصُّبْحُ في الدُّجَى ... عُقَاراً ، كَلَوْن النَّارِ حَمْرَاءَ قَرْقَفَا
فَنَاوَلَنِي كَأْساً ، أَضَاءَ بَنَانَهُ ... تَدَفَّقُ يَاقُوتاً ، وَدُرّاً مُجَوَّفَا
وَلَمَّا أَذَقْنَاهَا المِزَاجَ تَسَعَّرَتْ ... فَخِلْتُ سَنَاهَا بَارِقاً مُتَكَثِّفَا
يَطُوفُ بِهَا ظَبْيٌ مِنَ الإِنْسِ شَادِنٌ ... يُقَلِّبُ طَرْفاً فَاسِقَ اللَّحْظِ مُدْنَفَاً
عَلِيماً بِأَلْحَاظِ المُحِبِّينَ حَاذِقاً ... بِتَسْليمِ عَيْنَيْهِ ، إذَا مَا تَخَوَّفَا
فَظَلَّ يُنَاجِيني وَيَقْلِبُ طَرْفَهُ ... بِأَطْيَبَ مِنْ نَجْوَى الأَمَانِي وَأَلْطَفَا
وَيَصْرِفُ أَسْرَارَ الهَوَى عَنْ عُدَاتِهَا ... وَيُلْقِي بِهَا ، مِنْ حُبِّها المُتَلَقِّفَا[2]

وقوله :

صَحَا عَاذِلِي عَنِّي وَلَمْ أَصْحُ مِنْ ضَلِّي ... وَيَا حَبَّذَا « شُرُّ » عَلَى المَنْعِ وَالبَذْلِ[3]
وَهَبْتُ لَهَا قَلْبي ، فَلاَ تَطْلُبُوا دَمي ... وَلَيْسَ عَلَيْهَا مِنْ فِدَاءٍ وَلاَ قَتْلِ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ العَاذِلِينَ عَلَى الهَوَى ... جَعَلْتُ لَهُمْ شُغْلاً ، وَخَلاَّهُمُ شُغْلي
خَليلَيَّ طُوفَا بِالمُدَامِ ، وَبَادِرَا ... بَقِيَّةَ عُمْرِي ، وَالسَّلاَمُ عَلَى مِثْلي
أَلاَ إنَّما جِسْمي لِرُوحي مَطِيَّةٌ ... وَلاَبُدَّ يَوْماً أَنْ تَعَرَّى مِنَ الرَّحْلِ
وَيَا عَاذِلي ! هَلاَّ اشْتَغَلْتَ بِسامِعٍ ... كَمَا أَنَا مَشْغُولٌ بِكَأْسي عَنِ العَذْلِ[4]

وكثيراً ما امتزج شرب الخمرة عند ابن المعتز بوصف الطبيعة وما تتزيّن به

---

(١) انظر الديوان ٤٠٩ .
(٢) الديوان ٣٢٢ .
(٣) شرٌّ : اسم مصغر لحبيبة الشاعر ذكرها في كثير من قصائده .
(٤) انظر الديوان ٣٨٢ .

من أوراد ورياحين ، كقوله :

ضَحِكَ الوَرْدُ في قَفَا المَنْثُورِ … وَاسْتَرَحْنَا مِنْ رِعْدَةِ المَقْرُورِ[1]

وَاسْتَطَبْنَا المَقيلَ في بَرْدِ ظِلٍّ … وَشَمَمْنَا الرَّيْحَانَ بِالكَافُورِ

فَالرَّحيلَ الرَّحيلَ يَا عَسْكَرَ اللَّـ … ـذاتِ في كُلِّ رَوْضَةٍ وَغَديرِ

وَامْزُجِ النَّبْتَ ، وَامْزُجِ الرَّاحَ بالثَّلْـ … ـجِ ، وَأَطْفِىءْ بالمَاءِ نَارَ الهَجيرِ[2]

أو قوله :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ شُرْبَ ثَلاَثَةٍ … دِرْيَاقُ هَمٍّ مُسْرِعٍ بِنَجَاةِ

فَاشْرَبْ عَلَى قَرْنِ الزَّمَانِ وَلاَ تَمُتْ … أَسَفاً عَلَيْهِ ، دَائِمَ الحَسَرَاتِ

وَانْظُرْ إلى دُنْيَا رَبِيعٍ أَقْبَلَتْ … مِثْلَ النِّسَاءِ ، تَبَرَّجَتْ لِزُنَاةِ

وَإِذَا تَعَرَّى الصُّبْحُ مِنْ كَافُورِهِ … نَطَقَتْ صُنُوفُ طُيُورِهَا بِلُغَاتِ

وَالوَرْدُ يَضْحَكُ مِنْ نَوَاظِرِ نَرْجِسٍ … فُدِيَتْ وَآذَنَ حُبُّهَا بِمَمَاتِ

فَتَتَوَّجَ الزَّرْعُ السَنِيُّ بِسُنْبُلٍ … غَضِّ الكَمَائِمِ أَخْضَرِ الشَّعَرَاتِ

وَالكَمْأَةُ الصَّفْرَاءُ بَادٍ حَجْمُهَا … فَبِكُلِّ أَرْضٍ مَوْسِمٌ لِجُنَاةِ

وَالغَيْثُ يَهْوِي الدَّمْعَ ، كُلَّ عَشِيَّةٍ … لِغُيُومِ يَوْمٍ لَمْ يُحَطْ بِنَبَاتِ

وَتَرَى الرِّيَاحَ إِذَا مَسَحْنَ غَديرَهُ … صَقَلْنَهُ ، وَنَفَيْنَ كُلَّ قَذَاةِ

مَا إِنْ يَزَالُ عَلَيْهِ ظَبْيٌ كَارِعٌ … كَتَطَلُّعِ الحَسْنَاءِ في المِرْآةِ[3]

ـ وكذلك امتزجت الخمرة عند ابن المعتزّ بموضوع الحبّ وهذا أمر طبيعي فكلاهما قريب من الآخر ، كقوله :

دَعْ نَديماً قَدْ تَنَاءَى وَحُبِسْ … وَاسْقِني وَاشْرَبْ عُقَاراً كَالقَبَسْ

هَامَ قَلْبي بِفَتَاةٍ غَادَةٍ … حَوْلَهَا الأَسْيَافُ في أَيْدي الحَرَسْ

---

(١) المقرور : شديد البرد .

(٢) انظر الديوان ٢٣٩ .

(٣) انظر ديوان ابن المعتز ١١٣ .

لاَ تَنَامُ اللَّيْلَ مِنْ حُبِّي ، وَإِنْ غَـرَّدَ القُمْرِيُّ زَارَتْ فِي الغَلَسْ
وَتُسَـمِّـينِي ، إِذَا مَـا عَـثَـرَتْ وَإِذَا مَا فَطِنُـوا قَالَتْ : تَعَسْ[1]

أو كقوله وقد ربط بين الكأس في يدها وبين تمام الهلال :

أَبَاحَ عَيْنِي لِطُولِ اللَّيْلِ وَالأَرَقِ وَصَاحَ إِنْسَانُهَا فِي الدَّمْعِ بِالغَرَقِ
ظَبْيٌ مُحَلًّى مِنَ الأَحْزَانِ أَوْ قَرَهُ مَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ حُزْنٍ وَمِنْ قَلَقٍ
كَـأَنَّهُ ، وَكَـأَنَّ الكَأْسَ فِي يَـدِهِ هِلاَلُ تَمٍّ ، وَنَجْمٌ غَابَ فِي شَفَقٍ[2]

ومن قصيدة أخرى جعلها معرضاً من معارض القول الجميل ، قال :

دَعْنِي فَمَا طَاعَةُ العُذَّالِ مِنْ دِينِي مَا السَّالِمُ القَلْبِ فِي الدُّنْيَا كَمَحْزُونِ
لاَ تَسْمَعِ النُّصْحَ إِلاَّ القَلْبُ يَقْلِبُهُ يَكْفِيكَ رَأْيُكَ لِي رَأْيٌ سَيَكْفِينِي
أَقْـرَرْتُ أَنِّيَ مَجْنُـونٌ بِحُـبِّـكُـمُ وَلَيْسَ لِي عِنْدَكُمْ عُذْرُ المَجَانِينِ
وَصَاحِبٍ بَعْدَ سَنِّ النَّوْمِ مُقْلَتَهُ دَعَوْتُهُ ، وَلِسَانُ الصُّبْحِ يَـدْعُونِي
نَبَّهْتُـهُ وَنُجُـومُ اللَّيْـلِ رَاكِعَـةٌ فِي مَحْفَلٍ مِنْ بَقَايَا لَيْلِهَا جُونِ
رُكُـوعَ رُهْبَانِ دَيْـرٍ فِي صَلاَتِهِمُ سُـودٍ مَدَارِعُهُمْ شُمُّ العَـرَانِـينِ
فَقَـامَ يَمْسَـحُ عَيْنَيْـهِ وَسُنَّـتَـهُ بِقَعْـدَةِ النَّوْمِ مِنْ فِيـهِ يُلَبِّينِي[3]
وَطَافَ بِالـدَّنِّ سَاقٍ وَجْهُـهُ قَمَرٌ وَطَـرْفُـهُ بِسَـرِيعِ الحَـدِّ مَسْنُـونِ
كَأَنَّ خَطَّ عِذَارٍ ، شَقَّ عَـارِضَهُ مَيْـدَانُ آسٍ عَلَى وَرْدٍ وَنِسْرِينِ
وَخَطَّ فَوْقَ حِجَابِ الدُّرِّ شَارِبُهُ بِنِصْفِ صَادٍ وَدَالُ الصُّدْغِ كَالنُّونِ
فَجَاءَ بِالرَّاحِ يَحْكِي وَرْدَ وَجْنَتِهِ مُقَرْطَقٌ مِنْ بَنِي كِسْرَى وَشِيرِينِ[4]
عَلَيْهِ إِكْلِيلُ آسٍ فَـوقَ مَفْرِقِـهِ قَـدْرَ رَصَّعُوهُ بِـأَنْوَاعِ الـرَّيَاحِـينِ

(١) ديوان ابن المعتز ٢٦٧ .
(٢) ديوان ابن المعتز ٣٤٣ .
(٣) السنة : الوجه .
(٤) كسرى ملك الفرس ، وشيرين : زوجته .

لَا أَتَّقى الرَّاحَ بِالنَّدْمَانِ مِنْ يَدِهِ   وَإِنْ سَقَتْنِي حَوْلاً ، قُلْتُ : زِيدِيني[1]

وعلى الرغم من كَثرة شعر الخمرة عند ابن المعتزّ ، فلابدَّ لنا من القول بأنّه يبقى للأعشى فضلُ البدءِ ، ولبيئة ابن المعتزّ فضلُ إنعاش الخيال ، أمّا أبو نواس فيبقى سيّدُ هذا المضمار دون منازع .

وإذا كان أبو العتاهية زهدَ وتنسّك ، وأبو نواس في آخريات حياته أقلع عن الخمرة وتعاطيها ، فلماذا لا يقلعُ عبدالله عن الخمرة ، ويضربُ صفحاً عن مجالسة الغواني والقيان ؟ لذا نسمعه يقول :

رُدَّ عَنِّي كَـأْسَ المُدَامِ خَليـلي   إِنَّ نَفْسي صَـارَتْ عَلَيَّ حَسيبي
وَبَـدَتْ شَيْبَـتي ، وَتَمَّ شبَـابي   وَانْتَهَى عـاذِلي ، وَنَـامَ رَقيـبي
وَتَنَحَّيْتُ عَنْ طَـريقِ الغَـواني ،   وَالتَّصَابي ، وَقُلْتُ : يَا نفْسي تُوبي

ثم لا يلبث أن يتابع قائلاً :

وَلَقَـدْ حَثَّ بِـالمُـدَامَـةِ كَفِّي   شَـادِنٌ ، حَـاذِقٌ بِصَيْـدِ القُلُوبِ
جَـاءَنَـا مُقْبِـلاً ، فَـأَيُّ قَضيبٍ ،   ثُمَّ وَلَّ عَنَّـا ، فَـأَيُّ كَثيبِ[2]

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز ٤٣٩ .
(٢) ديوان ابن المعتز٨٣ .

٤ ـ شعر المديح ..

وإذا أردنا أنْ نستعرضَ فنون الشعر عنده ، لِيتَّضحَ لنا حدودُ شاعريتّه ، فإن فنَّ المديح عنده يشغَلُ حيِّزاً لا يُستهانُ به من شعره ، ولكنَّه لم يكن متكسِّباً في مدحه كبقية الشعراء ، لأنه يترفَّعُ عن هذه المنزلة التي لا يرضاها لنفسه ، ولا ترضاها مكانتُه الرفيعة ، لذا نراه يتَّجهُ في مديحه إلى الخلفاء من آبائه وأعمامه ، وإلى الوزراء المقدَّمين من أصدقائه وأحبائه .

ـ وكان المعتمدُ ٢٢٩ ـ ٢٧٩ هـ أوّلَ مَنْ مدح ابنُ المعتزّ من الخلفاء ، فقد تقدَّم القولُ في عطف هذا الخليفة على ابن أخيه ، بعد النكبة التي أصابتهُ بمقتل أبيه ومصادرةِ أمواله ونفيه إلى مكّة مع جدّته . كما تقدّم القولُ في ميل المعتمد إلى اللَّهوِ ونظم الشعر ، فكان من الطبيعيّ في ظلٍّ هذه الظروف أن تكونَ العلاقةُ بين الخليفة والشاعرِ الأمير علاقةَ ودّ وصداقة ، ويمدحه بمثل قوله :

يَا مَنْ حَوَى رِقَّ الثَّنَاءِ وَمَنْ ... لَمْ يَخْلِطِ المعْرُوفَ بِالْمُنْكَرِ
تَمِّمْ صنيعَتكَ الَّتي سَلَفَتْ ... فَلأَشْكُرَنَّ ، وَقَلَّ مَنْ يَشْكُرِ
مَازِلْتُ مُعْتَمِداً عَلَى حُكْمٍ مَضَى ... يَقْضي عَلَى الأَعْدَاءِ أَنْ تُنْصَرِ

وفي قصيدة أخرى بعنوان «احكم لك الدنيا» قال يمدحه :

أَهْلاً وَسَهْلاً بِالإِمَامِ ، فَقَدْ ... جَلَّى الدُّجَى ، وَأَنَارَ مَشْرِقَهُ
بَدْرٌ تَنَزَّلَ في مَنَازِلِهِ ... سَعْدٌ يُصَبِّحُهُ وَيَطْرُقُهُ
فَرِحَتْ بِهِ دَارُ المُلُوكِ فَقَدْ ... كَادَتْ إلىٰ لُقْيَاهُ تَسْبِقُهُ
يَا خَيْرَ مَنْ تُرْجَى المَطِيُّ لَهُ ... وَيُمِرُّ حَبْلَ العَهْدِ مُوثِقُهُ
أَضْحَى عِنَانُ المُلْكِ مُنْتَشِراً ... بِيَدَيْكَ تَحْبِسُهُ ، وَتُطْلِقُهُ

فَاحْكُمْ لَكَ الدُّنْيَا وَسَاكِنُهَا ... مَا طَاشَ سَهْمٌ ، أَنْتَ تَرْشُقُهُ
مُتَفَرِّدٌ يُمْلِي الصَّوَابَ عَلَى ... آرَائِهِ ، رَبٌّ يُوَفِّقُهُ[1]

وقال يمدح الخليفة أحمدَ المعتمد ، داعياً إلى الله أن يمنحَه الصحّةَ والعافية في أبيات أربعة :

رَفَعْتُ يَدِي أَسْتَوْهِبُ اللهَ صِحَّةً ... لِخَيْرِ إِمَامٍ سَالِكٍ فِي التُّقَى نَهْجَا
فَقُلْتُ ، وَقَدْ طَالَتْ مِنَ الهَمِّ لَيْلَتِي ... وَإِشْفَاقُ نَفْسِي فِي الأَمَانِي قَدْ لَجَّا
تَغَافَلْ لَنَا يَا دَهْرُ عَنْ نَفْسِ أَحْمَدٍ ... فَمَا بَعْدَهُ لِلْمُلْكِ حِصْنٌ وَلَا مَلْجَا
أَلَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ سَرَاهُ مُجَاهِدٌ ... فَأَغْرَى مَطَايَا الفَرْشِ وَاسْتَمْهَدَ السَّرْجَا[2]

ولكنَّ طبيعة الأحوال السياسية المتردّية التي كان يعيشها المعتمدُ مع أخيه الموفَّق صاحبِ النفوذ الفعليّ في الدولة ، اضطرت ابنَ المعتزّ إلى الاقتصار في امتداح الخليفة على قصيدتين مراعاةً منه لدِّقة الوضعِ وسلامة موقفِه بين النافذين من أهل السلطان ، وهذه المراعاةُ كانت وراء قصيدتين أخريين امتدحَ فيهما الموفَّق عمَّهُ وخطبَ وِدَّهُ ، ففي الأولى يقول[3] :

إِلَيْكَ امْتَطَيْنَا العيسَ تَنْفُخُ فِي السُّرَى ... وَلِلَّيْلِ طَرْفٌ بِالصَّبَاحِ كَحِيلُ
وَفِتْيَانِ هيجٍ بَاذِلِينَ نُفُوسَهُمْ ... كَأَنَّهُمْ تَحْتَ الرِّمَاحِ وُعُولُ
وَجَرَّدْتَ مِنْ أَغْمَادِهِ كُلَّ مُرْهَفٍ ... إِذَا مَا انْتَضَتْهُ الكَفُّ كَادَ يَسِيلُ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الفِرِنْدُ كَأَنَّمَا ... تَنَفَّسَ فِيهِ القَيْنُ ، وَهْوَ ثَقِيلُ
فَأَعْلَمْتَهُ كَيْفَ التَّصَافُحُ بِالقَنَا ... وَكَيْفَ تُرَوِّي البيضُ وَهْيَ مُحُولُ
سَرِيعٌ إِلَى الأَعْدَاءِ ، أَمَّا جَنَانُهُ ... فَمَاضٍ ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ

---

(١) انظر ديوان المعتز ٣٣٦ .
(٢) انظر ديوان ابن المعتز ٣٧٣ - ٣٧٤ .
(٣) انظر ديوان ابن المعتز (دار صادر) صفحة ١٣١ .

وتحدَّث في الثانية عن الحسَّاد ، مبدياً قلقَه وتخُّوفه من إفساد حاله مع عمِّه ، وكاشفاً بالتالي عن الدافع الحقيقي لهذا المدح ، فقال :

وَلَا ذَنْبَ لي غَيْرَ أَنِّي عَلَوْ … تُ بِالجُودِ هَامَةَ مَجْدٍ جَدِيدِ
وَلُبْسُ ثِيَابِ العُلَا بِالنَّدَى … وَهُمْ في ثِيَابٍ مِنْ الأَرْضِ سُودِ

وقد قدَّم الشاعر بين يدي أماديحه مقدماتٍ خارجةً عن مألوف العادة ، وها هو في إحدى مدحياته يتحدثُ ببيتين اثنين عن الحبِّ والحبيب، بعد أن لوت النوى أعناقها ، وعادَ الإلف إلى أليفه ، والمفارقُ عاد إلى وطنه ، فيقول :

قَرُبَ الحبيبُ إلى المحبِّ الوامقِ … من بعد ما فتكَ الفراقُ بعاشقِ
فالآن قد لَوتِ النوىٰ أعناقَها … ودنا من الأوطانِ كلُّ مفارقِ
أَقدِمْ ، أَميرَ المؤمنينَ ، على الرضا … واسلَمْ لإهلاكِ العدوِّ المارقِ

ثم ينتقلُ لتَعدادِ مناقب الخليفة الممدوح ، فهو أسدٌ شجاع ما إن ينتصب في عرينه حتى تنهزمَ فلولُ الأعداء كما الثعالبُ تنهزم من الأُسدِ ، وما أن يمتشِقَ حسامَه حتى تفلقَ الرؤوس وتهدمَ الكواهلَ والعواتقَ ، وما أنْ يتمَّ الشاعر وصف بسالة الخليفة وشدّةِ فتكه بالأعداء ، حتى يرجوه بالحلْم والترفُّق بالأعداء بعد أن أثخَن فيهم وسيَّل دماءهم ، وينبهُ الخارجينَ والمارقين محذراً إيّاهم من سطوةِ أميرِ المؤمنين وقسوةِ عقابه فيقول :

أَسدٌ بدا من غابه فتضعْضَعتْ … منه الثعالبُ ، عندَ شدٍ صادقِ
حتَّى إذا عرفوا الهُدىٰ ، ورمتْ يدٌ … ما جَمَّعتْ لمخاتلٍ ، ولسارقِ
شامَ السيوفَ وقد رأينَ مواقعاً … في أرؤسٍ ، وكواهلٍ ، وعواتقِ
حِلماً وإبقاءً ، ورأفةَ واسعِ الـ … إنعامِ لا كزٍّ ، ولا متضايقِ
وثَنى أعنَّته ، ولو حضَرَ الوغىٰ … كانتْ دماؤهم كنفثةِ باصقِ
سيروا على خَطِّ الطريق ، فإنَّه … إنْ رحتُم للنكث ، أسرعُ لاحقِ

لا تحسبوا اليوم الجديد كأمسكم   أين الصباح من الظلام الغاسق[1]

- وكان الخليفة المعتضدُ بن الموفق ثاني مَن امتدحهم ابنُ المعتز من الخلفاء ٢٤٢ - ٢٨٩ هـ ، وقد لاقتْ بطولاتهُ وانتصاراتُه على الترك والزنج والخوارج هوىً في نفس الشاعر الذي كان يكرهُ الأتراكَ لقتلهم جدّهِ وأبيه ، وكان المعتضدُ بطلاً مغواراً واستطاع أبوه الموفّقُ أن يخضِدَ شوكةَ التُرك ويُقلّمَ أظفارَهم ، وكأنّما كان يُشفي غليلَ ابنِ المعتزّ بذلك ، كما كان الشاعر يتعصَّبُ للدولة ، فيرى في الزنجِ والخوارج أعداءً حقيقينَ لُملْكِ آبائه وأجداده ، فانعقدت صداقةٌ حقيقية بين الخليفة البطل والشاعر المعجب ، وجعلَ المعتضدُ يقربُه من نفسه ، فقد اتَّخذه نديماً وجليساً وتوالت عطاياه عليه ، فمضى الشاعر يرصدُ انتصاراتِه ويشيدُ بأعماله في أكثرَ من قصيدة ، ففي حائيَّته التالية تحدَّث عن جُرأة الخليفة التي تفوقُ جرأة الأَسَد ، وعن بأسه الذي أعزَّ دينَ الله ، وعدْله الذي عَمَّ البلاد ، وقصوره التي ازدانت بالبساتين والرياض والغلمان والجواري الحسان : فيقول بعدَ مقدمةٍ وصفية للقصر وما فيه :

جُمِعَ الحَقُّ لَنَا في إمَامٍ   قَتَلَ البُخْلَ ، وَأَحْيَا السَّمَاحَا
أَلِفَ الهَيْجَاءَ طِفْلاً وَكَهْلاً   تَحْسَبُ السَّيْفَ عَلَيْهِ وِشَاحَا
وَلَهُ مَنْ رَأْيِهِ عَزَمَاتٍ   وَصَلَ اللهُ ضِمْنَهُنَّ نَجَاحَا
يَجْعَلُ الجَيْشَ إِذَا صَارَ ذَيْلاً   جُرْأَةً فيهِ ، وَبَأْساً صُرَاحَا
فَرَجُ الأَعْدَاءِ بِالسِّلْمِ مِنْهُ   وَهْوَ في السِّلْمِ يُعِدُّ السِّلاَحَا
خَاطَ أَفْوَاهَهُمْ ، وَقَدِيماً   مَزَّقُوهَا ضَحِكاً وَمُزَاحَا
أَيْقَنُوا مِنْهُ بِحَرْبٍ عَوَانٍ   وَرِجَالٍ يَخْضِبُونَ الرِّمَاحَا
وَبِخَيْلٍ تَأْكُلُ الأَرْضَ شَدّاً   مُلْجَمَاتٍ يَتَبَدَّرْنَ الصِّيَاحَا

(١) ديوان ابن المعتز ٣٣٥ .

حَمَلَتْ أُسْداً مِنَ النَّاسِ غُلْباً   وَكِبَاشاً لاَ تَمَلُّ النِّطَاحَا
يَا أَمِينَ اللهِ أَيَّدْتَ مُلْكاً   وَكَانَ مِنْ قَبْلِكَ نَهْباً مُبَاحَا[1]

ويمدحه في قصيدة بائيّة مخاطباً إيّاه «يا إمام الهدى» مُعدِّداً مناقبه وسجاياه، وما قدَّمه من تدعيم لسدَّة المُلك بالعقل والرأي الصواب، متحدِّثاً في هذه القصيدة بإشارات واضحة إلى تقديم بدر وإلى مؤانسته ومندامته في أيّام الصفو واللّذة، فيقول[2]:

يَا إِمَامَ الهُدَى، وَيَا أَحْكَمَ النَّا   سِ بِعْدلٍ في العَفْوِ، أَوْ في العِقَابِ
يَا مُعيداً لِلْمُلْكِ، يَا مُلْجأ لِلـ   أُسْدِ، حَتَّى بَصْبَصْنَ بِالأَذْنَابِ
إنَّ رَأْياً أَرَاكَ تَقْدِيمَ بَدْرٍ   لَعَجِيبٌ مُوَفَّقٌ لِلصَّوَابِ
مَا رَأَيْنَا لِلْمَلِكِ أَنْصَحَ مِنْهُ!   أَيْنَ ذَامِنْ أُولَئِكَ الأَصْحَابِ
تَابِعٌ مَا نُحِبُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ   وَلِمَا لاَ نُحِبُّه ذُو اجْتِنَابِ
مُؤنِسٌ يَوْمَ لِذَّةٍ، وَنَدِيمٌ   وَهْوَ فِي حَوْمَةِ الوَغَى لَيْثُ غَابِ[3]

ويمدحه في قصيدة أخرى، يُهدِّدُ بها الطامعين بالمُلْكِ وينذرُهم بالخليفة البطل الذي أقرَّ الملكَ، وقد سلَّهُ الله سيفاً مرهفَ المضرب فوقَ رؤوسهم، ويَسْقيه من دمهم، فيقول:

أَقَرَّ المُلْكَ فِي المَنْصِبِ   وَقَدْ جَدَّ، فَلاَ تَلْعَبِ
وَقَدْ أَنْذَرَكَ الدَّهْرُ   فَخَلِّ الذَّنْبَ يَا مِذْنِب
فَإِنَّ اللهَ قَدْ سَلَّ   حُسَاماً رَاسِبَ المَضْرِب
إِذَا أَعْطَشَهُ النَّارُ   فَمِنْ حَوْضِ دَمٍ يَشْرَب

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز دار صادر صفحة ١٤١ .
(٢) المرجع السابق ٦٣ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٦٤ .

لقد انبعثَ مديحُ ابن المعتز للخليفة المعتضدِ من قلبٍ صادق وعاطفة حارّة ، وربما كانت خيرُ مدائحهِ فيه رائيته التي يستهلها بقوله :

سَلِمْتَ أَميرَ المُؤْمِنينَ عَلَى الدَّهْرِ　　وَلاَزِلْتَ فِينَا بَاقِياً وَاسِعَ العُمْـرِ

وفيها يقول :

وَمَـازَالَ يَـرْعَـاهُ الإمَـامُ بِـرَأْيِـهِ　　وبَالعِزِّ ، وَالتَّقْدِيمِ ، وَالنَّهْي ، وَالأَمْرِ
يُشيرُ إلىٰ رَأْيٍ مُصيبٍ وَحِكْمَةٍ　　وَجُودٍ لَدَى الإِنْفَاقِ بِالبيضِ وَالحُمْرِ
وَبُنْيَانُ قَصرٍ قَدْ عَلَتْ شُـرُفَاتُـهُ　　كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدْ تَرَبَّعْنَ فِي الأُزْرِ
وَمَيْدَانُ وَحْشٍ تَرْكُضُ الخَيْلُ وَسْطَهُ　　فَيُؤْخَذُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ عَـلَى قَدْرِ
عَـطَايَا إِلَـهٍ مُنْعِمٍ كَـانَ عَـالِمـاً　　بِأَنَّكَ أَوْفَى النَّاسِ فِيهُنَّ بِالشُكْرِ
حَكَمْتَ بِعَدْلٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ　　وَدَاوَيْتَ بِالرِّفْقِ الجَمُوحِ وبِالقَهْرِ
وَمَازِلْتَ حَيَّ المُلْكِ تُرْجَى وَتُتَّقَى　　وَتَفْتَرِسُ الأَعْداءَ بِالبيضِ وَالسُّمْرِ
إِذَا مَـا رَأَوْهُ طَارَ جَمْعُهُمْ مَعـاً　　كَمَا طَيَّرَ النَّفْخُ التُّرَابَ عَنِ الجَمْرِ
يُـزَعْـزِعُ أَحْشَــاءَ البِـلادِ زَئِيـرُهُ　　وَيُبْطِلُ أَبْطَالَ الرِّجَالِ مِنَ الذُّعْرِ
حَلَلْتَ الثُّـرَيَا خَـيْرَ دَارٍ وَمَنْزِلٍ　　فَلاَزَالَ مَعْمُوراً وَبُورِكَ مِنْ قَصْرِ
فَلَيْسَ لَهُ فيمَا بَنَى النَّاسُ يُشْبِهُهُ　　وَلاَ مَا بَنَاهُ الجِنُّ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ(١)

وعندما تحوَّل المعتضدُ إلى بغدادَ من سامراءَ ليجعلَها حاضرةَ الخلافة ، بعث إليه عبدُالله بن المعتزِّ بقصيدةٍ يطلب فيها أن يكونَ قريباً منه ، ومطلعها :

أَأَسْمَعُ مَا قَالَ الحَمَامُ السَّوَاجِعُ　　وَصَايَحَ بَيْنٌ فِي ذُرَى الأَيْكِ وَاقِعُ ؟

ويتحدَّثُ فيها عن غُربته بعد ارتحال الخليفة ، وشوقِه إلى قُربه ، وظمئه إلى لُقياه ، وأنَّ اليوم الذي يقضيه بعيداً عنه لا معنى له ، وماله عن رغبة إلاّ رؤية

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز ٢١٥ ـ ٢١٦ .

وجه الخليفة ، وإنّه ليذكرُ نِعمَه السابغةَ عليه ، كما يحارُ بأمرِ الحسّاد والشامتين به بعده ، إلى أن يشيرَ بالإذن له للقدوم إلى بغداد ، فيقول :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَمْسَى الإِمَامُ بِبَلْدَةٍ وَأَنْتَ بِأُخْرَى شَائِقُ القَلْبِ نَازِعُ
لَقَدْ رُمْتَ مَا يُدْنِيكَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَتَى قَدَرٌ وَاللهِ مُعْطٍ وَمَانِعُ
وَإِنِّيَ كَالعَطْشَانِ طَالَ بِهِ الصَّدَى إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ مَاالَّذِي أَنَا صَانِعُ ؟
أَيَذْهَبُ عُمْرِيَ وَالعَوَائِقُ دُونَهُ عَلَى مَا أَرَى ؟ إِنِّي إِلَىٰ اللهِ رَاجِعُ
وَمَا أَنَا فِي الدُّنْيَا بِشَيْءٍ أَنَالُهُ سِوَى أَنْ أَرَى وَجْهَ الخَلِيفَةِ ، قَانِعُ
وَهَبْنِي أَرَيْتُ الحَاسِدِينَ تَجَلُّداً فَكَيْفَ بِحُبٍّ ضُمِّنَتْهُ الأَضَالِعِ ؟
وَإِنِّي لِنُعْمَاهُ القَدِيمَةِ شَاكِرٌ ، وَرَاءٍ بِعَيْنِ النُّصْحِ فِيهِ ، وَسَامِعُ
وَمَا أَنَا مِنْ ذِكْرِ الخَلِيفَةِ آيِسٌ وَمَادَامَ حَيّاً عَلَّلَتْهُ المَطَامِعُ
وَأَقْعَدَنِي عِنْهُ انْتِظَارٌ لِإِذْنِهِ وَمَا قَالَ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنِّيَ طَائِعُ
صِرَاطُ هُدىً يَقْضِي عَلَى الجَوْرِ عَدْلُهُ وَنُورٌ عَلَى الدُّنْيَا مِنَ الحَقِّ سَاطِعُ
وَسَيْفُ انْتِقَامٍ لَا يَخَافُ ضَرِيبَةً وَمَا شَاءَ مِنْ ذِي إِحْنَةٍ فَهْوَ قَاطِعُ
وَإِنْ يَعْفُ لَا يَنْدَمْ وَإِنْ يَسْطُ يَنْتَقِمْ فَهَلْ عَادِلٌ فِيهَا بِمَا أَنْتَ وَاقِعُ ؟[1]

ـ وكان الخليفةُ المكتفي بنُ المعتضد آخرَ الخلفاءِ الذين مدحَهم ٢٦٤ ـ ٢٩٥ هـ ابنُ المعتزِّ ، ولكن مديحه له جاءَ فاتراً مُتهافتاً ، رغمَ انتصاراتِ هذا الخليفة على القرامطةِ ، وإحسانه لسياسةِ الدولة ، واتِّصافِه بالأدب والعلم ، لأنَّ ابنَ المعتزِّ أخذَ يستشعرُ في نفسه على ما يبدو ، طموحاً للخلافةِ وأهليّتَه لها ، فلم يتأَتَّ له أن يَرى في صاحبِ العهدِ الجديدِ ما رآه في سلَفه من صفاتٍ تثيرُ الإعجابَ والودَّ ، إضافةً إلى أن الشاعرَ استقبلَ هذا العهد وهو محبوسٌ في السجن ، حرصاً من القائمين بأمرِ الخليفة على إتمام البيعة له ، مما أضافَ إلى

(١) انظر ديوان ابن المعتز (دار صادر) صفحة ٣٠٧ ـ ٣٠٨

إحساسه بالغُبن والمرارة إحساساً بالإضطهاد ، فاتَّصلَ بالمكتفي وامتدحَ سياسته مُداراةً ، وكفّ أذىً ، ومما قاله فيه :

بِـالمُكْتَفِي ، كُفِيَ الأَنَامُ هُمُـومَهُمْ   وَغَـدَا عَلَيْهِمْ طَـالِـعٌ مَسْعُـودُ
جَاؤُوكَ يَحْشُـرُهُمْ إِلَيْـكَ مَحَبَّـةٌ   طَـوْعاً ، وَسَيْفُـكَ عَنْهُمُ مَغْمُـودُ
وَلَطَالَمَا ظَمِئَتْ إِلَيْـكَ نُفُـوسُهُمْ   وَطَـرِيقُ بَـابِـكَ عَنْهُمُ مَسْـدُودُ
فَـالآنَ أَعْتَبَهُمْ بِمُلْكِـكَ دَهْـرُهُمْ   وَحَلاَ ، وَلاَنَ العَيْشُ ، وَهُوَ شَدِيدُ
يَـدُ حَـاتِمٍ كَبَنَـانِـهِ لِشِمَـالِـهِ   مَـا حَـاتِمٌ مَـعَ مِثْلِهِ مَعْـدُودُ
لَـوْ ظَلَّ يَمْلِكُ حَـاتِمـاً أَعْـطَاكَـهُ   هِبَـةً ، وَلَمْ يَرَ أَنَّ ذَلِـكَ جُـودُ
فِي كُـلِّ كَفٍّ مِنْهُ خَمْسَـةُ أَبْحُرٍ   يَسْقِي الخَـوَاتِمَ مَـاؤُهَـا المَـوْرُودُ
سُرَّتْ بِوَطْأَتِهِ المَنَـابِرُ ، إِذْ عَـلاَ   دَرَجَـاتِهَـا ، وَاخْضَرَّ مِنْهَـا العُـودُ
فَكَـأَنَّـهُ قَمَـرٌ سَرَى فِي لَـيْلَةٍ   فَـظَلاَمُهَـا عَنْ نُـورِهَـا مَـرْدُودُ
مَاضٍ عَلَى العَزَمَاتِ يَنْصُرُ رَأْيَهُ   مِنْ رَبِّـهِ التَّـوْفِيقُ وَالتَّسْـدِيـدُ
لَمَّـا رَأَوْا أَسَدَ الحُـرُوبِ وَفَـوْقَهُمْ   شَجَـرُ القَنَا ، وَثِمَـارُهُنَّ حَدِيـدُ
وَقَـدِ انْتَضَـوْا هِنْدِيَّـةً مَصْقُـولَـةً   بِيْضَاً ، وُجُوهُ المَوْتِ فِيهَا سُـودُ
أَخْفَوْا نَدَامَتَهُمْ ، وَعَجَّـلَ حَيْنُهُمْ   ضَـرْبٌ وَطَعْنٌ لَيْسَ عَنْـهُ مَحِيـدُ
فَاشْدُدْ يَدَيْكَ عَلَى عِنَانِ خِـلاَفَةٍ   لَـكَ إِرْثُهَا ، وَبَقَـاؤهَا المَمْـدُودُ(١)

ومدحه مرَّةً أخرى بأبيات قليلةٍ يشيرُ بها إلى كرمه وسخائه ، ويشيدُ بمنبته وطيب أرومته ، وسرورِ الأرض والسماء بخلافته فيقول :

لِـلْمُـكْـتَـفِـي دَوْلَـةٌ مُبَـارَكَـةٌ   عَاشَ بِهَا النَّاسُ بَعْدَمَا مَاتُـوا
يَلُوحُ مِنْ تَحْتِ تَـاجِـهِ قَمَـرٌ   وَافَى بِـهِ لِـلسُّعُـودِ مِـيقَـاتُ
خَـلِيفَـةٌ لاَ يَخِيـبُ سَـائِـلُهُ   سُـرَّتْ بِـهِ الأَرْضُ وَالسَّمَـوَاتُ

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز ١٧٢ ـ ١٧٣ .

مَـا وَلَـدَتْ هَـاشِمٌ لَـهُ شَبَهـاً   مِنْ أَيْنَ ؟ مِنْ أَيْنَ مِثْلُهُ ، هَاتُوا !![1]

ـ وليس في أشعارِ ابن المعتزّ مديحٌ أو تهنئاتٌ لِوُلاةٍ أو وزراءَ سوى عُبَيْدِالله بن عبدالله بن طاهر ، وعبيدالله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، وكذلك القاسم بن سليمان[2] ، فخصَّهم بمقطوعاتٍ صغيرةٍ، خطبَ فيها وِدَّهم وشكرَ لهم دورَهم في حمايته من كيدِ الكائدين الذين كانَ البلاطُ العبّاسيّ يعجُّ بهم ، فيطيحون بالخلفاءِ ويوقعون بالأمراء والقادة .

فمدحَ الوزيرَ عبيدَالله بن سليمان بن وهب وآله من بني وهبٍ في قصيدة مرّت بنا آنفاً مطلعُها :

أَيَا مُوصِلَ النُّعْمَى ، عَلَى كُلِّ حَالَةٍ   إِلَيَّ ، قَرِيباً كُنْتَ أَوْ نَازِحَ الدَّارِ

وفيها يقول :

وَيَا مُقْبِلٌ ، وَالدَّهْرُ عَنِّي بِمُعْرَضٍ   يُقَسِّمُ لَحْمِي بَـيْنَ نَابٍ وَأَظْفَـارِ
وَيَا مَنْ يَرَانِي حَيْثُ كُنْتُ بِذِكْرِهِ   وَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ لَمْ يَرَوْنِي بِأَبْصَارِ
وَكَمْ نِعْمَةٍ للهِ فِي صَرْفِ نِقْمَةٍ   تُرَجَّى ، وَمَكْرُوهٍ حَلاَ بَعْدَ إِمْرَارٍ ؟
وَمَا كُلُّ مَا تَهْوَى النُّفُوسُ بِنَافِعٍ   وَمَا كُلُّ مَا تَخْشَى النُّفُوسُ بِضَرَّارِ
لَقَـدْ عَمَرَ اللهُ الـوَزَارَةَ بِـاسْمِـهِ   وَرَدَّ إِلَيْهَـا أَهْلَهَا بَعْـدَ إِقْفَـارِ[3]

وفي أبيات أخر يشكر لبني وهب أياديهم البيضاءَ نحوه ، ودفاعَهم في ردِّ الأعادي عنه ، بالسرِّ والإعلان ، فيقول :

كَمْ صَنِيـعٍ شَكَـرْتُـهُ لِبَنِي وَهْـ   ـبٍ ، بَدَالِي ، وَمَا اهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ
وَعُـدوٍ يُـرِيـدُ قَتْـلي ، وَلَكِـنْ   يَـدُ صُنْـعٍ مِنْهُمْ تَـرُدُّ يَـدَيْـهِ

(١) ديوان ابن المعتز ١١٩ .
(٢) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٣٨ .
(٣) انظر ديوان ابن المعتز ٢١٧ دار صادر .

رُبَّ عُـذْرٍ حُلْوٍ أَبَيْتُمْ وَعِبْتُـمْ   وَوَفَـاءٍ مُـرٍّ صَبَـرْتُمْ عَـلَيْـهِ[1]

وقال ابنُ المعتزِّ في عبيدالله بن سليمان بن وهب ، يصفُ حصافَته وحسنَ تدبيره لعواقبِ الأُمور ، وقلَمَهُ الذي يُفتِّحُ على صفحاتِ الطروس نوْراً وجوهرا :

عَليمٌ بِـأَعْقَـابِ الأُمُـورِ كَـأَنَّـهُ   بِمُخْتَلِسَاتِ الظَنِّ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى
إِذَا أَخَذَ القِرْطَـاسَ خِلْتَ يَمِينَهُ   يُفَتِّحُ نَوَّاراً أَوْ يُنَـظِّمُ جَوْهَـرَا[2]

وشكر الشاعرُ القاسم بن عبيدالله بن وهب بقوله :

إِنْ أَكُنْ عُذْتُ بِرَأْيِ ابنِ وَهْبٍ   فَـقَـدِيمـاً رَدَّ عَـنِّي الخُـطُوبَـا
رُبَّ لَيْـلٍ سَهِـرْتُـهُ وَابنُ وَهْبٍ   مَسَـاهِـرٌ يَـطْرُدُ عَنِّي الخُـطُوبَـا

وهنأ عبيدَالله بن عبدالله بن طاهر حاكمَ بغدادَ باختيارِه ابنَه محمّداً لِشرطة بغدادَ فقال :

فَرِحْتُ بِمَا أُضْعَافُهُ دُونَ قَدْرِكُمْ   وَقُلْتُ عَسى قَدْ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ الدّهْرُ
فَتَـرْجِـعَ فِينَـا دَوْلَـةٌ طَـاهِـرِيَّـةٌ   كَمَا بَدَأَتْ ، وَالأَمْرُ مِنْ بَعْدِهِ أَمْرُ
عَسَى اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ   وَلَابُدَّ مِنْ يُسْرٍ إِذَا مَا انْتَهى العُسْرُ

فكتب إليه عبيدُالله قصيدةً منها :

وَنَحْنُ إِذَا مَا نَالَنَـا مَسُّ جَفْوَةٍ   فَمِنَّا عَلَى لأْوَائِهَا الصَّبْرُ وَالعُذْرُ
وَإِنْ رَجَعَتْ مِنْ نِعْمَةِ الله دَوْلَةٌ   إِلَيْنَا فَمِنَّا عِنْدَهَا الحَمْدُ وَالشُّكْرُ

قال : وجاءَه محمّدُ بن عبيدِالله بعقبِ هذا شاكراً لتهنئَتِه ، ثم لم يُعُدْ إليه مدَّةً طويلةً ، فكتبَ إليه عبدُالله بن المعتزّ :

قَـدْ جِئْتَـنَـا مَـرَّةً وَلَمْ تَـعُـدْ   وَلَمْ تَـزُرْ بَـعْـدَهَـا وَلَمْ تَـعُـدِ

---

(١) انظر الديوان ٤٦٤ .
(٢) انظر زهر الآداب للقيرواني ٢/٤٨٠ .

لَسْتُ أَرَى وَاجِداً بِنَا عِـوَضـاً ‌ ‌ ‌ ‌ فَاطْلُبْ وَجَرِّبْ وَاسْتَقْصِ وَاجْتَهِدِ
نَـاوَلَـنِي حَـبْـلَ وَصْـلِهِ بِـيَـدٍ ‌ ‌ ‌ ‌ وَهَــجْـرَهُ جَـاذِبـاً لَـهُ بِـيَـدِ
فَلَمْ يَكُـنْ بَـيْنَ ذَا وَذَا أَمَـدٌ ‌ ‌ ‌ ‌ إِلَّا كَـمَا بَـيْنَ لَـيْـلَةٍ وَغَـدِ[1]

(١) انظر الأغاني دار الكتب ١٠/٢٨٦ .

٥ ـ شعر الرثاء ..

ونلتقي في ديوان ابن المعتزّ بمراثٍ قليلة ، نظم أغلبَها وفاءً لمن أُعجب بهم وأحبَّهم ومدحَهم ، لذا كانت عواطفُه فيها نابعةً من القلب ، صادقةَ التعبير ، دامعةَ الكلمات . تفيضُ بالحسرةِ واللَّهفة على الفقيد ، كما في رثائه المعتضد صديقه ، فقد حزِن عليه حُزناً شديداً ، إذْ أحسَّ كأنَّما انْهارَ ركنُ العباسيِّين الوطيد وانقضَّ من أساسه ، وأحسَّ أن أيَّام أُنسه عادت ظلاماً ، فقد طوت المنيَّةُ صديقَه الحميم ، فطارَ قلبه فزعاً ، واسودَّت الدنيا من حوله ، فمضىٰ يَرثيه ويتفجَّعُ عليه وعلى دولته وما بذله في حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس شديد ، يقول والدموعُ تنهمرُ من عينيه وتكاد تخنقه خنقاً[1] :

يَا سَاكِنَ القَبْرِ في غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ بِـالطَّاهِـرِيَّةِ مُقصَىَ الـدَّارِ مُنْفَرِدَا
أَيْنَ الجُيُوشُ الَّتِي قَدْ كُنْتَ تَسْحَبُهَا أَيْنَ الكُنُوزُ الَّتي لَمْ تُحْصِهَا عَدَدَا ؟
أَيْنَ السَّرِيرُ الَّذي قَدْ كُنْتَ تَمْلَؤُهُ مَهَابَةً ، مَنْ رَأَتْهُ عَيْنُهُ ارْتَعَدَا ؟
أَيْنَ الرِّمَاحُ الَّتي غَذَّيْتَهَا مُهُجـاً مُذْ مِتَّ مَا وَرَدَتْ قَلْباً وَلاَ كَبِدَا[2]

ويتحَسَّرُ الشاعرُ علىٰ قصر الخليفة الثريَّا ووصائفه وملاهيه ، وكأنَّما أصبح طللاً مهجوراً ، ولا أثرَ ولا عينَ ، كأنَّما لم يكنْ به المعتضدُ يوماً . وقد مرَّتْ معنا مرثيّته فيه والتي مطلعها :

قَالَتْ شَرِيرَةُ مَا لِجَفْنِكَ سَـاهِراً قَلِقاً ، وَقَدْ هَدَأَتْ عُيُونُ النُّوَّمِ[3]

فيجاوبها والحسرةُ تقطِّعُ أنفاسَه شاكياً إليها ما أرخاه الزمانُ من كلْكَله عليه فحلَّ ما حلّ به ، وهذا أخفُّ بكثير ممّا يكنّه صدرُه وما يمزِّقُ حناياه ، ثم ينثني على نفسه

---

(١) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٣٩ .
(٢) انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٣ .
(٣) زهر الآداب ٨٢٧/٤ .

يصبّرها ويواسيها من ريب الزمان وفواجعه ، ثم يبدأ بتَعداد مناقبِ الفقيدِ المعتضد وما حازَه من الفضائل كلِّها ، وكيف أصبحَ بعد ذلك مُرتهناً ضريحاً مظلماً ، وكيفَ أصبحت السيوفُ ظمأى لم تُروَ من الدماءوهي من صنائع بأسه وشدّته ، وكيف كان يقسِرُ الزمانَ لإرادته ويسيطرُ على أحداثه ، فمتى شاءَ قدَّمها ، ومتى شاءَ أخَّرَها ، إلى آخر هذه السلسلة من التفجُّع والأسى[1] .

وقال للمعتضد يُعزِّيه بابنه هارونَ ، يصبِّره على مصابه الجلل ، لأنَّ الصبر عادةٌ توارثوها على الأيّام ، يطوونَها في نفوسهم ، ويُفدِّيه بنفسه لو أنَّ الفداءَ ممكنٌ ، ويمدحه في هذه القصيدة ليخفِّفَ من مصابه ويلتفتَ إلى المهام الجسام المنوطةِ به،فهو ناصرُ الدين ورافعُ قواعده ، وأصدقُ الناس في السرّاء والضرّاء ، وقائدُ الخيل في السلم والحرب ، وسائسُ المُلْكِ وراعيه حين تنام الأعين ، فسيفُه دائماً يرشحُ دماً من أعدائه المتربّصين ، وسهمُه لا يطيشُ بل يستقرُّ حيث يشاء ، لا يشتكي من الدهر إنْ عضَّه إلاّ إلى صَعْدَةٍ أوحدِّ صمصامٍ ، طالباً منه المبادرة إلى الأجرِ واحتسابه عندَ الله :

يَا نَاصِرَ الدِّين إِذْ هُدَّتَ قَوَاعِدُهُ ... وَأَصْدَقَ النَّاس في بُؤْسى وَإِنْعَامِ
وَقَائِدَ الخَيْلِ مُذْ شُدَّتْ مَآزِرُهُ ... مُـذَلَّـلاتٍ بِـإِسْرَاجٍ وَإِلْجَـامِ
كَـأَنَّهُنَّ قَنـاً لَيْسَتْ لَهَـا عُقَـدٌ ... يَهُـزُّهَا الـزَّجْرُ في كَـرٍّ وَإِقْـدَامِ
قُبٌّ كَطَيِّ ثِيَابِ العَصْبِ مُضْمَرَةٍ ... تُقَرِّبُ النَّارَ بَيْنَ البيضِ وَالهَامِ[2]
وَسَـائِسَ المُلْكِ يَـرْعَـاهُ وَيَكْلَؤُهُ ... إِذَا حَلاَ الغَمْضُ في أَجْفَانِ نُوَّامِ
تَمْـرِي أَنَامِلُه الـدُّنْيَا لِصَاحِبهَـا ... وَنَصْلُهُ مِنْ عِـدَاهُ قَـاطِـرٌ دَامِى
كَالسَّهْمِ يَبْعَثُهُ الـرَّامي فَصَفْحَتُهُ ... تَلْقى الرَّدَى دُونَهُ ، وَالفُوقُ لِلرَّامي

---

(١) انظر الصفحة السابقة من هذا البحث .

(٢) العصب : برود يمانية . البيض : الخوذة التي يلبسها الفارس وقاية للرأس .

لَا يَشْتَكِي الدَّهْرُ إِنْ خَطْبٌ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا إِلَى صَعْدَةٍ أَوْ حَدِّ صَمْصَامِ
صَبْراً ، فَدَيْنَاكَ ، إِنَّ الصَّبْرَ عَادَتُنَا وَإِن طُوِينَا عَلَى حُزْنٍ وَتَهْيَامِ
فَبَادِرِ الأَجْرَ نَحْوَ الصَّبْرِ مُحْتَسِباً إِنَّ الجَزُوعَ صَبُورٌ بَعْدَ أَيَّامِ(١)

ولعلَّ أروعَ مراثيه داليتُه التي نظمها في المعتضد ، تلك التي مرَّت آنفاً ففيها يعبِّر عن عاطفة الوطني الذي خسِرَ حامي الحمىٰ ، وعاطفة العباسيِّ الذي فقدَ ركنَ حزبه الوطني ، وعاطفة الصديق الذي ضاعَ منه الأنيس ، وهكذا يتحسَّرُ علي الدِّين والدنيا ؛ فبكَى الجيوشَ التي لم تعدْ تجدُ من يقودُها إلى الجهاد ، والسريرَ الذي كان يملؤه مهابةً وجلالاً ، والقصورَ التي أصبحت طللاً مهجورا .

ونلتقي بعد ذلك برثائه لصديقه عُبيدالله بن سليمان بن وهب وهو رثاء قصيرٌ لكنَّه حارٌ كثيف يُجَسِّدُ في بيتين اثنين محامدَ الفقيد كلَّها فيقول :

قَدْ مَاتَ تَاريخُ عِزِّ السَّيفِ وَالقَلَمِ فَمَا البُكَاءُ بُكَاءٌ عِنْدِي بِغَيْرِ دَمِي
مَاتَ الَّذي كَانَ وَثَّاباً عَلَى فُرَصٍ وَآخِذاً مِنْ عُدَاةِ المُلْكِ بِالكَظَمِ(٢)

وربما بلغَ به التأثُّر درجة المبالغة التهويل ، للتنفيس عمَّا يضطرِمُ في داخله من حسِّ الفاجعة والخسران ، كمثل قوله في رثاءِ أبي القاسم بن عبيدالله بن وهب ، وكان القاسمُ قد أطلقَ سراحَهُ من السجنِ بعد بيعة المعتضدِ بن الموفق :

قَدِ اسْتَوَى النَّاسُ ، وَمَاتَ الكَمَالْ وَنَادَتِ الأَيَّامُ ، أَيْنَ الرِّجَالْ
هَـذَا أَبُو القَاسِمِ فِي نَعْشِهِ قُومُوا انْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ الجِبَالْ
يَا نَاصِرَ المُلْكِ بِآرَائِهِ بَعْدَكَ لِلْمُلْكِ لَيَالٍ طِوَالْ(٣)

وقد عثرنا في ديوانه على مرثيّتين ؛ الأولى بعنوان «نوحُ العُلى والنُهى» وفيها

---

(١) زهر الآداب للقيرواني ٤/٨٢٨ .
(٢) انظر ديوان ابن المعتز ٤١٣ .
(٣) المرجع السابق ٣٨٩ .

يقول :

بِـأبِي مَـا يَجِنُّ مِنْـكَ الضَّرِيـحُ طِبْتَ ذِكْراً ، وَطَابَ جِسْمٌ وَرِيحُ
كُنْتَ مَا كُنْتَ لِي ، فَمُتَّ بِرُغْمِي لَيْتَنِي مِتُّ أَنـا ، وَأَنْتَ صَحِيحُ
هَجَـرْتُ قَبْـرَهُ ، فَقَـامَتْ مَـوَاثِيـ ـقُ العُلَى وَالنُّهَى عَلَيْهِ تَنُـوحُ[1]

والثانيةُ تقع في خمسَةَ عشَرَ بيتاً يستجمعُ فيها ابنُ المعتزِّ كلَّ مقوّمات فنّ الرثاء ، ويصعدُ بها إلى مراقي هذا الفن في عصرِه ، كأبي تمّام الطائيّ الذي يعتبرُ السيِّد والأوّل في فنّ الرثاء ، وتلميذِه البحتريّ الطائيّ الذي يليه في سُلّم هذا الفن الشعريّ ، وهذه المرثيّةُ في صديقه القاسم السالفِ الذكرِ الذي كان سنداً له ومُدَّراً يقيه مكائدَ القصرِ والحاشية.فبفقدِه يصبحُ بِلا معين على أحداث الزمان الفاجعة ، ويستهلّها بتساؤل يتدفّقُ من أعماق النفس الحزينة التي فقدت المعينَ والناصرَ والحامي ، ويعتبُ على الزمن الذي تنكّرَ له فأفقدَه إيّاهُ بعد أن كانَ أسلفَ إليه الحُسنَى بلقائه ومعرفته . ويجيبُ على تساؤله بلفظةِ كلاّ ، ويندلعُ بعدها الأسىٰ والتذكّرِ يوم كانت يدُ القاسم القويّة ذاتُ السلطان تصدُّ عنه عاديات الزمن ، وتزجرُه إذا ما عوى في وجهه وكلح ، أو حاولَ أن يطالَه بظلمٍ أو عدوان ، جاعلاً من نفسه السدَّ المنيعَ الذي يدرأُ عن الشاعرِ المكارِهَ والخطوبَ ، ليس ذلك فحسب بل سبقَه سلفُ صالحُ هو عبيدُالله أبوه وأحْزَنَ الشاعر عليهما في سرِّه وإعلانه .

وبعد أن عالج الشاعر قضيَّةَ الزمن في الأبيات الخمسة الأولى ، وقسوةَ هذا الزمن على الناس ، وإساءته للشاعر أيَّما إساءة ، ولنستمع إليه إساءة ، يحدثنا عن صوت النعيِّ الذي ما إن علا حتى فقد الشاعرُ قدرتَه وملكاته على نفسه فتحدرت أجفانه بوابلٍ من الدمعِ ، وهو غيرُ مصدّقٍ ما يسمعُ وقد أذهلته الفاجعةُ وتعتعتْهُ المصيبة ، فيسألُ الناعينَ ! أبحقٍ مات !! الويلُ لكم إن كان الأمرُ كما سمعت ،

---

(١) المرجع السابق ١٤٩ .

فهو خبرٌ غيرُ معقول وغير قابلٍ للتصديق ، أوَ تدربان ماذا تقولان ؟! يا ويحكما !! فإن ما تقولاه لا يصدق !

فإذا كان ما تقولانه صحيحاً ، فهذا يعني أنّنا فقدنا مَنْ لا يعادلُه ولا يماثلُه من الخلق أبداً إلاّ ابنُه . . ثم يدعو على اليدِ التي قبرتْهُ بالقطعِ ، فكيف بها تدفنُ بحراً من الجود ، أو هضبةَ عِزٍّ ذات أركان ؟!

ثم راح يُعدِّدُ بعد ذلك محامدَ الفقيدِ ، من سدادٍ في الرأي ، وقولِ الحقِّ ، وصدقِ القول ، والعدلِ ، وكيفَ كان يقضي الليالي بقربه وقد نفرَتْ عيناه عن الرُقادِ لطيب مجلسِه وصَرّفِه الهمومَ والأحزانَ عن نفوس سُمّاره .

وماذا يفعلُ الشاعر وأتّونُ المُصيبةِ يشتعلُ بداخله ويشعِلُه ، فيتلظّى على هجيرٍ من السعير ، ويتقلَّبُ قلبُه على القَتَاد ، ويختم قصيدته بحكمةٍ صنعتْها الفاجعةُ وأنضجَتْها مياسِمُ النارِ التي يكتوي بها ، إذاً لا بُدَّ في مثل هذه المحنِ مِنْ أن يؤمنَ الإنسانُ بضرورة للاستسلام الكاملِ لإرادةِ الله المصرِّفِ لهذا الكون وللخوارق فيه :

هَلْ مِنْ مُعينٍ عَلَى أَحْدَاثِ أَزْمَاني ؟ ... أَسَأْتَ مُعْتَمِداً لي بَعْدَ إِحْسَانِ
كَـلاَّ أَلَيْسَتْ تَقِيني لِلزَّمَـانِ يَـدٌ ... لِقَـاسِمٍ ذَاتُ تَمْكِـينٍ وَسُلْطَانِ
الزَّاجِرَ الدَّهْرَ عني إِذَا شَجَا فَمَهُ ... وَمَـدَّ كَفَّيْـهِ في ظُلْمٍ وَعُـدْوَانِ
حَمَّلْتَ نَفْسَـكَ ، لاَ زَالَتْ مُعَمَّرَةً ... رَدَّ المَكَـارِهِ عَنْ نَفْسي وَجُثْـمَاني
كَذَاكَ كَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ ، وَاحَزَني ... عَلَيْهِ ! مَاعِشْتُ في سِرِّي وَإِعْلاَني
أَقُولُ ، لَمَّا عَلاَ صَوْتُ النَعِيِّ بِهِ ... وَمَـا مَلَكْتُ عَلَيْهِ دَمْـعَ أَجْفَـاني
يَا نَاعِيِيهِ ! بِحَقٍ مَاتَ ! وَيْحَكُمَا ! ... أَتَـدْرِيَـانِ لَنَـا مَـاذَا تَقُـولاَن ؟
لَئِنْ فُجِعْنَـا بِمَـا لاَخَلْقَ يَعْـدِلُـهُ ... وَمَالَهُ في الوَرَى ، إلاَّ ابْنَهُ ، ثَانِ

تَبَّتْ يَدٌ قَبَرَتْهُ أَيُّ بَحْرِ نَدىً طَمَى وَهَضْبَةِ عِزّ ذَاتِ أَرْكَانِ
كَان الُمصِيبَ بِسَهْمِ الرَّأْيِ قَبْضَتَهُ وَالقَائِلَ الحَقَّ مَوْزُنَا بِمِيْزَانِ
كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ نَفَى عَنِّي الرُّقَادَ بِهَا مَا يَعْلَمُ اللّهُ مِنْ هَمٍّ وَأَحْزَانِ
كَأَنَّ حَاطِبَةً كَانَتْ تُحَطِّبُ ، فِي قَلْبِي ، قَتَاداً ، وَتَكْوِيهِ بِنِيرَانِ
إِنْ نَتْرُكِ الشِّرْكَ لَا يَتْرُكْهُ مِنْ يَدِهِ لَا بُدَّ لِلْحُلْوِ فِي الإِيمَانِ مِنْ جَانِ(١)

وفي أبي الحسينِ بن ثوابة يقول ابنُ المعتزِّ في رثائه ، مبتدئا رثاءه بقولٍ أشبه بالحكمة يُغَلِّبُ الدهرَ فيها على حيلة الناس ، ثم يطلبُ له السلامَ والراحةَ ، ذاكراً ما تعاهدا عليه من الصداقة والوفاء ، وكيف أصطفاهُ لنفسِهِ من بين جموع الأصدقاء لِعلمِهِ وتقديره للشعرِ وظرفِ منادمته ، وصباحَةِ وجهِهِ ، وأخيراً يصبِّرُ الشاعر نفسَه على فقدِهِ لأنَّ هذه سيرة الخلائق مع الأيام وخلق من أخلاقها . ولو دقَّقنا في هذا الرثاء لوجدْناه باهتاً خُلْواً من العواطف الحارة كتلك التي صادفتنا في رثائه للمعتضد في داليَّته ، أو نونيّته التي قالها في رثاءِ صديقة القاسم ، يقول :

لَيْسَ شَيْءٌ لِصِحَّةٍ وَدَوَامِ غَلَبَ الدَّهْرُ حِيلَةَ الأَقْوَامِ
وَتَوَلَّى أَبُو الحُسَيْنِ حَمِيداً فَعَلَى رُوحِهِ سَلَامُ السَّلَامِ
حِينَ عَاقَدْتُهُ عَلَى الحِفْظِ لِلْعَهْدِ وَصَافَحْتُهُ بِكَفِّ الذِّمَامِ
وَاصْطَفَتْهُ عَلَى الأَخِلَّاءِ نَفْسِي كَاصْطِفَاءِ الأَرْوَاحِ لِلأَجْسَامِ
كَانَ رَيْحَانَةَ النَّدَامَى وَمَيْزَا نَ القَوَافِي شِعْراً وَبَحْرَ كَلَامِ
وَمكَانَ السَّهْمِ الَّذِي لَا يَرَى الشَّكَّ وَلَا يَسْتَغِيثُ بِالأَوْهَامِ
سَاحِرَ الوَحْيِ فِي القَرَاطِيسِ لَا تُحْبَسُ عَنْه أَعِنَّةُ الأَقْلَامِ
فَإِذَا مَا رَأَيْتَهُ خِلْتَ فِي خَدَّيْهِ صُبْحاً مُنَقَّباً بِظَلَامِ
نَفْسُ صَبْراً لَا تَجْزَعِي إِنَّ هَذَا خُلُقٌ مِنْ خَلَائِقِ الأَيَّامِ(٢)

---

(١). ديوان ابن المعتز دار صادر صفحة ٤٣٣ .
(٢) انظر زهر الآداب ٧٢٣/٣ ـ ٧٢٤ .

٦ ـ شعر الهجاء :

لن يفَاجَأ المطَّلِعُ على ديوان ابن المعتزّ بقلَّة أشعار الهجاء فيه ، فما حاجةُ أمثاله إلى الهجاء ؟ وكيف يهجو من لا يطمعُ بمالٍ يستمنحُه ، أو مركزٍ يصبو إليه ؟ وكيف يهجو من لا يجرؤ أحدٌ من العامّة على منافسته ، أو حسدِه ، أو مناصبتِه العداءَ ، فيضطرّ ابنُ المعتزّ إلى مهاجاته والردِّ عليه ، كما كان يفعلُ بقيَّةُ الشعراء ؟

لذلك انحسرَ شعرُ الهجا من ديوانه ، وانحصرت بواعثُ الهجاءِ عندَ شاعرنا في التندُّرِ والدُعابة الساخرة ، فكان هجاؤه بعيداً عن الشتّمِ والإقذاع والإفحاش ، قريباً في معانيه من هجاء ابن الرومي مع الاعتراف بسبقِ ابن الرومي والتفوُّق في مضمار السخرية والتهكم ، يقول ابنُ المعتز ساخراً أو هاجياً عجوزاً متصابية راسماً لها صورةً منفِّرةً :

عَجُوزٌ تَصَابَى ، وَهْيَ بِكْرٌ بِزَعْمِهَا ... وَمُذْ أَلْفِ عَامٍ قَدْ وَجى خَدَّهَا الوَاجي[1]

تَرَى شَيْبَهَا تَحْتَ القِنَاعِ كَأَنَّـهُ ... ضَفَائِرُ لِيفٍ في هَدِيَّةِ حُجَّاجِ[2]

وقال يذمُّ صوت مغنٍ قبيحٍ مشبِّهاً صوتَه بصوت قطّةٍ تذبح ، محذِّراً من العيش معه :

إِيَّـاكَ مِـنْ نَـاسٍ وَأَمْـثَـالِـهِ ... فَـالْعَيْشُ مَـعْ أَمْثَـالِـهِ يَقْبُـحُ

إِذَا تَـغَـنَّـى رَافِـعـاً صَـوْتَـهُ ... حَـسِـبْـتَـهْ سِـنَّـوْرَةً تُـذْبَـحُ[3]

وقال في عليٍّ بن بسّام الشاعر ، وكان من الهجَّائين في عصره :

يَا قَـذىً في العُيُونِ ، يَا حُرْقَـةً بَيْـنَ التَّراقي ، حَـزَازَةً فـي الفُـؤَادِ

يَا طُلُوعَ العَذُولِ مَـا بَيْنَ إِلْفٍ ... يَـا غَـرِيمـاً وَافـىَ عَـلَى مِـيعَـادِ

---

(١) وجاه : بعجه .

(٢) انظر ديوان ابن المعتز ١٣١ .

(٣) المرجع السابق ١٤٤ .

يَا رُكُوداً في يَوْمِ غَيْمٍ وَصَيْفٍ   يَا وُجُوهَ التُّجارَ يَوْمَ الكَسَادِ
خَلِّ عَنَّا فَإِنَّمَا أَنْتَ فِينَا   وَاوُ عَمْرٍو ، أَوْ كَالحَدِيثِ المُعَادِ

وقال في شيخ سوءٍ ساخراً :

أَخَفُّ مِنْ لاَ شَيْءَ في سَجْدَتِهْ   كَأَنَّهُ يَلْسَعُ في جَبْهَتِهْ
وَشَيْخُ سُوءٍ ذَاكَ عِلْمِي بِهِ   يَمْرِي عَلَى الإِخْوَانِ مِنْ نَكْهَتِهْ(١)
وَدَيْدَبَانٌ فَوْقَ سَابَاطِهِ   وَالنَّاسُ مُنَغَّصُونَ عَنْ وَقْفَتِهْ(٢)

وقال في إمام ثقيل الظلِّ :

لَنَا إِمَامٌ ثَقِيلٌ   خَفِيفُ رُوحِ الصَّلاَةِ
يَظَلُّ يَرْكُضُ فِيهَا   نَقْراً بِغَيْرِ قَرَاةِ(٣)
كَرَاكِبٍ وَتَرَاهُ   مُسْتَعْجِلاً بِبُزَاةِ(٤)

وقال في هجاء شرٍ :

أَقُولُ ، وَقَدْ ضَاقَتْ بِأَحْزَانِهَا نَفْسِي :   أَلاَ رُبَّ تَطْلِيقٍ قَرِيبٍ مِنَ العِرْسِ
لَئِنْ صِرْتِ لِلْبَقَّالِ ، يَا شُرُّ زَوْجَةً   فَلاَ عَجَبٌ ، قَدْ يَرْبُضُ الكَلْبُ في الشَّمْسِ

وقال في هجاء زوج عجوز يكنى بأبي الطيب ، راسما لنا صورتها بسلسله من تعاقب اللقطات الفنية الموفقة :

أَبَا طَيِّبٍ خُبِّرْتُ أَنَّكَ بَعْدَنَا   وَقَفْتَ عَلَى القَشَّاشِ ، فِيمَا يُقَشِّشُ
عَجُوزٌ كَأَنَّ الشَّيْبَ تَحْتَ قِنَاعِهَا   عَلَى الرَّأْسِ وَالأَكْتَافِ قُطْنٌ مُنَفَّشُ
خَبِيثَةُ رِيحِ الرِّيقِ تَحْسَبُ هُدْهُداً   يَبِيضُ بِفِيهَا ثَاوِياً وَيُعَشِّشُ

---

(١) النكهة : رائحة الفم النتنة .
(٢) الديدبان : الرقيب . الساباط : المسطبة .
(٣) قراة : أي قراءة سهلها .
(٤) الديوان : ٢٨ .

وَمَازِلْتَ حَتَّى صَادَكَ البَوْمُ عِنْدَهَا　　فَكَمْ صَامِتٍ مِنْهُمْ وَآخَرَ يَبْطِشُ
وَكَمْ قَائِلٍ : هَذَا النّمَيْرِيُّ ، فَأَقْبِلُوا　　وَكَمْ قَائِلٍ : هَذَا النَّبِيُّ المُجَمِّشُ(١)
وَقَدْ نَصَحُوا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ زَوْجَهَا　　فَقَالَ لَهُمْ : وَجْهُ المُحَرِّشِ أَحْرَشُ(٢)

وقال في ذم البخيل وهجائه مازجاً ذلك بالشكوى من الدهر :

تَمَكَّنَ هَـذَا الدَّهْـرُ مِمَّـا يَسُـوءُنِي　　وَلَجَّ فَمَا يُخْلِي صِفَاتِيَ مِنْ قَرْعِ
وَأَبْلَيْتُ آمَـالِي بِـوَصْـلٍ يَكُـدُّهَـا　　وَلَيْسَ بِذِي ضَرٍّ وَلَيْسَ بِذِي نَفْعِ
لَئِيمٌ ، إِذَا جَـادَ اللَّئِيم تَخَلُّقـاً　　يُحِبُّ سُؤَالَ القَوْمِ شَوْقاً إِلى المَنْعِ(٣)

وقد مزج الهجاءَ والسخريةَ في قطعة قالها في صاحب لحية :

أَيَـا مَنْ مَاتَ مِنْ شَـوْقٍ　　إِلى لِحْـيَـتِـهِ الحَـلْقُ !
فَـأَمَّـا الـقَصُّ وَالـنَّـتْـفُ　　فَقَـدْ أَضْنَـاهُمَـا الـعِشْـقُ
وَمَـا شَـابَتْ وَلَكِنْ شَـا　　بَ فِي عَـارِضِهَـا ذَرْقُ(٤)
وَمَـنْ يَـصْـلُحُ لِلصَّـفْـعِ　　بِـرَأْسٍ كُـلُّـهُ فَـرْقُ
وَقُـرْطَـاسٌ قَـفَـاهُ يَصْـ　　ـلُحُ فِي طُومَارِهِ المَشْقُ(٥)
وَلَـوْ صُـيِّرَ بِـرْجَـاسـاً　　لَمَـا أَخْـطَأَهُ رَشْـقُ
وَيَـا مَنْ مَـدْحُـهُ كَـذِبٌ　　وَيَـا مَـنْ ذَمُّـهُ صِـدْقُ(٦)

وقال يذم رائحة أحدهم ويهجوه :

قَـدْ نَـتَنَ المَـجْلِسُ مَـذْجِئْـتَـنَـا　　فَـكُـلُّ مَـنْ مَـرَّبِهِ يَـبْـصُـقُ

---

(١) المجمش : الحالق رأسه .
(٢) الأحرش : خشن الوجه مشعرة . الديوان ٢٨١ لابن المعتز .
(٣) الديوان ٣١٠ .
(٤) الذرق : ذرق الطائر ، وهو مفرغات بطنه .
(٥) القرطاس : الهدف . الطومار : الصحيفة . المشق : الجذب والمد .
(٦) ديوان ابن المعتز ٣٣٨ .

فَغَـدٌ إِبْـطَيْـكَ وَ أَشْبِـعْـهُـمَا فِي الصَّيْفِ بِـالْمَرْتَـكِ يَا أَحْمَقُ[1]
وَلَا تَـقُـلْ مَـا فِيهِـمَا حِيلَـةٌ فَـالْحُشُّ قَـدْ يُكْنَسُ أَوْ يُـطْبَقُ[2]

ومن قصيدة يهزأ فيها من بعض المسؤولين ويسخر منهم ، قال :

شُخُوصُ وِلَايَةٍ كَشُخُوصِ عَزْلٍ عَلَى دَهَـشٍ وَعِـزٍّ مِثْـلِ ذُلِّ
وَمَجْنُـونٌ يُخَلَّـصُ بَـعْـدَ حَبْسٍ وَأَقْيَـادٍ وَسِـلْسِـلَـةٍ وَغُـلِّ
وَلَـمْ تُقْـضَ الْحُقُوقُ وَلَا اقْتِضَاهَا بِتَسْـلِيـمٍ وَتَـوْدِيـعٍ لِـخِـلِّ
وَلَـمْ أَرَ قَبْلَـهُ رِيحـاً عَصُوفـاً مُجَسَّـمَـةً وَطُـوَمـاراً بِـرَحْـلِ[3]
وَأَحْسَبُهَـا سَيَسْلُوهَـا سَـرِيعـاً وَيَـرْجِـعُ خَـائِبـاً يَـرْغُـو وَيَغْـلِي
وَوَجْـهُ العَزْلِ يَضْحَـكُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَـطْبُزُ فِي قَفَـا الوَالِي الْمُدِلِّ[4]

---

(١) المرتك : اسم دهن .
(٢) الحش : الكنيف أي بيت الخلاء . ديوان ابن المعتز ٣٤١ .
(٣) الرحل : وعاء كالعدل .
(٤) يطبز : يملأ . انظر ديوان ابن المعتز ٣٧٨ .

خَـادِمٌ لِلْمُنَى قَـدْ اسْتَعْبَـدتْـهُ بِمِطَالٍ ، وَخُلْفِ وَعْـدٍ كَـذُوبِ
وَجَفَـاهُ الإِخْـوَانُ حَتَّى ، وَحَتَّى سَمَّ مَنْ شِئْتَ مِنْ حبيبٍ قَرِيبِ
وَأَرَى وُدَّهُـمْ كَـلَمْـعِ سَرَابٍ غَرَّ قَوْماً عَطْشَىٰ بِقَاعٍ جَدُوبِ

وتنثال ذكريات الفواجع التي مرّت بالشاعر وذويه ، فتعصف به ، فيندبُهم ويتحسّرُ على أيّامهم الغُرّ ، كيفَ مرَّغَها الدهرُ بالرغام ، فيقول :

طَالَمَا صَعَّرُوا الخُدُودَ وَهَـزُّوا الـ أَرْضَ في يَـوْمِ مَحْفِلٍ وَرُكُـوبِ
ثُمَّ أَمْسُـوا وَفْـدَ القُبُـورِ وَسُكَّـا نَ الثَّرَى تَحْتَ جَنْدَلٍ مَنْصُوبِ
آهِ مِنْ ذِكْـرِ آخـرينَ رَمَـاهُمْ قَـدَرُ المَوْتِ مِنْ شَبـابٍ وَشيبِ
بِدَعٌ مِنْ مَكَارِمِ الفِعْـلِ وَالقَوْ لِ وَإِخْـوانُ مَحْضَرٍ وَمَـغـيـبِ
لَسْتُ من بَعْدَهُمْ أَرَى صُورَةَ الإِنْـ ـسِ يَقيناً إِلاَّ خَـلائِقَ ذِيبِ[1]

يدركُ الشاعر أنّه هالكٌ لا محاله ، وأن صروف الدهر تخبطُ خبطَ عشواءَ ، لا تنفعُ معها اللوُّ والليتُ ، فليندبْ نفسَه وليعللْها ، فيقول :

أَلاَ عَلِّلاني قَبْلَ أَنْ يَأتِيَ المَوْتُ وَيُبْنَى لِجُثْماني بِـدارِ البِـلَى بَيْتُ
أَلاَ عَلِّلاني كَمْ حَبيبٍ تَعَـذَّرتْ مَـوَدَّتُـهُ ، عَنْ وَصْلِهِ تَـسَلَّيْـتُ
أَلاَ عَلِّلاني لَيْسَ سَعْيي بِمُـدْرِكٍ وَلاَ بِوُقوفِي بِالَّذي خُطَّ لي فَوْتُ
فَأَهْلَكَني مَا أَهْلَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ صُرُوفُ المُنَى والحِرْصُ وَاللَّوُّ وَاللَّيْتُ[2]

ثم يعجب الشاعر من أبناء الزمان وجفوتهم ، ومقابلتهم المليح بالقبيح ، أهذا دأبهم ؟ إذاً فما أمرَّ طعمِ العيش ! وما أظلم وجه الحياة ! يقول :

وَمِنْ عَجَبِ الأَيَّامِ بَغْيُ مَعَاشِرٍ غِضَابٍ عَلى سَبْقي إِذَا أَنَا جَارَيْتُ
لَهُمْ رَحِمٌ دُونَيَـاهُمُ يَعْـرِفُـونَهَا إِذَا أَنْهَكُـوهَـا بـالقَـطيعَـةِ أَبْقَيْتُ

(١) المرجع السابق ٨٢ .
(٢) الديوان ٩٥ .

يَصُدُّونَ عَنْ شُكْرِيَ وَتَهْجَرُ سُنَّتِي عَلَى قُرْبِ عَهْدٍ مِثْلَ مَا يُهْجَرُ البَيْتُ
فَذَلِكَ دَأْبُ البِّرِ مِنِّي ، وَدَأْبُهُمْ إِذَا قَتَلُوا نُعْمَايَ بِالكُفْرِ أَحْيَيْتُ
يُغيظُهُم فَضْلِي عَلَيْهِمْ ، وَنَقْصُهمْ كَأَنِّيَ قَسَّمْتُ الحُظُوظَ ، فَمَا بَيْتُ
وَكَمْ كُرَبٍ أَخَّاذَةٍ بِحُلُوقِهِمْ مُصَمِّمَةِ البَلْوَى ، كَشَفْتُ وَجَلَيْتُ(1)

وينعي الشاعر الدهرَ لأنّه صاحبُ الفجائع وأبو المساوىء ، شيمتُه أنْ يفرِّق بين الحيّ والحيّ ، ويشتِّتُ الإخوةَ والخلانَ ، فيقول :

يَا دَهْرُ ! يَا صَاحِبَ الفَجِيعَاتِ فِي كُلِّ يومٍ تُسيءُ مَرَّاتِ
يَا دَهْرُ ! إنَّ القَوْمَ الأُولى شَحَطَتْ بِهِمْ نَوىً ، أَكْثَرُوا مُصيباتي
مَازَالَ صَرْفُ الزَّمَانِ يَقْسِمُنَا عَلَى المَسَرَّاتِ وَالمَسَاءَاتِ
مَالي إذَا قُلْتُ قَدْ ظَفِرتُ بِإِخْوانٍ ، أَرَى فِيهِمْ مُحَبَّاتِ
شَتَّتَهُمْ حَادِثٌ ، فَأَفْرَدَنِي مِنْهُمْ ، وَكَانَ مُشْتَاقَ لَحْظَاتِي(2)

ويُظهِرُ الشاعرُ صراحةً سُخطَهُ على الزمانِ ، وعدمِ إحسانه الظنَّ بالحياة ، لأنَّ ذلكَ غفلةٌ وداهية من الدواهي ، فيقول :

أَلَمْ تَرَنِي سَخِطْتُ عَلَى الزَّمَانِ ؟ وَحُسْنُ الظَنِّ بِالدُّنيا دَهَانِي
وَلَسْتُ مِنَ الشَّبَابِ ، وَلَيْسَ مِنِّي فَقَدْ أَعْطَيْتُ حَابِسَتِي عِنَانِي(3)

وقد تُظلمُ الحياةُ ، ويعبسُ الدهرُ ، فتصبحُ الحياةُ نقمةً ، والموتُ نعمةً ، وقد واجه الشاعر مثلَ هذه الظروف العصيبة ، فلنستمعْ إليه يخاطبُ الدهرَ معبراً عن ذلك بقوله :

لَمْ يَبْقَ فِي العَيْشِ غَيْرُ البُؤْسِ وَالنكَدِ فَاهْرُبْ إلىٰ المَوْتِ مِنْ هَمٍّ ، وَمِنْ نَكَدِ

(1) المرجع السابق .
(2) المرجع السابق ١٠٥ - ١٠٦ .
(3) ديوان ابن المعتز ٤٤٦ .

مَلأْتَ يَا دَهْرُ عَيْني مِنْ مَكَارِهِهَا   يَا دَهْرُ ! حَسْبُكَ قَدْ أَسْرَفْتَ فَاقْتَصِدِ[1]

يظلُ الدهرُ بحدثانه قاهراً للشاعر ، يقطعه حيناً ، ويذلّه أحياناً ، ويُفقدُه أهلَه وأخوته الذين كانوا ملوكاً ، فأودعَهم لحُودَ الثرى ، ويبثُّ شكواه للآخرين تَعزيةً لنفسه ، فيقول :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ قَطَّعني حَزّاً   وَأَصْحَبَني ذُلاًّ ، وَأَثْكَلَني عِزّا
أَلاَ رُبَّ وَجْهٍ في الثَّرَى كَانَ عَابِساً   إِذَا خِفْتُ بَطْشاً مِنْ يَدِ الدَّهْرِ أَوْ غَمْزَا
مُلُوكٌ وَإِخْوانٌ تَرَى بِسَمَاحِهِمْ   مِنَ البِشْرِ في دِيبَاجِ أَوْجُهِهِمْ طَرْزا
فَقَدْتُهُمُ مُسْتَكْرِهاً ، وَكَنَزْتُهمْ   ثَواباً وَأَجْراً في بُطُونِ الثَّرَى كَنْزَا[2]

وينحي الشاعرُ على الدهر قسوتَه ، لأنّه لم يتركْ له صديقاً ، فالتَهمَ كلَّ أصحابَه وأفناهُم ، ومازال يلقاهُ بوجههِ البشع :

يَا دَهْرُ ما أَبْقَيْتَ لي مِنْ صَديقِ   عَاشَرْتُهُ دَهْراً ، وَلاَ مِنْ شَفيقِ
تَأْكُلُ أَصْحَابِي ، وَتُفْنيهُمُ   ثُمَّ تَلْقَاني بِوَجْهٍ صَفيقِ[3]

فلِمَ هذه القسوة كلُّها منك أيُّها الدهر ؟ دفنت كلَّ صديق وأسكنته طيّات الثرى ، ألا يمكن أن تترفّق بنا ؟ أو أنّه لا رفق بك يرتجى ؟ حيث يقول :

أَيَا دَهْرُ ! لاَ تُرْعي عَلَيْنَا وَلاَ تُبْقي   فَرِفْقاً بِنَا ، بل لاَ أَرَىٰ لَكَ مِنْ رِفْقِ
فَكَمْ مِنْ حَبيبٍ قَدْ شَقَقْتَ ضَريحَهُ   وَأَسْكَنْتَهُ بَيْتاً ، هُوَ البَيْتُ مِنْ حَقٍّ[4]

لقد رأى الشاعرُ الدهرَ يبلو الناس ، وينقصُ أعمارَهم كلَّ يوم وكل عام ، مستلاً سيفَ الموتِ فوقَ رؤوسهم ، فيقول :

---

(١) المرجع السابق ١٨٦ .
(٢) المرجع السابق ٢٦٣ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٣٤٦ .
(٤) المرجع السابق ٣٤٧ .

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُنْقِصُ ، كُلَّ يَوْمٍ قُوَى حَبْلِ البَقَاءِ ، وَكُلَّ عَامِ
يُقَتِّلُ بَعْضُنَا بِأَكُفِّ بَعْضٍ وَيُشْحَذُ بَيْنَنَا سَيْفُ الحِمَامِ[1]

لقد ألحَّ الدهرُ وأنحى بكَلكَله على صدرِ الشاعر ، وتمكَّنَ في كل ما يسيء به إليه ، وتمادَى في قهرِه ، فلو جادَ هذا الدهرُ ، فإنما كما يجودُ اللئيم لا عن طبعٍ ولا عن سجيةٍ وإنما تصنُّعٌ ، لأنه بطبعِه يحبُّ أن يُسْتَجدى لكي يردَّ بالمنع ، فيقول :

تَمَكَّنَ هَـذَا الدَّهْرُ مِمَّا يَسُوؤُنِي وَلَجَّ فَمَا يُخْلِي صِفَاتِيَ مِنْ قَرْعِ
وَأَبْلَيْتُ آمَالِي بِوَصْلِ يَكُدُّهَا وَلَيْسَ بِذِي ضَرٍّ ، وَلَيْسَ بِذِي نَفْعِ
لَئِيمٌ ، إِذَا جَادَ اللَّئِيمُ تَخَلُّقاً يُحِبُّ سُؤَالَ القَوْمِ شَوْقاً إِلى المَنْعِ[2]

إنَّ الزمان لجوجٌ مِلحاحٌ ويعامل الكريم بلؤمٍ ولا يوقف عبثَ صروفه فيه ، فيشمِّتُ به الأعداءُ والحسَّاد ، يقول :

لَجَّ الزَّمَانُ ، فَلَيْسَ يَعْبَثُ صَرْفُهُ إِنَّ الزَمَانَ عَلَى الكَرِيمِ لَئِيمُ
لَمْ يَدْرِ مَا تَحْتَ التَجَمُّلِ حَاسِدٌ ، بِالغَيْظِ يَقْعُدُ مَرَّةً وَيَقُومُ
قُلْ لِلْحَسُودِ ، إِذَا تَنَفَّسَ صَعْدَةً : يَا ظَالِماً ، وَكَأَنَّهُ مَظْلُومُ[3]

الدهر متلوِّنٌ غدَّار ، فيه المصائبُ والأكدار ، ولا خلاصَ للمرءِ من تصاريفه إلاّ بالموت ، عندها يكفُّ عنه لأنَّه أصبحَ في قبضةِ الديّان ، فيقول :

يَا شَاكِيَ الدَّهْرِ إِنَّ الدَّهْرَ أَلْوَانُ فِيهِ لِصَاحِبِه ، بُؤْسٌ وَأَحْزَانُ
وفي المَمَاتِ غِنىً لِلْمَرْءِ يَسْتُرُهُ وَلَيْسَ مُسْتَغْنِياً مَا عَاشَ إِنْسَانُ[4]

---

(١) المرجع السابق ٣٩١ .
(٢) ديوان ابن المعتز ٣١٠ .
(٣) المرجع السابق ٤١١ .
(٤) المرجع السابق ٤٤٦ .

ويشكو الشاعرُ من الزمن بمرارة ، لما يجرِّعُه من غُصص ، وما يُبديه من تقلّبٍ وتلوّن ، وكيفَ يصرِّفُ أقدارَ الناس ويطحنُهم ، فإنْ أبرقَ فخلّب لأنّ المكارهِ بالمرصاد ، يقول :

طَالَ لَيْلي ، وَسَاوَرَتْني الهُمُومُ   وَكَأَنِّي لِكُلِّ نَجْمٍ غَرِيمُ
سَاهِراً ، هَاجِراً لنَوْمِيَ حَتَّى   لَاحَ تَحْتَ الظَلامِ فَجْرٌ سَقيمُ
دَامَ كَرُّ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يَحْثُو   ثَينْ ، ذَا مُنْبِهٌ ، وَهَذَا مُنيمُ
وَرَحى تَحْتَنَا ، وَأُخْرَى عَلَيْنَا   كُلُّ مَرْءٍ فيها طَحينٌ هَشيمُ
وَسُرورٌ ، وَكُرْبَةٌ ، وَافْتِقَارٌ ،   وَبَرِيقٌ كَزُخْرُفٍ لَا يَدُومُ
وَمُعَافَى ، وَذُو سَقَامٍ ، وَحَيٌّ   وَحَبيسٌ تَحْتَ التُّرَابِ مُقيمُ
وَغَوِيٌّ عَاصٍ ، وَبَرٌّ تَقيٌّ ،   وَاسْتَبَانَ المَحْمُودُ وَالمَذْمُومُ
وَبَخيلٌ ، وَذُو سَخَاءٍ ، وَلَوْلَا   بُخْلُ هَذَا مَا قيلَ هَذَا كَريمُ[1]

بعد كلِّ تلك الشكوى المريرة من الزمن ، فإنّ الشاعرَ لم ييأسْ ، ولم يستسلمْ ، ولم يُلقِ أسلحتَه ، بل لابُدّ له من أن يتمرّدَ على تقلُّبه ، إذْ ليسَ لفتى مثلِه الركونُ إلى تصاريف القدر وتقلّباتِ الدهر فيقول :

إِذَا أَنَا لَمْ أَجْزِ الزَّمَانَ بِفِعْلِهِ   تَقَلَّبَ مِنِّي الدَّهْرُ في جَانِبٍ سَهْلِ
عَرَضْتُ فَمَا أُعْطِي الحَوادِثَ طَاعَةً   وَلَيْسَ يُطيعُ الحَادِثَاتِ فَتىً مِثْلي[2]

إذاً ، على الشاعر أنْ يغنم من الدهر ما تطاله يداه ، قبل أن تمتدَّ إليه يد القدر ، وها هو يطلب من أصحابه أن يعلِّلوه ، ليختطف اللذّات من ساعات مستعارة ، فيقول :

أَلَا عَلِّلَاني ! إِنَّمَا العَيْشُ تَعْليلُ   وَمَا لِحَياةٍ ، بَعْدَهَا مِيتَةٌ ، طُولُ

---

(١) المرجع السابق ٣٩٣ .
(٢) ديوان ابن المعتز ٣٦٠ .

دَعَاني مِنَ الدُّنْيَا أَنَلْ مَنْ نَعيمِهَا   فَـإِنِّيَ عَنْهَا بَعْـدَ ذَلِـكَ مَشْغُـولُ
خُـذَا لَذَّةً مِنْ سَـاعَةٍ مُسْتَعَـارَةٍ   فَلَيْسَ لِتَعْـويقِ الحَوادِثِ تَمْثِيـلُ[1]

أجل ليغنم المرءُ أيّامه ، مادام الدهرُ في غفلةٍ وقد نامت حوادثُه ، وينهلَ من اللّذات ما طابَ له ، فلن يبقَى بعدَ ذلك غيرُ الرواياتِ تُروى ، والحكايات تُردّدُ ، فيقول :

قُمْ نَصْطَبِحْ ، فَلَيالِ الوَصْلِ مُقْمِرَةٌ   كَـأَنَّها بِإِجْتِمَـاعِ الشَّمْلِ أَسْحَـارُ
وَالدَّهْرُ في غَفْلَةٍ ، نَامَتْ حَوادِثُهُ   وَنَـبَّهَـتْـهَـا إلىٰ الـلَّذَاتِ أَوْتَـارُ
أَمَا تَرَى أَرْبَعاً لِلَّهْوِ قَدْ جُمِعَتْ :   جُنْكُ ، وَعُودٌ ، وَقَانُونٌ ، وَمِزْمَارُ
فَخُذْ بِحَظٍّ مِنَ الدُّنْيـا ، فَلَذَّتُهَا   تَفْنَى ، وَيَبْقَى رِوايَـاتٌ وأَخْبَارُ[2]

---

(١) المرجع السابق ٣٨٢ .
(٢) المرجع السابق ٢٥١ .

٨ - شعر الحكمة ..

كان من الطبيعي أنْ يتحلّى ابن المعتز بالحكمة ، وهو الذي عاش الأهوال والدسائس والمؤامرات ، وتزوّدَ بالثقافة اللازمة ، فجاءت حكمتُه في أغلب الأحيان مصبوغةً باللون القاتم ، مختلطةً بالشكوى من الدهر والأصدقاء ، كقوله :

رَاحَ فِرَاقٌ ، أَوْ غَدَا لَسْتُ بِبَاقٍ أبداً
كَمْ لَكَ مِنْ أَحِبَّةٍ ؟ مَاتُوا فَصَارُوا بَدَداً
لَا تُخْدَعَنَّ ، فإنَّمَا كَوَالِدٍ مَنْ وُلِداً
مَنْ سَارَ كُلَّ سَاعَةٍ أَوْشَكَ بِهِ أَنْ يَرِداً

أو كقوله منوِّها بمصير الإنسان في مواجهة القدر ، وتصادم الناس بعضها ببعض قتلاً وسحقاً :

وَبِنْتُ عَنِ الشَّبَابِ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَآخِرُ كُلِّ شَيْءٍ لِانْصِرَامِ
رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُنْقِصُ كُلَّ يَوْمٍ قُوَى حَبْلِ البَقَاءِ ، وَكُلَّ عَامِ
يُقَتِّلُ بَعْضَنَا ، بِأَكُفِّ بَعْضٍ وَيُشْحَذُ بَيْنَنَا سَيْفُ الحِمَامِ(٢)

وفي القضاء والقدر يلخِّص الشاعر عصارة تجربته ، فيقول :

رُبَّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ جَرَّ أَمْراً تَرْتَجِيهِ
خَفِيَ المَحْبُوبُ مِنْهُ وَبَدَا المَكْرُوهُ فِيهِ
فَاتْرُكِ الدَّهْرَ وَسَلِّمْهُ إِلَى عَدْلٍ يَلِيهِ(٣)

وفي ردع النفس عن المطامع وزجرها عن الأماني الخادعات ، يقول :

(١) ديوان ابن المعتز ٥٧ .
(٢) المرجع السابق ٩٩١ .
(٣) المرجع السابق ٤٧١ .

أَلَا يا نَفْسُ إنْ تَرْضَيْ بِقُوتٍ ... وَأَنْتِ عَزِيزَةٌ أَبَداً غَنِيَّهْ
دَعي عَنْكِ المَطَامِعَ وَالأَمَاني ، ... فكَم أُمْنِيّةٍ جَلَبَتْ مَنِيَّهْ[1]

والدهر كذوب خادع ، يتقلّب سريعاً ويفرِّق الجميع ، ويهلك الشجاع والجبان ، والصابر والجزوع ، فيقول :

كَذَبَ الدَّهْرُ ، فَمَا فيه سُرورٌ ، ... يَقْلِبُ الحَالَ ، وَيَنْفَضُّ الجَميعُ
أَبْطِ مَا شِئْتَ وَسِرْسَيْراً رُوَيْداً ... إنَّ سَيْرَ الدَّهْرِ بالمَرْءِ سَرِيعُ
ذَاكَ أَفْنَانَا ، وَمَنْ يَبْقَى سِوَانَا ... يَهْلِكُ الصَّابِرُ مِنَّا وَالجَزُوعُ[2]

وربّما أنطلقت شآبيبُ الحكمة عند ابن المعتزّعلى شكل نصيحة يُزجيها ، كما في قوله :

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الحَسُودِ ... فَإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
كَالنَّارِ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ[3]

أو كقوله :

تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلائِلُ[4]
وَدَعْ عَنْكَ مَاتَجْري بِهِ لُجَجُ الهَوَى ... إلى غَمَراتٍ لَيْسَ فيهِنَّ عَاقِلُ

وكقوله أيضاً :

يَا طَالِباً مُسْتَعْجِلاً رِزْقَهُ ... المَوْتُ يَأْتيكَ عَلَى مَهْلِ
أَعْقِلُ في قَوْلي ، وَلَكِنَّني ... مِنْ بَعْدِهِ أَجْهَلُ في فَعْلي[5]

---

(١) المرجع السابق ٤٧٢ .
(٢) المرجع السابق ٣٠٢ .
(٣) المرجع السابق ٣٨٩ .
(٤) المرجع السابق ٣٨٩ .
(٥) ديوان ابن المعتز ٣٩٠ .

أو كقوله :

وَيَا رُبَّ أَلْسِنةٍ كَالسُّيوفِ … تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا
وَكَمْ دُهِيَ المَرءُ مِنْ نَفْسِهِ … فَلَا تَأْكُلَنَّ بِأَنْيَابِهَا[1]

أو كقوله :

لَا تَحْقِرَنَّ صَغيرَةً … إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

بمثل هذه الحكم رصّع ابن المعتزّ شعره ، فلم تكد قصيدة تخلو من موعظة يلقيها ، أو خطرة يفلسفها ، منها هو يقول :

أَلَا رُبَّ دَسَّاسٍ إلى الكَيْدِ حَامِلٍ … ضِبَابَ حَقُودٍ قَدْ عَرَفْتُ وَدَارَيْتُ
فَعَادَ صَديقاً بَعْدَمَا كَانَ شَانِئاً … بعيدَ الرِّضى عَنِّي ، فَصَافَى وَصَافَيْتُ[2]

أو كمثل قوله الرائع :

يَا مَنْ تَبَجَّحَ فِي الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا … كُنْ مِنْ صُرُوفِ لَيَالِيهَا عَلَى حَذَرِ
وَلَايَغُرَّنْكَ عَيْشٌ إِنْ صَفَا وَعَفَا … فَالمَرْءُ مِنْ غُرَرِ الأَيَّامِ فِي غَرَرِ[3]
إِنَّ الزَّمَانَ ، إِذَا جَرَّبْتَ خِلْقَتَهُ … مُقَسَّمُ الأَمْرِ بَيْنَ الصَّفْوِ وَالكَدَرِ
كَمْ قَدْ أَغَارَ قُوَى حَبْلٍ لِغَادِرِهِ … لَمَّا أَغَارَ عَلَيْهِ ، وَاهِيَ المِرَرِ[4]

ويقول على المنوال نفسه :

يَا نَفْسُ صَبْراً ، لَعَلَّ الخَيْرَ عُقْبَاكِ … خَانَتْكِ مِنْ بَعْدِ طُولِ الأَمْنِ دُنْيَاكِ
لَكِنْ هُوَ الدَّهْرُ ، لُقْيَاهُ عَلَى حَذَرٍ … فَرُبَّ حَارِسِ نَفْسي تَحْتَ أَشْرَاكِ[6]

---

(١) المرجع السابق ٣٠ .
(٢) المرجع السابق ٩٥ .
(٣) الغرر بضم الغين : البيض . وبفتح الغين : التعرض للهلاك .
(٤) أغار الحبل : شد فتله . المرر : الواحدة مرّة وهي طاقة الحبل .
(٥) ديوان ابن المعتز ٣٥٥ .

ولا يبعد ذلك عن قوله :

صَبْراً عَلَى الهُمُومِ وَالأَحْزَانِ   وَفُرْقَةِ الأَحْبَابِ وَالإِخْوَانِ
فإِنَّ هَذا خُلُقُ الزَّمانِ[1]

(١) المرجع السابق ٤٤٥ .

٩ ـ شعر الإخوانيات :

لابن المعتزّ مراسلات شعريّة بينه وبين إخوانه ، وهي تكثير كثرة تجعلنا نظنُّ ظنّاً أنّه من أوائل مَنْ أعدّوا لفتح باب الإخوانيّات في الشعر العربي . وهو ينحو في طائفة منها نحوَ الدُّعابة ، كما يشيرُ الدكتور شوقي ضيف(١) .

يهنئُ أحدَ أصدقائه الأمراء وقد أحرزَ منصبَ الوزارة وهو عبيدُ الله بن سليمان بن وهب ، فيقول :

قُـلْ لِـلأمـيرِ : سَلِمْتَ لِلـدُّنْـيَـا ، وَشَعْـبِ صُـدوعِهَـا
قَـدْنِـلْتَ مَهْـرَ خِـلاَفَـةٍ لَمْ تَخْطُ حُسْنَ صَنيعِهَـا
وَحَـوَيْـتَ بِـنْـتَ وَزَارَةٍ كَـالشَّمْسِ حينَ طُلوعِهَـا
إنَّ الأُصـولَ تَـفَـرَّقَـتْ فَـتَـعَـانَـقَـتْ بِـفُـروعِـهَـا(٢)

تماثلت ابنة قاسم بن سليمان بن وهب للشفاء ، فكتب إليه يقول :

لَقَدْ لَطَفَ الرَّحْمٰنُ بِابْنَةِ قَاسِمٍ وَدَافَعَ عَنْهَا بِالجميلِ مِنَ الصُّنْعِ
وَكَانَ مِنَ الأَمْرِ الَّذي كَانَ فَانْقَضَى وَرَدَّ قَضيبَ النَّبعِ في مَغْرَسِ النَّبعِ(٣)

حال مرضُ الشاعر دون لقاء صديقيه الوزيرين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وعبد الله بن سليمان بن وهب ، فكتب إليهما ، يقول :

حَـاَلَ مِـنْ دُونِ رُؤْيَتـي لِلْوَزيرَيْـــنِ ، وَقَـدْ كُنْـتُ رَاجِيـاً لِلتَّلاَقـي
طُولُ سُقْمٍ مَا إنْ يُفَارِقُ جَسْمي دَائِـرٌ سِـرُّهُ شَـديـدُ الـوِثَـاقِ
حينَ أَمَّـلْـتُ في الدُّنُـوِّ اجْتِماعاً لَطَفَ الدَّهْرُ في دَوَامِ الفِراقِ(٤)

---

(١) العصر العباسي الثاني ٣٤٦ .
(٢) ديوان ابن المعتز ٣٠٩ .
(٣) النبع : شجر تتخذ منه القسي والسهام .
(٤) الديوان ٣٣٧ .

ومن أرقّ إخوانيّاته ، ما ردَّ به على استغاثه صديق له ، وتلبيته لهذه الاستغاثة وتفديته له بروحه وجسمه ودمع عينيه ، إذا كانت تخفف عن ذاك الصديق بعضاً من ألمه ، فقال :

لَبَّيْكَ ، يا مَنْ دَعَاني عِنْدَ عَثْرَتِهِ   لَبَّيْكَ أَلْفَيْنِ ، يا مَوْلَايَ ، لَبَّيْكَا
لَوْ كُنْتُ مِنْكَ قَرِيباً حَتَّى تَسمَعُني   جَعَلْتُ خَدَّيَّ أَرْضاً تَحْتَ رِجْلَيْكَا
جِسمي يَقيكَ الَّذي تَشْكُوهُ مِنْ أَلَمٍ   وَدَمْعُ عَيْنَيَّ يَفْدي دَمْعَ عَيْنَيْكَا(١)

ويصارحُ الشاعرُ أحدَ إخوانه بأنّه ما صدَّ عنه إلّا رغمَ أنفه ، خوفاً عليه من عيونِ الناس وترفُّقاً ، بحسنه ، وهو مع ذلك يكنُّ له أروعَ الحبِّ وأعظمَ التقدير ، ويحلُّه المكانَ الأعلى من قلبه ، فيقول :

صَدَدْتُ ، وَإِنْ صَدَدْتُ بِرُغْمِ أَنْفي   فَكَمْ في الصَدِّ مِنْ نَظَرٍ إِلَيْكَا
أَرَاكَ بِعَيْنِ قَلْبٍ لَا تَرَاهَا   عُيُونُ النَّاسِ مِنْ حَذَرٍ عَلَيْكَا
فَأَنْتَ الحُسْنُ ، لَا صِفَةٌ بِحُسْنٍ   وَأَنْتَ الخَمْرُ ، لَا مَا في يَدَيْكَا(٢)

وقال في أحد توقيعاته :

مَا حَانَ لي أَنْ أَرَاكَا   وَأَنْ أُقَبِّلَ فَاكَا
قَلْبي بِكَفَّيْكَ ، فَانْظُرْ   هَلْ فيهِ خَلْقٌ سِوَاكَا

وقال يخاطب صديقاً له ، وقد لجَّ في المعاصي ، وتمادى في الهوى ، بعد أن وخط الشيب عارضيه ، فينصحه وينهاه :

أَلَا تَسْلُو فَتَقْصُرَ عَنْ هَوَاكَا   أَلَا وَمَشيبُ رَأْسِكَ خَانَ ذَاكَا
أَرَاكَ تَزِيدُ حِذْقاً بِالمَعَاصي   إذَا مَا طَالَ في الدُّنْيَا مَدَاكَا(٣)

---

(١) ديوان ابن المعتز ٣٥٠ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ديوان ابن المعتز ٣٥٥ .

وقال فيمن حوله من الإخوان ، مثمِّناً غالياً هذه الكوكبة النادرة من الأحبّاء ، التي يضنُّ بها على الدهر ، حيث لا يعرفون الهجر ولا الملل ، مبرّئين من الضغائن والأحقاد ، لذا سيظلُّ وفيّاً لهم ، لا يقبل فيهم قيلاً ولا قالا :

إنِّي رُزِقْتُ مِنَ الإِخْوَانِ جَوْهَرَةً ... مَا إِنْ لَهَا قيمَةٌ عِنْدي وَلَا ثَمَنُ
فَلَسْتُ مُعْتَذِراً مِنْ أَنْ أَشُحَّ بِهَا ... وَلَا يَزَالُ لَدَيّ الدَّهْرُ يُخْتَزنُ
بِحَيْثُ لَا يَهْتَدي هَجْرٌ ، وَلَا مَلَلٌ ... وَلَا يَطُورُ بِهَا عَتْبٌ وَلَا ضَغَنُ
فَمَا الخِيَانَةُ مِنْ شَأْني ، وَلَا خُلُقِي ... وَلَيْسَ عِنْدي لَهَا عَيْنٌ وَلَا أُذُنُ(١)

ويعتذرُ الشاعر من أحدِ إخوانه ، إذا لم يستطعْ أن يكتبَ إليه بديباجة مشرقة وخطٍ واضح ، فإنَّ أحداثَ الزمان تتعتعُه وتنالُ منه ، فيقول مخاطباً إيّاه :

إذَا أَحْسَسْتَ في خَطِّي فُتُوراً ... وَحَظِّيٍّ وَالبَلَاغَةِ وَالبَيَانِ
فَلَا تَرْتَبْ بِفَهْمي ، إنَّ رَقْصِي ... عَلَى مِقْدارِ إيقَاعِ الزَّمَانِ(٢)

ويذكر لنا قصّة صاحب له خان المودّة ، وتاه على الأصدقاء ، فضلّ وضاع في زحمة الحياة ، فلا يراهم ، ولا يروه ، فقال :

كَانَ لَنَا صَاحِبٌ زَمَانَا ... فَحَالَ عَنْ عَهْدِهِ وَ خَانَا
تَاهَ عَلَيْنَا ، فَتَاهَ مِنَّا ... فَلَا نَراهُ ، وَ لَا يَرَانَا(٣)

ومثله صديق ثان هان وأسفَّ ، ولا همَّ له إلاّ تعداد أخطاء الآخرين ، فتركه الشاعر وشأنه يلتقط شوكه بيده ، فقال :

تَرَكْتُ حَبيباً مِنْ يَدي ، مِنْ هَوَانِهْ ... وَأَقْبَلْتُ في شَأْني ، وَوَلَّى بِشَانِهْ

---

(١) المرجع السابق ٤٣٠ .
(٢) المرجع السابق ٤٤٤ .
(٣) تاه الأولى : من الكِبْرِ . والثانية : من الضياع .

أَرَى عَوَراتِ النَّاسِ يَخْفَى مَكَانُهَا   وَعَـوْرَتُــهُ في عَقْلِهِ وَلِسَــانِــهْ[٥]

ويكشف لنا الشاعر عن سيرة صاحب متلوِّن ختال ، فيقول :

لـي صَــاحِبٌ مُخْتَلِفُ الأَلْـوانِ   مُتَّهَـمُ الـغَـيْبِ عَـلَى الإخْـوانِ
مُـنْقَــلِبُ الــوُدِّ مَــعَ الــزَّمَـانِ   يَسْـرِقُ عِـرْضي حَيْثُ لاَ يَلْقـاني
وَهُـوَ إذَا لــقَــيـتُــهُ أَرْضَــاني   فَـلَيْـتَــهُ دَامَ عَــلَى الهِـجْــرانِ[١]

بعكس هؤلاء صديقه أبو حسن ، فهو حصن يقيه غائلة الدهر وغدر الزمان فيقول له في رسالة بعث بها إليه :

أَبَا حَسَنٍ ثَبَتَّ في الأَمْرِ وَطْـأَةً   وَأَدْرَكْتَني في المُعْضِـلاَتِ الهَزاهِـزِ
وَأَلْبَسْتَني دِرْعــاً عَــلَيَّ حَصينَــةً   فَنَادَيْتُ صَرْفَ الدَّهْرِ: هَلْ مِنْ مُبَارِزِ؟[٢]

---

(١) ديوان ابن المعتز ٤٣٦ .
(٢) المرجع السابق ٢٦٠ .

١٠ ـ شعر الطرديات ..

ويتّصلُ شعرُ اللّهو عند ابن المعتزّ فيما نظمه في الطَّرد ، وكان مولعاً به ، شأنُه في ذلك شأن شعراء العصر العباسيّ ، من أمثال أبي نواس ، وابن الروميّ وغيرهما . وهو في طرديّاته يصف لنا رحلةَ الطرد من وقت خروجه فجراً إلى حين عودته إلى قصره ، مروراً بما صادفَه أثناء الرحلة من صيدٍ وما قام به وصحبُه من شواءٍ وشراب ، دون أن ينسى وصفَ فرسهِ ، وبقيَّة آلات صيده .

«وله في الخيل أشعارٌ مختلفة ، وطبيعيّ أن يُعنى بها إذا كان مشغوفاً بالصيد ، حتّى ليحتلّ الطردُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعتَه بها قوله في مقدمة إحدى طردياته يصف فرساً له :

قَدْ أغْتَدي وَالصُّبْحُ كَالمَشيبِ في أُفُقٍ مِثْلَ مَداكِ الطِّيبِ[١]
بِقَارِحٍ مُسَوَّمٍ يَعْبُوبِ ذِي أُذُنٍ كَخُوصَةِ العَسيبِ[٢]
أَوْ آسِةٍ أَوْفَتْ على قَضيبِ يَسْبِقُ شَأْوَ النَظَرِ الرَّحيبِ[٣]
أَسْرَعُ مِنْ مَاءٍ إلى تَصْويبِ وَمِنْ رُجُوعِ لَحْظَةِ المُريبِ

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته في تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته في تعقُّب طرائده من الطير ، وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يحزُّها ويطعنها مسيلاً لدمائها ، مزهقاً لأرواحها ، يقول :

وَأَجْدَلٍ أُحْكِمَ بِالتَأْدِيبِ سَوْطِ عَذَابٍ وَاقِعٍ مَجْلُوبِ[٤]
يَهْوي هُوِيَّ المَاءِ في القَليبِ مَا طَارَ إلاَّ لِدَمٍ مَصْبُوبِ[٥]

(١) المداك : الحجر الذي يسحق عليه الطيب .
(٢) القارح : مكتمل الخلق . المسوم : المعلم الحسن الخلق . يعبوب : سريع الجري .
(٣) أوفت : أشرفت .
(٤) أجدل : صقر .
(٥) القليب : البئر .

وعلى نحو ما يصوِّرُ الصقورَ الجارحة في طرده وصيدها للطير ، يصوِّر البُزاةَ بأبصارها الثاقبة ، ومناسِرها الحادة المرهفة كالأسنَّة المشرعة ، ومن طريف ما له في تصوير عين باز قوله :

وَمُقلَّةٍ تَصْدُقُهُ إذَا رَمَقْ ... كَأنَّهَا نَرْجِسَةٌ بِلاَ وَرَقْ(1)

وفيها قال أيضاً :

وَفِتْيَانٍ غَدَوا ، وَاللَّيْلُ دَاجٍ ... وَضَوْءُ الصُّبْحِ مُتَّهَمُ الوُرُودِ
كَأنَّ بُزَاتَهُمْ أُمَرَاءُ جَيْشٍ ... عَلَى أكْتَافِهِمْ صَدَأُ الحَدِيدِ(2)

ووصف عيون المطايا فقال :

رَحَلْنَا المَطَايَا مُدْلجِينَ ، فَشَمَّرَتْ ... بِكُلِّ فَتىً غمرٍ إلىٰ المَوْتِ سَبَّاقِ
أطَلْنَا السُّرَى حَتَّى كَأنَّ عُيُونَهَا ... زُجَاجَاتُ جَامَاتٍ أُدِيرَتْ عَلَى السَّاقي(3)

ويُغرِق الشاعر أحياناً في وصف ناقته أثناء رحلة الصيد . فيحدِّثُنا عن ناقته بكلِّ التفاصيل التي قلّما نجدُها عند غيره ، فمن ذلك لاميتُه التي يقول فيها :

وَلَرُبَّ مُهْلِكَةٍ يَحَارُ بِهَا القَطَا ... مَسْجُورَةٍ بالشَّمْسِ خَرْقٍ مَجْهَلِ(4)
خَلَّفْتُهَا بِشِمِلَّةٍ تَطَأُ الدُّجَى ... مُرْتَاعَةِ الحَرَكَاتِ ، حِلْسٍ ، عَيْطَلِ(5)
تَرْنُو بِنَاظِرَةٍ كَأن حِجَاجَهَا ... وَقْبٌ أَنَافَ بِشَاهِقٍ لَمْ يُحْلَلِ(6)

---

(1) انظر العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٤٥ - ٣٤٦ .
(2) انظر ديوان ١٨٤ .
(3) المرجع السابق ٣٤٦ .
(4) المهلكة : المفازة . مسجورة : موقدة . الخرق : الأرض . المجهل : لا يهتدى بها .
(5) الشملة : الناقة السريعة . الحلس : الملازمة السير . العيطل : الطويلة العنق في حسن .
(6) الحجاج : العظم الذي ينبت عليه الحاجب.الوقب : النقرة في الصخر . أناف : ارتفع . الشاهق : الجبل العالي .

وَكَأَنَّ مَسْقِطَهَا إِذَا مَا عَرَّسَتْ ... آثَارُ مَسْقِطِ سَاجِدٍ مُتَبَتِّلِ (١)

وَكَأَنَّ آثَارَ النُّسُوعِ بِدَفِّهَا ... مَسْرَى الأَسَاوِدِ فِي هَيَامٍ أَهْيَلِ (٢)

وَيَشُدُّ حَادِيهَا بِحَبْلٍ كَامِلٍ ... كَعَسِيبِ نَخْلٍ خُوصُهُ لَمْ يَنْجَلِ (٣)

وَكَأَنَّهَا عَدْواً قَطَاةٌ صَبَّحَتْ ... زُرْقَ المِيَاهِ وَهَمُّهَا فِي المَنْزِلِ (٤)

مَلأَتْ دِلاَءً تَسْتَقِلُّ بِحَمْلِهَا ... قُدَّامَ كَلْكَلِهَا كَصُغْرَى الحَنْضَلِ (٥)

وَغَدَتْ كَجُلْمُودِ القِذَافِ يُقِلُّهَا ... وَافٍ كَمِثْلِ الطَّيْلَسَانِ المُخْمَلِ (٦)

حَمَّلْتُهَا ثِقْلَ الهُمُومِ فَقَطَّعَتْ ... أَسْبَابَهُنَّ بِنَا تَخُبُّ وَتَعْتَلِي

عَنْ عَزْمِ قَلْبٍ لَمْ أُصِلْهُ بِغَيْرِهِ ... عَضْبِ المَضَارِبِ صَائِبٍ لِلْمَفْصِلِ

حَتَّى إِذَا اعْتَدَلَتْ عَلَيْهِمْ لَيْلَةٌ ... سَقَطُوا إِلَى أَيْدِي قَلاَئِصَ نُحَّلِ (٧)

حَتَّى اسْتَثَارَهُمُ دَلِيلٌ فَارِطٌ ... يَسْمُو لِغَايَتِهِ بِعَيْنَيْ أَجْدَلِ (٧)

يُدْعَى بِكُنْيَتِهِ لآخِرِ ظِمْئِهَا ... يَوْماً ، وَيُدْعَى بِاسْمِهِ فِي المَنْهَلِ (٩)

لَبِسَ الشُّحُوبَ مِنَ الظَّهَائِرِ وَجْهُهُ ... فَكَأَنَّهُ مَاوِيَّةٌ لَمْ تُصْقَلِ (١٠)

سَارٍ بِلَحْظَتِهِ إِذَا اشْتَبَهَ الهُدَى ... بَيْنَ المَجَرَّةِ وَالسِّمَاكِ الأَعْزَلِ (١١)

---

(١) عرست : نزلت ليلاً . المتبتل : المنقطع عن الدنيا .

(٢) النسوع : جمع نسع وهو جلد مضفور تشد به الرحال . الدف : الجنب . الأساور : الحيات . الهيام : الرمل المنهال . الأهيل : المنصب .

(٣) العسيب : ما ينبت عليه الخوص . الخوص : الورق .

(٤) القطاة : طائر بحجم الزرزور .

(٥) تستقل : ترفع تحمل . الكلكل : الصدر . الحنضل : نبات مرّ .

(٦) الجلمود : الصخر . القذاف : الجبل .

(٧) القلائص : جمع قلوص وهي الناقة الفتية . نحل : هزلي .

(٨) الفارطُ : المتقدم : الأجدل : الصقر .

(٩) الظمىء : أيام العطش .

(١٠) الظهائر : جمع ظهيرة . الماويّة : المرآة .

(١١) المجرة : درب التبانة . السماك الأعزل : نجم في السماء .

ثم ينتقل بعد هذا الوصف الطويل لناقته إلى وصف الصيد ، فيقول :

وَلَـرُبَّ قِرْنٍ قَـدْ تَـرَكْتُ مُجَـدَّلاً جَزَراً لِضَارِيَةِ الذِّئَابِ العُسَّلِ[١]
عَهْدي بِهِ وَالمَـوْتُ يَخْفُرُ رُوحَـهُ وَبِـرَأْسِهِ كفم الفَنيقِ الأَهْـزَلِ[٢]

ثم ينتقل مرَّة أخرى ليصف فرسه ، فيقول :

وَلَقَدْ قَفَوْتُ الغَيْثَ يَنْطُفُ دَجْنُهُ وَالصُّبْحُ مُلْتَبِسٌ كَعَيْنِ الأَشْهَلِ[٣]
بِـطِمِـرَّةٍ تَـرْمي الشُّخُـوصَ بِمُقْلَةٍ كَحْلاَءَ تُعْرِبُ عَنْ ضَميرِ المُشْكِلِ[٤]
فَوْهَاءَ يَفْرُقُ بَيْنَ شَطْرَيْ وَجْهِهَا نُورٌ ، تَخَالُ سَنَاهُ سَلَّةَ مُنْصُلِ[٥]
وَكَـأَنَّمَـا تَحْتَ العِـذَارِ ، صَفيحَـةٌ عُنِيَتْ بِصَفْحَتِها مَدَاوِسُ صَيْقَلِ[٦]

«وله في الكلاب طرديّات كثيرة ، يأتسي فيها بأبي نواس ، بل هو في طرديّاته جميعاً يأتسي به ويحاكيه حتى في ألفاظه التي يفتتح بها تلك الطرديّات ، من مثل : قد أغتدي . وقد مضى في إثره يتحدث عن ضمورها ، ومتانة أعضائها ، وشدَّة سمعها ، وحدَّة براثنها ونشاطها ، وسرعة عدوها ، على شاكلة قوله في إحدى طرديّاته :

وَمُخَـطَّفٍ مُـوثَـقِ الأَعْـضَـاءِ ذِي أُذُنٍ سَـاقِـطَةِ الأَرْجَـاءِ[٧]
كَـوَرْدَةِ الـسَّـوْسَنَـةِ الـشَّهْـلاَءِ وَبُـرْثُـنٍ كَـمِـثْـقَـبِ الحَـذَّاءِ[٧]

---

(١) الجزر : المذبوح . العسل : جمع أعسل وعاسل وهو المضطرب بمشيته .
(٢) الفنيق : الفحل الكريم .
(٣) ينطف : يسيل . الدجنة : الغيمة الماطرة .
(٤) الطمرة : الفرس . المشكل : الملتبس .
(٥) سناه : ضوؤه . منصل : السيف اللامع .
(٦) العذار : الخد . المداوس : جمع مدوس : خشبة يدوس عليها الصيقل وهو الذي يجلو السيوف .
(٧) المخطف : الضامر . ساقطة الأرجاء : شديدة السمع .
(٨) الشهلاء : المتفتحة .

وَمُـقْـلَةٍ قَـليـلَةِ الأَقْـذَاءِ صَـافِيَـةٍ كَقَـطْرَةٍ مَـنْ مَـاءِ[1]
تَنْسَـابُ بَـيْنَ أَكَمِ الصَّحْـراءِ مِثْـلَ انْسِيَابِ حَيَّـةٍ رَقْطَاءِ»[2]

وله في كلاب الصيد قصائد كثيرة ، يصف فيها حذق كلابه ومهارتها بالصيد ، كقوله :

غَـدَوْتُ لِلصَّيْدِ بِغُضْفٍ كَـالقَتَـدْ وَاللَّيْلُ قَدْ رَقَّ عَلَى وَجْهِ البَلَدْ[3]
وَابْتَـلَّ سِـرْبَـالُ النَّسيمِ وَبَـرِدْ وَالفَجْرُ في لَيْلِ الظَّلَامِ يَتَّقِدْ
غَـوَاضِفٍ مُسْهِـلَاتٍ لِـلأَمَـدْ لَمَّا عَدَوْنَ وَعَـدَتْ خَيْلُ الطَّرَدْ
وَتُقْتَفَى الأَرْجُـلُ وَالأَيْـدي تُعَـدّ أَبْـرَقَ بِالـرَكْضِ الفَضَاءُ وَرَعَـدْ
وَقَـامَ شَيْطَانُ الغَمَـامِ وَقَعَـدْ وَطَـارَ نَقْعٌ في السَّماءِ وَرَكَـدْ[4]
مِثْلُ القَرِيبِ عِنْدَهَا مَا قَدْ بَعُدْ[5]

أو كقوله :

فَـرَاعَني صَائِحٌ يَعْـدُو بِـأَكْلُبَـةٍ مُـطَوَّقَـاتٍ بِـأَسْـيَـارٍ وَأَوْتَـارِ
مِنْ كُلِّ أَغْضَفَ خَالي النَّحْضِ مُحْتَبِلٍ يُطَالِبُ الشَرَّ في أَطْواقِهِ ضَارِي[6]

وله طرديّات أخرى في الفهد ، وفي قوس البندق ، ويكثر فيها جميعاً من التشبيهات والصور الطريفة . ولكن الفرس يظلّ وكدَهُ ، معرَّج على وصفه في أكثر من قصيدة ، كقوله :

---

(١) المقلة : العين .
(٢) الرقطاء : الرقشاء : انظر العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٤٦ .
(٣) الغضف : جمع أغضف وهو الكلب المسترخي الأذن . القتد : خشب الرحل .
(٤) النقع : الغبار .
(٥) انظر الديوان ١٨٥ .
(٦) الأغضف : الكلب المسترخي الأذنين. النحض : اللحم . المحتبل : من احتبل أي أخذ الصيد بالحبالة .

وَسَابِحٍ مُسَامِحٍ ذِي مَيْعَةٍ كَأَنَّهُ حَرِيقُ نَارٍ تَلْتَهِبْ[1]
تَرَاهُ إِنْ أَبْصَرْتَهُ مُسْتَقْبِلاً كَأَنَّمَا يَعْلُو مِنَ الأَرْضِ حَدَبْ
عَارِي النَّسَا يَنْتَهِبُ التُّرْبَ لَهُ حَوَافِرٌ بَاذِلَةٌ مَا يَنْتَهِبْ
تُصَالِحُ التُّرْبَ ، إِذَا مَا رَكَضَتْ لَكِنَّهَا مَعَ الصُّخُورِ تَصْطَخِبْ
تَحْسَبُهُ يُزْهَى عَلَى فَارِسِهِ وَإِنَّمَا يُزْهَى بِهِ إِذَا رُكِبْ[2]
أَسْرَعُ مِنْ لَحْظَتِهِ ، إِذَا رَنَا ، أَطْوَعُ مِنْ عِنَانِهِ ، إِذَا جُذِبْ
يَبْلُغُ مَا تَبْلُغُهُ الرِّيحُ ، وَلَا تَبْلُغُ مَا يَبْلُغُهُ ، إِذَا طَلَب
ذُو غُرَّةٍ قَدْ شَدَخَتْ جَبْهَتَهُ وَأُذُنٍ مِثْلِ السِّنَانِ الْمُنْتَصِبْ[3]
وَنَاظِرٍ كَأَنَّهُ ذُو رَوْعَةٍ وَكَفَلٍ مُلَمْلَمٍ ضَافِي الذَّنَبْ
وَمِنْخَرٍ كَالكِيرِ لَمْ تُشْقَ بِهِ أَنْفَاسُهُ ، وَلَمْ يَخُنْهَا فِي تَعَبْ
يَبْعَثُهَا شَمَائِلاً ، وَيَنْثَنِي جَنَائِباً إِلَى فُؤَادٍ يَضْطَرِبْ[4]

وهكذا ميَّز ابن المعتزِّ بخياله الخلّاق ، وحسّه المرهف ، وقدرته الفائقة على التشبيه ، طرديّاته عمّا نظمه أبو نواس في هذا المجال ، رغم أنَّه كان يستقي منه ، ولاسيّما أوصاف الكلاب . والمتصفِّحُ لديوانه يجدُ المساحةَ الهائلة التي تحتلّها الطرديات فيه .

---

(١) السابح : الفرس السريع . الميعة : الجري .
(٢) النسا : عرق من الورك إلى الكعب .
(٣) شدخت جبهته : سالت عليها .
(٤) شمائلاً : نحو الشمال . جنائب : نحو الجنوب . انظر الديوان ٤٥ ـ ٤٦ .

١١ ـ شعر الوصف :

ولد ابن المعتزّ ونشأ في البلاط العبّاسيّ وقصوره المترفة ، وما انبثّ فيها من غنى وجاه ولهو وطرب ، وما عرف عن آبائه الرشيد والمتوكّل والمعتزّ من تفرّغهم للهو والمتعة ما أتاح لهم الفراغ ذلك . قد تكون هذه من أهم البواعث عنده على الإحساس الماديّ للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً مادياً ، إذْ كان هذا الوصف هو الذي يلائم مزاجه المترف ، كما كان يلائم عقله الذي يعيش في النعيم ، فلا يستطيع أن يتعمّق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسيِّ المكشوف .

وقديماً أشار ابن الروميّ الشاعر إلى تأثير بيئة ابن المعتزّ المترفة في شعره . وذكر ابن العبّاسيّ صاحب معاهد التنصيص إلى أنّ ابن المعتزّ أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات . وقد اعترف ابن الرومي بفضله هذا حين جاءه من يسأله قائلاً : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟

فقال له : أنشدني شيئاً من شعره أعجز عن مثله .

فأنشده وصف ابن المعتز للهلال :

وانْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فقال ابن الرومي له : زدني .

فأنشده :

كَأَنَّ آذَرْيُونَهَا ... وَالشَّمْسُ فيهِ كَالِيَهْ(١)

مَداهِنٌ مِنْ ذَهَبٍ ... فيها بَقَايَا غَالِيَهْ(٢)

---

(١) الآذريون : زهر أصفر في وسطه خمل أسود .

(٢) الغالية : المسك وهو أسود .

فصاح ابن الرومي : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء ، وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرّة ، وأهجو هذا كرّة ، وأعاتب هذا تارة ، وأستعطف هذا طوراً[1] .

فابن الرومي يلاحظ هذا التأثير الماديّ المترف للبيئة على ابن المعتز ، هذا بالإضافة إلى عنصر آخر اشترك في تكوين شخصيّته الأدبيّة بقوّة ، وهو عنصر ثقافته العربيّة الإسلاميّة ، حتى إذا انقسمت بيئات النقّاد في عصره :

- إلى مجدِّدين مسرفين في التأثُّر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها في الشعر العربي من جماعة المترجمين ومن التفّ حولهم .

- ومحافظين مسرفين في رفض هذه المقاييس ، والتأثُّر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويينّ أمثال ثعلب والمبّرد ، والبحتريّ من الشعراء .

- ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس ، دون إفناء الشخصية الأدبية العربية في المقاييس الأجنبية ، من أمثال أبي تمّام وابن الروميّ .

وجدناه - ابن المعتز - يأخذ صف المحافظين لتعمّق إحساسه بعروبته ، وتغلغل الثقافة العربيّة الإسلاميّة في نفسه ، ويصرح بذلك في كتابه (البديع) الذي أنشأه ليثبت أن كلَّ ما استحدثه العباسيّون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفيّة ليس محدثاً في حقيقته ، بل هو يُستمدُّ من أصول قديمة في الشعر الجاهليّ والإسلاميّ والقرآن الكريم والحديث النبويّ[2] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٩٦ .
(٢) انظر العصر العباسي الثاني للدكتور شوقي ضيف ٣٣٣ - ٣٣٤ .

وخصّ أبا تمّام برسالة احتفظ بها في ترجمته كتاب الموشح للمرزباني ، وهي تحمل كلَّ الأسس التي كوَّن منها الآمديُّ حملته على أبي تمّام .

ومعنى ذلك أنَّ ابن المعتَزِّ على الرغم من ذوقه المرهف ، وحسِّهِ الرقيق ، كان ينحو نحو المحافظين في فهم الشعر ونقده ونظمه .

وكتابه «طبقات الشعراء المحدثين» يدلُّ على ثقافة واسعة بِالشعر العباسيّ ، وأنّه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتّجاه المحافظ عنده ، إذْ سخَّرها كما يتّضح في كتابه «البديع» لإثبات أن العباسيّين لم يأتوا بشيء ذي بال ، وأن كنوز الشعر العربي القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتقَّ منها العباسيّون كلّ بارعٍ طريف .

ولا بدّ أنْ نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسيّاً أثّر فيه وفي شخصيَّته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إذاءً شديداً . إذْ نشأ لا يعرف الأمْنَ ولا اطمئنان القلب ، وظلَّ يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ، إذْ يجلّل شعره يأسٌ عميق . وحقاً كان يكِبُّ كثيراً على اللهو يُغرق فيه أحزانه ، ولكنَّها كانت أعظمَ من أن تغرق أو تنمحي من نفسه ، ولعلّ ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ، ويتملّق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته(١) .

تلك هي مكوِّنات شخصيّة ابن المعتزّ ؛ بيئه مترفة ينغمس من فيها في ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشرَّيُلم به مبكراً ، وتدلهِمُّ من حوله الخطوب ، فيفكّر في الحياة والموت وما في الدينا من بؤس وآلام ، وكأنّما كتب عليه ألاّ يشرب كؤوس الترف

---

(١) انظر العصر العباسي الثاني للدكتور شوقي ضيف ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

واللهو صافية ، فدائما أو قُل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شرٍّ ونُكْرٍ ، وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم . وابن المعتزّ مع ذلك كله غَزِلٌ ظريف ، حلوُ الدعابة ، جميلُ المحضر ، يألفه كثير من الأدباء[1] .

فلا غرابة بعد ذلك إذا وجدنا ابن المعتزّ يكثر من رصف تشبيهاته الكثيرة ، وصورة البارعة ، بما كانت لديه من مهارة خارقة في اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعونِ بيته كما لاحظ ذلك ابن الروميّ آنفا . وقد لا يستمدّها من ماعون بيته ، ولكن نحسُّ كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور .

ولكن من المؤكّد أنّ ابن المعتز لم يصوِّر في ذلك عاطفة ، وإنّما صوَّرَ عبثاً عقلياً ، وقد يكون من أهمِّ هذا العبث وصفه للبستان في مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وَيَاسَمِينٌ فِي ذُرَى الأَغْصَانِ ... مُنْتَظِمٌ كَقِطَعِ العِقْيَانِ
وَالسَّرْوُ مِثْلُ قضيبِ الزَّبَرْجَدِ ... قَدْ اسْتَمَدَّ العَيْشَ مِنْ تُرْبٍ نَدِي
عَلَى رِيَاضٍ وَثَرىً ثَرِي ... وَجَدْوَلٍ كَالمِبْرَدِ الجَلِي
وَجُلَّنَارٌ كَاحْمِرارِ الخَدِّ ... أَوْ مثلُ أَعْرافِ دُيُوكِ الهِنْدِ[2]

ويكثر الشاعر من تصوير إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً في الربيع ، فنحسُّ كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور ، خاصّة أضواء الصباح وهي تحسر عن الأفق خيوطَ الظلام وسوادَه .

فهو يشبِّهُ الليلَ تارة بغراب أسود :

---

(١) المرجع السابق .
(٢) ديوان ابن المعتز .

قَـدْ أغْتَدي ، وَاللَّيـلُ كَالغُـرَابِ رَاخي القِنَاعِ ، حَالِكُ الإهَـابِ
مُلْقى السُّدُولِ ، مُغْلَقُ الأَبْوابِ حَتَّى بدا الصُّبْحُ مِنَ الحِجَابِ(١)

ومرة أخرى يشبهه بالسَّحَرِ أو بافتضاح ظلمته بضوء البدر ، وكأنّه صباح مشرق :

يَـا رُبَّ لَـيْـلٍ ، سَـحَـرٌ كُـلُّـهُ مُفْتَضِـحُ البَـدْرِ عَليـلُ النَّسيمْ
يَلْتَـقِـطُ الأَنْفَـاسَ بَـرْدُ النَّـدى فيه ، فَيَهْـدِيـهِ لِحَـرِّ السَّـمُـومِ
لَمْ أعْـرِفِ الإصْبَاحَ في ضَـوْئِـهِ كـمَّا بَـدَا ، إلاَّ بِسُكْـرِ النَّـديمِ(٢)

وأخرى يشبهه بكحل العين ، يقول :

وَلَيْلٍ كَكُحْلِ العَيْنِ خُضْتُ ظَلاَمَهُ بِـأَزْرَقَ لَمَّـاعٍ وَ أَبْيَضَ صَـارِمِ

والضوء والظلام شغل الشاعر الشاغل ، فهما يتلامحان في عقله باستمرار ، إنّه أثرفنيّ يسكنه وهو الطباق ، يقول :

يَـا لَـيْلَةً نَـسِـيَ الـزَّمـانُ بِـهَـا أَحْـدَاثَـهُ ، كُـوني بِـلاَ فـجْـرِ
رَاحَ الـزَّمَـانُ بِـبَـدْرِهـا وَوَشَتْ فيـهَـا الصَّـبَا بِمَـواقِـعِ القَـطْرِ
ثُمَّ انْقَضَتْ ، وَالفَجْـرُ يَتْبَعُهَـا في حَيْثُ ما سَقَطَتْ مِنَ الدَّهَرِ(٣)

وقد يصف طول الليل بصور قد لا تخطر على بال ، كقوله :

أَقُولُ ، وَقَدْ طَالَ لَيْلُ الهُمُـومِ وَقَـاسَـيْـتُ حُـزْنَ فُـؤَادٍ سَـقيـمِ
عَسـى الشَّـمْسُ قَدْ مُسِخَتْ كَوْكَباً وَقَـدْ طَلَعَـتْ فـي عِـدَادِ النجُّـومِ(٤)

ـ أمّا الهلال فيصوِّره زورقاً من الفضة محمّلاً بالعنبر ، فيقول :

---

(١) ديوان ابن المعتز ٨٨ .
(٢) المرجع السابق ٤٠٩ .
(٣) المرجع السابق ٢٥٦ .
(٤) المرجع السابق ٣٩٦ .

أهـلاً بِفِـطْرٍ قَـدْ أَنَـارَ هِـلاَلُـهُ   فَـالآنَ فَاغْـدُ إلى المُدَامِ وَبَكِّرِ
وَانْـظُرْ إِلَيْهِ كَـزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّـةٍ   قَـدْ أَثْقَلَتْـهُ حُمولَـةٌ مِنْ عَنْبَرِ(١)

وقد يشبه الهلال مرّةً أخرى بمنجل قد صيغ من فضّة يحصد حقلاً من النرجس المخضّل :

انْـظُرْ إلى حُسْنِ هِـلالٍ بَـدا   يَهْتِـكُ مِـنْ أَنْـوارِهِ الحِنْـدِسَـا
كَمِنْجَـلٍ قَـدْ صيـغَ مِـنْ فِضَّـةٍ   يَحْصُـدُ مِنْ زُهْـرِ الـدُّجَى نَـرْجِساً(٢)

وأما وصفه للقمر سارق الضياء من الشمس فغاية في الإبداع ، يقول :

يَاسَارِقَ الأَنْوَارِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى   يَا مُثْكِلِي طِيبَ الكَرَى وَمُنَغِّصِي
أَمَّا ضِيَاءُ الشَّمْسِ فيكَ فَنَاقِصٌ   وَأَرَى حَـرارَتَهـا بِهَـا لَمْ تَنْقُصِ
لَمْ يَـظْفَرِ التَّشْبيـهُ مِنكَ بِطَائِلٍ   مُتَسَـلِّخٌ بَهَقـاً كَلَـوْنِ الأَبْـرَصِ(٣)

ويتألّق الشاعر في وصف الليل والكواكب معا في تصوير مبدع يخلبُ الألباب ، حيث يقول :

كَـمْ لَيْـلَةٍ مَحْمُـودَةٍ أَحْيَـيْتُـهَـا   جَاءَتْ بِأَسْـعَدِ طَائِرٍ لَـمْ يَنْحَسِ
بَيْضَـاءَ مُقْمَـرَةٍ لَقِيهَـا صُبْحُهَـا   وَثِيَـابُهَـا في ظُلْمَـةٍ لَمْ تُـدْنَسِ
وَتَـوَقَّـدَ المِرِّيـخُ بَـيْنَ نُجُـومِهَـا   كَبِهَـارَةٍ في رَوْضَـةٍ مِنْ نَـرْجِسِ
كَمُلَتْ وَتَمَّ نَعيمُهَـا وَسُرورُهَـا   بِـأحبِّ زَائِـرَةٍ وَأَطْيَـبِ مَجْلِسِ
مَا أَنْصَفَ النَّدْمَانُ كَأْسَ مُدَامِهَا   ضَحِكَتْ عَلَيْهِ فَشَمْسُهَا بِتَعَبُّسِ(٤)

ـ وتكثر في ديوان ابن المعتز التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، كتشبيهه

(١) المرجع السابق ٢٤٧ .
(٢) المرجع السابق ٢٧٨ .
(٣) المرجع السابق ٢٨٦ .
(٤) ديوان ابن المعتز ٢٧٦ .

للغدير إذا ما هبت عليه الريح ترجرج موجه فانعكست عليه أشعة الشمس كما تنعكس على درع ذهبي :

غَـديـرٌ يُـرَجْـرِجُ أَمْـوَاجَـهُ هُـبـوُبُ الـرِّيَـاح وَمَـرُّ الصَّـبَـا
إِذَا الشَّمْسُ مِنْ فَـوْقِهِ أَشْـرَقَتْ تَـوَهَّـمْـتَـهُ جَـوْشَـنـاً مُـذْهَـبَـا(٢)

ويشبه صفحة بركة بمرآة خرجت لتوهًا مجلوة من بين يدي القين ، ويضفي عليها رونقاً بارعاً حين يشبه يدها بالخليج المتّصل بها ، فيقول :

كَـأَنَّ الـبِـرْكَـةَ الـغَـنَّـاءَ لَمَّـا غَـدَتْ بِـالمَـاءِ مُفْعَمَـةً تَمُـوجُ
وَقَـدْ لاَحَ الـدُّجَى مـرآةَ قَـيْنٍ قَدْ انْصَقَلَتْ وَمَقْبِضُهَا الخَلِيـجُ(٣)

ونقط الحيا تعيد للأرض شبابها وكأنَّها نقط على طين كتاب :

بَكَرَتْ تُعيرُ الأَرْضَ لَوْنَ شَبَابِها رَحْبِيَّةٌ مَحْمُودَةُ التَّسْكَـابِ
نَشَـرَتْ أَوائلَهَـا حَيَـاً . فَكَـأَنَّـهُ نُقَطٌ عَلَى عَجَلٍ بِـطِينِ كِتَابِ(٤)

ويصف الطبيعة الثائرة بحزنها وبرقها ووبلها ، بتشبيهات متلاحقة متتابعة ، يقول :

.. أَوْ وَقْفَةٍ في مَحْضَرٍ جرَّتْ بِهِ عَصْفُ الرِّيَاحِ الهوجِ ذَيْلَ عَجَاجِ
حَمَلْت كَـوَاهِلُهَا رَوَايَـا مُـزْنَـةٍ كَالبَحْرِ ذي الآذِيِّ وَ الأَمْـوَاجِ
مَفْتُـوقَةٍ بِـالبَرْقِ يَضحَـكُ أُفقُهَـا في لَيْلَةٍ بَيْضَـاءَ ذَاتِ دَيَـاجِي
فَتحلَّلَتْ . عُقَـدُ السَّماءِ بِـوَابِـلٍ زَاهِي المَهَـاءِ مُحَلَّلِ الأَبْـرَاجِ(٥)

ويعطف على وصف سحابة مثقلة بالماء ، تهادت على أعناق الرياح سحاً

(٢) المرجع السابق ٨٨ .
(٣) المرجع السابق ١٣٥ .
(٤) المرجع السابق ٩٢ .
(٥) المرجع السابق ١٣٢ .

وتهطالاً يتبع التشبيه بالتشبيه حتى تتكامل الصورة البديعة لتنجليَ عن روض خضيل بالندى منوّرٍ بالأقاحي :

وَمُـوقَـرَةٌ بِثِقْـلِ المَـاءِ جـاءَتْ تَهَادَى فَـوْقَ أَعْنَـاقِ الـرِّيَـاحِ
فَجـاءَتْ لَيْلَهَـا سَحّـاً وَوَبـلاً وَهَـطْـلاً مِثْـلَ أَفْـواهِ الجِـراحِ
كَـأَنَّ سَمَاءَهَـا لَمَّا تَجلَّتْ خِـلاَلَ نُجـومِهَـا عِنْـدَ الصَّبَاحِ
رِيَاضُ بَنَفْسَجٍ خَضِـلٍ نَـدَاهُ تَفَتَّـحَ بَيْنَـهُ نَـوْرُ الأَقَـاحِـي[1]

ـ ويصف كذلك ليلة ماطرة مظلمة كقلب الكافر ، في صورٍ متتابعة تعبر عن مَلَكة نامية وحسّ دقيق بالأشياء ينعكس على عقل الشاعر فيخرج علينا بكلٍّ ما هو بديع .

كَمْ قَدْ قَطَعْتُ إِلَيْكَ مِنْ دَيْمُومَةٍ نُطَفُ المِيَاهِ بِهَا سَوادُ النَّاظِرِ[2]
فِي لَيْلَةٍ فِيهـا السَّمَاءُ مُـرِزَّةٌ سَـوْدَاءُ ، مُظْلِمَـةٌ كَقَلْبِ الكَافِـرِ
وَالبَرْقُ يَخْطَفُ مِنْ خِلاَلِ سَحَابِهَا خَـطْفَ الفُؤَادِ لِمَوْعِـدٍ مِنْ زَائِـرِ
وَالغَيْثُ مُنْهَـلٌّ يَسُـحُّ كَـأَنَّـهُ دَمْعُ المُوَدِّعِ إِثْـرَ إِلْفٍ سَائِـرِ[3]

ـ وله في وصف أوراد الطبيعة وثمارها الدانية مقطوعات تدلُّ على ذوق حضريّ رفيع ، وموهبة فذّة على التقاط الصور وبثِّها ، من ذلك وصفة لباقة نرجس :

بيْضَاءُ إنْ لَبِسَتْ بَيَاضـاً خِلْتَهَا كَـاليَـاسَمِـينِ مُنَضَّـداً فِي مَجْلِسِ
وَإِذَا بَـدَتْ فِي حُمْـرَةٍ ، فَكَـأَنَّهَا وَرْدٌ مِنَ الـدَّارِيِّ حُسْناً مُكْتَسِي
وَإِذَا بَـدَتْ فِي صُفْرَةٍ ، فَكَـأَنَّهَا نِسْرِينُ بُسْتَـانٍ كَـرِيمِ المَغْـرِسِ

---

(١) المرجع السابق ١٤٩ .
(٢) الديمومة : الفلاة الواسعة . النطف : مفرد نطفة وهي القطرة من الماء .
(٣) ديوان ابن المعتز ٢٥٦ .

وَإِذَا بَدَتْ فِي خُضْرَةٍ فِي صُفْرَةٍ فَكَأَنَّهَا لِلْحُسْنِ بَاقَةُ نَرْجِسِ[1]

وفي تشبيهات سريعة متلاحقة يصف نرجسةً مياسة يخلع عليها صفاتٍ حية كاللحظ والفرح والأحداق والأجفان :

أَمَا تَرَى النَّرجِسَ المَيَّاسَ يَلْحَظُنَا أَلْحَاظَ ذِي فَرَحٍ بِالعَتْبِ مَسْرُور
كَأَنَّ أَحْدَاقَهَا فِي حُسْنِ صُورَتِها مَدَاهِنُ التِّبْرِ فِي أَوْرَاقِ كَافُورِ
كَأَنَّ طَلَّ النَّدَى فيهِ لِمُبْصِرِهِ دَمْعٌ تَرَقْرَقَ مِنْ أَجْفَانِ مَهْجُورِ[2]

ويصور في القطعة التالية بِركةً نيلوفرٍ موسومةٍ بالحسن ، تحدِقُ في النهار بأجفان مبهوتة وكأنها على قُضُبِها يواقتُ بارزة :

وَبِرْكَةٍ تَزْهُو بِنَيْلَوْفَرٍ أَلْوانُهُ بِالحُسْنِ مَنْعُوتَهْ
نَهَارُهُ يَنْظُرُ مِنْ مُقْلَةٍ شَاخِصَةِ الأَجْفَانِ مَبْهُوتَهْ
كَأَنَّمَا كُلُّ قَضِيبٍ لَهُ يَحْمِلُ فِي أَعْلَاهُ يَاقُوتَهْ[3]

ويصوِّر ثمرة النارنج تصويراً مركّباً متداخلاً ، فهي بصفرتها في حمرةٍ كاللهب ، تشبه وجنة معشوق ضبط وعاشقه فاصفرّ واحمرّ خوفاً من الرقيب :

كَأَنَّمَا النَّارِنْجُ لَمَّا بَدَتْ صُفْرَتُهُ فِي حُمْرَةٍ كَاللَّهِيبِ
وَجْنَةُ مَعْشُوقٍ رَأَى عَاشِقاً فَاصْفَرَّ ، ثُمَّ احْمَرَّ ، خَوْفَ الرَّقِيبِ[4]

ويصوّر الليمونة بكافورة غشاؤها من ذهب ، تُفرح النفس وتسرّ الخاطر :

يَاحَبَّذَا لَيْمُونَةٌ تُحْدِثُ لِلنَّفسِ الطَّرَبْ
كَأَنَّهَا كَافُورَةٌ لَهَا غِشَاءٌ مِنْ ذَهَبْ[6]

(١) المرجع السابق ٢٧٧ .
(٢) المرجع السابق ٢٥٤ .
(٣) المرجع السابق ٩٠ .
(٤) المرجع السابق .

وله في وصف أشجار النارنج أبيات جميلة ، حيث يشبِّه ثمارها بحِقاقٍ ملئت بالدرِّ، وبخدود العذارى في ملافع خضر ، حيث يقول :

وَأَشْجَـارُ نَـارِنْـجٍ كَـأَنَّ ثِمَـارَهَـا حِقَاقُ عَقيقٍ قَدْ مُلِئن مِنَ الدُّرِّ
مَـطَالِعُهَـا بَـيْنَ الغُصَـونِ كَـأَنَّهَا خُدودُ عَذَارَى في مَلاحِفِهَا الخُضْرْ
أَتَتْ كُـلَّ مُشْتَـاقٍ بِـرَيَّـاحَبِيبِـهِ فَهَاجَتْ لَهُ الأَحْزَانُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَدْرِي[1]

- ويكثر الشاعر من التشبيهات البارعة في وصفه للطبيعة ، كمثل وصفه لغيضةٍ غنّاء وما تعاورها من عناصر الطبيعة ، فيقول :

أَرْوَحُ كَغُصْنِ البَانِ بَيَّتَهُ النَّـدَى وَهَـزَّ بِأَنْفَـاسِ ضِعَـافٍ وَأَمْـطِرَا
فَمَالَ عَلَى مَيْثَاءَ نَاعِمَةِ الثَّرَى ، تَغَلْغَـلَ فيهَـا مَـاؤهَـا وَتَحَـيَّرَا[2]
كَأَنَّ الصَّبَا تُهْدِي إِلَيْهَا إِذَا جَرَتْ عَلَى تُرْبِهَا ، مِسْكاً سَحيقاً وَعَنْبَرَا
سَقَتْهُ الغَوادِي وَالسَّوارِي قِطَارَهَا فَجَنَّ كَمَا شَاءَ النَّبَـاتُ وَنَوَّرا[3]
وَحَـلَّتْ عَلَيْـهِ لَـيْـلَةٌ أَرْحَـبِيَّـةٌ إِذَا مَا صَفَا فِيهَا الغَديرُ تَكَدَّرَا[4]
كَـأَنَّ الغَواني بَـيْنَ بَيْنَ رِيَـاضِـهِ فَغَادَرْنَ فيهِ نَشْرَ وَرْدٍ وَعَبْهَـرا[5]
طَويلَةَ مَا بَيْنَ البَيَاضَيْنِ ، لَمْ يَكَدْ يُصَدِّقُ فيهَا فَجْرُهَا حينَ بَشَّرَا
إِذَا مَا أَلَحَّتْ قَشْرَ الصَّخْرَ وَبْلُهَا وَهَمَّتْ غُصُونُ النَّبْعِ أَنْ تتكَسَّرَا
فَبَاتَتْ إِذَا مَا البَرْقُ أَوْقَدَ وَسْطَهَا حَرِيقاً أَهَـلَّ الرَّعْـدُ فيهِ وَكَـبَّرَا
كَأَنَّ الرَّبَابَ الجَوْنَ دُونَ سَحَابِهِ خَليعٌ مِنَ الفِتْيَانِ يَسْحَبُ مِئْزَرَا[6]

---

(١) ديوان ابن المعتز ٢٥٢ .
(٢) الميثاء : الأرض اللينة السهلة بدون رمل .
(٣) الغوادي والسواري : من أسماء السحاب الممطرة .
(٤) أرحبية : نسبة إلى قبيلة أرحب .
(٥) العبهر: الياسمين والنرجس .
(٦) الرباب : السحاب الأبيض . الجون : الأسود والأبيض ضد ،

إِذَا لَحِقَتْهُ رَوْعَةٌ مِنْ وَرَائِهِ تَلَفَّتَ وَاسْتَلَّ الحُسَامَ المُذَكَّرَا
فَأَصْبَحَ مَسْتُورَ التُّرَابِ كَأَنَّمَا نَشَرْتَ عَلَيْهِ وَشْيَ بُرْدٍ مُحَبَّرَا[1]

ـ وباب الوصف والتشبيهات عند ابن المعتز لا ينتهي ، فإذا كان قد وقف عند الطبيعة المتحضِّرة ، فإنه لم يُغفل الطبيعةَ الصحراويّة . ولعلَّ أبا الفرج الأصفهانيّ لم يرد في دفاعه عن الشاعر ، أن ينكر عليه أنّه نظم في الأطلال والبيد وحيواناتها ، وإنما أراد الإكثار من النظم في الصحراء ، إذ له أشعار مختلفة في وصفها ، وله أبيات طريفة في وصف الأطلال والديار الخالية ، وأخرى في وصف ثور الوحش وبقره ، وفي وصف الخيل وحمر الوحش والإبل وغيرهما ، ومن طريف وصفه لبقر الوحش قوله :

بِهِ كُلُّ مَوْشِيِّ القَوَائِمِ نَاشِطٌ وَعِينٌ تُرَاعِي فَاتِرَ اللَّحْظِ أَحْوَرَا[2]
تُطِيفُ بِذَيَّالٍ ، كَأَنَّ صُوَارَهُ غَدَائِرُ ذِي تَاجٍ ، عَتَا وَتَجَبَّرَا[3]
يَحُكُّ الغُصُونَ المُورِقَاتِ بَرَوْقِهِ كَخَصْفِكَ بِالإِشْفَى نِعالاً فَخَصَّرَا[4]
وَذِي عُنُقٍ مِثْلِ العَصَا شُقَّ رَأْسُهَا وَشُذِّبَ عَنْهَا جِلْدُهَا فَتَقَشَّرَا
وَسَاقٍ كَشَطْرِ الرُّمْحِ صُمٌّ كُعُوبُه تَرَدَّى عَلَى مَا فَوْقَهَا وَتَأَزَّرَا

وقد مرَّ معنا وصفه للخيل والمطيّ والكلاب من خلال الطرديّات ، وبقي أن نشير إلى أنّه تلقانا في أشعاره مزدوجة تاريخية طويلة أربت على أربعمئة بيت ، أرّخ فيها حياة صديقه وابن عمه الخليفة المعتضد ، ونقل خلالها صوراً عن الأحوال السياسيّة ، والاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة لعصره . ورغم أنّ ابن المعتز لم يراع في

---

(١) ديوان ابن المعتز ١٩٨ ـ ١٩٩ .
(٢) العين : بقر الوحش .
(٣) الذيال : الثور الوحشي . الصوار : قطيع البقر الوحشي .
(٤) الروق : القرن . الخصف : إطباق النعل وخرزها . الإشفى : المخرز .

قصيدته هذه الترتيب التاريخيّ للأحداث ، إلاّ أنّه يمكن لنا أن نسلك هذه القصيدة في سلك الشعر التعليميّ الذي ظهر في هذا العصر على يد أبان بن عبد الحميد اللاحقيّ .

ولعلّ في كلٍّ ما أسلفنا ، ما يشهد ببراعة عبدالله بن المعتزّ ، وامتيازه بين الشعراء في عصره الذي يعتبر من أزهى العصور الأدبيّة في تاريخ العرب .

١٢ ـ شاعرية ابن المعتزّ :

عاش ابن المعتزّ في القرن الثالث الهجريّ ٢٤٧ ـ ٢٩٦ أي في العصر الذي بلغ الكمال في استيعاب الثقافة اليونانيّة ، ولم يكن بمقدور الشعر أن يبقى بعيداً عن التأثُّر بهذه الثقافة ، فقد كانت ترمي بظلالها المتفلسفة عليه منذ بشّار بن برد الذي عاش في العصر العباسيّ الأوّل ونهاية العصر الأمويّ ، فكان يكثر من التحليلات والموازنة والتقسيمات ، والبعد في التأويل واستخراج المعاني[١] ، وأبي نواس الذي كان يستعير من المتكلّمين ألفاظهم ومصطلحاتهم وأقيستهم[٢] ، وأبي العتاهية ، وابن الرومي ، وأبي تمام وغيرهم من الشعراء الذين تأثّروا بالفلسفة والمنطق اليونانيينّ ، فازدانت أشعارهم بالزخارف العقليّة ، وعبرت عن فكر عميق وثقافة غنيّة .

غير أنّ ذلك لا يعني أن جميع الشعراء كانوا متأثّرين بمعطيات أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة والمنطقيّين . فإن ثقافةَ الشاعر وسَعَةَ إطّلاعه تعتبران شرطين رئيسيين في هذا المجال ، ولكي يتمَّ التاثيرُ يجب على الشاعر أن يطّلع أوّلاً على هذه العلوم المستوردة ، وأنْ تلاقي ثانياً هوى في نفسه .

فيذكر أنّ بشّارَ بن برد اتّصل بالمعتزلة ، وصحبَ واصلَ بن عطاء مدّة من الزمن[٣] ، ومثله كان أبو نواس في اختلافه إلى مجالس المتكلّمين ، ومثلهما كان الشعراء الذين طعّموا أشعارهم بمعطيات الفلسفة ومقولات المنطق[٤] .

وكنّا قد أشرنا فيما مضى إلى طبيعة الثقافة التي تزوّد بها ابن المعتزّ ، وقلنا إنها

---

(١) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ١٣٦ .
(٢) المرجع السابق ١٣٧ .
(٣) الأغاني ١٥٢/٣ .
(٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف .

ثقافة عربيّة إسلاميّة ولغويّة وأدبيّة وتاريخيّة ، ولم يذكر من ترجموا له أنه عُني بتحصيل العلوم الدخيلة من فلسفة ومنطق وغيرهما ، فكان من الطبيعيّ أن يكون لابن المعتزّ ذوق مغاير لذلك الذي تمتّع به أبو تمّام وابن الروميّ ، وأن يقف في الصف الذي لم يكن يستسيغ الاتّصال بالثقافة الحديثة ، فيكتب كتاب «البديع» و «طبقات الشعراء» ورسالة في محاسن شعر أبي تمّام ومساويه ، ناقداً فيها شعر القدماء والمعاصرين ، ومؤكِّداً على اتّجاهه المحافظ في فهم الشعر ونظمه[1] .

وهنا لابدَّ من ملاحظة هامّة نقف عندها ، وهي أنَّ الاتجاه المحافظ عند ابن المعتزّ لا يعني استنكار كلِّ ما هو جديد ، واستحسان كلِّ ما هو قديم ، وليست أشعار ابن المعتزّ بموسيقاها اللطيفة ، وكلماتها السهلة ، ومعانيها العذبة إلّا شاهداً على ما نقول .

فهو يؤثر الإتّزان في استعمال البديع ، ويبغض التكلّف والإنزلاق في متاهات العلوم الدخيلة وأقيستها البلاغيّة ، ومعانيها الفلسفيّة . وهذا هو في الواقع ما كان يأخذه على مسلم بن الوليد وأبي تمّام .

ولكنّه لم ينس أن أبا تمّام كان شاعرَ المعاني والمحاسن فقال : وذلك أنَّ البحتريَّ لا يكاد يلفظ لفظة ، وإنما ألفاظه كالعسل حلاوة ، فأما أن يشقّ غبار الطائي ـ أي أبي تمام ـ في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات بل يغرق في بحره[2] .

وإذا كان هذا موقف ابن المعتزّ كناقدٍ ، من الشعر الحديث ، فما كانت مواقف النقّاد مـن شعره؟ قال صاحب ريحانة الألباء : بُدىء الشعر بملك وختم بملك . والأوّل امرؤ القيس لأنّه أوّل من هلهل الشعر وهذّبه ونسج نسيبه ورتّبه .

---

(١) العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٣٣٤ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٦ تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف طـ٢ ١٩٥٦ .

والثاني ابن المعتز فإنه ممن أولى جوامع الكلام نظماً ونثراً وإنشاء وشعراً . والعامّة تقول : كلام الملوك ملوك الكلام[1] .

وقال صاحب الأغاني : وشعره وإن كان فيه رقة الملوكيّة ، وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هُم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية[2] .

وقال صاحب العمدة : وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من عبدالله بن المعتز ، فإنَّ صنعته خفيفةٌ لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلّا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندي ألطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعاً ، وأقربهم قوافي وأوزاناً[3] .

وقال صاحب معاهد التنصيص : هو أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات[4] .

ولئن شهد له هؤلاء النقّاد بالرقّة والظرف ، وقرب القوافي والأوزان ، وكمال الصنعة ، وكثرة البديع ، فلأنَّ ابن المعتز عُني عناية خاصّة بشعر اللهو من غزل وخمريّات وطرديّات ، وهي موضوعات تفرض رقّة التعابير وظرف المعاني ، وموافقة مقتضيات الغناء باختيار الأوزان الرشيقة المجزوءة ، والقوافي السهلة

(١) ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا لشهاب الدين أحمد بن محمد عمر الخفاجي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٧ .

(٢) الأغاني دار الكتب ١٠/٢٧٤ .

(٣) العمدة لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الجبل ط ٤ ١٩٧٢ .

(٤) معاهد التنصيص : لعبد الرحيم بن أحمد العباسي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة الصادر مصر ١٩٤٧ .

المناسبة للأنغام ، والحروف الليّنة ، والمخارج الساكنة ، وهل أسهل وأظرف من قوله :

قَدْ أغْتَدى وَاللَّيْلُ في إهَابِهِ ... كَالحَبَشيِّ مَالَ عَنْ أَصْحَابِهِ
وَالصُّبْحُ قَدْ كَشَفَ عَنْ أَنْيَابِهِ ... كَأَنَّهُ يَضْحَكُ مِنْ ذَهَابِهِ

أو أرقّ من قوله :

عَانَيْتُ حَبَّةَ خَالِهِ ... في رَوْضَةٍ مِنْ جُلَّنَارِ
فَغَدا فُؤَادِي طَائِراً ... وَاصْطَادَهُ شَرَكُ العِذَارِ

واعتراف ابن الرومي بسبق ابن المعتز وتفوّقه لم يكن مطلقاً ، فهو إنما يقرُّ له بالسبق في ميدان واحد من التشبيهات ، وهي تلك التي يستمدُّ مادتها من قصور الأمراء والملوك . والواقع أنَّ ابن المعتزّ حوّل مشبهاته من نجوم وأقمار ، وسحب وأشجار ، وأزهار وثمار ، وكؤوس وأوتار ، وخمور وأوانيها كبار وصغار ، إلى ذهب وفضة ولآلىء حتى استحالت الدنيا من حوله إلى عوالم أرستقراطيّة مذهبه . فانظر إلى قوله في الهلال :

انْظُرْ إلىٰ حُسْنِ هِلاَلٍ بَدَا ... يَهْتِكُ مِنْ أَنْوارِهِ الحِنْدِسَا
كَمِنْجِلٍ قَدْ صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ ... يَحْصُدُ مِنْ زُهْرِ الدُّجَى نَرْجِسَا

أو كقوله في النرجس :

كَأَنَّ عُيُونَ النَرْجِسِ الغَضِّ حَوْلَهَا ... مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقيقُ

أو قوله في ثمار النارنج :

وَأَشْجَارُ نَارِنْجٍ كَأَنَّ ثِمَارَهَا ... حِقَاقُ عَقيقٍ قَدْ مُلِئْنَ مِنَ الدُّرِّ

أو قوله في البرق :

أَرِقْتُ لبَرْقٍ كَثير الوَميضِ ... تَرَامىٰ غَوارِبُهُ في الشُّهُبِ

كَـأَنَّ تَـأَلُّـقَـهُ فِي الـسَّـمَاءِ سُـطُورٌ كُـتِبْـنَ بِمَـاءِ الـذَّهَـبِ

أو كقوله في الخمر وساقيها :

فَصَبَّ فِي الكَـأْسِ مِنْ أَبَارِقِـهِ مَـاءَيْنِ مِنْ فِضَّـةٍ وَمِنْ ذَهَبِ

فهو يصدر في هذا كلّه عن بيئته المترفة ، حيث لا يجد إلّا ما يملأُ به ديوانه من نفائسِ الملوك وأعلاقهم ، الأمر الذي دفعَ بعض النقّاد في عصرنا إلى وصف صورهِ بالبرود[1] .

والقول بأنَّ نفاسةَ التشبيه لا تُقاس بنفاسة المشبّه به ، بقدر ما تقاس بقوة المخيلة وحسن التعبير وعن المشاعر ، وكأنّ الدكتور شوقي ضيف كان يردّ على هؤلاء حين قال : فإنّكَ ترى ابن المعتزّ يعرف كيف يُطرف قارئه بالصور الغريبة ، وإنّها لصورٌ نادرة ، وهي ليست صوراً جامدة من تلك التي تواضع عليها الشعراء وأصبحت متحجّرةً في اللغة ، إذا فقدت نضرتها وبهجتها ، بل هي حيّةٌ نَضِرة وكأنما نقِشت رسومُها بالأمس ، نقشها شاعر كان صبّاً يبعث الحياة والحركة في صوره[2] .

واستشهدَ الدكتور شوقي ضيف على ما قرره ، بقول ابن المعتز :

وَزَوْبَعَـةٍ مِنْ بَنَـاتِ الـرِّيَـاحِ تُرِيكَ عَلَى الأَرْضِ شَيْئاً عَجَبْ
تَضُمُّ الـطَّرِيـدَ إلىٰ نَـحْـرِهَـا كَضَمِّ المُحِبَّـةِ مَنْ لَا يُحِبْ

وقوله :

وَدَنَـا إِلَيَّ الفَـرْقَـدَانِ كَمَا دَنَتْ زَرْقَـاءُ تَنْظُرُ فِي نِقَـابٍ أَسْـوَدِ

وقد لا يلتفت الناظر في ديوان ابن المعتز إلى خصائص تشبيهاته ، وإنما تلفته

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ٢٧١ .
(٢) تاريخ الأدب العربي لبرو كلمان ٢/٥٥ ترجمة عبد الحليم النجار .

كثرة هذه التشبيهات التي استغنى بها أو كاد عمّا عداها من وسائل زخرفيّة أخرى ، فهي تتلاحق وتتراصف كما في قوله :[1]

كَـأَنَّمَـا نَـرْجِسُهـا نَـوَاظِرٌ تَـرْ نُـو وَقَـدْ أَرَّقَهـا طُـولُ السَّهَـرْ
كَـأَنَّمَـا شَقيقُهـا مَـطَارِفٌ قَـدْ نُشِـرَتْ فِيهـا مِنَ المِسْـكِ أَثَـرْ
كَـأَنَّمَـا البَنَفْسَـجُ الغَضُّ حَكَى قَرْصَ مُحِبٍّ في الخُدُودِ قَدْ ظَهَرْ

ويتبع النسقَ نفسَه في واحد وعشرين بيتاً متواليةً ، أداةُ التشبيه فيها كأنّ . وبمثل هذه التشبيهات التي لا تُحصى عدداً وتنوعاً ، فاقَ ابنُ المعتزّ الشعراء ، وتربع على عرش التصوير الشعري الذي اختاره بعيداً عن المؤثرات الفلسفيّة والإتّجاهات الفكريَّة المعاصرة .

---

(١) معاهد التنصيص للعباسي ١٤٦/١ .

محمد القاهر بالله بن المعتضد
٢٨٧ - ٣٣٩ هـ/ ٩٠٠ - ٩٥١ م

هو الخليفةُ محمد القاهر بالله بن المعتضد ، كنيته أبو منصور . وكان مولده لخمس خلون من جمادى الأولى سبع وثمانين ومئتين ٢٨٧ هـ . أمه أم ولد اسمها فتنة .

ولما قتل المقتدر ، أُحضر هو ومحمد بن المكتفي ، فسألوا ابن المكتفي أن يتولى ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، وَعَمِّي هذا أحقُّ به ، فَكُلِّم القاهر ، فأجاب ، فبويع بعد أخيه المقتدر يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمئة للهجرة ٣٢٠ هـ ، ولقب القاهر بالله ، كما كان لقب به سنة سبع عشرة وثلاثمئة ، كما مرَّ معنا . فكان أول ما فعل أنه صادر آل المقتدر أخاه ، وعذبهم ، وضرب أم المقتدر «شغب» حتى ماتت من العذاب .

في سنة إحدى وعشرين شغَبَ عليه الجندُ ، واتَّفَق مؤنس ، وابنُ مقلة وزيرُه وآخرون على خلعه ، وتنصيب ابن المكتفي ، فتحيَّل القاهر عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم وطينَّ على ابن المكتفي بين حائطين . واستقام الأمر للقاهر ، وعظم في القلوب ، وزيد في ألقابه «المنتقم من أعداء دين الله»[1] .

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٤٨ .

وفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة تحرك الجند وأجمعوا على الفتك به ، فدخلوا عليه بالسيوف ، فهرب ، وقبضوا عليه في يوم الأربعاء الخامس من جمادى الآخرة ، وبايعوا أبا العباس محمد بن المقتدر ولقبوه «الراضي بالله» ، فأشار سيماءُ مُقَدَّمُ الحجرية على الراضي بِسَمْلِهِ ، فكحَّله بمسمار محمى(١) .

وقال محمد الأصبهاني: كان سبب خلع القاهر سوء سيرته، وسفكه الدماء ، فامتنع من الخلع فسملوا عينيه حتى سالتا على خديه .

وقال الصولي : كان أهوجَ سفاكاً للدماء ، قبيح السيرة ، كثير التلون والاستحالة ، مدمن الخمر ، ولولا جودةُ حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنَّسل(٢) .

أما وصفه ، فكان ربعة أسمر اللون ، معتدل القامة ، أصهب الشعر .
ووزر له أبو علي محمد بن مقلة ، ثم محمد بن القاسم بن عبيدالله ، ثم أحمد بن عبيدالله الخصيبي ، واستحجب عليَّ بن بليق ، مولى مؤنس ، ثم سلامة الطولوني(٣) .

وكانت خلافته سنةً وستة أشهر وستة أيام ، وعاش إلى أيام المطيع ، حيث أقام إلى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة ، ثم أطلقوه وأهملوه ، فوقف يوما بجامع المنصور بين الصفوف وعليه مبطنة بيضاء، وقال: تصدقوا عليَّ فأنا من قد عرفتم ، وذلك في أيام المستكفي ليشنع عليه ، فمنع من الخروج إلى أن مات سنة

---

(١) المرجع السابق ٤٥٠ إذ قال في سادس جمادى الآخره ، وفي العقد الاربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى .
(٢) المرجع السابق .
(٣) العقد الفريد ١٢٨/٥ .

تسع وثلاثين وثلاثمئة ، في جمادى الأولى عن ثلاث وخمسين سنة ٣٣٩ هـ .[١]

وعندما بَلغَ محمدً القاهر أن إبراهيم المتقي قال :

صِرْتُ وَإِبْرَاهِيمَ شَيْخَيْ عَمىً ... لَابُدَّ لِلشَّيْخَيْنِ مِنْ مَصْدَرِ
مَادَامَ تُورُونُ لَهُ إِمْرَةٌ ... مُطَاعَةٌ ، فَالمِيلُ في المِحْجَرِ[٢]

وقال : صرنا اثنين ، نحتاج إلى ثالث . فكان كذلك ، إذ سُمِلَ المستكفي بالله .

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٥٢ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٥٩ .

محمد الراضي بالله بن المقتدر
٢٩٧ - ٣٢٩ هـ/ ٩٠٩ - ٩٤٠ م

هو محمَّدُ الراضي بالله ، بن المقتدر ، وكنيتُهُ أبو العباس ، ولد سنة سبع وتسعين ومئتين للهجرة في رجب ٢٩٧ هـ . وأمُّه أُمُّ وَلَدٍ روميَّةٌ اسمُها ظَلُوم(١) .

وبويعَ له بالخلافة يوم خلع القاهر بالله في السادس من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة للهجرة ٣٢٢ هـ(٢) ، فأقام في الخلافة إلى أن أمضى من ربيع الأول عشرة أيام سنة تسع وعشرين وثلاثمئة ، وماتَ حتف أنفه بمدينة السلام ، وكانت خلافتُه ستَّ سنين وأحد عشر شهراً وثلاثة أيام(٣) . ومات وهو ابن إحدى وثلاثين سنة .

وكان محمدُ الراضي قصيرَ القامة ، نحيفَ الجسم ، أسودَ الشعر ، رقيقَ السمرة ، في وجهه طول . نقش خاتمه «رسول الله» . ووزَرَ له أبو عليٍ محمد بن مُقْلَة ، ثم ابنهُ أبو الحسين عليُّ بن محمد ، ثم عبدُ الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ، ثم محمدُ بن القاسم الكَرْخي ، ثم سليمان بن الحسن بن محمد الجراح ،

(١) العقد الفريد ٥/٢٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٥٢ ومروج الذهب للمسعودي ٤/٣٢٢ .
(٢) في تاريخ الخلفاء جمادى الآخرة أما في العقد والمروج ففي جمادى الأولى .
(٣) مروج الذهب ٤/٣٢٢ .

ثم الفضل بن جعفر بن الفرات ، ثم أبو عبدالله أحمد بن محمد اليزيدي . واستحجب محمد بن ياقوت ، ثم ذكياً ، مولاه[1] .

وفي سنة تولِّيه مات مرداويج مقدمُ الديلم بأصبهان وكان يقول : أنا أردُّ دولة العجم وأمحقُ دولة العرب . وفيها مات المهدي صاحب المغرب بعد ربع قرن من الحكم وهو جدُّ الخلفاء الفاطميين بمصر[2] .

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة تمكن الراضي فقلَّد ابنيه أبا الفضل وأبا جعفر المشرق والمغرب ، ثم ضعُف شأنه فلم يَعُدْ سنة خمسٍ وعشرين يملك إلاَّ بغدادَ والسوادَ مع كون يد ابن رائق عليه ، وتسمى صاحبُ الأندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وصار المسمُّون بأمير المؤمنين في الدنيا ثلاثة : العباسي ببغداد ، والناصر بالأندلس ، والمهدي بالقيروان[3] .

وفي سنة تسعٍ وعشرين وثلاثمئة اعتلَّ الراضي وماتَ في شهر بيع الآخر . وكان سمحاً ، كريماً ، أديباً ، شاعراً ، فصيحاً ، محباً للعلماء ، وله شعر مدوَّن ، وسمع الحديث من البغوي وغيره .

وقال الخطيب البغدادي : للراضي فضائل ؛ منها أنه آخرُ خليفةٍ له شعرٌ مدوَّن ، وآخر خليفة خُطبَ يوم الجمعة ، وآخرُ خليفة جالسَ الندماء ، وكانت جوائزُه وأموره على ترتيب المتقدمين ، وآخر خليفة سافر بزي القدماء ، ومن شعره في حال الدنيا وتقلباتها ، قوله :

---

(١) العقد الفريد ١٢٩/٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٥٣ المرجع السابق ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٥٥ ـ ٤٥٦ .

كُـلُّ صَـفْـوٍ إلىٰ كَـدَرْ كُـلُّ أمْـرٍ إلى حَـذَرْ
وَمَـصِـيرُ الـشَّـبَـابِ لِـلْمَـوْتِ فـيـهِ أوِ الـكَـدَرْ
دَرَّ دَرُّ المَشيـبِ مِـنْ وَاعِظٍ يُـنْـذِرُ الـبَشَرْ
أيُّهَـا الآمِـلُ الَّـذي تَـاهَ في لُجَّـةِ الـغَـرَرْ
أيْـنَ مَـنْ كَـانَ قَـبْـلَنَـا ؟ ذَهَـبَ الـشَّـخْصُ وَالأَثَـرْ
رَبِّ فَـاغْـفِـرْ خَـطيئَـتي أنْتَ يَـا خَـيْرَ مَـنْ غَـفَـرْ

ومن شعره في نقد الناس لإنفاقه الأموالَ ، مفتخراً بنفسه وبأسلافه ، فيقول :

لَا تَعْذِلي كَرَمي عَلَى الإسْرَافِ رِبْحُ المَحَامِدِ مَتْجَرُ الأشْرَافِ
أجْري كآبَائِي الخَلائِفَ سَابِقاً وَأشيدُ مَا قَدْ أسَّسَتْ أسْلافي
إنِّي مِنَ القَوْمِ الَّذينَ أكُفُّهمْ مُعتَادَةُ الإخْلَافِ وَالإتْلَافِ[1]

وقال في صفة الحبيب ، ووصف مشاعره عندما يلتقيان :

يَصْفَرُّ وَجْهي إذَا تَأمَّلَهُ طَرْفي ، وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ خَجَلا
حَتَّىٰ كَأنَّ الَّذي بِوَجْنَتِهِ مِنْ دَمِ جِسْمي إلَيْهِ قَدْ نُقِلا[2]

وقال في جاريةٍ قَينة تضربُ على العود ، يصف أنغامها تسري في عروقه ، وصفاً جيِّداً ، يدلُّ على عمق إحساسه الفني ورهافته ، وعلى شاعريةٍ خصبة وأصالة راسخة :

قَدْ أفْصَحَتْ بِالوَتَرِ الأعْجَمِ وَأفْهَمَتْ مَنْ كَانَ لَمْ يَفْهَمِ
جَارِيَةٌ تَحْسَبُ مِنْ لُطْفِهَا مُخَاطِباً يَنْطِقُ لَا مِنْ فَمِ

---

(١) انظر الفوات ٣٢٢/٣ .
(٢) مروج الذهب ٣٢٣/٤ .

جَسَّتْ مِنَ العُودِ مَجَارِي الهَوَى جَسَّ الأَطِبَّاءِ مَجَارِي الدَّمِ[1]

ومن جيِّد شعره في وصف الساقي والتغزل به ، قوله :

يَا رُبَّ لَيْلٍ قَدْ دَنَا مَزَارُهُ يَسْتُرُني وَمُؤْنِسِي أَزْرَارُهُ
سَاقٍ مَلِيحُ القَدِّ كَدَّ جَارَهُ سِرَاجُهُ ، وَوَجْهُهُ مَنَارُهُ
يَشْهَدُ لِي بِبَذْلِهِ زُنَّارُهُ تَاهَ بِخَدٍّ ظَهَرَ احْمِرَارُهُ
مَاسَ مَعَ الحُمْرَةِ جُلَّنَارُهُ أَيُّ كَثِيبٍ قَدْ حَوَى إِزَارُهُ ؟
وَأَيُّ غُصْنٍ ضُمِّنَتْ أَزْرَارُهُ طَوْعَ الكُؤُوسِ غَرَّهُ عِذَارُهُ
إِخْفَاؤُهَ تَقْتَادُهُ أَمْرَارُهُ لاَ كَانَ لَهْوٌ لَمْ يُثِرْ غُبَارُهُ[2]

ومن شعره يرثي أباه المقتدر ، قوله :

بِنَفْسِي ثرىً ضَاجَعْتَ فِي تُرْبَةِ البَلاَ لَقَدْ ضَمَّ مِنْكَ الغَيْثَ وَاللَّيْثَ وَالبَدْرَا
فَلَوْ أَنَّ حَيّاً كَانَ قَبْراً لِمَيِّتٍ لَصَيَّرْتُ أَحْشَائِي لأَعْظُمِهِ قَبْرَا
وَلَوْ أَنَّ عُمْرِي كَانَ طَوْعَ مَشِيئَتِي وَسَاعَدَنِي المِقْدَارُ قَاسَمْتُهُ العُمْرا[3]

وكان أبو بكر الصولي من جلساء الراضي ، ومن المقربين إليه ، وكان أستاذه في إمارته . فزعم أنه حين صارت الخلافة للراضي ، طلب منه أن يوجه إليه بالأسماء التي ينعت بها الخلفاء ، فاقترح المرتضي ، وهيأ له قصيدة ضادية قافيتها توافق لقب المرتضي ، ولكن الخليفة تذكر أن إبراهيم بن المهدي لما بويع أيام الفتنة ، أراد أن يكون له ولي عهد ، فأحضروا ابن المهدي وسمّوه المرتضي ، فلم يحب الخليفة أن يتسمى باسم قد وقع لغيره ، فاختار لنفسه الراضي بالله .

وقد كلف الصولي أن يصنع قصيدة أخرى توافق قوافيها اسم الراضي ،

---

(١) المرجع السابق .
(٢) البيت الأخير مختل الوزن والألفاظ انظر مروج الذهب للمسعودي ٣٢٣/٤ .
(٣) البيت الأول مأخوذ من شعر عبدالله بن رغبان .

وكانت في أكثر من ثمانين بيتاً ، أنشده إيّاها ، فأعجب بها . وقال الصولي عنه : فقال لي ـ وكان الراضي عالماً بالشعر ناقداً ـ ما أعرف مثل هذه الضادية لقديم ولا محدث[1] .

وكان الصولي بدوره معجباً بالراضي ، وحديثه عنه ثناء ، فهو يراه كالخليفة أبي جعفر المنصور أو كالمأمون بلاغة وحكمة . وزعم أنه أطبع ملوك بني العباس في الشعر ، وأكثرهم شعراً ، وأكرمهم عِشرة لجلسائه ، وقد اختار الصولي من شعر الراضي مقطوعات كانت رداً على شعر الصولي نفسه أو تعليقاً . فقد سأله الراضي مرة أن ينشده في التشبيب في بائيته التي قالها في ابن الفرات ، ومطلعها :

سَيِّدي أَنْتَ ، إِنَّني بِكَ صَبٌّ ... بَيْنَ أَيْدي الهُمُومِ وَالشَّوْقِ نَهْبُ

فأنشده إياها، فجلس طويلاً ، ثم أنشده ما عمل هو على هذا الروي ، وهو :

أَشْهَدُ اللهَ أَنَّني بِكَ صَبٌّ ... لِفُؤَادِي مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ وَجْبُ
حَارَ في الجِسْمِ يَوْمَ وَدَّعْتُ دَمْعٌ ... فَاضَ مِنْهُ مَعَ التَسَتُّرِ غَرْبُ
يَا عَلِيلاً فَدَتْهُ مِنِّيَ نَفْسٌ ... بَيْنَ أَيْدي الإِشْفَاقِ وَالشَّوْقِ نَهْبُ
سَلَبَ القَلْبَ وَالمُنَى وَافِدُ السِّـ ... ـنِّ وَقَدْ كَانَ قَلْبُهُ لِيَ قَلْبُ
إِنْ أَمِتْهُ في هَوَاكَ فَالمَوْتُ دَائِي ... أَنْتَ في البُعْدِ لِلْوَاحِظِ نَصْبُ
فَوَقَتْكَ الرَّدَى حُشَاشَةُ نَفْسٍ ... لَمْ يُجْرِهَا مِنَ التَّبَاعُدِ قُرْبُ[2]

وعمل الصولي شعراً قافيته شين مفتوحة ، فعمل الراضي مقطوعة على الروي نفسه والبحر نفسه ، فقال :

---

(١) أخبار الراضي بالله والمتقي بالله الوفيات ٣/٥٤ .
(٢) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٤٩ .

أَقْـرَحَ الـقَـلْبَ وَالحَـشَـا مَـفْـتَـنٌ لَحْـظُـهُ رَشَـا
مَـلَكَ الجِـسْـمَ حُـبُّـهُ فَـبَرَاهُ كَـمَا يَـشَـا
لَا يُجَـازِي عَـلَى الـوِصَـا لِ ، وَلَا يَـقْـبَـلُ الـرِّشَـا
شِئْـتُ أَنْ يَـرْحَـمَ الْـمحِـ ـبَّ ، وَهَـيْـهَـاتَ مَـا أَشَـا
يَـا هِـلَالاً إِذَا بَـدَا وَقَـضِـيـبـاً إِذَا مَشَىٰ
أَفْشِ وَصْـلاً فَـإِنَّ هَجْـرَكَ لَا كَـانَ قَـدْ فَشَـا(١)

ويظهر أن الراضي كان بالفعل جواداً ، فكانت إذا أتته هدية فرقّها في جلسائه ، أو فرق أكثرها ، فقال الصولي : وما كان شيء ألذ عنده من شيء يهبه ، وطعام يؤكل بين يديه ، وما بخل بشيء قط ، وما تسمع بأكمل جود منه . ويظهر من كلام الصولي أيضاً أن الراضي نفسه كان قد جمع شعره وأملاه عليه . وكان رغم كل الصفات الحسنة فيه أقرَّ الصولي أن الراضي كان يتبع شهواته كثيراً ، عالماً بما في ذلك من العيب . فمن شعره في الخمرة :

وَقَـهْـوَةٍ يَـتَرَامَـىٰ شُـعَـاعُـهَـا بِـلَهِـيـبِ
جَـعَـلْتُـهَـا حَظَّ نَـفْسِي عِـشْـقـاً لَهَـا وَنَـصِـيـبِـي
بِـيَـوْمِ سَـعْـدٍ مُـصَـفًّـىٰ مِـنَ الـزَّمَـانِ الْمَـشُـوبِ
فَـسَـقَـتْـنِي تَـذْكَـاراً لِـطَـاعَـةِ الْمَـحْـبُـوبِ
وَاعْصِ الـرَّقِـيـبَ فَـإِنِّي أُجِـلُّ قَـتْـلَ الـرَّقِـيـبِ
أَبَىٰ شَـبَـابِيَ إِلَّا عَـصِـيَّـةً لِمَـشِـيـبِـي
مَـا سَـوَّدَ الـنُّـسْـكُ مِـنِّي إِلَّا بَـيَـاضَ ذُنُـوبِي

وله في الخمرة قصيدة جيدة يمدح فيها الخمرة والساقية ، ويعترف بلهوه ومجونه فيقول :

(١) المرجع السابق ٥٤ .

وَقُلْتُ لِسَــاقِينَــا أَدِرْ لِيَ خَمْـرَةً تُنِيلُ المُنَى وَافْجُرْ بِطَلْعَتِهَا فَجْرِي
فَقَامَ خَلُوبُ الدَّنِّ يَجْلُو سُـلاَفَةً تُشَبِّـهُ فِي كَاسَـاتِهَـا ذَائِبَ التِّـبْرِ
كَأَنَّ أَبَارِيقَ اللُّجَيْنِ إِذَا انْحَنَتْ رِقَـابُ غَرانِيقٍ تَـطَلَّعُ مِنْ وِكْـرِ
لَـهُ مُقْلَةٌ تَسْبِي العُقُـولَ وَفِتْنَـةٌ تُسْقِطُنِي مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي
عَلِيمٌ بِوَحْيِ الطَّرْفِ حَتَّى كَأَنَّمَا يُخَاطِبُهُ فِكْرِي بِمَا ضَمَّهُ صَدْرِي
فَحَطَّ عَلَى حُكْمِي رِحَالَ إِجَابَةٍ وَسَارَ بِمَا أَهْوَاهُ طَوْعاً إِلَى أَمْرِي
فَيَـا لَيْلَةً قَـدْ أَسْعَفَتْنِي بِـطِيبِهَـا وَقَفْتُ عَلَيْهَا الدَّهْرَ أَلْسِنَةَ الشُّكْرِ(١)

وله في الخمرة قصائد كثيرة ، فلنستمع إليه يحث على شرب الخمرة ، حيث يقول :

دَاوِ الخُـمَـارَ بِـخَـمْـرِهِ وَصِـلِ الـصَّـبُـوحَ بِـفَـجْـرِهِ
وَاطْـرَبْ بِـفِـطْـرٍ زَائِـرٍ أَهْـلاً بِـهِ وَبِـزَوْرِهِ
مَـأْسُـورُ آبَ فَكَّ أَيْـلُو لَ لَـنَـا عَـنْ أَسْـرِهِ
يَـأْتِي كَـمَـعْـشُـوقٍ مَحَـا بِـالـوَصْـلِ أَسْـطُرَ هَـجْـرِهِ
يَـا لَـيْـلَتِي بِـالـقُـفْصِ جَـا دَ ، لَـكِ الـعَـذُولُ بِـعُـذْرِهِ
لَمَّـا رَأَى رَشَـأً يُـذِيـ ـبُ الـعَـقْـلَ ذَائِـبُ تِـبْـرِهِ
مُـتَـمَـدِّداً فِي سُـكْـرِهِ مُـتَـمَـايِـلاً فِي خَـطْرِهِ
كَـالـبَـدْرِ إِلَّا أَنَّـهُ بَـدْرٌ لِـسَـائِـرِ شَـهْـرِهِ
فَـشَـرِبْـتُ خَمْـرَةَ كَـأْسِـهِ وَرَشَـفْـتُ خَمْـرَةَ ثَـغْـرِهِ
وَوَشَـا إِلَيَّ بِـبَـذْلِـهِ زُنَّـارُهُ فِي خَـصْـرِهِ(٢)

وله في الغزل والفتون ما يدلل على شاعرية قوية ، كقوله :

---

(١) انظر أخبار الراضي بالله والمتقي بالله ١٧٢ - ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق ١٧٣ - ١٧٤ .

لِحَاظُهُ تُطْمِعُ في نَيْلِهِ وَتِيهُهُ يُؤْيِسُ مِنْ وَصْلِهِ
أَفْدي الَّذي أَسْرَفَ في جُودِهِ فَآيِسَ العَاشِقُ مِنْ عَذْلِهِ
قُلْتُ لَهُ ، وَالغَنْجُ كُحْلٌ لَهُ وَالشَّكْلُ مَنْسُوبٌ إلىٰ شَكْلِهِ
تُنْكِرُ ظُلْمَ النَّاسِ عُشَّاقِهِمْ وَأَنْتَ تَجْرِي بي إلىٰ مِثْلِهِ ؟[1]

ومن قصيدة أخرى في التودد إلى المحبوب والشكو من تباريح الهوى ، يقول :

مَنَحْتُكَ الوُدَّ مِنِّي فَجَازِ بِالوُدِّ مِنْكَا
لَوْ كَانَ قَلْبِي مُطِيعاً طَمِعْتُ في الصَّبْرِ عَنْكَا
لَكِنَّهُ فِيكَ عَاصٍ يَكُفُّ إنْ لَمْ يُعِنْكَا
إنْ خُنْتَ بِالغَيْبِ عَهْدِي فَإنَّنِي لَمْ أَخُنْكَا

وكانت للراضي جارية مغنية كان لها موقع من قلبه ، فلما ماتت حزن عليها ورثاها بقوله :

وَقَالُوا اصْطَبِرْ ، فَالصَّبْرُ شيْءٌ عَدِمْتُهُ لِفَقْدِيَ صَفْوَ العَيْشِ مِنْ مُنْيَةِ النَّفْسِ
عَدِمْتُ الكَرَى ، كَمَا عَدِمْتُ بَدَائِعاً جَعَلْنَ قِرَى نَفْسي بِحَلْقِكِ وَالجَسِّ
لَقَدْ كُنْتِ إنْ غَنَّيْتِ لَذَّتي بِصَوْتٍ يُعِيرُ السَّمْعَ رِبْحاً بِلاَ وَكْسِ
أَرَقُّ مِنَ الشَّكْوَى ، وَأَحْلَى مِنَ المُنَى وَأَرْوَحُ مِنْ أَمْنٍ وَأَلْطَفُ مِنْ حِسِ
لَعَمري لَئِنْ أَصْبَحْتِ سَعْدي وَفيك لي رَجَاءٌ ، لَقَدْ أَمْسَيْتِ بِاليَأْسِ نَحسِي
فَلَوْ كَانَ يَفْدي المَيْتَ حَيٌّ فَدَيْتُهَا بِنَفسي ، وَفَاءً غَيْرَ نَقصٍ وَلاَ بخْسِ[2]

---

(١) المرجع السابق صفحة ١٨٠ .

(٢) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ١٧٥ ـ ١٧٦ .

لقد كانت النساء والشراب أفتى الراضي فأقصرتا مدته ، ومات وهو ابن إحدى وثلاثين عاما . وقد ذكر الصولي له حوالي أربعمئة بيت مختاره من أشعاره الكثيرة ، ولم يصلنا حتى الآن مجموعته الشعرية التي جمعها بنفسه وأملاها على الصولي[1] .

---

(١) تاريخ الخلفاء ٣٩٣ .

إبراهيم المتقي بالله بن المقتدر
٢٩٧ ـ ٣٥٧ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٦٩ م

هو إبراهيم ، المتقي بالله ، بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل ، كنيته أبو إسحاق ، وهو أخو الراضي . وكان مولده في شعبان سنة سبع وتسعين ومئتين للهجرة ٢٩٧ هـ . وأُمُّهُ أَمَةٌ أُمٌّ ولد اسمها خَلُوبٌ ، وقيل زهرة[١] .

بويع بالخلافة بعد موت أخيه الراضي الأربعاء لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمئة وهو ابن أربع وثلاثين سنة . وخُلع وسُملت عيناه يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة ، وكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً[٢] .

وكان أبيض تعلوه حمرة ، أصهب شعر اللحية كثّها ، بفكه الأدنى عوج ، نقش خاتمه «محمد رسول الله : ووزر له أحمد بن محمد بن ميمون ، ثم اليزيدي ، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد ، ثم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ، ثم علي بن محمد بن مقلة . واستحجب سلامة ، مولى خماروية بن أحمد ، ثم بدر الخرشني ، ثم عبد الرحمن بن أحمد بن خاقان المفلحي[٣] .

---

(١) العقد الفريد ٥/١٢٩ ـ ١٣٠ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤/٣٣٩ .
(٣) العقد الفردي ٥/١٣٠ .

وكان كثير الصوم والتعبد ، ولم يشرب نبيذاً قط ، ولا تسرّى على جاريته التي كانت له ، وكان يقول : لا أريد نديما غير المصحف . ولم يكن له سوى الاسم ، والتدبير لأبي عبدالله أحمد بن علي الكوفي كاتب بجكم[1] . وبعد مقتل بجكم التركي ، تولى إمرة الأمراء مكانة كورتين الديلمي ، ثم ظهر ابن رائق فهزم كورتكين وتولى إمرة الأمراء مكانه .

وفي هذه السنة خرج أبو الحسين علي بن محمد اليزيدي ، وهَزمَ الخليفةَ وابنَ رائق ، فهربا إلى الموصل ، ونُهبت بغداد ، وفي تكريت التقيا بسيف الدولة أبي الحسن علي بن عبدالله بن حَمْدَان ، وأخيه الحسن ، وقُتِلَ ابنُ رائق غيلةً ، فولَّى مكانه الحسن بن حمدان ، وسماه ناصر الدولة ، وخلع على أخيه ولقبه «سيف الدولة» وعاد إلى بغداد وهما معه ، فهرب اليزيدي إلى واسط . وحينما عاود مهاجمة بغداد قاتله سيف الدولة فهزمه إلى البصرة[2] . وجرت بعدها أحداث كثيرة هزم فيها الحمدانيون وتقدم تورون أو توزون إلى بغداد فخلع عليه المتقي وولاه إمرة الأمراء ، ثم اختلفا وتحاربا وأخيراً كحل المتقي وسُمل عينيه سنة ٣٣٣ هـ وأدخل إلى بغداد وقد أخذ منه الخاتم والبردة والقضيب ، وأحضر تورون عبدالله بن المكتفي وبايعه بالخلافة ، ولقب المستكفي بالله ، ثم بايعه المتقي المسمول ، وأشهد على نفسه بالخلع ، وذلك يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة سنة ٣٣٣ هـ .[3] .

ولم يحل الحول على تورون حتى مات . وأما المتقي بالله فإنه أخرج إلى جزيرة مقابلة للسنديانة فسجن بها ، فأقام بالسجن خمساً وعشرين سنة إلى أن مات في شعبان سنة سبع وخمسين وثلاثمئة للهجرة ٣٥٧ هـ .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٥٧ .
(٢) المرجع السابق ٤٥٧ ـ ٤٥٨ .
(٣) تاريخ الخلفاء ٤٥٩ مع الاختلاف ومروج الذهب للمسعودي ٣٥٥/٤ .

عبدالله المستكفي بالله بن المكتفي
٢٩٢ - ٣٣٩ هـ/ ٩٠٤ - ٩٥١

هو عبدالله ، المستكفي بالله ، بن علي المكتفي بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل . وكنيته أبو القاسم . ولد في مستهل سنة اثنتين وتسعين ومئتين للهجرة ٢٩٢ هـ . وأمه أم ولد يقال لها غُصْن[١] وقيل اسمها أَمْلَحُ النَّاسِ[٢] .

بويع بالخلافة عند خلع المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر ، بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة للهجرة ٣٣٣ هـ .[٣]

وخلع في شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة للهجرة ٣٣٤ هـ ، فكانت خلافته سنة واحدة وأربعة أشهر وأيام . وتوفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة ، وكانت سنه سبعا وأربعين سنة[٤] .

وكان أبيضَ تعلوه حمرةٌ ، ضخمَ الجسم ، تامَّ الطول ، خفيف العارضين ،

(١) انظر العقد الفريد ٥/١٣٠ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٦٠ .
(٣) العقد الفريد ٥/١٣٠ .
(٤) المرجع السابق

كبير العينين ، أشهل ، جهوريّ الصوت . نقش خاتمه «محمد رسول الله» . ووزر له محمد بن علي الشّر مَنْ رائي ، واستكتب بعده أبا أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي ، واستحجب أحمد بن خاقان[1] .

ودخل في زمنه أحمد بن بويه بغداد ، فاختفى ابن شيرزاد ، ثم دخل ابن بويه دار الخلافة فوقف بين يدي الخليفة المستكفي ، فخلع عليه ولقّبه «معز الدولة» ولقب أخاه علياً «عماد الدولة» وأخاهما الحسن «ركن الدولة» ، ولقب المستكفي نفسه «أيام الحق»[2] .

ثم إن مُعز الدولة قوي أمره ، وحجر على الخليفة . وهو أول من ملك العراق من الديلم ، وبذلك بدأ الطور الثالث أو دور النفوذ البويهي .

ثم إن معز الدولة غضب من المسكتفي ، فدخل عليه في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة للهجرة ، فوقف ، والناس وقوف على مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة ، فمد يده إليهما ظناً أنهما يريدان تقبيلها ، فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض ، وجرّاه بعمامته ، وهجم الديلم على دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها ، فلم يبق فيها شيء ، ومضى معز الدولة البويهي إلى منزله ، وساقوا المستكفي ماشياً إليه ، وخُلع ، وسُملت عيناه يومئذ ، فكانت خلافته سنة وأربعة أشهر وأيام . وأحضروا الفضل بن المقتدر وبايعوه ، ثم قدموا ابن عمه المستكفي ، فسلم عليه بالخلافة ، وأشهد على نفسه بالخلع . ثم سجن إلى أن مات سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة وقيل سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة[3] وسموا الفضل بن المقتدر «المطيع لله» أبو القاسم .

---

(١) العقد الفريد ١٣١/٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء ٤٦٠ .
(٣) تاريخ الخلفاء ٤٦١ .

الفصل الثالث

الدور العباسي الثالث
٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٩ م

المقدمة . .

١ ـ المطيع لله الفضل بن المقتدر ٣٠١ ـ ٣٦٤ هـ/ ٩١١ ـ ٩٧٤ م

مدة حكمه ٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ «ثلاثون سنة ناقصة»

٢ ـ الطائع لله عبد الكريم بن المطيع ٣٢٠ ـ ٣٩٣ هـ/ ٩٣٢ ـ ١٠٠٣ م

مدة حكمه ٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ «ثماني عشرة سنة»

٣ ـ القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر ٣٣٦ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٣١ م

مدة حكمه ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ «إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر»

٤ ـ القائم بأمر الله عبدالله بن القادر ٣٩١ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٠١ ـ ١٠٧٥ م

مدة حكمه ٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ «خمس وأربعون سنة منها خمس وعشرون سنة في هذا الدور وعشرون في الدور الرابع لأن هذا الدور ينتهي بسنة ٤٤٧ هـ»

المقدمة . .

عاد النفوذ الفارسي في هذا العصر ، بسيطرة البويهيين الديلم على بغداد سنة ٣٣٤ هجرية . واستمرت فيه مهابة الخليفة وسلطانه بالتدهور والإضمحلال ، حتى غدا كأنه موظف يتقاضى من البويهيين ما يقوم بأَوَدِهِ ، حتى أن معزّ الدولة البويهي قرر للخليفة الأول في بدء هذا الطور المطيع لله مئة دينار يومياً كنفقة فقط[1] .

قام في هذا العصر ، أو الطور ، أربعة من الخلفاء هم :

١ ـ المطيع لله الفضل بن المقتدر ٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ ، فكان آلة بيد البويهيين ، وطال حكمه قرابة الثلاثين عاماً ، حتى تنازل عنه لمصلحة ابنه الطائع

٢ ـ الطائع لله عبد الكريم بن المطيع لله ٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ ، حيث تعزز في

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٦١

عهده نفوذ البويهيين ، إثر زواجه من ابنة عضد الدولة البويهي ، لكن هذا الأمر لم ينفعه ، بل أنقص قدره ، إذ سملت عيناه وألقي في السجن بعد خلعه .

٣ ـ خلفه القادر بالله أحمدُ بن إسحاق بن المقتدر ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ ، وهذا لم يبق له من الخلافة إلّا اسمها ، ومن سلطان الخليفة غير السكة والخطبة .
٤ ـ القائم بأمر الله عبدالله بنُ القادر بالله ، ولي الخلافة بعد موت أبيه ٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ ، مالبث أن ثار عليه البساسيري ، وهو من مماليك البويهيين ، وأخرجه من بغداد ، فاستنجد بطغرل بك السلجوقي ، فسانده وقضى على فتنة البساسيري ، وأعاد الخليفة إلى بغداد ، ودخل معه إليها وذلك سنة ٤٤٧ هـ منهياً بذلك عهد البويهيين الفرس ، ومبتدئاً عهد السلاجقة الأتراك .

وتميز هذا العصر بقيام دويلات كثيرة تطاحنت فيما بينها ؛ كدولة الحمدانيين في سوريا وعاصمتها حلب ، والإخشيدية في مصر وعاصمتها الفسطاط ، والفاطمية في مصر وعاصمتها القاهرة .

المطيع لله الفضل بن المقتدر
٣٠١ - ٣٦٤ هـ/. ٩١١ - ٩٧٤ م

المطيع لله هو الفضل بن المقتدر بن المعتضد ، وكنيته أبو القاسم ، ولد سنة إحدى وثلثمئة للهجرة ، في النصف من ذي القعدة . وأمه أمُّ ولد اسمها مَشْغَلَة .

وكان شديدَ البياض ، أسودَ شعر الرأس واللحية . وزَرَ له عليٌّ بن محمد بن مقلة ، والناظر في الأمور أبو جعفر الصيميري ، كاتب أحمد بن بويه ، ثم استولى على اسم الوزارة . وكتب للمطيع الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي ، فلما مات قام مقامه أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي . وحاجبه عِزُّ الدولة بختيار بن معز الدولة[1] .

بويع له بالخلافة لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثماية ٣٣٤ هـ . عند خلع المستكفي بالله وخلع نفسه ببغداد لسبع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وستين وثلثماية ٣٦٣ هـ ، وجاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي أنه حصل للمطيع فالج ، وثقل لسانه ، فدعاه حاجب عز الدولة الحاجب سبكتكين إلى خلع نفسه ، وتسليم الأمر إلى ولده الطائع لله عبد الكريم ، ففعل ، وكانت مدة

(١) العقد الفريد ٥/٣٣ .

خلافته تسعاً وعشرين سنة وأشهراً ، وصار بعد خلعه يسمى الشيخ الفاضل . ثم خرج المطيع إلى واسط مع والده ، فمات هناك في المحرم سنة أربع وستين وثلاثمئة ٣٦٤ هـ(١) .

أهم الأحداث في عصره ..

ـ في السنة الأولى من خلافته ٣٣٤ هـ جرى قتال بين معز الدولة البويهي ، وناصر الدولة بن حمدان . وفيها مات الإخشيد صاحب مصر ، وهو محمد بن طغج الفرغاني . وكان له ثمانية آلاف مملوك ، وهو أستاذ كافور . والاخشيد : ملك الملوك ، وهو لقب لكل من مَلَكَ فرغانة .

والأصبهيذ : لقب ملك طبرستان .

وصول : لقب ملك جرجان .

وخاقان : لقب ملك الترك .

والأفشين : لقب ملك أشروسنة .

وسامان : لقب ملك سمرقند .

وفيها مات العُبَيْدي صاحب المغرب ، وقام بعده ولي عهده ابنه المنصور بالله اسماعيل ، وكان القائم شراً من أبيه ، زنديقاً ، ملعوناً ، أظهر سب الأنبياء ، وكان مناديه ينادي : العنوا الغار وما حوى(٢) .

ـ وفي سنة ٣٣٩ هـ أعيد الحَجَرُ الأَسودُ إلى موضعه ، وجعل له طوق فضة يشد به . وفي هذه السنة مات المنصور العبيدي صاحب المغرب ، وقام بالأمر ولي

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٦٨ .
(٢) المرجع السابق ٤٦٢ .

عهده ابنه مَعَدٌّ ، ولقب بالمعز لدين الله وهو الذي بنى القاهرة .

ـ وفي سنة ٣٥٠ هـ أخذت الروم جزيرة إقريطش من المسلمين ، وتوفي صاحب الأندلس الناصر لدين الله ، وقام بعده ابنه الحاكم .

ـ وفي سنة ٣٥٧ هـ ملك القرامطة دمشق ، ولم يحج أحد فيها من الشام ولا من مصر ، وعزموا على قصد مصر ليملكوها ، فجاء العُبَيْدِيُّونَ فأخذوها ، وقامت دولة الرفض في الأقاليم : المغرب ، ومصر ، والعراق . وذلك حين مات كافور الأخشيدي ، فأرسل مولاه جوهر الصقلي في مئة ألف فارس فملك مصر ، ونزل موضع القاهرة اليوم واختطها ، وبنى فيها دار الإمارة للمعز .

ـ وفي ربيع الآخر سنة ٣٥٩ هـ أذَّنوا في مصر بحيَّ على خير العمل ، وشرعوا في بناء الأزهر ففرغ من بنائه في رمضان سنة ٣٦١ هـ .

ـ وفي سنة ٣٦٠ هـ أعلن المؤذنون بدمشق في الأذان بحيَّ على خير العمل بأمر جعفر بن فَلَاح نائب دمشق للمعز بالله ، ولم يجسر أحد على مخالفته .

ـ وفي سنة ٣٦٢ هـ من رمضان دخل المعز إلى مصر ومعه توابيت آبائه .

وقال الذهبي : وكان الخليفة المطيع وابنه مستضعفين مع بني بويه . وانتهت خلافة المطيع بخلع نفسه سنة ٣٦٣ هـ وتسليم الأمر إلى ولده الطائع لله[1] .

ولم نعثر له على شعر فيما بين أيدينا من المراجع حتى الآن .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٦٤ ـ ٤٦٨

الطائع لله عبد الكريم بن المطيع
٣٢٠ - ٣٩٣ هـ/ ٩٣٢ - ١٠٠٣ م

الطائع لله ، هو عبد الكريم ، أبو بكر ، بن المطيع لله بن المقتدر ، وأمه أم ولد اسمها هزار ، وقيل عتب . ولد سنة ٣٢٠ هـ .

وليَ الخلافة بعد خلع أبيه المطيع لله ، لسبع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وستين وثلثمئة للهجرة ٣٦٣ هـ ، وعمره ثلاث وأربعون سنة ، فركب وعليه البردة ومعه الجيش ، وبين يديه سبكتكين . وخلَع من الغد على سبكتكين خِلَعَ السلطنة ، وعقد له اللواء ، ولقبه نصر الدولة[1] .

وكان سبكتكين حاجباً لعز الدولة ، فوقع بينهما خلاف ، فدعا سبكتكين الأتراك لنفسه ، فأجابوه ، وجرى بينه وبين عز الدولة حروب[2] .

وفي سنة ٣٦٤ هـ قدم عضد الدولة بغداد لنصرة عز الدولة على سبكتكين ، فأعجبته بغداد وملكها ، وعمل على إستمالة الجند ، فشغبوا على عز الدولة ، فأغلق بابه . ثم وقع الخلاف بين عضد الدولة والطائع بسبب ذلك ، فقطعت

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٦٩ .
(٢) المرجع السابق .

الخطبة للطائع ببغداد وغيرها من جمادى الأولى إلى أن أعيدت في رجب[1] .

أهم أحداث عصره . .

ـ في سنة ٣٦٣ هـ أقيمت الخطبة والدعوة في الحرمين للمعزِّ العُبَيْدِي صاحب مصر . وبعدها غلا الرفض وفار بمصر والشام والمشرق والمغرب ، ونودي بقطع صلاة التراويح من جهة العبيدي .

ـ وفي سنة ٣٦٥ هـ مات المعز لدين الله العبيدي صاحب مصر ، وأول من ملكها من العبيدين ، وقام بالأمر بعده ابنه نزار ولقب «بالعزيز» .

ـ وسنة ٣٦٦ هـ مات المنتصر بالله الحكم بن الناصر لدين الله الأموي صاحب الأندلس ، وقام بعده ابنه المؤيد بالله هشام .

ـ وفي سنة ٣٦٧ هـ ظُفر عضد الدولة على عز الدولة وأخذه أسيراً ثم قتله . فخلع الطائع على عضد الدولة خِلَع السلطنة ، وتوجه بتاج مجوهر ، وطوقه وسوَّره ، وقلده سيفاً ، وعقد له لواءين بيده ، وفوض إليه أمور الرعية في شرق الأرض وغربها .

ـ وفي سنة ٣٧٢ هـ مات عضد الدولة ، فولى الطائع مكانه في السلطنة ابنه صمصام الدولة ، ولقبه شمس الملة ، وخلع عليه سبعَ خلع ، وتوجه ، وعقد له لواءين .

ـ وفي سنة ٣٧٦ هـ قصد شرفُ الدولة أخاه صمصام الدولة ، فانتصر عليه وكحلّه (أي عماه) ومال العسكر إلى شرف الدولة ، وقدم بغداد ، وركب الطائع

---

(١) المرجع السابق .

إليه يهنئه بالبلاد ، وعهد إليه بالسلطنة ، وتوَّجهُ . وقُرِىء عهده والطائع يسمع[1] .

ـ وفي سنة ٣٧٩ هـ مات شرف الدوله ، وعهد إلى أخيه أبي نصر ، فخلع عليه الطائع سبع خلع ، ولقبه «بهاء الدولة ، وضياء الملّة» .

ـ وفي سنة ٣٨١ هـ ، حبس الطائع رجلاً من خواص بهاء الدولة ، فجاء بهاء الدولة وجلس على كرسي في الرواق إلى جانب الطائع ، وتقدم أصحابه فجذبوا الطائع من سريره ، وتكاثر الديلم ، فلفوه في كساء وأخذوه إلى دار السلطنة . وكتب على الطائع أيمانا بخلع نفسه ، وأنه سلم الأمر إلى القادر بالله ، وشهد عليه الأكابر والأشراف ، وذلك في تاسع عشر من شهر شعبان . ونَفَذَ الأمر إلى القادر بالله ليحضر بالبطيحة .

واستمر الطائع في دار القادر بالله مكرماً محترماً في أحسن حال ، إلى أن مات ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة ٣٩٣ هـ . وصلى عليه القادر بالله في داره وشيعه الأكابر والخدم ، ورثاه الشريف الرضي بقصيدة .

ـ وكان الطائع شديد الإنحراف على آل أبي طالب . وسقطت الهيبة في أيامه جداً ، حتى هجاه الشعراء .

ولم نعثر له على شعر فيما بين أيدينا من المراجع حتى الآن .

---

(١) المرجع السابق ٤٧١ ـ ٤٧٢ .

القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر
٣٣٦ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٣١ م

القادر بالله ، هو أحمدُ ، أبو العباس ، بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد . ولد سنة ست وثلاثين وثلثمئة . وأمه أمة اسمها تمني ، وقيل يمنى[1] وقيل دمنة .

بويع له بالخلافة بعد خَلع الطائع سنة ٣٨١ هـ في التاسع عشر من شهر شعبان ، وكان غائباً ، فقدم في العاشر من رمضان ، وجلس من الغد جلوساً عاماً ، وهنّيء ، وأنشد بين يديه الشعراء ، ومن ذلك قول الشريف الرضي :

شَرَفُ الخِلَافَةِ يَا بَني العَبَّاسِ   اليَوْمَ جَدَّدَهُ أَبُو العَبَّاسِ
ذَا الطَّوْدِ أَبْقَاهُ الزَّمَانُ ذَخيرَةً   مِنْ ذَلِكَ الجَبَلِ العَظيمِ الرَّاسي

وجاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي قوله : وقال الخطيبُ : وكان القادر من الستر والديانة والسيادة وإدامة التهجد بالليل ، وكثرة البِّر والصدقات ، وحسن الطريق على صفة اشتهرت عنه ، وعَرَفَ به كلُّ أحد مع حُسنِ المذهب وصحة الاعتقاد . تفقّه على العلامة أبي بشر الهَرَوِيِّ الشافعي ، وقد صنف كتاباً في

---

(١) في تاريخ بغداد اسمها يمنى . أما في ابن الأثير ٨/ ٣٠ طبعة بولاق قال : وأمه أم وله اسمها دمنه وقيل تمني .

الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث ، وأورد في كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز ، وكفّر المعتزلة والقائلين بخلق القرآن . وكان ذلك الكتاب يقرأ في كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ، وبحضرة الناس ، وترجمة ابن الصلاح في طبقات الشافعية[1] .

أهم أحداث عصره . .

ـ قال الذهبي : في شوال من سنة ولايته ٣٨١ هـ دعا صاحب مكة أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي إلى نفسه ، وتلقب الراشد بالله ، وسُلِّمَ عليه بالخلافة ، ثم ضعف وعاد إلى طاعة العزيز العبيدي صاحب مصر .

ـ وفي سنة ٣٨٤ هـ اعترض الأصيفر الأعرابي طريق الحج ومنع الناس الجواز إلّا برسم ، فعادوا ولم يحجوا ، ولا حج أيضاً أهل الشام ولا اليمن ، إنما حج أهل مصر .

ـ وفي سنة ٣٨٧ هـ مات السلطان فخر الدوله وأقيم ابنه رستم مقامه في السلطنة بالريِّ وأعمالها ، وهو ابن أربع سنين ، ولقبه «مجد الدولة» وقال الذهبي : ومن الأعاجيب هلاك تسعة ملوك على نسق في سنتي سبع وثمانين وثمان وثمانين : منصور بن نوح ملك ماوراء النهر ، وفخر الدولة ملك الري والجبال ، والعزيز العبيدي صاحب مصر . ولأبي منصور عبد الملك الثعالبي قصيدة في ذلك[2] .

ـ ويذكر الذهبي في خبر آخر أن العزيز صاحب مصر مات سنة ست وثمانين وثلاثمئة ، وفتحت له ـ زيادة على آبائه ـ حمص ، وحماة ، وحلب ، وخطب له

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٥ .

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٦

بالموصل ، وباليمن ، وضرب اسمه فيها على السكة والأعلاء ، قام بعده ابنه منصور ، ولقب «الحاكم بأمر الله» .

ـ وفي سنة ٣٩٩ هـ وهىٰ سلطان بني أمية بالأندلس ، وانخرم نظامهم .

ـ وفي سنة ٤١١ هـ قتل الحاكم بأمر الله بحلوان في مصر ، وقام بعده ابنه علي ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله ، وتضعضعت دولتهم في أيامه فخرجت عنهم حلب وأكثر الشام .

وفي سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة توفي القادر بالله ، ليلة الإثنين الحادي عشر من ذي الحجة ، عن سبع وثمانين سنة . ومدة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر .

وقال الذهبي : وعاش في هذا العصر ؛
رأس الأشعرية : أبو إسحاق الإسفراييني .
ورأس المعتزلة : القاضي عبد الجبار .
ورأس الرافضة : الشيخ المقتدر .
ورأس الكرامية : محمد بن الهيثم .
ورأس القراء : أبو الحسن الحمامي .
ورأس المحدثين : الحافظ عبد الغني بن سعيد .
ورأس الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمي .
ورأس الشعراء : أبو عمر درَّاج .
ورأس المجودين : ابن البواب .
ورأس الملوك : السلطان محمود بن سبكتكين .

وأضاف السيوطي إلى ذلك ، فقال : ورأس المخالفين الحاكم بأمر الله .

ورأس اللغويين : الجوهري .
ورأس النحاة : ابن جنيٍّ .
ورأس البلغاء : البديع .
ورأس الخطباء : ابن نُباتة .
ورأس المفسرين : أبو القاسم بن حبيب النيسابوري .

ولم يؤثر عنه أنه قال الشعر أو نظمه .

القائم بأمر الله عبدالله بن القادر
٣٩١ - ٤٦٧ هـ/ ١٠٠١ - ١٠٧٥ م

القائم بأمر الله ، عبدالله بن القادر بالله ، وكنيته أبو جعفر . ولد في نصف ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلثمئة ٣٩١ هـ . وأمه أمُّ ولد أرمنية اسمها بدرُ الدُّجَى ، وقيل قَطْرُ الندى .

ولي الخلافة عند موت أبيه في يوم الإثنين الحادي عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة ٤٢٢ هـ ، وكان وليَّ عهده في الحياة ، وهو الذي لقبه : بالقائم بأمر الله[1] .

وقال ابن الأثير : كان جميلاً ، مليح الوجه ، أبيض مشرباً حمرة ، حسن الجسم ، ورعاً ديناً زاهداً ، قوي اليقين بالله تعالى ، كثير الصدقة ، له عناية بالأدب ، ومعرفة حسنة بالكتابة ، مؤثراً للعدل والإحسان وقضاء الحوائج ، لا يرى المنع من شيء طلب منه .

وقيل عنه أنه كان كثير الحلم والحياء ، فصيح اللسان ، أديباً خطيباً شاعراً . وفي أيامه انقرضت دولة الديلم من بغداد ، وقامت دولة السلجوقيين ،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٨٠ .

حيث قبض عليه سنة خمسين وأربعمئة للهجرة ٤٥٠ هـ إثر فتنة أرسلان التركي المعروف بالبساسيري ، الذي طغى وتجبر ، وأرهب العرب والعجم ، وجبى الأموال ، وخرّب القرى ودعي له على المنابر .

وبلغ الخليفة القائم بأمر الله عزمُ البساسيري على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتَبَ الخليفةُ أبا طالب محمد بن ميكال سلطان الغز المعروف بطغرلبك ، وهو بالريّ ، يستنهضهُ في القدوم .

وقدم طغرلبك سنة سبع وأربعين وأربعمئة ٤٤٧ هـ ، فذهب البساسيري إلى الرحبة ، وتلاحق به خلقٌ من الأتراك . وكاتب صاحب مصر ، فأمده بالأموال . وكاتَبَ تبال أخا طغرلبك ، وأطمعه بمنصب أخيه . فخرج تبال ، واشتغل به طغرلبك .

ثم قدم البساسيري بغداد سنة خمسين وأربعمئة ، ومعه الراية المصرية ، ووقع القتال بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله . ودعي لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور ، وزيد في الأذان حيَّ على خير العمل ، ثم خُطب له في كل الجوامع إلاّ جامع الخليفة ، ودام القتال شهراً[٢] .

ثم قبض البساسيري على الخليفة في ذي الحجة من السنة ذاتها ، وسيّره إلى غابة ، وحبسه بها ، ونهب دار الخلافة .

وأمّا طغرلبك ، فظفر بأخيه وقتله ، ثم كاتب متولي غابة في رد الخليفة إلى داره مكرماً ، فأعيد الخليفة إلى مقر عزه في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين ، ودخل بأبهة عظيمة ، والأمراء والحجاب بين يديه ، ولم ينم

---

(١) المرجع السابق ٤٨١ .

الخليفة بعدها إلا على فراش مصلّاه ، ولزم الصيام والصلاة ، وعفا عن كل من آذاه .

وجهز طغرلبك جيشاً حارب به البساسيري ، فظفر به وقتله ، وحمل رأسه إلى بغداد(١) .

وفي هذه السنة إحدى وخمسن وأربعمئة زوَّج ابنته لطغرلبك مرغماً ، وهو أمر لم ينله أحد من ملوك بني بويه مع قهرهم الخلفاء وتحكمهم فيهم .

ثم قدم طغرلبك سنة خمس وخمسين ، فدخل بابنة الخليفة ، وأعاد المواريث والمكوس وضمن بغداد بمئة وخمسين ألف دينار ، ثم عاد إلى الريّ فمات بها في رمضان ، وأقيم في السلطنة بعده ابن أخيه عضد الدولة ألب أرسلان صاحب خراسان ، وبعث إليه القائم بأمر الله بالخلع والتقليد(٢) .

وقد ذكر صاحب الفوات شعراً للقائم بأمر الله ، في الدعاء والتضرع وطلب المغفرة ، قوله :

يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمينَ العَفْوَ عَنْ غَرقٍ ... في السَّيِّئَاتِ لَهُ وِرْدٌ وَإِصْدَارُ
هَانَتْ عَلَيْهِ مَعاصيهِ الَّتي عَظُمَتْ ... عِلْماً بِأَنَّكَ لِلْعَاصِينَ غَفَّارُ
فَامْنُنْ عَلَيَّ ، وَسَامِحْني ، وَخُذْ بِيَدِي ... يَا مَنْ لَهُ العَفْوُ وَالجَنَّاتُ وَالنَّارُ

ومن شعره أيضاً ، قوله :

سَهِرْنَا عَلَى سُنَّةِ العَاشِقينَ ... وَقُلْنَا لِمَا يَكْرَهُ اللهُ نَمْ
وَمَا خِيفَتي مِنْ ظُهُورِ الوَرَى ... إِذَا كَانَ رَبُّ الوَرَى قَدْ عَلِمْ

---

(١) المرجع السابق ٤٨٢ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٨٣ - ٤٨٤ .

وذكر له قوله :

قَالُوا الـرَّحيلُ فَـأَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَـا ... في خَدِّهَا وَقَـدِ اعْتَقَلْنَ خِضَابَـا
فَـاخْضَرَّ تَحْتَ بَنَـانِهَا فَكَـأَنَّمَـا ... غَـرَسَتْ بأَرضٍ بَنَفْسَجٍ عُنَّابَـا

وممَّا رواه له أيضاً ، قوله :

جُمِعَتْ عَلَيَّ مِنَ الغَرامِ عَجَائِبٌ ... خَلَّفْنَ قَلْبي في إسارٍ مُـوحِشٍ
خِـلٌّ يَصيـدُ ، وَعَـاذِلٌ مُتَنَصِّحٌ ... وَمُـعَـارِضٌ يُـؤْذِيَ وَنَمَامٌ يَشي

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمئة فرغت المدرسة النظامية ببغداد ، وقُرِّرَ لتدريسها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ، فلم يحضر ، فدَرَّسَ ابن الصباغ صاحب الشامل ، ثم تلّطفوا بالشيخ أبي إسحاق حتى أجاب ودرّس .

وفي سنة إحدى وستين واربعمئة احترق جامع دمشق ، وزالت محاسنه ، وتشوّه منظره ، وذهبت سقوفُه المذهبة .

وفي سنة ثلاث وستين خطب بحلب للخليفة القائم ، وللسلطان ألب أرسلان ، وفيها كانت وقعة عظيمة نصر فيها المسلمون على الروم نصراً عظيماً ، وأُسِرَ ملك الروم ، الذي فدى نفسه من ألب أرسلان بمال عظيم ، وعقد معه هدنة لخمسين عاماً .

وفي سنة خمس وستين وأربعمئة قتل السلطان ألب أرسلان ، وقام في الملك بعده ولد ملكشاه ، ولقب «جلال الدولة» .

وفي سنة سبع وستين وأربعمئة مات الخليفة القائم بأمر الله ، ليلة الخميس الثالث عشر من شعبان ، وذلك أنه افتصد ونام ، فانحل موضع الفصد ونزف

---

(٢) الغوات ١٥٨/٢ .

كثيراً ، فاستيقظ وقد انحلت قوته ، فطلب حفيده ولي العهد عبدالله بن محمد ، ووصاه ، ثم توفي . وكانت مدة خلافته خمساً وأربعين سنة[1] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٨٦ .

الفصل الرابع

٤٤٧ـ ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٩ـ ١٢٦٨

المقدمة . .

١ ـ القائم بأمر الله عبدالله بن القادر ٤٤٧ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٠٧٥ م

مدة حكمه في هذا الدور ٤٤٧ ـ ٤٦٧ هـ «عشرون عاماً»

٢ ـ المقتدي بأمر الله عبدالله بن محمد بن القائم ٤٤٨ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٠٩٤ م

مدة حكمه ٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ «عشرون عاماً»

٣ ـ المستظهر بالله أحمد بن المقتدي ٤٧٠ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠٧٦ ـ ١١١٨ م

مدة حكمه ٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ «خمسة وعشرون عاماً»

٤ ـ المسترشد بالله الفضل بن المستظهر ٤٨٥ ـ ٥٢٩ هـ/ ١٠٩١ ـ ١١٣٥ م

مدة حكمه ٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ «سبعة عشر عاماً»

٥ ـ الراشد بالله منصور بن المسترشد ٥٠٢ ـ ٥٣٢ هـ/ ١١٠٨ ـ ١١٣٨ م

مدة حكمه ٥٢٩ ـ ٥٣٠ هـ «سنة واحدة»

٦ ـ المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر ٤٨٩ ـ ٥٥٥ هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٦٠

مدة حكمه ٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ «خمسة وعشرون عاماً»

٧ ـ المستنجد بالله يوسف بن المقتفي ٥١٨ ـ ٥٦٦ هـ/ ١١٢٢ ـ ١١٧٠ م

مدة حكمه ٥٥٥ ـ ٥٦٦ هـ «إحدى عشرة سنة»

٨ ـ المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد ٥٣٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٤١ ـ ١١٨٠ م

مدة حكمه ٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ «عشر سنوات»

٩ ـ الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء ٥٥٣ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٥٦ ـ ١٢٢٥ م

مدة حكمه ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ «سبعة وأربعون عاماً»

١٠ ـ الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر ٥٧١ ـ ٦٢٣ هـ/ ١١٧٤ ـ ١٢٢٦ م

مدة حكمه ٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ «تسعة أشهر وأيام»

١١ ـ المستنصر بالله منصور بن الظاهر ٥٨٨ ـ ٦٤٠ هـ/ ١١٩٠ ـ ١٢٤٢ م

مدة حكمه ٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ «سبعة عشر عاماً»

١٢ ـ المستعصم بالله عبدالله بن المستنصر ٦٠٩ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢١١ ـ ١٢٥٨ م

مدة حكمه ٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ «سبع عشرة سنةً»

الفصل الرابع

المقدمة . .

انتقل السلطان في هذا العصر من البويهيين الفرس إلى السلاجقة الأتراك بعد أن استنجد الخليفة القائم بأمر الله عبدالله بن القادر ، للقضاء على ثورة البساسيري أحد المماليك البويهيين ، بطغرل بك السلجوقي ، فأعاد الخليفة إلى بغداد ودخل معه سنة ٤٤٧ هـ وقضى على البويهيين الفرس ، وبدأ عهد التحكم السلجوقي التركي .

ورغم استمرار الإنحطاط في سلطة الخليفة فقد كان الأمر أحسن حالاً مع الأتراك الذين أقاموا ببلاد الجبل وليس في بغداد ، وأبدوا مظاهر التعظيم والإجلال للخليفة ، وهو ما لم يفعله الفرس من قبل . وقد قوي سلطان الخلفاء في بعض الأحيان ، واستقلوا عن الأتراك في السنوات السبعين الأخيرة ، قبل أن يقضي عليهم هولاكو زعيم المغول سنة ٦٥٦ هـ .

أما خلفاء هذا العصر فاثنا عشر خليفةً ، وهم :

١ ـ القائم بأمر الله عبدالله بن القادر بالله ، وقد سبقت الإشارة إليه في

الدور العباسي الثالث ، حيث بدأ الدور السلجوقي بعهده عام ٤٤٧ هـ واستمر في الدور الرابع من عام ٤٤٧ هـ إلى ٤٦٧ هـ .

٢ ـ المقتدي بأمر الله ، عبدالله بن محمد بن القائم بأمر الله ، أبو القاسم ، وكانت خلافته من ٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ ، وكان محباً للعلوم ، مكرماً لأهليها ، ولم يترك له السلاجقة إلاّ السلطة الروحية .

٣ ـ المستظهر بالله أحمد بن المقتدي لله ، أبو العباس ٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ الذي انتعشت سلطاته ، وقوي شأنه بتدهور سلطان السلجوقيين . وفي عهده ظهر الحشاشون في أَلْمُوت شمال غربي قزوين ، وبدأت الحملات الصليبية ، وسقط بيت المقدس ، فأرسل مودوداً ، سلطان الغزنويين على رأس حملة لقتال الصليبيين .

٤ ـ المسترشد بالله ، الفضل بن المستظهر بالله ، أبو منصور ٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ وهو الذي غدر به السلطان السلجوقي مسعود بن محمد ، وقتله حين آنس منه إحياءً للخلافة وضبطاً لها .

٥ ـ الراشد بالله ، منصور بن المسترشد بالله ، أبو جعفر ٥٢٦ ـ ٥٣٠ هـ ، وخلعه السلطان السلجوقي مسعود ، حين حاول كأبيه المسترشد ضبط الأمور .

٦ ـ المقتفي لأمر الله ، محمد بن المستظهر بالله ، أبو عبدالله ٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ الذي خلف أخاه الراشد بالله ، وتمكن من إستعادة سلطة الخلافة على العراق بفضل نزاع السلاجقة .

٧ ـ المستنجد بالله ، يوسف بن المقتفي لأمر الله ، أبو المظفر ٥٥٥ ـ ٥٦٦ هـ وهو الذي أقام العدل ، وقطع الفساد بهيبته وحكمته وحسن سيرته في الرعية ، فأعاد للخلافة بعض هيبتها ، حتى تمكن تَمَكُّنَ الخلفاء الأولين .

٨ ـ المستضيء بأمر الله ، الحسن بن المستنجد بالله ، أبو محمد ٥٦٦ ـ

٥٧٥ هـ ، وكان حليماً كريماً عادلاً ، بذل المال على المدارس والمحتاجين ، ورفع المكوس ، ورد المظالم ، وفي أيامه زالت دولة الفاطميين في مصر ، فخُطب له على منابرها ، وضُربت السكة باسمه ، وامتدت رقعة نفوذه حتى شملت الشام واليمن .

٩ ـ الناصر لدين الله ، أحمد بن المستضيء بأمر الله ، أبو العباس ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ وهو الذي قضى بدهائه وحزمه على نفوذ قادة الجيش ، وتخلص من تسلط السلاجقة ، وبلغت جيوشه خوزستان وآذربيجان ، وتطاولت خلافته في مدتها حتى بلغت ما لم تبلغه خلافة من قبل أو من بعد .

١٠ ـ الظاهر بأمر الله ، محمد بن الناصر لدين الله ، أبو نصر ٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ الذي امتاز بالعدل وضبط الأمور المالية رغم قصر مدة خلافته .

١١ ـ المستنصر بالله ، منصور بن الظاهر بأمر الله ، أبو جعفر ٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ نشر العدل ، وقرب أهل العلم والزهاد ، وبنى المدارس والمساجد والمستشفيات ، وجمع العساكر لقتال المغول الذين أخذ خطرهم يهدد حدود الإسلام والمسلمين .

١٢ ـ المستعصم بالله ، عبدالله بن المستنصر بالله ، أبو أحمد ٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ ، آخر الخلفاء العباسيين ، والذي عجز عن صد زحف المغول بقيادة هولاكو ، فقُتل وقتل معه مئات الألوف من سكان بغداد بسبب قلة معرفته وتدبيره ، وبذلك قضي على الدولة العباسية .

المقتدي بأمر الله عبدالله بن محمد بن القائم
٤٤٨ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٠٩٤

المقتدي بأمر الله ، أبو القاسم ، عبدالله بن محمد بن القائم بأمر الله ، مات أبوه محمد في حياة القائم بأمر الله ، وهو حَمْلٌ ، فولد بعد وفاة أبيه بستة أشهر . وأمه أمُّ ولد اسمها أرجوان ، وكانت تلقب «قرة العين» وقد أدركت خلافته ، وخلافة ابنه المستظهر بالله ، وخلافة ابن ابنه المسترشد بالله[1] .

وكان مولده سنة ٤٤٨ هـ ، فعاش في كنف جده القائم بأمر الله ، وبويع له بالخلافة عند موت جده ، وله من العمر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وكانت البيعة بحضرة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، وابن الصباغ ، والدامغاني سنة ٤٦٧ هـ[2] .

وظهر في أيامه خيرات كثيرة ، وآثار حسنة . وكانت قواعد الخلافة في أيامه باهرةً وافرة الحرمة ، بخلاف من تقدمه . وكان ديِّناً خيِّراً ، قويَّ النفس ، عالي الهمة ، من نجباء بني العباس . ومن محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطي ببغداد ، وأمر أن لا يدخل أحد الحمام إلّا بمئزر[3] .

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الاثير ١٠/ ٨٥ طبعة بولاق .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٨٧ .
(٣) المرجع السابق .

أهم الأحداث في عصره . .

ـ وفي هذه السنة من خلافته ٤٦٧ هـ أعيدت الخطبة للعُبَيْدي بمكة .

ـ وفي هذه السنة ٤٦٨ هـ خُطِبَ للمقتدي بدمشق ، وأبطل الأذان بحيًّ على خير العمل ، وفرح الناس بذلك .

ـ وفي سنة سبع وسبعين وأربعمئة ٤٧٧ هـ سار سليمانُ بن قتامش السجلوقي صاحب قونية وأقصراء ،بجيوشه إلى الشام ، فأخذ انطاكية ، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلثمئة ٣٥٨ هـ ، وأرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره .

وقال الذهبي : وآل سلجوق هم ملكوك بلاد الروم ، وقد امتدت أيامهم ، وبقي منهم بقية إلى زمن الملك الظاهر بيبرس .

ـ وفي سنة تسع وسبعين وأربعمئة ٤٧٩ هـ أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي بأمر الله يطلب أن يُسَلْطِنَهُ ، وأن يقلده ما بيده من البلاد . فبعث إليه الخِلَعَ والأعلام والتقليد ، ولقبه بأمير المسلمين . ففرح بذلك ، وسُرَّ به فقهاء المغرب ، وهو الذي أنشأ مدينة مراكش .

ـ وفي سنة أربع وثمانين وأربعمئة ٤٨٤ هـ استولى الفرنج على جميع صقلية . وهي أول ما فتحها المسلمون بعد المئتين هجرية ، وحكم عليها آل الأغلب دهراً ، إلى أن استولى العُبَيْدي المهدي على المغرب(٤) .

ـ وفي هذه السنة قدم ملكشاه بغداد ، وأمر بعمل جامع كبير بها وعمل الأمراء حوله دوراً ينزلونها ، ثم رجع إلى أصبهان . وعاد في العام التالي ٤٨٥ هـ

---

(٤) المرجع السابق ٤٨٩ .

إلى بغداد عازماً على الشر ، وأرسل إلى الخليفة المقتدي يقول : لابد من أن تترك لي بغداد ، وتذهب إلى أي بلد شئت . فانزعج الخليفة ، وطلب مهلة شهر فلم يمهله ساعة واحدة . فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام ، فاتفق مرض السلطان ملكشاه وموته ، وعُدَّ ذلك كرامة للخليفة[1] .

ولما مات ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته ، وأرسلت إلى الأمراء سراً ، فاستحلفتهم لولده محمود ، وهو ابن خمس سنين ، فحلفوا له . وأرسلت إلى الخليفة المقتدي في أن يسلطنه . فأجاب ، ولقبه «ناصر الدنيا والدين» . ثم خرج عليه أخوه بركياروق بن ملكشاه ، فقلده الخليفة ولقبه «ركن الدين» وذلك في المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمئة ٤٨٧ هـ . ثم مات الخليفة من الغد فجأة ، فقيل إن جاريته شمس النهار سمّته ، وبويع لولده المستظهر بالله .

ولم نعثر له على شعر فيما بين أيدينا من المراجع حتى الآن ، ولم يذكر أنه قال الشعر .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٨٩ .

المستظهر بالله بن أحمد المقتدي
٤٧٠ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠٧٦ ـ ١١١٨ م

المستظر بالله ، أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله . ولد في شوال سنة سبعين وأربعمئة ٤٧٠ هـ ، وبويع له بالخلافة عند موت أبيه وله ستَّ عشرة سنة وشهران .

وقال ابن الأثير : كان المستظهر بالله لينَّ الجانب ، كريم الأخلاق ، يحب اصطناع الناس ، ويفعل الخير ، ويسارع في أعمال البر ، حسن الخط ، جيد التوقيعات ولا يقاربه فيها أحد ، يدُلُّ على فضلٍ غزير ، وعلم واسع ، سمحاً ، جواداً ، محباً للعلماء والصلحاء ، ولم تصف له الخلافة ، بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب[1] .

أهم أحداث عصره . .

ـ في سنة خلافته الأولى ٤٨٧ هـ مات المستنصر العبيدي صاحب مصر ، وقام بعده ابنه المستعلي أحمد . وفيها أخذت الروم بلنسية .

ـ وفي سنة تسعين وأربعمئة قُتِلَ السلطان أرسلان أرغون بن ألب أرسلان،

---

(١) انظر ابن الأثير ١٠/٢٠٢ بولاق وهناك كلام كثير عن المستظهر .

السلجوقي صاحب خراسان ، فتملكها السلطان بركياروق ، ودانت له البلاد والعباد . وفيها خُطب للعُبَيْدي بحلب وأنطاكية والمعرة وشَيْزَرَ شهراً ، ثم أعيدت الخطبة العباسية .

وفي هذه السنة جاءت الفرنج ـ بدء الحروب الصليبية ـ فأخذوا نيقية وهو أول بلد أخذوه ، ووصلوا إلى كفر طاب واستباحوا تلك النواحي . فكان هذا أول ظهور الفرنج بالشام . قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم ، وانزعجت الملوك والرعية وعظم الخطب .

وقيل : إن صاحب مصر العُبَيْدي لما رأى قوة السلجوقية واستيلاءهم على الشام ، كاتب الفرنج يدعوهم إلى المجيء إلى الشام ليملكوها[٢] .

ـ وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة انتشرت دعوة الباطنية بأصبهان . وأخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف ، وقتلوا به أكثر من سبعين ألفاً ، منهم جماعة من العلماء ، والعباد ، والزهاد ، وهدموا المشاهد ، وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم . وتمكنت الفرنج من الشام ، وقال الأَبِيوردي في ذلك قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم   فلم يبق منا عرضة للمراحم

وفي هذه السنة نقل المصحف العثماني من طبرية إلى دمشق خوفاً عليه ، وخرج الناس لتلقيه ، فآووه في خزانة بمقصورة الجامع .

ـ وفي سنة أربع وتسعين وأربعمئة كثر أمر الباطنية بالعراق وعاثوا فساداً . وفيها أخذ الفرنج بلد سروج ، وحيفا ، وأرسوف ، وقيسارية .

---

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٩١ .

ـ وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمئة مات السلطان بركياروق ، فأقام الأمراء بعده ولده جلال الدولة ملكشاه ، فخرج عليه عمه واجتمعت الكلمة عليه ، وعاد لأصبهان .

ـ وفي سنة ثلاث وخمسمئة أخذت الفرنج طرابلس بعد حصار سنين[1] .

ـ وفي سنة أربع وخمسمئة عظم بلاءالمسلمين بالفرنج وتيقنوا استيلاءهم على أكثر الشام ، وطلب المسلمون الهدنة ، فامتنعت الفرنج ، وصالحوهم بألوف دنانير كثيرة ، فهادنوهم ثم غدروا بهم .

وفيها كانت ملحمة كبيرة بين الفرنج وبين ابن تاشفين صاحب الأندلس ، وانتصر فيها المسلمون ، وقتلوا وأسروا ، وغنموا ما لا يُعبَّرُ عنه ، وبادت شجعان الفرنج .

ـ وفي سنة سبع وخمسمئة جاء مودود صاحب الموصل بعسكر ليقاتل ملك الفرنج الذي بالقدس ، فوقع بينهم معركة هائلة . ثم رجع مودود إلى دمشق ، فصلى الجمعة يوماً في الجامع ، وإذا بباطني وثب عليه فجرحه فمات من يومه ، فكتب ملك الفرنج إلى صاحب دمشق كتاباً فيه : «إنّ أمّةً قتلت عميدها في يوم عيد في بيت معبودها لحقيقٌ على الله أن يبيدها»[2] .

وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمئة مات الخليفة المستظهر بالله ، في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الأول ٥١٢ هـ . فكانت مدته خمساً وعشرين سنة . وغسله ابن عقيل شيخ الحنابلة ، وصلى عليه ابنه المسترشد بالله . وماتت بعده بقليل جدته أرجوان والدة المقتدي .

---

(١) المرجع السابق ٤٩٤ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٩٤ .

وقال الذهبي : ولا يعرف خليفة عاشت جدته بعده إلّا المستظهر بالله ، رأت ابنها خليفة ، ثم ابن ابنها . فقال فيه الصارم البطائحي مادحاً :

أصبحتُ بـالمستظهـرِ بن المقتدي بالله ، ابنِ القائمِ ، بن القـادرِ
مُستعصِمـاً أرجـو نـوالَ أكفّـهِ وبأن يكونَ على العشيرةِ ناصري
فيقـرُ مع كِـبري قـراري عنـدَه ويفوزُ من مَدحي بشعـرٍ سائـرِ

ويظهر من أخبار المستظهر بالله أنه كان ينظم الشعر ، فقد روى له ابن الأثير ، ونقل عنه السيوطي غزلاً رقيقاً[١] ليس من شك أن صاحبه شاعر نظّام ، حيث كانت الشعراء تفد عليه فينيلهم من عطاياه ، ومن شعره قوله :

أَذَابَ حَرُّ الهَوَى في القَلْبِ مَا جَمَدا لَمَّا مَدَدْتُ إلى رَسْمِ الوَدَاعِ يَدا
وَكَيْفَ أَسْلُكُ نَهْجَ الاصْطِبَارِ وَقَدْ أَرَى طَرَائِقَ في مَهْوَى الهوى قِدَدَا
إنْ كُنْتُ أَنْقُضُ عَهْدَ الحُبِّ يَا سَكَني مِنْ بَعْدِ هَذَا ، فَلاَ عَايَنْتُكُمْ أَبَدَا[١]

(١) كذا في ابن الأثير أنظر أيضاً تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٩٥ .

المسترشد بالله الفضل بن المستظهر
٤٨٥ - ٥٢٩ هـ/ ١٠٩١ - ١١٣٥ م

المسترشد بالله ، أبو منصور ، الفضل بن المستظهر بالله . ولد في ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمئة ٤٨٥ هـ . وأُمُّهُ أُمٌّ ولد .

بويع له بالخلافة عند موت أبيه سنة اثنتي عشرة وخمسمئة ٥١٢ هـ . وكان ذا همة عالية ، وشهامة زائدة ، وإقدام ورأي ، وهيبة شديدة . ضبط أمور الخلافة ، ورتَّبها أحسن ترتيب ، وأحيا رسم الخلافة ، ونشر عظامها ، وشيد أركان الشريعة وطرَّزَ أكمامها ، وباشر الحروب بنفسه(١) .

وذكره ابن السبكي في طبقات الشافعيه ، وقال : كان في أوّل أمره تنسك ، ولبس الصوف ، وانفرد في بيت للعبادة . . . وخطب له أبوه بولاية العهد ، ونَقَشَ اسمه على السكة في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمئة . وكان مليح الخط ، ما كَتَبَ أحدٌ من الخلفاء مثله ، يستَدْرِكُ على كُتَّابه ، ويصلح أغاليط في كتبهم .

وقال الذهبي : وخرج عليه مسعود بن محمود، فالتقى الجمعان، وغدر

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٩٧ .

بالخليفة أكثر عسكره ، فظفر به مسعود ، فَأَسَرَ الخليفةَ وخواصه ، وحبسهم بقلعة بقرب همذان ، فبلغ أهلَ بغداد ذلك ، فَحَثوا في الأسواق التراب على رؤوسهم ، وبكوا وضجّوا ، وخرج النساءُ حاسرات يَنْدُبْنَ الخليفة ، ومنعوا الصلوات والخطبة .

وقال ابن الجوزي : وأرسل السلطان سنجر إلى ابن أخيه مسعود أن يعتذر من الخليفة ويطلق سراحه ، فقد ظهرات آيات السخط السماوية والأرضية ما لا طاقة باحتماله ، ولكن مسعوداً هذا دس نفراً من الباطنية فهجموا على الخليفة في خيمته ، ففتكوا به ، وقتلوا معه جماعة من أصحابه . فلما أحس بهم العسكر وقد فرغوا من فعلتهم ، أخذوهم وقتلوهم ، ووقع النحيب والبكاء ، وجاء الخبر إلى بغداد ، فاشتد ذلك على الناس ، وخرجوا حفاةً مخرِّقين الثياب ، والنساء ناشرات الشعور يَلْطُمْنَ ويَقُلْنَ المراثي . لأن المسترشد كان محبباً فيهم ببره ، ولما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بهم .

وكان قتل المسترشد ، بمراغة يوم الخميس السادس عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمئة ٥٢٩ هـ[1] .

ورجل بهذه الصفات ، لابُدَّ أن يكون صاحب نثر وشعر ، وبالفعل فقد روي أنه كان ينظم الشعر في المناسبات ، فمن شعره الذي يفخر به بنفسه قوله :

أَنَا الأَشْقَرُ المَدْعُوُّ بي في المَلاَحِمِ ... وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بِغَـيْرِ مُزَاحِمِ
سَتَبْلُغُ أَرْضَ الرُّومِ خَيْلي وَتُنْتَضَى ... بِأَقْصَى بِلَادِ الصِّينِ بيضُ صَوارِمي[2]

ولما أُسر ، قال في إساره ذاكراً أجداده الذين قُتلوا على أيدي الشعوبيين

---

(١) المرجع السابق ٤٩٨ .
(٢) المرجع السابق ٤٩٨ .

والأعاجم :

وَلَا عَجَباً لِلأُسْدِ إِنْ ظَفَرتْ بِهَا   كِلَابُ الأَعَادِي ، مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
فَحَرْبَةُ وَحْشِيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى   وَمَوْتُ عَلِيٍّ مِنْ حُسَامِ ابنِ مُلْجِمِ (١)

وروى السيوطي قال : وله لما كُسِرَ وأشير عليه بالهزيمة ، فلم يفعل ، وثبت حتى أسر ، قال :

قَالُوا : تُقِيمُ وَقَدْ أَحَا   طَ بِكَ العَدُوُّ وَلَا تَفِرُّ !
فَأَجَبْتُهُمْ : المَرْءُ مَا   لَمْ يَتَّعِظْ بِالوَعْظِ غِرُّ
لَا نِلْتُ خَيْراً مَا حَيِيـ   ـتُ وَلَا عَدَانِي الدَّهْرُ شَرُّ
إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ غَيْـ   ـرَ اللهِ يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ (٢)

وله عدا الشعر نثر كثير وخطب جمّة ، فقال الذهبي : وقد خطب الناس يوم عيد الأضحى ، فقال : الله أكبر ما سبَّحت الأنواء ، وأشرق الضياء ، وطلعت ذكاء ، وعلت على الأرض السماء . الله أكبر ما همىٰ سحاب ، ولمع سراب ، وأنجح طِلاب ، وسرَّ قادماً إياب . وذكر خطبة بليغة ثم جلس ، ثم قام فخطب ، وقال : اللهم أصلحني في ذريتي ، وأعنيِّ على ما ولَّيتني ، وأوْزِعْني شكر نعمتك ، ووفقني وانصرني .

فلمَّا أنهاها وتهيَّأ للنزول ، بَدَرَهُ أبو المظفر الهاشمي ، فأنشده قصيدة مطلعها :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا خَيْرَ مَنْ عَلَا   عَلَى مِنْبَرٍ قَدْ حَفَّ أَعْلَامَهُ النَّصْرُ
وَأَفْضَلَ مَنْ أَمَّ الأَنَامَ وَعَمَّهُمْ   بِسِيرَتِهِ الحُسْنَى وَكَانَ لَهُ الأَمْرُ (٣)

---

(١) الفوات ٣/١٨٠ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٩٨ - ٤٩٩
(٣) فوات الوفيات ٣/١٨٠ .

وليس غريباً على مثله أن يكون أديباً شاعراً ، وفي عصره كان الطغرائي والحريري ، والميداني ، وابن عقيل ، والطرطوسي ، والهاشمي ، والأبيوردي ، وغيرهم من الأدباء والشعراء والعلماء .

وجاء في الفوات شعر للمسترشد بالله يقول فيه :

أَقُولُ لِشَرْخِ الشَّبَابِ اصْطَبِرْ فَوَلَّى وَرَدَّ قَضَاءَ الوَطَرْ
فَقُلْتُ : قَنِعْتُ بِهَذَا المَشيبِ وَإِنْ زَالَ غَيْمٌ فَهَذَا مَطَرْ
فَقَالَ المَشيبُ : أَيُبقَى الغُبَارُ عَلَى جَمْرَةٍ ذَابَ مِنْهَا الحَجَرْ ؟[1]

---

(١) انظر الفوات ٣/١٨٠ .

الراشد بالله منصور بن المسترشد
٥٠٢ ـ ٥٣٢ هـ/ ١١٠٨ ـ ١١٣٨ م

الراشد بالله ، أبو جعفر ، منصور بن المسترشد بالله ، ولد سنة اثنتين وخمسمئة للهجرة ٥٠٢ هـ . وأمه أم ولد ، ويقال : إنه وُلد مسدوداً ، فأحضروا الأطباء ، فأشاروا بأن يفتح له مخرج بآلة من ذهب ، ففُعل به ذلك ، فنفع .

وخطب له أبوه بولاية العهد سنة ثلاث عشرة . وبويع له بالخلافة عند قتل أبيه في ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمئة ٥٢٩ هـ .

وكان فصيحاً ، أديباً ، شاعراً ، سمحاً ، جواداً ، حسن السيرة ، يؤثر العدل ، ويكره الشر ، على منوال أبيه(١) .

ولما عاد السلطان مسعود بن محمود ، قاتل أبيه ، إلى بغداد ، خرج هو إلى الموصل . فأحضروا القضاة والأعيان والعلماء ، وكتبوا محضراً فيه شهادة طائفة بما جرى من الراشد من الظلم وأخذ الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر ، واستفتوا الفقهاء فيمن فعل ذلك هل تصح إمامته ؟ وهل إذا ثبت فِسْقُه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه ، ويستبدل خيراً منه ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٠٠ .

فأفتوا بجواز خلعه ، وحكم بخلعه أبو طاهر بن الكرخي قاضي البلد ، وبايعوا عمه محمد بن المستظهر ، ولقب «المقتفي لأمر الله» وذلك في السادس عشر من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمئة ٥٣٠ هـ[١] .

وبلغ الراشدَ الخلْعُ ، فخرج من الموصل إلى بلاد آذربيجان ، ومرض بظاهر أصبهان مرضاً شديداً ، فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فراشين معه ، فقتلوه بالسكاكين ، ثم قتلوا كلهم ، وذلك في السادس عشر من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مئة للهجرة ٥٣٢ هـ ، وجاء الخبر إلى بغداد ، فقعدوا للعزاء يوماً واحداً .

قال العماد الكاتب فيه : كان للراشد الحسن اليوسفي ، والكرم الحاتمي .

ولم يصل إلينا من شعره ونثره ، فيما لدينا من المراجع حتى الآن شيء .

---

(٢) المرجع السابق ٥٠١ .

المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر
٤٨٩ ـ ٥٥٥ هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٦٠ م

المقتفي لأمر الله ، أبو عبدالله ، محمد بن المستظهر بالله . ولد في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمئة ، وأمه حبشية .

بويع له بالخلافة عند خلع ابن أخيه ، وعمره أربعون سنة . وسبب تلقيبه بالمقتفي أنه رأى في منامه قبل أن يستخلف بستة أيام رسول الله ﷺ ، وهو يقول له : سيصل هذا الأمر إليك فاقْتَفِ لأمر الله ، فلقب «المقتفي لأمر الله»[1] .

وبعث السلطان مسعود فأخذ جميع ما في دار الخلافة من دوابّ وأثاث وذهب وستور وسرادق ، ولم يترك في اسطبل الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية بغال برسم الماء ، ويقال : إنهم بايعوا المقتفي على أن لا يكون عنده خيل ، ولا آلة سفر . وهكذا كان مغلوباً على أمره ، لا يملك حتى أمر نفسه . فعبث السلطان مسعود بالبلاد وفَجَرَ ونهب وسلب حتى عام ثلاث وثلاثين وخمسمئة للهجرة ٥٣٣ هـ حيث استولى الأمراء على غلات البلاد ، وعجز السلطان مسعود ولم يبق له إلّا الاسم ، وتضعضع أيضاً أمر السلطان سنجر ، وتمكن الخليفة

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٠٢ .

المقتفي من الأمر ، وزادت حرمته ، وعلت كلمته ، وكان ذلك مبدأ صلاح الدولة العباسية[1] .

أهم أحداث عصره . .

ـ في سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة حاصرت الفرنج دمشق ، فوصل إليها نور الدين محمود بن زنكي ، وهو صاحب حلب يومئذ ، وأخوه غازي صاحب الموصل ، فانتصر المسلمون ، وهزم الفرنجة ، واستمر نور الدين في قتال الفرنج ، وأخذ ما استولَوْا عليه من بلاد المسلمين .

ـ وفي سنة سبع وأربعين مات السلطان مسعود ، فقوي أمر الخليفة ، وعزل من كان السلطان ولاه مدرساً في النظامية ، وأمر ونهى وقاد الجيش ومهد الحلة والكوفة وعاد إلى بغداد منصوراً .

ـ وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمئة خرجت الغُز على السلطان سنجر وأسروه وأذاقوه الذل وملكوا بلاده . وفي السنة التالية ٥٤٩ هـ قُتل صاحب مصر الظافر بالله العُبَيْدي ، وأقاموا ابنه الفائز عيسى صبياً صغيراً . فكتب المقتفي لأمر الله عهداً لنور الدين محمود بن زنكي وولاه مصر ، وأمره بالمسير إليها ، وكان مشغولاً بحرب الفرنج ، وهو لا يفتر عن الجهاد ، ولقبه بالملك العادل .

وعظم سلطان المقتفي ، واشتدت شوكته ، واستظهر على المخالفين ، ولم يزل أمره في تزايد وعلوٍ إلى أن مات ليلة الأحد الثاني من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمئة للهجرة ٥٥٥ هـ[2] .

وقال الذهبي : كان المقتفي من سروات الخلفاء ، عالماً ، أديباً ، شجاعاً ،

---

(١) المرجع السابق ٥٠٣ .
(٢) المرجع السابق ٥٠٥ .

حليماً دمث الأخلاق ، كامل السؤدد ، خليقاً للإمامة ، قليل المثل في الأئمة ، لا يجري في دولته أمر وإن صغر إلاّ بتوقيعه .

وقال السمعاني : وسمع جُزْءَ ابنَ عَرَفة مع أخيه المسترشد من أبي القاسم بن بيان ، وروى عنه أبو منصور الجواليقي اللغوي إمامُهُ ، الوزيرُ ابنُ هبيرة وزيرهُ وغيرهما .

وأردف السمعاني : وجدد المقتفي باباً للكعبة ، واتخذ من العقيق تابوتاً لدفنه . وكان محمود السيرة ، مشكور الدولة ، يرجع إلى دين وعقل وفضل ورأي وسياسة ، جدَّدَ معالم الإمامة ، ومهّدَ رسوم الخلافة ، وباشر الأمور بنفسه ، وغزا غير مرة ، وامتدت أيامه وقال ابن الجوزي : من أيام المقتفي عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ، ولم يبق له منازع[1] .

ومع هذا فلم يُذكر له شعر ، غير أن المقّري ذَكَر عنه أنه كان يستمع إلى الشعراء ، ويحفظ بعض الشعر الذي يبلغه . وقد رووا أنه كانت هناك في عصره شاعرة في بغداد هي سلمى بنت القراطيسي ، وكانت مشهورة بالجمال ، فنظمت أبياتاً من الشعر تصف شيئاً من جمالها ، قالت فيها :

عُيونُ مَهَا الصَّرِيم فَدَاءُ عَيْني ... وَأَجْيَادُ الظِّبَاءِ فِدَاءُ جيدي
أُزَيَّنُ بِالعُقودِ ، وَإِنَّ نَحْري ... لأَزْيَنُ لِلْعُقودِ مِنَ العُقودِ
وَلاَ أَشْكُو مِنَ الأَوْصَابِ ثِقْلاً ... وَتَشْكُو قَامَتي ثِقْلَ النُّهُودِ

فبلغت هذه الأبيات أمير المؤمنين المقتفي ، فقال : اسألوا هل تصدق صفتها قولها ؟

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٠٦ .

فقالوا : مايكون أجمل منها !

فقال : اسألوا عن عفافها ؟

فقالوا له : هي أعف الناس .

فأرسل إليها مالاً جزيلاً ، وقال : تستعين به على صيانة جمالها ، ورونق بهجتها[1] .

ولم نعثر له على شعر حتى الآن فيما بين أيدينا من المراجع .

---

(١) انظر نفخ الطيب للمقري ١٧٨/٤ .

المستنجد بالله يوسف بن المقتفي
٥١٨ ـ ٥٦٦ هـ/ ١١٢٢ ـ ١١٧٠ م

المستنجد بالله ، أبو المظفر ، يوسف بن المقتفي . ولد سنة ثمان عشرة وخمسمئة ٥١٨ هـ ، وأمُّه أمُّ ولد كَرْجِيَّةٌ اسمها طاوس . خطب له أبوه بولاية العهد سنة سبع وأربعين وخمسمئة هجرية .

وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه ليلة الأحد الثاني من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمئة للهجرة ٥٥٥ هـ . وكان موصوفاً بالعدل والرفق ، شديداً على المفسدين ؛ سجن رجلاً كان يسعى بالناس مدةً ، فحضره رجل وبذل فيه عشرة آلاف دينار ، فقال المستنجد بالله : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودُلَّني على آخرَ مثله لأحبسَهُ وأكفَّ شرَّهُ عن الناس[1] .

وقال ابن الجوزي : وكان المستنجد بالله موصوفاً بالفهم الثاقب ، والرأي الصائب ، والذكاء الغالب ، والفضل الباهر ، له نظم بديع ، ونثر بليغ ، ومعرفة بعمل آلات الفلك والاسطرلاب وغير ذلك .

ومن شعره الدائر على ألسنة الناس حتى يوم الناس هذا ، قوله :

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٠٧ .

عَيَّـرَتْني بِـالشَّيْبِ ، وَهُـوَ وَقَـارُ لَيْتَهَـا عَيَّـرَتْ بِمَـا هُـوَ عَـارُ
إِنْ تَكُنْ شَـابَتِ الـذَّوَائِبُ مِنِّي فَـالـلَّيَـالي تُـزينُهَـا الأَقْـمَـارِ[1]

وله شعر في بخيل ، يقول :

وَبَـاخِـلٍ أَشْـعَـلَ في بَـيْتِـهِ تَكْـرِمَـةً مِنْـهُ ، لَنَـا شَـمْـعَـهْ
فَـمَا جَـرَتْ مِنْ عَيْنِهَـا دَمْعَـةٌ حَتَّى جَـرَتْ مِنْ عَيْنِـهِ دَمْعَـهْ[2]

وله في وزيره ابن هبيرة ، وقد رأى منه ما يعجبه من تدبير مصالح المسلمين ، قوله :

صَفَتْ نِعْمَتَانِ ، خَصَّتَاكَ وَعَمَّتَـا بِـذِكْـرِهِمَـا حَتَّى القِيَـامَـةِ تُـذْكَـرُ
وَجُـودُكَ وَالـدُّنْيَـا إِلَيْـكَ فَقِيـرَةٌ وَجُودُكَ وَالمَعْرُوفُ في النَّاسِ مُنْكَرُ
فَلَوْ رَامَ يَا يَحْيىٰ مَكَانَكَ جَعْفَرٌ وَيَحْيىٰ ، لَكَفَّا عَنْهُ ، يَحْيىٰ وَجَعْفَرُ
وَلَمْ أَرَ مَنْ يَنْوِي لَكَ السُّوءَيَا أَبَا المُظَفَّرِ ، إِلَّا كُنْتَ أَنْتَ المُظَفَّرُ[3]

وهكذا قضى المستنجد بالله حياته حتى توفي في الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمئة ٥٦٦ هـ . فكانت مدته إحدى عشرة سنة .

وجاء في مخطوط مهمل لتاريخ الخلفاء ذكر منهم المستنجد بالله ، وفيه شعر له ، يقول فيه :

وَجُلَّنَارٍ كَأَعْـرَافِ الدُّيُـوكِ عَـلَى غُصْنٍ يَمِيلُ كَأَذْنَـابِ الطَّوَاوِيسِ
مِثْلَ العَرُوسِ تَجَلَّتْ يَوْمَ زِينَتِهَا حُمْرَ الحُلِيِّ عَـلَى خُضْرِ المَلَابِيسِ
في مَجْلِسٍ لَعِبَتْ أَيْدِي السُّرُورِ بِهِ لَدَى عَرُوسٍ تُحَاكِي عَرْشَ بَلْقِيسِ
سَقَىٰ الحَيَا أَرْبُعاً تَحْيَا النُّفُوسُ بِهَا مَا بَيْنَ مُقْرِي إِلىٰ بَابِ الفَرَادِيسِ[3]

---

(١) المرجع السابق ٥٠٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الشعراء الملوك لجبور صفحة ١٨٥ .

ودخل يوماً إلى إحدى الجواري ، فقالت له : امض إلى ابنة عمك ، فإني أخاف أن تعلم بنا فلا آمن شرها .

فقال : في ساقها خلخال ، إذا جاءت عرفت بها .

فمضت إليها جارية ، ووشت بالحال . فرفعت خلخالها إلى أعلى ساقها ، وقصدت المقصورة ، ففاحت روائح الطيب ، فنمَّ ذلك عليها . فخرج من المقصورة من الباب الآخر ، وقال في ذلك :

اسْتَكْتَمَتْ خُلْخَالَهَا وَمَشَتْ تَحْتَ الظَّلَامِ بِهِ ، فَمَا نَطَقَا
حَتَّى إِذَا هَبَّتْ نَسِيمُ صَبَا مَلأَ العَبِيرُ بِنَشْرِهَا الطُّرُقَا[1]

ومن أشعاره التي وردت في الفوات قوله :

إِذَا مَرِضْنَا نَوَيْنَا كُلَّ صَالِحَةٍ وَإِنْ شَفينَا فَمِنَّا الزِّيغُ وَالزَّلَلُ
نُرضِي الإِلَهَ إِذَا خِفْنَا ، وَنُغْضِبُهُ إِذَا أَمِنَّا ، فَمَا يَزْكُو لَنَا عَمَلُ[2]

وله أيضاً قوله :

يَا هَذِهِ ! إِنَّ الخَيَالَ يَزُورني لَوْ كَانَ يُسْعِفُ أَوْ يَرُدُّ سَلَامَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ كَزَائِرٍ يَعْتَادُني يُغضِي العُيُون وَيُوقِظُ النُّوَّامَا

ومن أرق أشعار ، قوله :

وَصَفْرَاءَ مِثْلِي فِي القِيَاسِ وَدَمْعُهَا سِجَامٌ عَلَى الخَدَّيْنِ ، مِثْلَ دُمُوعِي
تَذُوبُ كَمَا فِي الحُبِّ ذُبْتُ صَبَابَةً وَتَحْوِي حَشَاهَا مَا حَوَتْهُ ضُلُوعِي

أهم أحداث عصره ..

ـ في السنة الأولى من خلافته مات الفائز صاحب مصر ، وقام بعده العاضد

---

(١) انظر الفوات ٤/٣٥١ .

(٢) الفوات ٤/٣٦٠ .

لدين الله آخر خلفاء بني عبيد ٥٥٥ هـ .

ـ وفي سنة اثنتين وستين وخمسمئة جهَّز السلطانُ نورُ الدين ، الأميرَ أسَدَ الدين شيركوه في أَلْفَيْ فارس إلى مصر ، فنزل بالجيزة ، وحاصر مصر نحو شهرين . فاستنجد صاحبها بالفرنج ، فدخلوا من دمياط لنجدته .

فرحل أسد الدين إلى الصعيد ، ثم وقعت بينه وبين المصريين حرب ، انتصر فيها على قلة عسكره وكثرة عدوه ، وقتل من الفرنج ألوفاً .

ثم جبى أسد الدين خراج الصعيد ، وقصد الفرنجُ الاسكندرية ، وقد أخذها صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وهو ابن أخي أسد الدين ، فحصروها أربعة أشهر ، فتوجه أسد الدين إليهم ، فرحلوا عنها ، فرجع إلى الشام .

ـ وفي سنة أربع وستين وخمسمئة قصدت الفرنج الديار المصرية في جيش عظيم ، فملكو بلبيس ، وحاصروا القاهرة ، فأحرقها صاحبُها خوفاً منهم ، ثم كاتب السلطانُ نورَ الدين يستنجد به ، فجاء أسد الدين بجيوشه ، فرحل الفرنج عن القاهرة لما سمعوا بوصوله ، ودخل أسدُ الدين ، فولّاه العاضدُ صاحب مصر الوزارة وخَلَعَ عليه .

فلم يلبث أسد الدينَ أن مات بعد خمسة وستين يوماً ، فولى العاضدُ مكانه ابن أخيه صلاح الدين يوسفَ بن أيوب وقلّده الأمور ، ولقبه «الملك الناصر» فقام بالسلطنّة أتَمَّ قيام .

المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد
٥٣٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٤١ ـ ١١٨٠ م

المستضيء بأمر الله ، أبو محمد ، الحسن بن المستنجد بالله . وُلِدَ سنة ست وثلاثين وخمسمئة للهجرة ٥٣٦ هـ ، وأمه أم ولد أرمنية اسمها غضة .

بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستنجد بالله في الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمئة ٥٦٦ هـ . وهو معاصر لصلاح الدين الأيوبي ، والإمام ابن الجوزي .

وقال ابن الجوزي : فنادى برفع المكوس . وردَّ المظالم ، وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا ، وفرَّقَ مالاً عظيماً على الهاشميين والعلويين والعلماء والمدارس والرُّبُطِ . وكان دائم البذل للمال ، ليس له عنده وقع ، وذا حلم وأناة ورأفة . وخَلَعَ على أرباب الدولة وغيرهم ، وللشاعرِ الحَيْصَ بَيْصَ فيهِ ، قوله :

يَا إِمَامَ الهُدَى ! عَلَوْتَ عَلَى الجُو ـدِ ، بِمَـالٍ ، وَفِضَّـةٍ ، وَنُضَـارِ
فَـوَهَبْتَ الأَعْمَـارَ وَالأَمْنَ وَالبُلْـ ـدَانَ فِي سَاعَةٍ مَضَتْ مِنْ نَهَارِ
فَبِمَـاذَا نُثْنِي عَلَيْكَ ، وَقَـدْ جَا وَزْتَ فَضْـلَ البُحُـورِ وَالأَمْـطَارِ
إِنَّمَـا أَنْـتَ مُعْـجِـزٌ مُـسْتَـقِـلٌ خَـارِقٌ لِـلْعُـقُـولِ وَالأَفْـكَـارِ

جَمَعَتْ نَفْسُـــكَ الشَّرِيفَـةُ بِـــالبَـأْ   سِ وَبِـالجُودِ بَـيْنَ مَـاءٍ وَنَـارِ[1]

وقال ابن الجوزي : واحتجب المستضيء بأمر الله عن أكثر الناس ، فلم يركب إلّا مع الخدم ، ولا يدخل عليه غيرهم . ولم يروَ له شِعراً أو نثرا.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمئة ٥٧٥ هـ مات الخليفة المستضيء بأمر الله ، في سَلْخِ شوال ، وعهد إلى ابنه أحمد «الناصر لدين الله» ومدة خلافته عشر سنوات[2] .

أهم الأحداث في عصره . .

ـ وقال ابن الجوزي : وفي خلافته انقضت دولة بني عبيد ، وخُطب له بمصر ، وضُربت السكة باسمه ، وصنفتُ كتاباً سميته «النصر على مصر» .

ـ وقال الذهبي : في أيامه ضَعُفَ الرفض ببغداد ووَهَى ، وأَمَنِ الناس ، ورُزِقَ سعادةً عظيمة في خلافته ، وخطب له باليمن ، وبُرقةَ ، وتوزر ، ومصر إلى أسوان ، ودانت الملوك بطاعته ، وذلك سنة سبع وستين وخمسمئة ٥٦٧ هـ[3] .

ـ وقال العماد الكاتب : استفتح السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة سبع وستين وخمسمئة للهجرة بجامع مصر كل طاعة وسمع ، وهو إقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس ، وعُفّت البدعة ، وصفت الشِّرْعةُ وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة ، وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء ، وتسلم صلاح الدين القصر بما فيه من الذخائر والنفائس ، وسيَّرَ السلطان نور الدين بهذه البشارة إلى بغداد . وأمرني بإنشاء بشارة تقرأ في سائر بلاد

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٠٩ ـ ٥١٠ .
(٢) المرجع السابق ٥١٣ .
(٣) المرجع السابق ٥١٠ .

الإسلام . وللعماد قصيدة في ذلك منها :

قَـدْ خَـطَبْنَـا لِلْمُسْتَضِيءِ بِمِصْرِ نَـائِب المُصْـطَفَى إمـامِ العَصْرِ
وَخَـذَلْنَـا لِنَصْـرِهِ العَضُـدَ العَـا ضِـدَ وَالقَـاصِرَ الَّـذي بِـالقَصْرِ
وَتَـرَكْنَـا الـدَّعِيَّ يَـدْعُـو ثُبُـوراً وَهْوَ بِالـذُّلِّ تَحْتَ حَجْرٍ وَحَصْرِ

وأرسل الخليفة المستضيء في جواب البشارة الخِلَعَ والتشريفات لنور الدين وصلاح الدين . ولابن الأثير تأريخ كامل لهذه الواقعة[1] .

ـ وفي سنة تسع وستين وخمسمئة للهجرة بعث نور الدين إلى الخليفة ببغداد بتقادم وتحف ، ثم توفي السلطان نور الدين صاحب دمشق ، وخلَّف ابنه الملك الصالح إسماعيل . فتحركت الفرنج بالسواحل فصولحوا بمال وهودنوا[1] .

ـ وفي سنة اثنتين وسبعين أمر صلاح الدين ببناء السور الأعظم المحيط بمصر والقاهرة ، وجعل على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش . وقال ابن الأثير : دَوْرُهُ تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمئة ذراع بالهاشمي . وفيها أمر بإنشاء قلعة بجبل المقطم ، وهي التي صارت دار السلطنة ، ولم تتم إلاّ في زمن السلطان الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين ، وهو أول من سكنها . وفيها بنى صلاح الدين تربة الإمام الشافعي .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥١١ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥١٢ .

الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء
٥٥٣ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٥٦ ـ ١٢٢٥ م

الناصر لدين الله ، أبو العباس ، أحمد بن المستضيء بأمر الله . ولد يوم الإثنين العاشر من رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة ٥٥٣ هـ . وأُمُّهُ أمُّ ولد تركية اسمها زُمُرُّد .

بويع له بالخلافة عند موت أبيه في مستهل ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمئة للهجرة ٥٧٥ هـ . وأجاز له جماعة منهم : أبو الحسين عبد الحق اليوسفي ، وأبو الحسن علي بن عساكر البطايحي(١) .

وقال الذهبي : ولم يل الخلافة أحد أطول مدة منه ، فإنه أقام فيها سبعة وأربعين سنة ، ولم تزل مدة حياته في عز وجلالة وقمع للأعداء ، واستظهارٍ على الملوك ، ولم يجد ضيماً ، ولا خرج عليه خارج إلاّ قمعه ، ولا مخالف إلا دفعه ، وكل مَنْ أضمر له سوءاً رماه الله بالخذلان . وكان مع سعادة جدِّه شديد الإهتمام بمصالح الملك ، لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيته كبارهم وصغارهم ، وأصحاب أخباره في أقطار البلاد يوصِّلون إليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنة .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥١٣ .

وله حيل لطيفة ومكائد غامضة . وقيل : إنه كان مخدوماً من الجن[1] .

وقال الموفق عبد اللطيف : كان الناصر لدين الله قد ملأ القلوب هيبة وخيفة ، فكان يرهبه أهل الهند ومصر ، كما يرهبه أهل بغداد . فأحيا بهيبته الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ، ثم ماتت بموته .

وقال ابن النجار : دانت السلاطين للناصر . . . وفتح البلاد العديدة ، وملك من الممالك ما لم يملكه أحد ممن تقدمه من الخلفاء والملوك ، وخطب له ببلاد الأندلس وبلاد الصين. وأضاف: وكان أشدَّ بني العباس، تتصدع لهيبته الجبال، وكان حسن الخُلُقِ ، لطيف الخَلْقِ ، كامل الظرف ، فصيح اللسان ، بليغ البيان ، له التوقيعات المسدّدة ، والكلمات المؤيدة ، وكانت أيامه غُرَّةً في وجه الدهر ، وردةً في تاج الفخر[2] .

ومما قاله ابن واصل : . . . وكان يفهل أفعالاً متضادة ، وكان يتشيَّع ويميل إلى مذهب الإمامية بخلاف آبائه ، حتى أن ابن الجوزي سُئل بحضرته : من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ؟

فقال : أفضلهم بعده ، مَنْ كانت ابنته تحته ، ولم يقدر أن يصرح بتفضيل أبي بكر .

وقال ابن المظفر سبط ابن الجوزي وغيره : قلَّ بصرُ الناصر في آخر عمره ، وقيل : ذهب كله ، ولم يشعر بذلك أحد من الرعية ، حتى الوزير وأهل الدار ، وكان له جارية قد علمها الخط بنفسه ، فكانت تكتب مثل خطه ، فتكتب على التواقيع[3] .

---

(١) المرجع السابق ٥١٤ .
(٢) المرجع السابق ٥١٦ .
(٣) المرجع السابق ٥١٧ .

وقال شمس الدين الجزري : وكان الناصر لا يشرب إلاّ الماء المغلي المرقد ، ومع ذلك مات منه يومَ الأحد سَلْخَ رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمئة للهجرة ٦٢٢ هـ .

أهم أحداث عصره . .

ـ في سنة ثمانين وخمسمئة جعل الخليفةُ الناصر لدين الله مشهدَ موسى الكاظم آمناً لمن لاذ به ، فالتجأ إليه خلق ، وحصل بذلك مفاسد .

ـ وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة كانت الفتوحات الكثيرة ، فأخذ السلطان صلاح الدين كثيراً من البلاد الشامية التي كانت بيد الفرنج ، وأعظم ذلك بيت المقدس ، وكان بقاؤه في يد الفرنج إحدى وتسعين سنة . وأزال ما أحدثته الفرنج من الآثار ، وهدم ما أحدثوه من الكنائس ، وبنى موضع كنيسة منها مدرسة للشافعية ، ولم يهدم كنيسة القيامة اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] .

ومن الغريب أن ابن برجان ذكر في تفسير سورة ﴿ألم غلبت الروم﴾ أن بيت المقدس يبقى في يد الروم إلى سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة ، ثم يغلبون ، ويفتح ويصير دار إسلام إلى آخر الأبد ، أخذاً من حساب الآلهة ، فكان كذلك . علماً أن ابن برجان مات سنة ست وثلاثين وخمسمئة كما قال أبو شامة[2] .

ـ وفي سنة تسع وثمانين وخمسمئة مات السلطان صلاح الدين ، فوصل إلى بغداد الرسول وفي صحبته لأْمَةُ الحرب التي لصلاح الدين ، وفرسُه ، ودينارٌ واحد ، وستةٌ وثلاثون درهماً ، ولم يخلف من المال سواها . واستقرت مصر لابنه

---

(١) ورد اسم الكنيسة القمامه بالميم وليس بالياء انظر تاريخ الخلفاء ٥١٩ .
(٢) المرجع السابق ٥١٩ .

عماد الدين عثمان الملك العزيز ، ودمشق لابنه الملك الأفضل نور الدين علي ، وحلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي .

ـ وفي سنة تسعين وخمسمئة مات السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان بن طغرلبك بن محمد بن ملك شاه ، وهو آخر ملوك السلجوقية . قال الذهبي : وكان عددهم نيفاً وعشرين ملكاً ؛ أولهم طغرلبك الذي أعاد القائم إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ إثر فتنة البساسيري ، ومدة دولتهم مئة وستون سنة .

ـ وفي سنة خمس وتسعين وخمسمئة مات الملك العزيز بن صلاح الدين بمصر ، وأقيم ابنه المنصور بدله ، فوثب الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وتملكها ، ثم أقام بها ابنه الملك الكامل[١] .

ـ وفي سنة ستمئة هجم الفرنج إلى النيل من رشيد ، ودخلوا بلد فُوَّةَ فنهبوها واستباحوها ورجعوا . وفي السنة التالية إحدى وستمئة تغلبت الفرنج على القسطنطينية وأخرجوا الروم منها ، وكانت بأيدي الروم من قبل الإسلام ، وظلت بيد الفرنج إلى سنة ستين وستمئة ، فاستطلقها منهم الروم[٢] .

ـ وفي سنة ست وستمئة كان ابتداء أمر التتار .

ـ وفي سنة خمس عشرة وستمئة أخذت الفرنج من دمياط برج السلسلة . وفي السنة التالية استولوا على دمياط بعد حروب ومحاصرات ، وضعف الملك الكامل عن مقاومتهم وفي سنة ثمان عشرة وستمئة استردت دمياط من الفرنج .

ـ وفي سنة إحدى وعشرين وستمئة بنيت دار الحديث الكاملية بالقاهرة بين القصرين ، وجَعل شيخَها أبا الخطاب بن دِحْيَةَ .

---

(١) المرجع السابق ٥٢٠ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٢١ .

وكانت الكعبة المشرفة تكسى الديباج الأبيض من أيام المأمون إلى الآن ، فكساها الناصر ديباجاً أخضر ، ثم كساها ديباجاً أسود ، فاستمر إلى الآن .

ولم نعثر للناصر لدين الله أحمد بن المستضيء على شعرٍ فيما بين أيدينا حتى الآن .

الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر
٥٧١ - ٦٢٣ هـ/١١٧٤ - ١٢٢٦ م

الظاهر بأمر الله ، أبو نصر ، محمد بن الناصر لدين الله . ولد سنة إحدى وسبعين وخمسمئة للهجرة ٥٧١ هـ . وبايع له أبوه بولاية العهد ، واستُخلف عند موت والده وهو ابن اثنتين وخمسين سنة ، وذلك يوم الأحد سَلْخَ رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمئة ٦٢٢ هـ .

وقيل له : ألا تتفسح ؟

قال : لقد يبس الزرع .

فقيل : يبارك الله في عمرك !

قال : من فتح دكاناً بعد العصر أيش يكسب ؟ (١)

ثم أحسن إلى الرعية ، وأبطل المكوس ، وأزال المظالم ، وفرق الأموال ، هذا ما ذكره أبو شامة .

وقال ابن الأثير في الكامل : لمّا ولي الظاهر بأمر الله الخلافة ، أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سُنّة العمرين . . فإنه أعاد من الأموال المغصوبة ،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٢٤ .

والأملاك المأخوذة في أيام أبيه وقبلها شيئاً كثيراً .

وذكر عن عدله الشيء الكثير ، فأخرج أهلَ الحبوس ، ورد الخراجَ الى أهله ، وأرسل الى القاضي عشرة آلاف دينار ليوفيها عمّن أعسر ، وفرَّق ليلة عيد النحر على العلماء والصلحاء مئة ألف دينار . وقيل له : هذا الذي تخرجه من الأموال ، لا تسمح نفسٌ ببعضه !

فقال : أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتركوني أفعل الخير ، فكم بقيت أعيش.وبالفعل لم تدُمْ خلافتُه بقية العام ، فقد توفي في الثالث عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمئة للهجرة ٦٢٣ هـ ، فكانت خلافته تسعة أشهر وأياماً . (١)
ولم يؤثر عن الظاهر بأمر الله أنه قال شعراً ، ولم يروه أيضاً .

---

(١) المرجع السابق ٥٢٥ .

المستنصر بالله منصور بن الظاهر
٥٨٨ - ٦٤٠ هـ/١١٩٠ - ١٢٤٢ م

المستنصر بالله ، أبو جعفر ، منصور بن الظاهر بأمر الله . ولد في صفر سنة ثمان وثمانين وخمسمئة للهجرة ٥٨٨ هـ . وأمه جارية تركية . (١)

وقال ابن النجار : وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمئة للهجرة ٦٢٣ هـ ، فنشر العدل في الرعايا ، وبذل الإنصاف في القضايا ، وقرَّب أهل العلم والدين ، وبنى المساجد والرُّبُطَ والمدارس والمارستانات ، وأقام منار الدين ، وقمع المتمردَةَ ، ونشر السنن ، وكف الفتن ، وحمل الناس على أقوم سنَنَ ، وقام بأمر الجهاد أحسن قيام ، وجمع الجيوش لنصرة الإسلام ، وحفظ الثغور ، وافتتح الحصون . (٢)

وقال الموفق عبداللطيف : وكان جده الناصر يقربه ويسميه القاضي ، لِهُدَاهُ وعقلِهِ وإنكاره ما يجد من المنكر .

وقال الحافظ زكي الدين عبدالعظيم المنذري : كان المستنصر راغباً في فعل

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٢٦ .
(٢) المرجع السابق .

الخير ، مجتهداً في تكثير البر ، وله في ذلك آثار جميلة ، وأنشأ المدرسة المستنصرية ، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم . ولم يؤثر عنه أنّه قال شعراً .

وقال ابن واصل : وقصدت التتار البلد ، فلقيهم عسكره ، فهزموا التتارَ هزيمة عظيمة ، وكان له أخ يقال له الخفاجي ، فيه شهامة زائدة ، وكان يقول : لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون ، وآخذ البلاد من أيدي التتار ، وأستأصلهم . فلما مات المستنصر لم يرَ الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجي خوفاً منه ، وأقاما ابنه المستعصم بالله أبا أحمد للينه وضعف رأيه ، ليكون لهم الأمر ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا من هلاك المسلمين في مدته ، وتغلُّبِ التتار .[1]

وفي سنة أربعين وستمئة للهجرة ٦٤٠ هـ توفي المستنصر بالله يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، ورثاه الشعراء .

أهم أحداث عصره . .

- في سنة ثمان وعشرين وستمئة أمر الملك الأشرف صاحب دمشق ببناء دار الحديث الأشرفية ، وفرغت في سنة ثلاثين وستمئة .

- وفي سنة اثنتين وثلاثين وستمئة أمر المستنصر بضرب الدراهم الفضية ليتعامل بها الناس بدلاً عن قراضة الذهب .

- وفي سنة خمس وثلاثين وستمئة مات السلطانان الأخوان : السلطان الأشرف صاب دمشق ، والكامل صاحب مصر بعده بشهرين ، وتسلطن بمصر ولدُ الكامل قلامة ولقب العادل ، ثم خُلِعَ ، وتملك أخوه الصالح أيوب نجم الدين .

وفي سنة سبع وثلاثين وستمئة قدم رسول الأمين الذي تملك اليمن نور

(١) المرجع السابق ٥٢٧ .

الدين بن علي بن رسول التركماني ، إلى الخليفة ، يطلب تقليد السلطنة باليمن بعد موت الملك المسعود بن الملك الكامل . وبقي الملك في بيته إلى سنة خمس وستين وثمنمئة ٨٦٥ هـ .

ـ وفي سنة تسع وثلاثين وستمئة بنى الصالح صاحب مصر المدرسة التي بين القصرين والقلعة التي بالروضة .

المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر
٦٠٩ ـ ٦٥٦ هـ/١٢١١ ـ ١٢٥٨ م

المستعصم بالله ، أبو أحمد ، عبدالله بن المستنصر بالله ، آخر خلفاء بني العباس في العراق .

ولد سنة تسع وستمئة ، وأمة أم ولد اسمها هاجر ، وبويع له بالخلافة عند موت أبيه ، في جمادى الآخرة سنة أربعين وستمئة ٦٤٠ هـ .[1]

وكان عالماً بالحديث ، وأجاز له على يد ابن النجار والمؤيد الطوسي وأبو روح الهروي وجماعة . وروى عنه بالإجازة جماعة : منهم النجم البادرائي ، والشرف الدمياطي .

وكان كريماً ، حليماً ، سليم الباطن ، حسن الديانة . وقال الشيخ قطب الدين : كان متديناً متمسكاً بالسنّة كأبيه وجده ، ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة . . وركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العَلْقَمِيِّ الرافضي ، فأهلك الحرث والنسل ، ولعب بالخليفة كيف أراد ، وباطن التتار ، وناصحهم وأطمعهم في المجيء إلى العراق ، وأخذ بغداد ، وقطع الدولة العباسية ، ليقيم

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٣٠ .

خليفة من آل علي . وصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة ، ويطالع بأخبار الخليفة التتار ، إلى أن حصل ما حصل . (١)

ولما دخلت سنة ست وخمسين وستمئة ٦٥٦ هـ وصل التتار إلى بغداد ، وهم مئتا ألف ، وَيقْدُمُهُمْ هولاكو ، فخرج إليهم عسكر الخليفة ، فهزم العسكر ، ودخلوا بغداد يوم عاشوراء ، فأشار الوزير المتآمر على المستعصم بمصانعتهم ، وقال : أخرج أنا إليهم في تقرير الصلح .

فخرج وتوثق بنفسه منهم، وعاد إلى الخليفة وأقنعه برغبتهم في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ، ويبقيك في منصب الخلافة ، وبذلك حقن لدماء المسلمين ، والرأيُ أن تخرج إليه .

فخرج المستعصم بالله إليه في جمع من الأعيان ، فأنزل في خيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد ، فضربت أعناقهم ، وصار كذلك : تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم ، حتى قتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب الكبار .

ثم مُدَّ الجسرُ ، وبُذِلَ السيفُ في بغداد ، واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً ، وبلغ القتلى أكثر من ألف ألف نسمة ، ولم يسلم إلاّ من اختفى في بئر أو قناة ، وقتل الخليفة رفساً . (٢)

قال الذهبي : وما أظنه دفن ـ أي الخليفة المستعصم ـ وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأسر بعضهم ، وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها . ولم يتم للوزير الخائن ما أراد ، وذاق من التتار الذلَّ والهوان ، ولم تطل أيامه بعد ذلك .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٣١ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٣٧ ـ ٥٣٨ .

أهم أحداث عصره ، وما تلاها :

ـ في سنة سبع وأربعين وستمئة أخذت الفرنج دمياط ، والسلطان الملك الصالح مريض ، فمات ليلة النصف من شعبان من تلك السنة ، فأخفت جاريته أم خليل المسماة «شجرة الدر» موته ، وأرسلت الى ولده توران شاه ، الملك المعظم ، فحضر . ثم لم يلبث أن قتل في المحرَّم سنة ثمان وأربعين وستمئة ، حيث وَثَبَ عليه غلمان أبيه فقتلوه . وأمَّروا عليهم جارية أبيه «شجرة الدر» وحلف لها الأتراك ولنائبها عزالدين أيبك التركماني . فشرعت شجرة الدر في الخِلع للأمراء .[1]

ـ وفي سنة ثمان وأربعين وستمئة استُردت دمياط من الفرنج . واستقل عز الدين بالسلطنة في ربيع الآخر ، ولقب «الملك المعز» ثم تنصل منها ، وحلف العسكر للملك الأشرف بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الكامل ، وله ثمانُ سنين ، وبقي عزالدين أتابكةً ، وخطب لهما ، وضربت السكةُ باسمهما .

ـ وفي سنة خمس وخمسين وستمئة مات المعز أيبك سلطان مصر ، قتلته زوجته شجرة الدر ، وسلطنوا بعده ولده الملك المنصور على هذا . والتتار جائلون في البلاد ، وشرهم متزايد ، ونارهم تستعر .

والخليفة والناس في غفلة عمّا يراد بهم . والوزير العلقميُّ حريص على إزالة الدولة العباسية ، ونقلها إلى العلوية ، والرسل في السرّ بينه وبين التتار ، والمستعصم تائه في لذاته ، لا يطلّع على الأمور .

ثم إن الوزير كاتب التتار ، وأطمعهم في البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وطلب أن يكون نائبهم ، فوعدوه بذلك ، وتأهبوا لقصد بغداد .[2]

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٣١ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٣٣ .

وتفجع الشعراء من الداهية الدهياء ، فقال أحدهم :

يَا عُصْبَةَ الإِسْلَامِ نُوحي وَانْدُبي   حُـزْناً عَـلَى مَا تَمَّ لَلْمُسْتَعْصِمِ
دَسْتُ الوَزَارَةِ كَانَ قَبْـلَ زَمَانِـهِ   لِابْنِ الفُرَاتِ ، فَصَارَ لِابْنِ العَلْقَمِ

ولتقي الدين بن أبي اليسر قصيدة مشهورة في بغداد ، مطلعها :

لِسَائل الدَّمْعِ عن بَغداد أَخْبَار   فَمَا وقوفك والأحبابُ قَدْ سَاروا ؟
يَا زَائرينَ إلى الزَّوْرَاءِ لَا تَفِدُوا   فَمَا بِذَاكَ الحِمَى وَالـدَّارِ دَيَّارُ [1]

ـ ثم دخلت سنة سبع وخمسين والدنيا بلا خليفة ، وفيها نزل التتار على آمد . وكان صاحب مصر المنصور علي بن المعز صبياً ، وأتابكة الأمير سيف الدين قطز المعزي مملوك أبيه . وقدم الصاحب كمال الدين بن العديم اليهم رسولاً يطلب النجدة على التتار . فجمع قطز الأمراء والأعيان ، وأقروا النفير العام . وقبض قطز زمام الأمور بعد أن قبض على ابن أستاذه المنصور ، وتسلطن قطز ولقب «بالملك المظفر» .

ـ ثم دخلت سنة ثمان خمسين وستمئة ، والوقت أيضاً بلا خليفة ، وفيها قطع التتار الفرات ووصلوا الى حلب وبذلوا السيف فيها ، ثم وصلوا الى دمشق واستباحوها .

وخرج المصريون في شعبان متوجهين إلى الشام لقتال التتار . فأقبل الملك المظفر قطز بالجيوش ، وشاليشه ركن الدين بيبرس البندقداري ، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت ، ووقع المَصَافُّ ، وذلك يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان ، فَهَزَمَ التتارَ شرَّ هزيمة . وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار . وطمع الناس فيهم يتخلفونهم وينهبونهم .

---

(١) المرجع السابق ٥٣٨ .

وجاء كتاب المظفر إلى دمشق بالنصر ، فطار الناس فرحاً ، ثم دخل المظفر الى دمشق مؤيّداً منصوراً ، وأحبه الخلق غاية المحبة ، وساق بيبرس وراء التتار إلى بلاد حلب ، وطردهم عن البلاد ، ووعده السلطان بحلب ، ثم رجع عن ذلك ، فتأثر بيبرس من ذلك ، وكان ذلك مبدأ الوَحْشَةَ .

فرجع المظفر إلى مصر ، وقد علم بتغيير بيبرس عليه ، وقد أضمر له الشر ، وأسرَّ ذلك الى بعض خواصه ، فاطلع على ذلك بيبرس .

فساروا الى مصر وكل منهما محترس من صاحبه. فاتفق بيبرس وجماعة من الأمراء على قتل المظفر ، فقتلوه في الطريق ، في الثالث عشر من شهر ذي القعدة ، وتسلطن بيبرس ولقب بالملك القاهر ، ودخل مصر ، وأزال عن أهلها ما كان المظفر قد أحدثه من المظالم . وأشير عليه بتغيير اللقب لشؤمه ، فغيره وتلقب بالملك الظاهر .[1]

ـ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمئة والوقت أيضاً بلا خليفة إلى رجب ، فأقيمت بمصر الخلافة ، وبويع المستنصر بالله ، أحمد ، أبو القاسم ، بن الظاهر بأمر الله .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٤٠ ـ ٥٤١ .

محتوى الجزء الثالث

فهرس أعلام الرجال والنساء

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس أعلام القبائل والشعوب
والفرق والممالك

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأماكن والمدن

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الآيات القرآنية الكريمة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس المواقع والمعارك والغزوات والثورات

فهرس الحكم والأمثال والأقوال المأثورة

فهرس الأشعار والأراجيز

قافية الهمزة

قافية الألف

قافية الباء

قافية التاء

قافية الثاء

قافية الجيم

قافية الحاء

قافية الدال

قافية الذال

قافية الراء

قافية الزاي

قافية السين

قافية الشين

قافية الصاد

قافية الضاد

قافية الطاء

قافية العين

قافية الغين

قافية الفاء

قافية القاف

قافية الكاف

قافية اللام

قافية الميم

قافية النون

قافية الهاء

قافية الواو

قافية الياء

